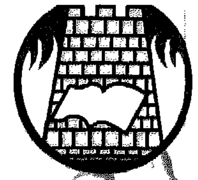




مركز الدراسات والوثائق

جزيرة هرمز

سلطنة هرمز العربية

سيطرة سلطنة هرمز العربية على الخليج العربي

المجلد الأول

الخليج العربي الخاضع لسلطنة هرمز
وسطه الطبيعي، تجارته العالمية، علاقاته الخارجية
القوى الخارجية والداخلية الفاعلة فيه

تأليف

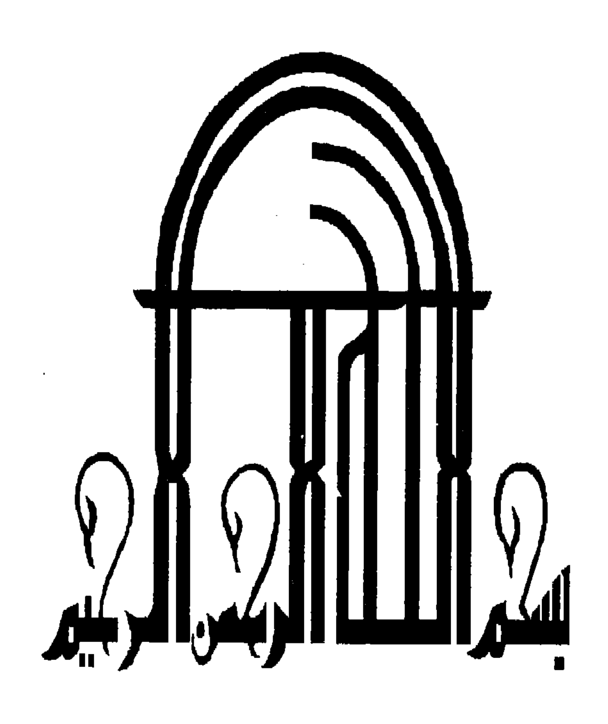
الأستاذ إبراهيم خوري و الدكتور أحمد جلال التدمري

سلسلة كتاب الأبحاث
(١٠)

اهداءات ٢٠٠٢
حكومة رأس الخيمة الديوان الاميرى
الامارات العربية






بسم الله الرحمن الرحيم



سلطنة هرمز العربية

سيطرة سلطنة هرمز العربية على الخليج العربي

المجلد الأول

الخليج العربي الخاضع لسلطنة هرمز
وسطه الطبيعي، تجارته العالمية، علاقاته الخارجية
القوى الخارجية والداخلية الفاعلة فيه

تأليف

أ. إبراهيم خوري   د. أحمد جلال التدمري

رأس الخيمة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م



حقوق الطبع محفوظة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى وزارة الإعلام والثقافة

١٢/١/٤٤٦٠/١ بتاريخ٢٩/٥/٢٠٠٠

ت د م
٩٥٣,٠٧٦

سلطنة هرمز العربية

سيطرة سلطنة هرمز العربية على الخليج العربي

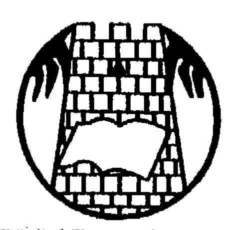
المجلد الثاني

تأليف : أ. إبراهيم خوري و د. أحمد جلال التدمري

إصدار مركز الدراسات والوثائق

رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

مقاس : ١٧ x ٢٤ ص : ٢٩٩



مركز الدراسات والوثائق

ص.ب: ١٥٥٩ - رأس الخيمة - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : ٢٣٣١١١١ - ٧ - ٠٠٩٧١ - فاكس : ٢٣٣١٠٠٠ - ٧ - ٠٠٩٧١

DOCUMENTARIES & STUDIES CENTRE

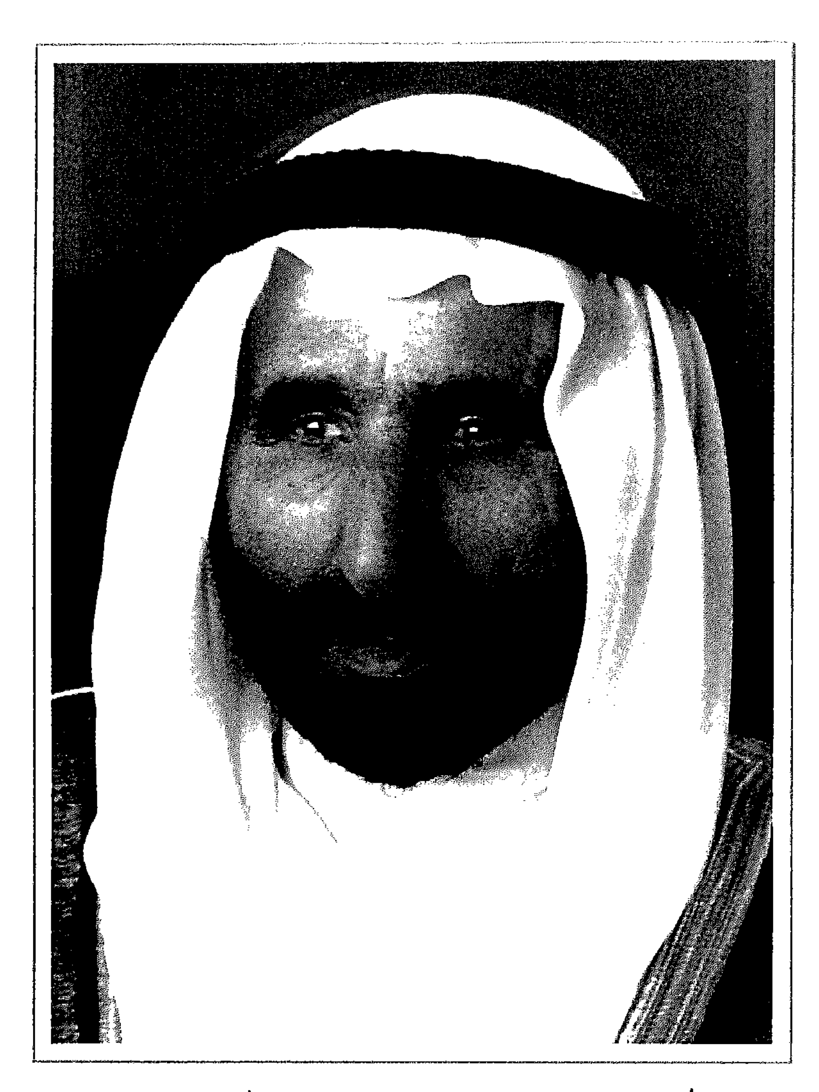
Tel.: 00971 - 7 2331111 - Fax : 00971 - 7 - 2331000

P.O.Box : 1559, Ras Al Khaimah, U.A.E.

E-mail: dscgrak@emirates.net.ae

www.dsc_amiricourt.com





صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد
حاكم إمارة رأس الخيمة وتوابعها





صاحب السمو الشيخ خالد بن صقر القاسمي
ولي العهد ونائب الحاكم

تصديـــــــر

تــاريخ الأمـــم والشعوب ، وسيرة حضاراتها ، يجب ألا تدون إلا بأقلام أبنائها ، حرصاً علـــى أمانـــة المضمون ، ونقاء الجوهر ، لأن الأقلام الغربية غالباً ما تعبث بالأمانة ، وتعكر لقاءها ، بحسن نية أو بسوءِ نية مع سبق الإصرار والترصد ، ولأن الهدف الرئيسي الذي من أجلـــه أنشـــئ مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري برأس الخيمة يتمثل في عملية إعادة كـــتابة تـــاريخ مـــنطقة الخلـــيج العربي والتاريخ العربي والإسلامي ، فإننا نعمل بروح فريق العمل.

وبدعـــم كريم من صاحب السمو الحاكم الشيخ / صقر بن محمد القاسمي ، وسمو الشيخ/ ســـعود بـــن صقر القاسمي رئيس المركز ، أنجز مركزنا حتى الآن عدداً جيداً من الدراسات التاريخـــية القـــيمة ، أصدرنا بعضها ، ونعمل على إصدار المتبقي منها تباعاً ، ضمن سلسلة كـــتاب الأبحاث وسلسلة الندوات التاريخية التي نظمها مركزنا بالتعاون مع مؤسسات وفعاليات تاريخية وعلمية وثقافية مرموقة .

إن مجلـــدات سلطنة هرمز العربية للمؤرخين السيدين الأستاذ إبراهيم خوري ، والدكتور أحمـــد جـــلال الـــتدمري تترجم هذا التوجه على أرض الواقع ، وتجسد الأمانة التاريخية في التوثـــيق التاريخـــي المحـــايد الهادف إلى بلورة الحقائق ، وخدمة الأمة ، ولذلك تبنى مركزنا بتوجـــيه كريم من سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي رئيس المركز ، رئيس الديوان الأميري برأس الخيمة طباعة هذه المجلدات الثلاث ، وإصدارها ضمن إصدارات مركزنا .

نحـــن في مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري براس الخيمة ، عاهدنا الله سبحانه وتعـــالى ، وقيادتـــنا الحكـــيمة أن نبذل قصارى جهدنا للوفاء بالأمانة المقدسة الموكولة إلينا ، والتـــي نعتـــبرها شـــرفاً قـــبل أن تكون مسؤولية بالغة الأهمية ، ومن هذا المنطلق عملنا في الماضـــي ، واســـتناداً علـــيه سنعمل في المستقبل ، وليكن الله العلي القدير في عوننا ، لنقدم لمكتبتـــنا العربـــية رافداً علمياً جديداً يثريها ، ولكل الباحثين والدارسين منهلاً عذباً نقياً يروي عطشهم الدائم للحقيقة التاريخية الصادقة النقية الأمينة بإذن الله تعالى .

والله ولي التوفيق ،

مدير المركز

د . علي عبد الله فارس



مقدمة:

مملكة هرمز العربية والتي عرفت في مرحلةٍ من تاريخنا ببلاد السواحل والجزائر تعتـبر في كثير من كتابات المؤرخين لغزاً تاريخياً وأسطورة من أساطير الروايات المليئـة بـالأحداث والمغامرات في كنف نهضة حضارية بحرية وبرية شهدت ازدهاراً اقتصادياً وتجارياً واسعاً ممـا لفت الأنظار إليها وشجع القوى الخارجية الطامعة بالثروات والسيطرة على الخليج العـربي وعلى بلاد العرب.

لقد كان إصدار دراسات عن تلك المملكة العربية حلماً يراودني منذ سنوات طويلـة أخذت خلالها بجمع المصادر و لمّ الإشارات والبحث عن الوثائق والكتابات ذات الصلـة القريبة منها والبعيدة، ومن تلك المصادر ما هو برتغالي وفارسي وبريطـاني، إضافـةً إلى تقارير وكتابات أخرى كتبها الرحالة والسفراء والتجار الأوروبيون والهنـود والصينيـون والروس. حيث كان اهتمام العلماء الأجانب يفوق بكثير اهتمامـات العلمـاء العـرب بتفاصيل التاريخ العربي.

وكان لي في الأخ الباحث والمحقق المترجم إبراهيم خوري خير معين في تحقيق ذلـك الحلم، حيث انكب معي طوال سنوات أربع على جمع وترجمة المادة المتعلقة بتلك المملكـة العربية المنسية وصياغتها لتكون في عدة مجلدات تم إنجاز مجلدين منها:

الأول: الخليج العربي الخاضع لسلطنة هرمز، وسطه الطبيعي، تجارته العالمية، علاقاته الخارجية، القوى الخارجية والداخلية الفاعلية فيه.

الثاني: سلطنة هرمز العربية المستقلة من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي إلى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

وقد حالت وفاة المرحوم إبراهيم خوري دون مواصلته المسيرة معي لاستكمال تلـك الدراسة، فكان علي وحدي مواصلة ذلك الإنجاز في إصدار المجلد الثالث والـذي يـتركز حول النسيطرة البرتغالية ونهاية عهد تلك المملكة العربية الزاهرة التي كان لهـا شـأنها في المسيرة الاقتصادية والحضارية في الخليج العربي، فكان أن تشتت ربوعها إلى أقاليم وإمارات وجزر تقاذفتها المطامع السياسية والصراعات الداخلية والغزوات الخارجية.

هرمز سلطنة[1] الخليجين: الخليج العربي، أصلاً، وخليج عمان، توسّعا، ودولة الساحلين: الساحل العربي في جزيرة العرب الشرقية الجنوبية والشرقية، وساحل كرمان وامتداده شرقاً وغرباً، وما بينهما من جزر كبيرة وصغيرة مأهولة أو خالية من السكان، ومملكة[2] عربية، أعمر أرضَها وتَوَطَّنَها عربٌ أقحاحٌ في بريها الشرقي والغربي وفي جميع جزرها، قبل الفتح الإسلامي وفي أثناءه وبعده.

وهي قبل توسعّها جزء من منخفض أرضي كبير، يبدأ من حدود العراق الجنوبية، وينتهي قرب رأس مسندم عند مشارف خليج عمان، مقابل إقليم كرمان. وقد بقي هذا المنخفض ـ وهو الخليج العربي الحالي ـ جافاً وخالياً من الماء حتى الطور المطير الأخير، الذي يعاصر طور ورمس الجليدي الأوربي. وتدل جميع القرائن العلمية على أن السافانا ظلّت تنمو فيه طيلة فترة ما قبل غَمْرِهِ. ولما طغا عليه البحر منذ ٢٠٠٠٠ وإلى ١٠٠٠٠ سنة، مَلأَهُ بالمياه المالحةِ، التي يُرَجَّحُ أن مستواها لم يتبّدل إلا تبدّلاً ضئيلاً على مدى الدهر. لكن مع مرور الزمن، تبيّن ميلُ خط الشاطىء إلى تراجع يُظَنُّ ان سببه خسوف القعر البطيء، كما لوحظ حدوث الترسيب على السواحل وتكوين السباخ. ولم يطرأ أيُّ تغيير هام على مناخه منذ ١٠٠٠٠ سنة، رغم حصول تباينات طفيفة في درجات حرارته. وأثبتت أحدث الدراسات الأثرية والتاريخية، المنشورة حتى الآن، أن سواحل المنخفض المغمور، كانت مأهولة منذ الألف السادس ق.م. وأكّدت النصوص السومرية ومعطيات المواقع الأثرية العائدة إلى الألف الثالث ق.م، في بلاد دلمون (البحرين) واستثمار النحاس في مكّان (عمان)، وجود تبادل تجاري قديم بين سواحل الخليج العربي وبين بلادي ما بين النهرين ووادي نهر الهندوس، ثم الهند في وقت لاحق[3].

وبذا يتضح بجلاء أن سلطنة أو مملكة هرمز اقتُطِعَتْ من المنخفض الأرضي القديم، المسمى حالياً الخليج العربي، وشملت قسماً من أراضيه التي تحوّلت إلى سواحل بعد غمره، وضمَّت أيضاً أراضي أخرى من ساحل خليج عمان، فهي إذن

---

(١) ابن بطوطه: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم، بيروت، ص ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢ (ذكر سلطان هرمز).

(٢) شبانكاري، محمد بن علي بن الشيخ محمد بن الحسن أبي بكر، يسمي سلاطين هرمز ملوكاً في «مجمع الأنساب». كذلك يفعل ماهوان في الكامل في وصف سواحل المحيط، وبعده دوارته بربوسه في المجلد الأول من كتابه، ص ٦٨، ٧٤، ٧٩.

(٣) جان ـ فرانسوا سال: الخليج العربي في العصور القديمة، لمحة تاريخية وأثرية، ص ٣ ـ ٤.

سلطنة برية بحرية وهذا يعني أن تطوّر أوضاعها ارتبط بتطور أوضاع الخليج عامة من جميع النواحي الطبيعية والبشرية والاقتصادية والسياسية وسواها. بل أن تاريخها أصبح تاريخه، بخاصة من مطلع القرن الرابع عشر إلى الربع الأول من القرن السابع عشر، طيلة ثلاثة قرون وربع القرن في الحد الأدنى، أي حتى تهافت الاستعمار الغربي على المحيط الهندي ومنه على الخليج العربي.

ويقتضي هذا الارتباط الوثيق بين سلطنة هرمز العربية وبين الخليج العربي التمهيد لدراستها بالتعريف به وبعلاقاته الخارجية، وبدوره الفريد في التجارة العالمية، لأنها أصبحت «وريثته الشرعية الوحيدة» في شؤونه الداخلية والخارجية، وحلت عملياً محلّه في جميع أنشطته المحلية والإقليمية والدولية.

وهكذا فإنه يمكن اعتبار الكتابة عن مملكة هرمز تأريخاً لمنطقة الخليج العربي شواطئه وجزره، حضارته واقتصادياته، سكانه ومجتمعاته، بما لها من صلات بالحضارات المتزامنة مع نشوء المملكة وحتى فترة انهيارها.

وما كان لهذا العمل أن يصدر لولا رعاية صاحب السمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي وسمو ولي عهده الأمين الشيخ خالد بن صقر القاسمي والدعم والمساندة من سمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي رئيس الديوان الأميري رئيس مركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة.

وفق الله الجميع، ووفقنا لإتمام المزيد من الدراسات التي تخدم تاريخ أمتنا العربية وتحيي أمجادها وتعيد إلى الأجيال المعرفة بماضي الأجداد وتراثهم.

د. أحمد جلال التدمري

رأس الخيمة ١٩٩٩



القسم الأول

الخليج العربي الخاضع لسلطنة هرمز
وسطه الطبيعي، تجارته العالمية، علاقاته الخارجية، القوى الخارجية والداخلية الفاعلة فيه



تمهيد

أُهملَ الخليجُ العربي مدة طويلة. وحصل تقصير صارخ بدراسته من النواحي الجغرافية والتاريخية، وخاصة الأثرية، ربما لأنه لم يدر بخلد أحد أن باطن أرضه يزخر بكنوز ثمينة، تفوق قيمتها قيمة النفط الذي يتهافت عليه العالم أجمع في أيامنا.

وفجأة بدأت الأبحاث العلمية تُكتَبُ عنه، والمواقع الأثرية تُنقَّبُ فيه، لكن منذ فترة قصيرة جداً تكاد لا ترجع إلى ما قبل خمسينات القرن العشرين إلا نادراً، فصار بالإمكان إعطاء صورة واضحة تقريباً ولو جزئية، عن أوضاع الخليج منذ نشوئه، ولا سيما في أرجائه العربية الراهنة.

مع ذلك لم يُستكمل سدُّ جميع الثغرات في جغرافيته التاريخية. وظلّت فترة زمنية تامة من تاريخه، هامة إلى أقصى حد، بلا دراسة جدّية شاملة، نعني بها حقبة سيطرة هرمز العربية عليه بأجمعه، عدة قرون، وتولّيها علاقاته الخارجية وحفزها أنشطته أكثر مما كانت عليه قبل استلامها زمام أموره، وإبقائها إياه مستودع التجارة الدولية ومُوزِّع أصنافها محلياً وإقليمياً ودولياً.

إلا أن الخليج محدود الطول الذي قُدِرَ بألف كم، ويبعد طرفاه عن مستهلكي سلعه على سواحل حوضة البحر المتوسط الشرقية وأوربة، وعن مُورِّديها له من السند والهند والشرق الأقصى حتى الصين. فلا يمثّل إلا قطعة من طريق بحرّية - نهرّية - برّية طويلة، تتمّمها قطعتان أخريان في نهايتيها، هما قطعة الرافدين (دجلة والفرات)، من جهة رأس الخليج، ثم قطعة خليج عمان وبحرها من مضيق هرمز إلى الهند. وتنقل هذه الطريق بضائع كثيرة متنّوعة الأصناف ومتعددة المنشأ. فلا بد والحالة هذه من إيجاز بعض النواحي الأساسية عن الخليج، ليتضح استمرار نشاطه وازدهاره في عهد سلطنة هرمز. وسوف نبدأ بالتعريف بأسماء الخليج عبر العصور، لاحتوائه على معظم أراضي هذه السلطنة. ثم نتناوله طبيعياً ونؤكد على قيامه بدور ممر مائي إقليمي وعالمي حتى أصبح محور التجارة الدولية، ونستعرض أصناف التجارة التي يتعاطى بها. ونختم بحثه بإبراز القوى الخارجية والداخلية الفاعلة فيه وفي سلطنة هرمز.



الفصل الأول

أسماء الخليج عبر العصور

تتفرّع عن بحر عمان: ذراعٌ مائية شمالية غربية، تخترق آسية الجنوبية الغربية على مسافة ألف كم تبدأ من خليج عُمان ومضيق هرمز، وتنتهي عند مصب شط العرب مؤلفة مجمعاً مائياً طويلاً وضيقاً يسمّى الآن الخليج العربي، لكن أطلقت عليه أسماء كثيرة على مر السنين إلى أن ثبت على التسمية الحديثة التي فرضتها القومية العربية وواقع الحال، وشرع المستشرقون والباحثون الأجانب يأخذون بها.

وتسترعي الانتباه بشأن تلك التسميات وثيقتان قيمتان، أحداهما فارسية والثانية بيزنطية، إضافة إلى مستندات أخرى، تعود إلى العصور القديمة أو القرون الوسطى وما بعدها، وتسلّط الأضواء على ما شاع من تسميات له حقيقية أو أسطورية من نسج الخيال في شتى العهود.

أولاً ـ الوثيقة الفارسية
مخطوطة حدود العالم المؤرخة في ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢م

في سنة ١٩٣٧، نقل المستشرق مينورسكي إلى الانكليزية مخطوطة «حدود العالم» الفارسية، المجهولة المؤلف، التي ثبت أنها حررّت حوالي سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢م[١]. وقد ورد فيها أن «البحر العظيم» يحدّ كرمان جنوباً[٢]. وجاء فيها أيضاً أن مدينة هرمز العتيقة تبعد نصف فرسخ عن «البحر الأعظم»[٣]. ووضع فيها كاتبها قاعدة تسمية اجزاء «البحر الأعظم» فقال حرفياً: «يطلق على كل جزء من البحر

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، راجعه ايغور بليايف، القسم الأول، ص ٢٢٣.

(٢) مينورسكي، حدود العالم، ص ١٢٣: فقرة ٢٨، س ١ ـ ٢.

(٣) المرجع ذاته، ص ١٢٤، فقرة ٢٨/ ٨، س ١.

الأعظم اسم المدينة أو البلاد المجاورة له، مثال ذلك بحر فارس، وبحر البصرة، وبحر عمـــان، وبحر الزنج ، وبحر الهند، وما إلى ذلك "[1]. وسمّى فيها خمسة خلجان من خلجان "البحـــر الأعظم "، وهي خليج بربرة، والخليج العربي أو خليج إيلة أو القلزم ، وخليـــج العـــراق، وخليج فارس ، وخليج الهند[2].

ثانيا – الوثيقة البيزنطية[3]

آ– الفقرة الأولى : تسمية اغثرخيدس المحيط الهندي ارثره ثالسه

عاش اغثرخيدس في أيام بطلميوس فيلوميتر (١٨١-١٤٦ ق . م) . وصنف مؤلفـــا عنوانه "ارثره ثالســـه " أي البحر الأحمر، بمعنى المحيط الهندي الحالي ، لكن مؤلفه فُقـــد . إلا أن فوتيوس بطريرك القسطنطينية البيزنطي حفظ مقـــاطع منـــه في مصنفـــه الكبـــير "ميروبيبليون "، وضمت مناقشة تسمية "ارثره ثالســـه" للمحيط الهندي، في كتابه الأول ، الفقرات ٢ – ٥ . قال فوتيوس ملخصا اغثرخيدس :

١ – الفقرة الثانية : تفسير ارثره ثالسه بهبوط أشعة الشمس

لم يُسَمَّ "ارثره ثالســـه " بهذا الاسم لأن أشعة الشمس النارية النافذة تسقط علـــى الجبال الغربية الواقعة على ساحل الخليج العربي (= البحر الأحمر الحالي)، فينشأ ما يشـــبه الفحم الملتهب ، في حين تقوم أكوام الرمال والأرض الحمراء المنتشرة على ساحله الشـــرقي بتلوين مياه البحر بالحمرة على مسافة عدة ستاديونات عن الشاطئ.

٢ – الفقرة الثالثة : تفسير تسمية ارثره ثالسه بأسطورة أشعة الشمس

إذن هذا هو التفسير الأول الذي شُرِحَت به تسمية ارثره ثالســـه، مـــع أنـــه غـــير صحيح، وهناك تفسير ثان خاطئ أيضا يقول: إن أشعة الشمس عندما تشـــرق في تلـــك الأرجاء، لا تهبط صافية علَى البحر، كما هي الحال عندنا، بل حمراء بلون الدم، فيتصـــور الناظر أن لون البحر أحمر، وبالتالي سُمِي البحر أرثره ثالســـه.

٣ – الفقرة الرابعة : تفسير تسمية أرثره ثالسه بأسطورة الملك أرثراس اليوناني

ويأتي التفسير الثالث من بند/ أرغولس في اليونان، على حد قول اغثرخيدس. وهـــو تعليل جريء جداً، لكنه لا يستند إلى أي أساس. فمدرسة Deinia دينيـــاس، تذرعـــت

---

(١) المرجع ذاته، ص٥٢، فقرة ٣/٣، س ٢٧-٣٠.

(٢) المرجع ذاته، ص٥٢، فقرة ٣/٣، س ١١-٢٦.

(٣) مقطع من كتاب ميروبيبليون لفوتيوس (حوالي ٨٢٥ د / ٨٩٥ م) نقلاً عن كتاب أغثرخيدس "أرثره ثالسه".

"بالجواز الشعري"، فزعمت أن برشاوش أبحر من أرغس إلى اثيوبية (التي كانت تسمى كيفينية آنذاك)، ليحرر كريمة قيفاوس، ثم عبر منها إلى فارس وأعطى الفرس اسم أحد أنجاله، ليعلم ابنه أرثراس بمجيئه. فسُمي البحر باسم ابنه ارثراس.

٤- الفقرة الخامسة : تفسير تسمية أرثره ثالسه بأسطورة الملك أرثراس الفارسي

التفسير، الأخير والصحيح ، سمعه اغثرخيدس من رجل فارسي يسمى بوكسوس غادر وطنه، واستقر في أثينة، وتعلم أن يفكر ويتحدث مثل أي مواطن يوناني. قال: اشتهر رجل بشجاعته وثرائه في قديم الزمان، وكان اسمه "أرثراس " ، واسم والده "موزيوس". وكان يسكن مترلا لا يبعد عن البحر، مقابل جزيرتين غامرتين، كانتا خاليتين من السكان في عهد امبراطورية ميدية عندما عرفهما "أرثراس " الذي اعتاد أن يقيم في العاصمة بازارغادي في الشتاء ، وأن يرجع إلى بيته في الربيع راضيا بهذا التنقل ليبتهج ويجني أرباحا وكان يملك رعيلا ليس صغيرا من الحجور، هاجمته الأسد في أحد الأيام، وقتلت بعضها. فارتعب ما تبقى منها من مشهد القتل ، وأزعجته النعرات، فاندفع نحو الشاطئ، الذي كانت تهب عليه ريح عاتية، آتية من البر، وألقى بنفسه في البحر في غمرة شروده ، وسبح بموازاة الساحل، لكن لم يخف رعبه، فجرفته قوة الأمواج ، ووصل بصعوبة إلى إحدى الجزيرتين بسلام. وعبر معه سائس مقدام متشبثا بكاهل هذه الحجر أو تلك. ثم فتش أرثراس عن حجوره المفقودة، وصنع طوفا، وكان أول من عمله في تلك النواحي . ودفعته الأمواج بسرعة، فعثر على حجوره وعلى سائسها . وأولع بالجزيرة فبنى فيها مرسى أمينا ونقل إليها من البر المعوزين، ثم وضع مستوطنين آخرين في باقي الجزيرة غير المعمور بالفقراء وشهرته هذه الأعمال إلى حد عظيم ، حتى إن هذا البحر المترامي الأطراف صار يعرف ببحر "أرثراس" حتى أيامنا الحاضرة. وتعليل هذه التسمية لغويا يقتضي إدراك الفرق الكبير بين "أرثرا ثالسه" أي بحر ارتراس بعد ترخيمه وبين "ثالسه ارثره " أي البحر الأحمر. فالاشتقاق من اللون مغلوط بينما الاشتقاق من اسم الرجل الذي حكم الجزيرة صحيح كما جاء في الأسطورة.

يبدو التباين واضحا بين مضمون الوثيقة الفارسية وبين مضمون الوثيقة البيزنطية اليونانية.

فالأولى تعتمد على الطوبغرافية الجغرافية، أي على واقع حسي ملموس يتلخص في معادلة بسيطة، يسمى بمقتضاها كل جزء من "البحر الأعظم" الملاصق لأحد البلدان أو لإحدى المدن باسم ذلك البلد أو تلك المدينة. وعليه ، يصبح موقع بحر العراق مقابل ساحل العراق ، وبحر عربستان (خوزستان) مقابل ساحل خوزستان ، وبحر فارس مقابل

ساحل فارس، وبحر كرمان مقابل ساحل كرمان، وبحر عُمان مقابل ساحل عمان، وهكذا دواليك. وبالتالي عندما يقال بحر فارس مثلا، يقصد حصرا الجزء من البحر الأعظم المقابل لساحل إقليم فارس دون سواه بلا زيادة ولا نقصان. فهو جزء من كل لا الكل البتة، أما الكل فعربي باستثناء القطعة الصغيرة الفارسية.

وأما الوثيقة الثانية، فترتكز على الأوهام والأساطير، مثل ربط تسمية بحر الهند بتلوين أشعة الشمس لماء البحر بالحمرة، أو نسبته إلى ملك يوناني خرافي يدعى أرتراس، أو إلى ثري كبير فارسي خرافي أيضا و"متأغرق "، اسمه أرتراس كالملك اليوناني. في هذه الحالة يعني بحر أرترا أو أرتراس المحيط الهندي بأجمعه من أقصاه إلى أقصاه. فهل كانت خرافة الرجل الغني الفارسي المتأغرق أصل توسيع مدلول "بحر فارس " خلافاً لمضمون التصانيف الفارسية؟

ثالثا – المستندات القديمة والحديثة

اليونانية والرومانية والفارسية والهولندية

تشير المستندات القديمة والحديثة إلى استمرار وجود تعدد الأسماء وإلى تأثير العوامل السياسية وغيرها في استعمال هذه التسمية أو تلك، ويؤكد تقرير دبلوماسي هولندي، يعود إلى منتصف القرن الثامن عشر أن الفرس لم يشتهروا بالملاحة في يوم من الأيام، ليحق لهم إطلاق اسمهم على أي مجمع مائي ، ويقول حرفياً: "يعرف كل إنسان معرفة كافية أن شمالي الخليج خاضع لسلطة مملكة فارس، وأن العرب يتوطنون القسم الجنوبي منه ولم يتمتع الفرس بأدنى المؤهلات أو الميول إلى الملاحة منذ العصور القديمة. لذلك نجد مستوطنات عربية قائمة في جميع الأماكن على الساحل الشمالي لهذا البحر، إما لملاءمة موقعها الطبيعي أو لوجود جدول أو نهر صغير يصب في اليم ويصلح لاستقبال السفن. ويعيش هؤلاء العرب من الملاحة أو من صيد اللؤلؤ أو الأسماك.

ويعد نادر شاه (١٦٨٨-١٧٤٧) أول ملك فارسي يُقدِم على تأسيس أسطول، اشترى قطعه بأموال باهظة من مدينتي سرت وبمباي، وجلبها له إلى بلاده بحارة هنود مسلمون. وأراد أن يستخدم فيها الملاحين العرب الذين يختلفون عن الفرس بخاصة في تقاليدهم وطبيعتهم ويشعرون بكره فطري حيالهم. لكنه فشل على الدوام، لأن البحارة العرب كانوا ينفّذون الأوامر المعطاة لهم تنفيذا رديئا مقصوداً، أو لا يأخذون بها إطلاقاً، حتى إن الفوضى عمت الأسطول في النهاية، ورأى نادر شاه أن آماله قد خابت، وانه لن يتمكن أبدا من جعل العرب يطيعونه طاعة تامة ويخدمونه بإخلاص في البحر، فقرر تنفيذ مشروع لا يجرؤ ملك آخر غيره عليه، يحب جميع المآثر المستحيلة ظاهريا على تبنيه، وهو

نقل جميع العرب المقيمين على الساحل الشرقي للخليج العربي مع نسائهم وأطفالهم إلى ساحل بحر قزوين واستخدامهم هناك في الأسطول ضد الروس، ثم نقل السكان المقيمين على سواحل بحر قزوين إلى سواحل الخليج العربي، لأنهم كانوا يفضلون الروس على الفرس. إلا أن وفاة نادر شاه أحبطت تنفيذ هذا المخطط[1].

ولو عدنا إلى الوراء إلى القرن السادس قبل الميلاد، إلى أيام عظمة فارس في زمن الأخمينيين ، وعهد قمبيز وداريوس الأول خاصة، لوجدنا أن أمجاد فارس وغزواتها كانت برية سواء باتجاه مصر (قمبيز) أم باتجاه الهند الشمالية الغربية (داريوس الأول). ولولا الملاح اليوناني سكيلاكس واكتشافه مصب نهر الهندوس، تلبية لرغبة داريوس، واستطلاعه الطريق البحرية من فارس إلى مصر، لما عرف الأخمينيون شيئا عن بحر الهند في ذلك التاريخ، ويتفق هذا الاستنتاج مع ما يقوله جوهن دايتن عنهم: "كان الاخمينيون ملاحين سيئين، فبادروا في عهد داريوس الأول إلى توطين بحارة يونانيين وكاريين عند مصب الفرات ليستعينوا بهم في سلوك الطرق البحرية بين مصبي نهري الفرات والهندوس، ويطوفوا حول جزيرة العرب قاصدين القلزم"[2] .

بالمقابل ، يؤكد الباحثون أن العرب أهل بحر بارعون. فيقول رتشارد أرمسترونغ مثلا: "الواقع أن أنما بعيدة جدا عن حدود الإمبراطوريات الكبرى الرومانية والبيزنطية وعن إمبراطورية شارلمان، كانت تجاري الأوربيين أو تسبقهم بأشواط في بعض المهارات وحتى في بعض ميادين المعرفة. وهذا صحيح بالنسبة للماليزيين، وصحيح أيضا بالنسبة للعرب الذين لا يتردد "ج . هولندروز" بوصفهم أعظم بحارة في القرون الوسطى، فقد استكشفوا العالم من الجهة الجنوبية الشرقية (بحر الهند)، ووصلوا في تلك الأيام إلى جزيرة جاوة، وأسهموا إسهاما هائلا في تقدم الملاحة وعلم الفلك"[3].

خلاصة القول أن اعتماد الإيرانيين تسمية "بحر فارس" مبنية على "خرافة أرتواس"، لا على مؤهلات ملاحية أو على علم بحر تحلى به الفرس، أي أن بحر فارس هو "ارثراس ثالسه" ذاته، أدخل عليه نوع من الترخيم الجائز عند اليونان ، الذي حذف السين من

---

(١) ويليم م. فلور، وصف الخليج الفارسي سنة ١٧٥٦، دهاغ (لاهاي)، برسيكا، رقم ٨، ١٩٧٩، ص ١٦٥ – ١٦٦.

(٢) جوهن دايتن ، هيرودوتلى ، فينيقيه ، الخليج العربي والهند في الألف الأولى قبل الميلاد، في جزيرة العرب الشرقية وبلاد ما بين النهرين وفارس الجنوبية من العصر الحجري حتى الإسلام، ص ٣٦٨.

(٣) رتبارئم " ٣ بسترونغ ، تاريخ البحر ، المجلد الأول ، الملاحون الاوائل ، ص ٩٣ : فجر الاكتشافات،ص ٤-١٣.

آخر "أرتراس" ، فبقي أرترا، ثم زيد على الكلمة لفظ ثالســه أي بحر، فصارت "أرتـــرا ثالســـه".

وفي جميع الأحوال تطلق هذه التسمية على كامل المحيط الهندي، لا على الخليج العربي الحالي وحده. ويمثل هذا التخريج القديم الذي ابتكره اغثرخيدس (القرن الثاني قبل الميـلاد) أحد الاجتهادات فقط. فهنالك أيضا اجتهاد ثان قديم يترجم الاسم اليوناني لغوياً، ويقـول إنه "البحر الأحمر" الذي كان يسمى به المحيط الهندي بأجمعه ، واجتهاد ثالث يحافظ علـى تسمية اللون، ومؤداها "بحر الحمر" أو "بحر الفينيقيين" المشهورين أصلا باللون الأرجواني. أخيرا يرى المستشرق الألماني هرمان هيرث (١٨٦٥-١٩٣٦) أن التسمية مشـــتقة مـــن الحِميريين الذين كانوا يرتدون حللاً حمراء ، وأيده الإيطاليون في دليل إفريقيـــة الشـــرقية الإيطالية (ميلانو – ١٩٣٧).

بقي أن نشير إلى فوضى التسميات عند اليونان وانتقالها إلى من أتى بعدهم من مؤلفين من جنسيات أخرى، كالعرب والفرس، بل كبعض العرب والفرس، والالتباسات الطارئة عليها، أو الغموض الذي يكتنفها:

١ ـ ففي القرن الخامس قبل الميلاد، سمّى هيرودوتس (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق.م) امتداد بحر عُمان الحالي، البحر الجنوبي، ولم يعرف الخليج العربي ذاته، لأنه كان يظن ان نهر الفرات يصب مباشرة في البحر المحيط الهندي (بحر عُمان).

٢ ـ وفي القرن الثاني قبل الميلاد، كان المحيط الهندي يدعى «البحر الأعظم» أو «البحر الخارجي».

٣ ـ وفي القرن الأول للميلاد، كتب مخطوط «الطواف حول بحر ارثره»، الذي أثار جدلاً واسعاً حول تسمية أرثره ثالسـه والمقصود بها[1].

ونثبت فيما يلي بعض التسميات اليونانية للمحيط الهندي وبحاره الشاطئية خاصة الخليج العربي والبحر الأحمر، وأداءها باللغة اللاتينية عند الرومان وترجمتها إلى اللغة العربية. ولم نتطرّق إلى التسميات الأخرى كالبحر الأسفل والبحر الأقصى تجنّباً للإطالة.

يتضح بجلاء ان هذا الجدول يشتمل على أربع تسميات يونانية يفيد معناها تدرجاً في سعة المجمع المائي وعمقه: خليج، بحر عميق، البحر الأعمق، فيرجح أن المقصود بحر أرثره، أي بحر الهند بأجمعه أو المحيط الهندي، بالتالي، لا تميّز تسميات المصادر اليونانية، فيما يبدو، بين الجزء مَن أرثره ثالسـه (= الخليج العربي)،

(١) والتر وودبرن هايد، البحارة الأغارقة، فصل ٨: اكتشاف السواحل الآسيوية للمحيط الهندي، ص ١٧٠.

الأسماء اليونانية	الأسماء اللاتينية	الترجمة بالعربية
Ερυθρὰ θάλασσα	Erythraum Mare	بحر أرثره، البحر الأحمر، الخليج العربي المحيط الهندي
Μεγάλη θάλασσα	—	البحر الأعظم
Οὐράνιος Αραβικα	—	البحر العربي العظيم أو الكبير جداً
Περσικός κόλπος	Persicus Sinus	الخليج الفارسي
Περσικός θάλασσα	Persicus Mare	البحر الفارسي
Περσικός πέλαγος	Persicus Pelagus	البحر الفارسي العميق (الباحة)
Περσικός μυχός	Persicus Pelagus	البحر الفارسي الأعمق
—	Sinus Cermanius	خليج كرمان
—	Sinus Arabicus	الخليج العربي
ἐν τῷ Αραθιω κόλπω	—	في الخليج العربي
περὶ την Ερύθραν θάλατταν	—	حول بحر أرثره العربي

وبين بحر أرثره كله (المحيط الهندي). إذن ليس لديها تسمية خاصة للخليج العربي، ولا يمكن الاستناد إليها لاعتبار المياه المقصودة فارسية.

ويحوي أيضا تسميات عربية (البحر العربي العظيم، الخليج العربي...) لا يستدعي وضوحها أي تعليق. أخيراً لا يمكن الاعتماد على تسمية "خليج كرمان" في استخراج أي استنتاج خاص سوى مدلول التعبير لغوياً، أي أن الخليج أُطلق عليه في وقت ما اسم "خليج كرمان"[1]. إذن تفرض التسمية العربية نفسها تاريخيا .

رابعا – مصادر الجغرافية العربية

بالعودة إلى مراجع الجغرافية العربية، وإلى ما ورد فيها بشأن تسميات الخليج العربي وبالرجوع إلى تصانيف بعض نوابغ الفكر الجغرافي العربي التي اخترناها من عصور مختلفة ومتباعدة بعض الشيء . وهي الآتية:

آ- كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي ، المتوفي سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧م.

ب – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي البشاري ، المتوتوفي سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠م

جـ – نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تأليف الشريف الإدريسي، المتوفى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م.

(١) انظر مختصر المعجم اليوناني الفرنسي، تأليف م. أ. بايي، باريس ١٩٠٩، ص ٣٦٢، لفظ Ερυθρὰ أحمر.

د – معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م .
هـ- تقويم البلدان، لأبي الفداء، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.
و – شعر ابن ماجد، المتوفى سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠م (ونثره).

فنجد أن ابن ماجد يسمي الخليج بالعربي كما يسميه قلزم العجم، وبحر قلزم العجم، كما يسميه خليج فارس من منطلق ما يؤدي إليه توجهه نحو بلاد فارس. والمؤلفون الخمسة الباقون يسمونه أيضاً في بعض ما كتبوا عن بلاد فارس والشاطئ الشرقي للخليج بحر فارس دون أن يشرحوا أو يعللوا سبب هذه التسمية، إلا أن ذلك مرتبط بكتاباتهم عن بلاد فارس. ونجد الإدريسي وحده ينفرد بتسمية الخليج بالخليج الأخضر مع ما يطلق عليه في بعض الأحيان بالفارسي والعربي.

وهكذا فإنه لاوجود للمغزى السياسي البتة في تسمية الخليج العربي بالفارسي، فالتسمية محصورة فيما يكتبه المؤلفون عن بلد ما إذ يلحقون باسمه ما يجاوره من شاطئ أو بحر، ولا تدل التسمية أبداً على أن فارس استطاعت تفريس الخليج العربي في يوم من الأيام، كما أن تسمية بحر الهند أو المحيط الهندي لا تنطوي على أي مدلول سياسي أو هيمنةٍ للهند على المحيط مهما كان نوعها.

تأسيس مملكة هرمز

كما يرويها غاسبار دا كروز Fr. GASPAR DA CRUZ في عام ١٥٧٠م

لم يكن قيام مملكة هرمز بالأمر العادي، ولنتبين لمحة من تاريخ نشوء هذه المملكة العربية نجد فيما كتبه المؤرخ البرتغالي غاسبار دا كروز في عام ١٥٧٠م (الذي عاصر التوسع البرتغالي في منطقة الخليج العربي) نقلاً عن أحد ملوك هرمز العربية الباشا تورم شاه P ACHA TURNXA حيث ذكر أن النص الأصلي لهذا السرد كُتِبَ بالعربية، وقام بترجمةٍ موجزة له إلى البرتغالية راهبٌ من رهبانية سان دومنغوس كان أسس في جزيرة هرمز كنيسة لرهبانيته فيقول: في أوائل عهده جمع الملك محمد - وكان يحكم مملكة عُمان الواقعة في قلب العربية السعيدة - أعيان مملكته في مجلس شورى وقال لهم إن الأراضي والمناطق الواقعة على الساحل الشرقي للخليج كانت تابعة لجدوده، وإنها ضاعت منهم بسبب إهمال بعضهم، فهجرها سكانها وتحولت إلى أراض قاحلة غير مستثمرة ولا يستفاد منها، ولذلك قرر أن يذهب بنفسه إلى هذه المناطق ويصحب معه من يشاء من أعيان المملكة وبعض الناس من عامة الشعب، بهدف تأسيس بعض المدن والقرى في تلك المناطق للإفادة منها وهي الغنية بالأراضي الخيرة والمعطاء. وهكذا يتم ضم هذه الأراضي إلى مملكته فتزداد شهرة، على أن يترك حكم العربية لابنه الذي صار رجلاً يمكنه أن يحسن حكمها وإدارة شؤونها. أشاد الجميع بما ذهب إليه الملك وأثنوا على قراره. وعلى ا لفور أمر الملك الناس بالاستعداد للرحيل والمضي وراء الأعيان، وغادر المملكة ووصل إلى قلسيت (قلهات) CALCIATE التي تقع على شاطئ البحر في الجزيرة العربية ذاتها. ورأى الملك مع أعيانه أنه من المناسب تأسيس مدينة عند ذلك المرفأ نظرا لموقعه الجيد الذي يتيح لأهالي المنطقة تبادل البضائع والتجارة مع السفن التي تمر من هناك. وبقي ابن الملك هناك ومعه عدد كبير من الناس تنفيذاً لإرادة والده وأعيان المملكة من أهل الحل والعقد. ومع مرور الوقت ازدهرت المدينة في شكل يكشف عنه اليوم ما تبقى منها من أثار تدل أنها كانت مدينة كبيرة جداً وغنية جدا. وبعد أن رتب الملك أمور العربية وأمور قلهات غادر مع صحبه في زورقين كان أمر بصنعهما على وجه السرعة، وأبحر على امتداد الساحل ا لشرقي إلى أن وصل إلى رأس جاسك JASQUES حيث تقع هرمز اليوم، على بعد ٣٠ عقدة خارج المضيق. و لم ير الملك في تلك المنطقة، ولا في موقعها ما يناسب للمكوث فيها، فغادرها متابعاً طريقه داخل المضيق، على امتداد الشاطئ، إلى أن وصل إلى

منطقة كانت تدعى في حينه هرمز، تقع إلى جوار منطقة كانت تدعى مسندم MAGOSTAM والبرامي BRAAMI، ويطلق عليها اليوم اسم كوستيكا COSECA، تقع على ذلك الشاطئ قبالة ما يدعى اليوم هرمز. وإذ وجد الملك وصحبه في هذه الأرض خيراً قرروا إقامة موقع سكني فيها، وقاموا ببناء الدور وبزراعة الأرض. ولأن الملك كان متحرراً وسخياً يكرم الفقراء والعمال كثيراً، ويحسن وفادة الغرباء والأجانب فقد كان موضع تقدير ومحبة كل الذين عرفوه أو سمعوا به. وانتشرت سمعته الطيبة في مختلف الأرجاء المحيطة، الأمر الذي أغرى الكثيرين في الذهاب إلى مملكته والعيش تحت حكمه. وكان هذا هو السبب الذي جعل المدينة الجديدة تَعرف ازدهاراً كبيرا في غضون فترة وجيزة. ووصلت سمعة الملك الطيبة وأخبار كرمه وسخائه إلى كافة أمراء المضيق، وملوك بلاد الفرس، وكذلك ملوك المناطق العربية الأخرى، فأخذوا يزورونه حاملين معهم الهدايا الثمينة، مظهرين له غبطتهم الكبيرة به ومعبرين عن فرحهم بجيرته الطيبة. وإذ وجد الملك أن ثروته تزداد في هذه الأرجاء حيث يحظى بمحبة واحترام جيرانه وشعبه الذي ازداد عدده كثيراً، ولكي يحظى بمزيد من محبة الجميع، أمر بنقش عملة لم تكن متوفرة هناك، الأمر الذي زاد من تعلّق الناس به، وساهم بتحقيق المزيد من الازدهار في مدينته. وبعد أن تم تأسيس مدينة هرمز على الساحل الشرقي للخليج وازداد عدد سكانها وعرفت ما عرفته من ازدهار ونمو، أمر الملك أهل الحل والعقد بالذهاب إلى منطقة مسندم MAGOSTAM وأن يقتطع كل منهم ما يراه مناسباً له منها وذلك بهدف استثمارها وجعلها آهلةً بالسكان ، بحيث يتم تأسيس مدن وقرى جديدة. وهذا ما حصل إذ قام كل الأعيان باختيار ما وجده مناسباً له من أراضي المنطقة، واستثمرها وجعلها آهلة بالسكان، وأطلق عليها اسمه، وهي الأسماء التي تعرف بها هذه المناطق اليوم . ولأن الملوك الذين جاؤوا بعد الملك محمد كانوا أقوياء جدا وعادلين في حكمهم فقد ساهموا بدورهم في ازدهار المملكة وفي زيادة ثرواتها وعدد سكانها. وكان الملوك الآباء يسلمون أولادهم مقاليد الحكم وهم أحياء، بحيث يرتاحون هم في شيخوختهم من عناء الحكم ومتاعبه. وجرت العادة بين الملوك، تخليدا لذكرى السلف، أن يطلقوا على أولادهم بالتدريج عند الوصول إلى الجيل العاشر أسماء الملوك العشرة السالفين. وهكذا دواليك في شكل يطلق فيه على الأول بعد العاشر اسم المؤسس إلى أن تنتهي الأسماء العشرة.

استمرت هذه العادة سنوات عدة كان الابن خلالها يرث العرش عن والده، ولكنها ما لبثت أن اختفت لأن بعض الطامعين في الحكم كانوا يقتلون الورثة الشرعيين، أو يفقؤون عيونهم للحلول على العرش محلهم. غير أن المملكة احتفظت بأمر مهم

وأساسي، إذ على الرغم من أن الكثيرين كانوا في حكمهم ظالمين وقساة، غالباً ما يلجؤون إلى قتل الملوك الشرعيين، لم يحدث حتى اليوم أن اعتلى العرش أي ملك من خارج العائلة المالكة. هذا باستثناء أحد الملوك الذي توفي و لم يترك في المدينة خلفاً شرعياً له ، فقام قاضي المملكة بتنصيب نفسه ملكاً، بلغ الخبر أحد أقارب الملك الميت، وكان يقيم في مدينة أخرى فذهب مع جنده إلى هرمز لاستعادة العرش، حيث استقبله الناس بالحفاوة والتكريم لأنهم كانوا متضايقين جداً من القاضي الذي جعل من نفسه ملكاً وهو ليس من العائلة المالكة. وقام الناس في المدينة بتنصيب ابن عم الملك ملكاً عليهم وسط ظاهر الفرح والابتهاج. وأمر الملك الجديد بقطع رأس القاضي ورؤوس كل أقاربه.

وأدى ازدهار هرمز إلى زيادة أطماع ملوك الممالك المجاورة لها . . وحدث أن ذهب ملك كريمام CREMAM التي تقع في بلاد الفرس ومعه جيش قوي لمحاربة هرمز وهدمها . وأدرك الملك شهاب الدين CABADIN الذي كان يحكم هرمز في تلك الفترة أنه أعجز من أن يتمكن من مقاومة ملك كريمام وصد جيشه ، فترك المدينة وذهب الى جزيرة تدعى كيشوم تقع على مقربة من جزيرة هرمز. وأمضى هناك عدة أشهر، ولكنها بدت له أنها غير آمنة لأنها كبيرة ويصعب الدفاع عنها، فتركها وذهب مع جنده وصحبه إلى الجزيرة التي تدعى اليوم هرمز لأنها في موقع يمكنها من مواجهة أي عدو. وكانت هذه الجزيرة قبل ذلك خالية من السكان باستثناء بعض الصيادين الفقراء الذين يطلقون عليها اسم جاروJARU أي الدغل. ذلك أن معظم أراضي الجزيرة مالحة، حتى أن مياه بعض الأنهر التي تنبع من الجبل وتمر فيها هي أيضا مالحة، فيبدو الملح على ضفتي النهر وكأنه ثلوج. كما أن صخور الجبل هي الأخرى عبارة عن صخور من الملح في بعض الأماكن، وتلجأ الزوارق إلى اقتطاع هذه الصخور ونقلها إلى الهند لاستعمالها في الأساسات ولكن وعلى الرغم من ذلك، تنبت في الأرض بعض الأعشاب وبعض أشجار الفاكهة التي يسميها البرتغاليون التفاح الصغير، وهي فاكهة تؤكل بصعوبة، وتنبت بفضل مياه الأمطار. ولأن الجزيرة قاحلة جدباء لا تُنبت شيئا يذكر بسبب كثرة الملح فيها، أطلقوا عليها اسم الدغل. وكانت في السابق غير أهلة بالسكان، ولذلك كانت رقعتها أصغر مما هي عليه الآن كما تشير إلى ذلك الأماكن التي كان البحر يغطيها. إذن نزل الملك شهاب الدين إلى هذه الجزيرة وقرر البقاء فيها وبدأ في إشادة الدور للسكن فيها هو وصحبه. وكانوا يحصلون على ما يسد الرمق من المواد الغذائية التي كانوا يجلبونها من المناطق المجاورة. ولأن ملك كريمام عاد إلى بلاده كما عاد الفلاحون الذين كانوا يعملون في الجزيرة إلى العمل فيها مجددا. وازدهرت المدينة التي قامت في جزيرة الدغل فجعلوا منها عاصمة المملكة. وأطلق عليها الملوك الذين جاءوا

بعد الملك شهاب الدين اسم هرمز الذي لا تزال تحتفظ به إلى اليوم، وكان اسماً للمدينة الرئيسية القائمة في البر والتي هدمها ملك كريمام.

ويضيف كاتب السيرة في ختام كلامه الذي أصدره بتاريخ ١٥٧٠/٢/٢٠ فيقول: والرغم من أن أراضي هذه الجزيرة لا تعطي ثمارا ولا غلالا ولا خضاراً، وهي تفتقر إلى المياه العذبة، تتوفر فيها كميات كبيرة من اللحوم والخبز والأرز والأسماك، فضلاً عن مختلف أنواع الفاكهة اللذيذة التي تصلها من أماكن عدة وخصوصا من بلاد الفرس، مثل العنب والتفاح والأجاص والخوخ والتين والسفرجل الذي يصنعون منه مربى يصدرونه إلى كل أرجاء الهند. ومن هنا تتمون الهند كلها بالفاكهة المجففة المخصصة للمرضى. وتستورد هرمز كميات كبيرة من البطيخ اللذيذ في موسمين: الموسم الأول يبدأ في أواسط آذار/ مارس ويمتد حتى أواخر نيسان / أبريل، أما الموسم الثاني فيبدأ في تموز/ يوليو ويستمر حتى أواخر أيلول/ سبتمبر. كما أنها تستورد كميات كبيرة من فاكهة يسمونها مانغا تأتيها من بلاد العرب وبلاد الفرس، وهي فاكهة لذيذة جداً. أما الرمّان الذي يأتيها من بلاد الفرس فهو ألذ من رمان إشبيلية. ويكثر فيها التفاح والأجاص حتى خلال شهري كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير. وكل هذه الفاكهة تتوفر طازجة وكأنها مقطوفة للتو. كما أنها تستورد من بلاد الفرس الجوز والليمون والبرتقال بكميات كبيرة. بالإضافة إلى غيرها من أنواع ا لفاكهة والأطايب. ولا أتحدث هنا عن البضائع، لأن البضائع تتدفق عليها من مختلف أنحاء العالم ومنها يتم تصديرها إلى مختلف الأرجاء والأصقاع. ولهذا فإنهم يقولون بحق أن العالم كله خاتم وهرمز جوهرته، على الرغم من أن هرمز في ذاتها لا تعطي غير الملح. كما أن المياه العذبة تتوفر فيها بكميات كبيرة التي تجلبها من البرّ الفارسي ومن الجزر المحيطة. وهكذا فإن هرمز التي تفتقر إلى كل شيء من عندها تمتلك كل الثروات وتتوفر فيها كل السلع والبضائع والمواد التموينية والخضار والأسماك واللحوم والفاكهة التي تأتيها من الخارج.

واستطاع ملك هرمز فيما بعد من استعادة سيطرته على ملكه القديم واتسعت رقعة مملكته لتشمل جزر الخليج العربي ومعظم شواطئه.

الفصل الثاني

الخليج العربي الطبيعي

الخليج العربي مجمع مائي مالح، يتفرّع من بحر عُمان، ويقع في آسيه الجنوبية الغربية، بين درجتي عرض ٢٤° و ٣٠′ ٥٣° شمالاً، وبين درجتي طول ٤٨° و ٣٠′ ٥٦° شرقاً، ويتزامن تشكّله الجيوليوجي مع تشكّل جزيرة العرب، وساد فيه مناخ مداري متقلّب، آل إلى الجفاف الحالي. وهو يمثل اليوم بحراً قارياً، قامت على سواحله كيانات سياسية يهمّنا منها ما عاصر سيادة سلطة هرمز العربية، وما كان بينه وبينها من علاقات وثيقة. وسوف نشرح جميع هذه النواحي على التوالي في هذا الفصل وفي الفصول التالية حسب التسلسل الآتي:

أولاً ـ تشكّل الخليج العربي جيولوجياً.

ثانياً ـ مناخ الخليج العربي القديم والحديث.

ثالثاً ـ الخليج العربي بحر واسع، وبر شاسع. (الفصل الثالث).

رابعاً ـ الخليج العربي ممر مائي بحري ونهري متميز، طرقه البحرية، والطرق البرية منه وإليه، ووسائط النقل المائي فيه وفي بلاد الرافدين. (الفصل الرابع).

أولاً ـ تشكّل الخليج العربي جيولوجياً

استغرق تشكّل الخليج العربي وقتاً طويلاً جداً، امتدّ من دور الميوسين في الزمن الثالث، واستمرّ حتى أوائل الزمن الرابع في البليستوسين. ثم طرأت تبدلات كثيرة على مستويات الماء فيه خلال مدة زمنية دامت من اواخر البليستوسين إلى الهولوسين في الزمن الرابع. وفيما يلي إجمال ما يتعلق بالنشوء الجيولوجي وبتبدلات مستويات الماء.

آ ـ نشوء الخليج العربي الجيولوجي

١ ـ وضع الأرض قبل بدء النشوء

كانت شبه جزيرة العرب في البدء ملتصقة بافريقية، في حقبة ما قبل الكامبريان، أي منذ حوالي ٥٠٠٠ مليون سنة إلى ٥٩٠ مليون سنة. ولم يكن البحر الأحمر، الفاصل بينهما الآن، قد تشكل بعد وكان المقعر الأرضي، المسمّى تيتيس Téthys أو البحر الأوسط Mésogée، يخترق قارة آسية في منتصفها، من جزيرة تيمور وشمطره إلى آسية الصغرى، بعد اجتيازه موضع جبال هيمالايا والهندوكوتش. ثم يواصل امتداده حتى امريكة الوسطى، فيبدو بحراً طويلاً، يقسم القارة الأرضية القديمة الوحيدة Pangée إلى قارتين عظيمتين متساويتين، هما لورازيه L'Eurasie في الشمال وغوندوانه Gondwanie في الجنوب[١]. وكان مفصولاً عما نعرفه اليوم باسم جزيرة العرب بعدد من «البحار القارية العريضة» التي تغمر أقساماً فسيحة من شبه جزيرة العرب الشرقية.

٢ ـ أطــوار النشــوء

مرّ نشوء الخليج العربي بأطوار عديدة. فقد أثرت حركة نشوء الجبال الألبية في أواخر الحقبة الحوارية (كريتاسية) (١٣٦ مليون سنة ـ ٦٤ مليون سنة) تأثيراً محدوداً في رقعة جزيرة العرب الرئيسة، فتسببت في إمالتها قليلاً إلى الشرق، لكنها أدّت إلى تكوين جبال عُمان.

وفي أثناء دور الميوسين، أي منذ حوالي ٢٥ إلى ١٢ مليون سنة، انفصل المنبسط العربي عن المجنّ الافريقي، فتكوّن البحر الأحمر بينهما. وفي الوقت ذاته، اندفع المنبسط العربي، واصطدم بالمنبسط الآسيوي، فالتوى الجانب الشرقي من شبه جزيرة العرب، نتيجة لذلك نحو الأسفل، وهبط إلى ما دون مستوى البحر، فشكّل قعر ما سوف يصبح الخليج العربي.

ووصلت حركة نشوء جبال زغروس، أي سيرورة البناء في البليوسين ـ البليستوسين، التي كوّنت سلسلة جبال زغروس، إلى أوج نشاطها والتوائها في الفترة الواقعة بين حوالي ٥ ملايين سنة وبين حوالي مليوني سنة. ويرجّح أيضاً انها كانت

(١) انظر دانيال ت. بوتس، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة ابراهيم خوري، الجزء الأول، الفصل الأول، بيئة الخليج. ثم موسوعة البليّاد، الجيولوجية، الجزء الثاني، تطور الأرض، تيتيس، ص٦٦٢ وما يليها.

مسؤولة عن الطغيان البحري الذي ملأ بالماء الرقعة التي نسميها اليوم الخليج العربي.

وفي بداية الانحسار البحري في أواخر دور البليوسين، كان مستوى البحر أعلى بـ ١٥٠ م عن مستوياته الحالية. ثم انخفض في أوائل البليستوسين ٨٠ متراً في الحد الأدنى. وحتى في هذه الحالة، يُظن أن بعض الأجزاء الداخلية من جزيرة العرب الشرقية حتى مسافة ١٠٠ كم من الساحل الحديث، ظلت مغمورة بالمياه في أوائل البليوسين. وتواصل الانحسار في أثناء البليستوسين مخلّفاً وراءه سلسلة من المصاطب البحرية، واقعة على ارتفاعات تقريبية تساوي ١١٠ م، ٧٠ م، ٤٥ ـ ٥٠م، ٣٨ ـ ٤٠م، ٢٥ م، ١٥ ـ ١٨م، و ٧ ـ ١٠م فوق مستوى البحر الحالي، مقابل الشريط الساحلي، غربي جون سلوى. وتتوافق هذه «المدرجات» مع انخفاضات مستويات البحر المتتالية في العالم أجمع، والمعروفة بوثائق الأماكن الأخرى في أثناء البليستوسين. ويمكن أن تتطابق جيداً نوعاً ما مع تبدلات مستويات البحر المتوسط. مع ذلك استصعب الباحثون البتّ في تحديد تاريخ مصاطب الانحسار البحري، وقطعاً لعب الخسوف البنائي دوراً هنا أيضاً.

ب ـ تبدلات مستويات الماء في الخليج العربي بعد نشوئه

في أثناء وصول المدّ الجليدي إلى حدّه الأعظم، الذي حدث تقريباً بين ٧٠٠٠٠ و ١٧٠٠٠ ق ح[1]، تعرّض الخليج العربي إلى تدنّي مستوى البحر ذاته، المبني على وقائع موثّقة في سائر أنحاء العالم. وآلت انخفاضات مستوى الماء ١٢٠ م تحت المستويات الحالية، إلى تفريغ الخليج عملياً من مياهه، وتحويله إلى وادي نهري جرت فيه مياه دجلة والفرات معاً إلى مضيق هرمز. وتوحي التأويلات المتضاربة لمعطيات الترسيب المتوفرة، بأن إملاء الخليج جزئياً حصل بين ٤٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ ق ح أو حوالي ٢٥٠٠٠ ق ح. مهما يكن، لم تبدأ إعادة إملاء الخليج بالمعنى الصحيح إلا في مستهلّ الطغيان الفلاندري، حوالي ١٧٠٠٠ ق ح. ويرى أ. ل. بلوم أن الطغيان الفلاندري بلغ سرعته القصوى بين حوالي ١٢٠٠٠ و ٨٠٠٠ ق ح. مع ذلك، لم تتم سيرورة تدفّقه على وتيرة واحدة، بل حصلت «بسلسلة من التقدمات السريعة المفصولة بفترات هادئة، تشاهد آثارها اليوم بسلسلة من خطوط الشواطىء المغمورة والمصاطب البحرية الواقعة على أعماق ١٢٠، ١٠٠، ٦٦ ـ ٨٠،

---

(١) ق ح: قبل الزمن الحاضر = Before Present = BP

٢٩ ـ ٧٣، ١٨، ٩ أمتار. ويصعب تحديد تاريخ هذه المراحل المتنوعة بدقة في الطغيان الفلاندري الذي يتمثّل في هذه المصاطب. وفي عام ١٩٦٩، نشر ج. ايفانز وف. شميدت، وب. بوش، وهـ. نلسن مجموعة مؤلفة من ٣٦ تحديداً بالكربون ١٤ مأخوذة من تحرياتهم في السباخ الواقعة حوالي أبو ظبي التي توحي بأن طغيان منتصف الهولوسين بدأ حوالي ٧٠٠٠ ق ح / ٥٠٠٠ ق م، وبلغ ذروته بين ٦٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق ح / ٤٠٠٠ و ٢٠٠٠ ق م مع مستوى بحر يعلو مترين عن المستوى الحالي. ثم يهبط مستوى البحر مجدداً مرة أخرى متراً واحداً تقريباً، اعتماداً على حساباتهم. وفي حوالي ٣٧٥٠ ق ح / ١٧٥٠ ق م ثم ارتفع باطراد إلى أن بلغ مستواه الحالي في حوالي ١٠٠٠ ق ح / ٩٥٠ م. وقد حاول كسلر ان يربط خطوط الشواطىء المغمورة بمنحني ر. فيربريدج المرسوم لتبدلات مستوى البحر على النطاق العالمي.

وحاول مشروع مشترك، قامت به جامعة النفط والمعادن (الظهران) وأكاديمية العلوم التمساوية، أن يحدّد تاريخ معالم الرملة المرتفعة في منطقة الجبيل والحسا، فنفّذ مجموعة ثمانية اختبارات تحديد بالكربون ١٤ على صدف وطورب وفحم نباتي جمعت منها. فأبانت قدراً محدوداً من التبدّل. إلا أن ثلاثة تواريخ منها (٤٦٧٠ ± ١٩٠ق ح، ٣٣٨٠ ± ١٣٠ ق ح، ٣٩٩٠ ± ٩٠ ق ح) أثبتت وجود ذروة حوالي ٤٠٠٠، شبيهة بالتي اقترحها إيفان في أبو ظبي. وتتأيد هذه أيضاً بمجموعة من التواريخ (٣٩٣٠ ± ١٣٠ ق ح، ٤٢٠٠ ± ٤٣٤٠ ق ح) أجراها تايلر وايلنغ على حواجز الرمل في قطر. مع ذلك، تمّس عوامل أخرى بشدة مثل إعادات هذا الإنشاء. ويناقش مثلاً مدى بقاء الخليج مستقراً بنائياً في فترة الهولوسين.

وفي وقت أحدث، عرض عالما أشكال أرض فرنسيان هما بول سنلافيل ور. ديلونغفيل، تأويلاً دقيقاً لتبدلات مستوى البحر في الفترة التي تهمنا إلى الحد الأقصى هنا. واعتمدا ليس فقط على عمل العلماء المذكورين من قبل، بل أيضاً على تقصياتهما الشخصية في فيلكة والبحرين والشارقة، وأفرزا مجموعة من التبدلات في مستوى البحر التي يمكن ربطها بتاريخ الاستيطان البشري في تلك الأرجاء. فبعد بلوغ ذروة حوالي ٦٠٠٠ ق م (١,٣٠ م تقريباً فوق مستوى البحر)، هبطت مستويات البحر إلى حد منخفض وصل إلى ١,٣٠ م تقريباً تحت المستويات الحديثة حوالي ٤٧٠٠ ق م. بعد ذلك، تواصل ارتفاع المستويات إلى أن بلغ ذروة جديدة، قدرها ١,٥٠ م فوق المستويات الحديثة في حوالي ٣٦٠٠ ق م، ثم هبطت إلى ما يحتمل أن يكون نصف متر فوق المستويات الحديثة حوالي منتصف الألف الثالث. ثم هبطت إلى

مستوى أدنى قليلاً من مستوى الأيام الحاضرة في وقت مبكّر من الألف الثاني، وارتفعت ربما إلى نصف متر فوق المستويات الحديثة في الفترة الكشية. وبعد سنة ٩٠٠ ق م تقريباً، هبط مستوى البحر في الخليج إلى ما يقرب من متر واحد تحت المستويات السائدة في الفترات الهلنستية والفرثية والساسانية. ثم ارتفع ووصل إلى مستوى يعادل مستوى أيامنا الحاضرة، في وقت ما قبل الألف الأول بعد الميلاد. ويعدّ تحديد هذه التبدّلات في مستوى البحر الهولوسيني هاماً بنوع خاص لأن له انعاكسات كبيرة عل تحديد خطوط الشواطىء الباكرة وبالتالي على الاستياطانات الساحلية البشرية. مع ذلك يمكن ان نتوصل إلى فهم ملائم لتبدل السواحل على الشاطىء العربي الشرقي، فقط عندما نأخذ بعين الاعتبار العوامل الأخرى مثل تشكّل الكثبان الرملية، والحت الريحي. وهكذا استطاع سنلافيل و ديلونغفيل أن يبيّنا أن عدم العثور اليوم على مواقع أثرية قريبة من البحر، كما في بعض الأرجاء مثل الشارقة، يعزى إلى تأثير تبدلات مستوى البحر ونشوء البحيرات الشاطئية أو ردمها، وإلى تشكل الكثبان الرملية أو حتها إلخ. مع ذلك لا يمكن تمحيص هذه القضايا إلا على النطاق المحلي وقد تعكس المشاهدات التي جرت في الإمارات العربية المتحدة، مثلاً وجود شروط لم تحصل بالضرورة في فيلكة أو البحرين.

ثانياً ـ مناخ الخليج العربي القديم والحديث

ساد المناخ المداري أو شبه المداري في جزيرة العرب الشرقية في دوري الميوسين والبليوسين بدلالة البقايا الحيوانية، ووُصِفَتْ بيئة جزيرة العرب الوسطى والشرقية بـ «المورقة»، وشُبِّهت ببيئة السافانا المدارية في ذلك الوقت. وتوحي البينة الجيومورفولوجية بان دور البليوسين كان حتماً فترة أمطار غزيرة، ساعدت قطعاً على شقّ ثلاثة أنظمة أودية في شبه جزيرة العرب، هي وادي الدواسر والسهبا في الجهة الوسطى الغربية، ووادي الباطن ـ الرماح في الشمال. وتدفعنا هذه المقدمات إلى دراسة مناخ جزيرة العرب الشرقية الهام جداً، وبالتالي مناخ الخليج في العصور القديمة والعصور التاريخية. وما نؤكد عليه في مناخ الخليج هو تتبع تطور التساقطات والجفاف في الزمنين الثالث والرابع وشرح الرياح السائدة فيه منذ ٣٥٠٠٠ سنة.

آ ـ التساقطات من دور الميوسين في الزمن الثالث إلى دور الهولوسين في الزمن الرابع

لا يمكن فهم التساقط على وجهه الصحيح كمتغيّر وحيد في النظام البيئي. ولا بدّ من أخذ جميع خصائصه المميزة بعين الاعتبار ـ مثل شدته ومقدارها، ونوعه وتوزيعه.

ثم ان مخططات الرطوبة والرياح تؤثر في نتائج التساقط. مثلما تفعل البنية الجيولوجية التي تتلقاه فإذا بدأنا من أبعد ماضي، وتدرّجنا منه حتى الوقت الحاضر، عندئذٍ يتوجب علينا بالتأكيد أن نسلّم بأن مجاري التعرية العميقة لأنظمة الأودية الرئيسة الثلاثة، في جزيرة العرب، وكذلك مخاريط الانصباب الحصويّة الهائلة المرافقة لها، تدلّ على وجود جريان سطحي هائل، وبالتالي على مستوى عال جداً من التساقط.

على الرغم من ذلك، نحتاج إلى قول بضع كلمات نشرح بها استعمال لفظ «مطير»، عند وصف عناصر المناخ في جزيرة العرب، فبدقة، يقصد بالفترة المطيرة فترة تساقط مطر غزير في منطقة خالية من الجليد تقابل حداً أعظم جليدياً في منطقة مجلّدة. وقال هـ.ا. ماك كلور في مناقشته جزيرة العرب الوسطى والشرقية: يتزامن ظهور فترات المطر الغزير مع فترات تغطية الجليد العظمى في سائر العالم. أما هوتزل وزوتل، فقد احترسا أكثر منه وكتبا يقولان:

ظل الباحثون مدة طويلة يميلون إلى الاستنتاج بان الفترات المطيرة وما بين المطيرة في المناطق المدارية توازى النطاقات الجليدية وما بين الجليدية في أوربة. مع ذلك، أبان بجلاء التقصي الكثيف الذي جرى في جميع أنحاء العالم في الأعوام الحديثة، بشأن التغييرات المناخية في الزمن الرابع، ان النظام البسيط مثل تقابل الأطوار الرطبة في العروض الدنيا وفترات الجليد في العروض العليا، يبدو مستحيلاً.. ثم ان تعبير «مطير» مفرط في عدم الدقة للدلالة على كميات التساقط المتزايد قليلاً فقط في بعض الأحيان.

في الواقع، ليس لدينا اليوم معطيات مناخية جيدة عملياً، عائدة إلى دور الميوسين والبليوسين الأعلى، أي بدقة إلى الفترتين اللتين توحي بقاياهما الحيوانية بوجود بيئة مدارية «مورقة». وقطعاً يقضي تراكم مخاريط انصباب الدلتات في أواخر البليوسين وأوائل البليستوسين (حوالي ثلاثة ملايين سنة إلى مليون سنة ق ح)، المترافق مع بيّنة الحت العميق في أنظمة الأودية الرئيسة، بأن هذه الفترة كانت كثيفة الرطوبة لكن لم يُفصل بعد في ما إذا كان يجب اعتبارها «فترة مطيرة» أم لا.

وكانت فترة البليستوسين في معظمها فترة جفاف في شبه الجزيرة العربية. فرمال الرياح ردمت الأنظمة النهرية الأقدم منها، والتي لم تستحدث أبداً من جديد. رغم ذلك، لا بد أن قدراً من التساقط قد هطل فيما بعد، مثلما تُثْبِتُ الرمال والحصى النهرية، التي عُثر عليها في وادي برك والدواسر. لكن يحتمل أن يكون تراكم كثبان

رياح كبيرة، قد حال دون احتمال حصول جريان سطحي هام في ذلك الوقت. مهما يكن، في أواخر البليستوسين، الذي يعاصر تقريباً فترة جليد ورم الاوروبية انسحبت الموسميات الصيفية باتجاه الشمال، فيما يبدو، وجلبت معها تساقطاً غزيراً، تبيّن انه هام بالنسبة إلى سكان جزيرة العرب الحديثين، مثلما كان بالنسبة إلى سكانها القدامى. ويرى ماك كلور أن تساقط أواخر البليستوسين آل فعلاً إلى تماسك أبكر في توضعات البليستوسين اللحقية في بعض أنحاء الربع الخالي، فأدّت إلى إيجاد شروط تشكل «البلايا»، أي بحيرات الوحل المؤلفة من حوضات ضحلة قادرة على احتجاز الجريان السطحي المتجمع. وعلى وجه العموم، بدا بقاء هذه البحيرات قصير المدة نسبياً. وكانت هذه البحيرات تحوي نماذج متنوعة من الصدفيات، والرخويات، والمنخريات دون السمك. أما فرس النهر والثور الوحشي والحيرم، فكانت كلها موجودة، إلا أن العشب أو غبار طلع الطحالب نادر، ويعتبر ماك كلور أن البيئة المعاصرة كانت أرض أعشاب شبيهة بالسافانا. ويرجّح أن تاريخ سهول الغسل الواسعة وتوضعات الجريان في عُمان الداخلية والإمارات العربية المتحدة، تعود إلى هذه الفترة أيضاً.

وحصر هوتزل وزوتل تاريخ الطور «الرطب» بين ٣٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ سنة ق ح، وربطاه بأطوار معاصرة له، تساقطها أعظم، تقع في الصحراء الكبرى الجنوبية والسودان ومصر والأردن ولبنان، يمكن أن تتوافق أيضاً مع البينة المستخلصة من العينات الحجرية المأخوذة من البحر الأحمر. وفي وقت أحدث، جمع ماك كلور مجموعة تواريخ كربون ١٤ من طبقات بحيرية مستحاثية في الربع الخالي، توحي بأن الفاصل الزمني دام من ٣٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ سنة ق ح.

إضافة إلى ذلك، اعطى تساقط هذه الحقبة كثيراً من الماء الذي ما زال يُشْرَبُ ويستعمل للري في جزيرة العرب الشرقية في أيامنا الحاضرة. فالمنبسط القشري الكامبري الأصلي في شبه جزيرة العرب، مغطى بمجموعة من التوضعات الرسوبية العائدة إلى الزمن الجيولوجي الأول والثاني وأوائل الثالث، فوحدات صخور الزمن الثاني والثالث تحوي كلها طبقة مائية جوفية، وتعرف بتشكيلات البياض، ووسية، وأرومة، وأم الرضومة، كذلك دولوميت الخبر، وأقسام آلات، والنيوجين. فتواريخ الكربون ١٤ تنطبق على أكسيد الكربون وثاني الكربونات في عدة طبقات مائية في جزيرة العرب الشرقية، وتتراوح بين ٣٣٠٠٠ و ١٠٤٠٠ (± ٥٠٠) ق ح، فيقدّر أن عمر مياه أم الرضومة، وهي «أهم وأغزر طبقة مائية في ما بعد الدور الحواري» في جزيرة العرب الشرقية، يزيد على ٢٢٠٠٠ سنة. وتتوازى هذه التواريخ بدقة مع

التواريخ التي حصل عليها ماك كلور ولا يمكن ان يشك بان تعبئة الطبقات المائية وتشكيل البحيرات في الربع الخالي حصلا كلاهما نتيجة المطر الذي هطل في الطور الرطب الواقع في آخر البليستوسين. ويمكن اكتشاف تعبئة جديدة ولاحقة خلال الأطوار الرطبة الواقعة في الهولوسين، أو من تهطال المطر السنوي الحديث. لكن اتفق عامة على ان إعادة التعبئة الهامة تمت في أواخر دور البليستوسين.

ب ـ الجفاف في الخليج العربي في الزمنين الثالث والرابع

يدلّ توضيع الرمال الحمراء، بعد حوالي ٢٠٠٠٠ ق ح، على بداية فترة جفاف مفرط، شبيهة بجفاف الشروط الحديثة، دامت حوالي ١٠٠٠٠ سنة. وتثبت توضّعات الجبس أيضاً بداية فترة تجفف مدعومة بوثائق مأخوذة من الربع الخالي، ومن شبه جزيرة عُمان. ويرى ماك كلور ربط هذه الفترة على وجه التقريب بآخر الحد الأعظم لانتشار الجليد في المناطق الشمالية من الكرة الأرضية.

مع ذلك، حوالي ١٠٠٠٠ ق ح، زحفت الرياح الموسمية مجدداً باتجاه الشمال، على الأرجح نتيجة تبدلات في مدار كوكب الأرض، مما أدى إلى طور رطب شبه مطير دام حتى حوالي ٦٠٠٠ ق ح على حد قول ماك كلور. ورأى هوتزل وزوتل أن طوراً رطباً هولوسينياً بدئياً ظهر بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ ق ح، تلاه فاصل جفاف، ثم طور رطب ثاني بقي من ٧٠٠٠ إلى ٤٥٠٠ ق ح. من ناحية أخرى، افترض شابمن سيادة مناخ جاف بين ١١٠٠٠ و ٧٠٠٠ ق ح، تبعته فترة طور مطير ثانوي بين ٧٠٠٠ و ٤٥٠٠ ق ح. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن المؤلفين المستشهد بهم بنوا استنتاجاتهم على بيّنات مختلفة. فماك كلور دعم رأيه بوثائق وجود عدد من بحيرات «البلايا» في أوائل دور هولوسين في الربع الخالي، وبوجود بحيرة واحدة تتمثّل اليوم بـ «المندفن»، ويحتمل انها كانت أوسع ودامت مدة زمنية أطول. ويعثر على هذه البحيرات فوق الرمل الريحي الأحمر الذي توضع مباشرة في طور فرط الجفاف السابق. وتترافق مع نماذج أدوات صوانية، شاع اعتبارها «نيوليتية». وعثر على بقايا بقرية في بعض التوضعات المتأخرة، وخلافاً لذلك، على القليل جداً من غبار الطلع، واستعيد مقدار ضئيل من الرخويات والصدفيات والطحالب والطحالب المجمعة (دياتوم) وشوكات الاسفنج والمستحاثات النباتية.

من جهة أخرى، بنى هوتزل وزوتل تحديد تواريخهما على تحليل حجم الحبّة، وعلى توزيع جناحيات الأقدام الذي اختبره ل. ديستر ـ هاس على رواسيب مأخوذة من

الخليج العربي. علاوة على ذلك، يستشهدان بدراسات متممة أجريت في خليج عدن وفي افريقية، توحي بوجود تناوب أطوار جافة وأطوار رطبة في أوائل دور هولوسين. وربطا هذا الوضع، على العموم، بما يسمى الطور «النيوليتي» الرطب، المدعوم بوثائق من حوضة دمشق. وقطعا، توحي الرواسب البحيرية الملحوظة في أودية حنيفة واللحي وعلى أطراف الأحساء والربع الخالي بوجود جريان سطحي محدود وتساقط (فصلي) أغزر. ولعل هذه الحالة تتأيد بالمستويات المبكرة في التسلسل الرسوبي في عين التل في عين قناص.

خلافاً للتسلسل الموصوف من قبل، اقترح لارسن حديثاً تحديد تاريخ الأطوار شبه المطيرة التي ناقشناها، بحوالي ٩٨٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق ح، وأعقبها ألف سنة من الجفاف ثم طور شبه مطير آخر قرب الهفوف وأبقيق في شبه جزيرة العرب الشرقية. وفي وقت لاحق عرض طور تجفّف دام معظم الألف الثاني ق.م، مع بيّنة تثبت تكوين برك وتشكّل مستنقعات في الهفوف في أيام المسيح، فيحتمل أن يدلّ الوضع على بداية طور رطب نسبياً، معاصر لتزايد ثابت في الاستيطان في المنطقة في عهد السلوقيين والفرثيين.

ويعتبر غنى طبقات المياه في جزيرة العرب الشرقية هاماً جداً بالنسبة إلى تاريخ الحضارة اللاحقة في هذه المنطقة. فبدءاً من أواخر الألف الرابع ق.م في الحد الأدنى، كانت مياه عيون واحة الهفوف الارتوازية تصرّف باتجاه الشمال الشرقي، وتصب في الخليج العربي بشكل نظام بحيرات ومجاري ماء متصل بعضها ببعض. أما الآن وقد أعيد تشغيل هذا النظام لنقل الماء في الري الحديث بعيداً عن الوادي فيمكن رؤيته بوضوح في صور القمر الصناعي للمنطقة. وتتراوح تواريخ الكربون ١٤ المصححة التي أجريت على مواد عضوية موجودة في الرواسب أكثرها صدف ـ بين ٣٧٣٠ سنة ق.م وبين العهد الإسلامي. ويمكن تعليل توقف «نهر الهفوف»، كما يسمى أحياناً ـ عن الجريان بعد العهد الإسلامي الباكر، بحركة الكثبان الرملية التي تشمل جزءاً من ذراع الجفورة من الربع الخالي، عبر درب يؤدي مخرجه إلى الخليج. فسلسلة السباخ التي تمتد من واحة الهفوف باتجاه الشمال الشرقي نحو الخليج، يمكن أن تمثل مساحات من المياه المستنقعة المتشكلة نتيجة الاحتجاز. مع ذلك، كان هذا النظام الساحلي مصدر المياه لشبكة ري واسعة استفيد منها في العهد الهلنستي.

وتتزود البحرين أيضاً من الطبقات المائية ذاتها التي تموّن جزيرة العرب الشرقية،

وتغذّي العيون الفوّارة نفسها النابعة تحت سطح مياه خليج البحرين. وقد حفرت آبار في البحرين تسحب الماء من هذه الطبقات في وقت مبكر من أواخر الألف الثالث ق.م في الحد الأدنى، كما هو ثابت من بئر في بربار، وتكثر جداً الآبار المبطّنة بالحجارة المحفورة باليد في جزيرة العرب الشرقية، ويعود تاريخها إلى العهد الهلنستي وما بعده.

مع ذلك، تزايد جفاف المناخ كثيراً منذ حوالي العام ١٣٠٠ ميلادي. واليوم يبلغ متوسط حرارة الخليج العربي ٣٠,٦° إلى ٣٦,٨° درجة مئوية في الصيف (من أيار إلى أيلول)، ويتراوح بين ١١° و ٢٢,٢° في الشتاء (من كانون الأول إلى شباط). ويتراوح متوسط الرطوبة بين ٣٧ و ٦٢,٩٪ في الصيف، وبين ٦٤,٦ و ٧٣,٣٪ في الشتاء. ثم إن تساقط المطر ضئيل وتباينت تبايناً هائلاً متوسطاته السنوية المسجلة بين ١٩٦٦ و ١٩٧٤، ولكنها كلها منخفضة: ١٢٩ مم(؟) في الكويت، ٧٣,٧مم في البحرين، ٧١,٤/٧٥مم في الظهران، ٧٢,٩مم في أبقيق، و١٠١,٦مم(؟) في مسقط، (وان كان لا بدّ من الإشارة إلى ان احتمال كون هذه الأرقام غير دقيقة تماماً في حالات لم تحفظ فيها تسجيلاتها بشكل ملائم).

جـ ـ الرياح السائدة في الخليج العربي

تهبّ رياح شمالية قوية، يتميز بها الخليج العربي في أيامنا الحاضرة. وتعصف أهمها في شهر حزيران وأوائل تموز، عندما تأتي الشمال. فالبر الآسيوي يتسخّن في أواخر أيار وأوائل حزيران، ويحدث فيه نظام ضغط منخفض، يتصف بهبوب رياح تتجه عكس عقارب الساعة. ولما كان ساحل جزيرة العرب الشرقي واقعاً على الطرق الجنوبي الغربي من هذا النظام، فهو يتلقى ريح الشمال من الجهة الشمالية الغربية. ويمكن أن تهبّ عليه أحياناً رياح سرعتها ٤٠ ـ ٥٠ كم/سا تدوم يومين أو ثلاثة أيام متواصلة. وتهدأ الرياح حوالي منتصف شهر تموز، عندما تعدّل أنسام البحر المتقلبة نظام الرياح السائدة. بالفعل، يؤدي ضعف عمق الماء في الخليج إلى حصول تقلبات قصوى وسريعة في حرارة الماء، يحتمل ان تنشأ عنها مخططات رياح محلية عديدة. فشهر آب هادىء على العموم. وفي أوائل تشرين الثاني، قد تظهر تأثيرات منخفضات جوية (سيكلونات)، تأتي من خارج المدارين، وتتحرك من البحر المتوسط باتجاه الشرق، بصورة عواصف مبكّرة. وتبدأ فترة رياح شمالية قوية حوالي شهر كانون الأول، وتبلغ أقصى شدة لها في شهر شباط. ويغلب هبوب الرياح الشمالية خلال

العام، رغم اختلاف اتجاهات الرياح في أثناء العواصف الشتوية. وقد جاءت متوسطات اتجاهات الرياح الشهرية الغالبة المسجلة في الظهران بين ١٩٦٦ و ١٩٧٤، كما يلي: شمالية غربية في كانون الثاني، شمالية شمالية غربية في شباط، شمالية من آذار إلى تموز شمالية شرقية في آب، شمالية في ايلول، شمالية غربية من تشرين الأول إلى كانون الأول. ويبدو منطقياً الافتراض بان السفن كانت تستفيد من الرياح الشمالية الغربية الغالبة لتبحر من بلاد ما بين النهرين إلى أسفل الخليج في العصور القديمة.

وتوحي دراسات ارتصاف الكثبان الرملية وبنيتها في الربع الخالي في غضون العقود الثلاثة الأخيرة، ان مخطط الرياح الحالي في هذه المنطقة لا يمكن أن يكون قد تغيّر كثيراً خلال الـ ٣٥٠٠٠ سنة الماضية. ويحتمل ألاّ يكون قد تغير البتة خلال دوري البليستوسين والهولوسين. إضافة إلى ذلك، يهمنا أن نشير إلى أن كثباناً مؤلفة من رمال ريحية قد عثر عليها في خليج سلوى، أي مجمع الماء الفاصل ساحل قطر الغربي عن جزيرة العرب الشرقية. ويمكن تأريخها على الأرجح بحوالي ٦٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م، أي ضمن المدى الزمني للحضارات المبكّرة للصيد والالتقاط في منطقة الخليج. إذن هذا يعني فقط ان خليج سلوى لم يكن موجوداً في ذلك الوقت. ويبدو ان رمالاً مماثلة مغمورة بالماء، مقابل أبو ظبي، قد حملتها الريح عبر السعودية عن طريق قطر ورصيف اللؤلؤ الكبير حوالي ٦٠٠٠ق.م. ويقترح ماك كلور ان «اشتداد الريح البالغة الجفاف، المستمر حتى الآن» ظهر حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م، عند اقتراب الهولوسين شبه المطير من نهايته[١].

---

(١) تبدلات مستويات المياه وعناصر المناخ، مقتبسة من دون ـ بوتسن، وموسوعة بليّاد.



الفصل الثالث

الخليج العربي بحر واسع وبر شاسع

الخليج العربي بحر وبر: فبحره مجمع ماء قاري غني بثروته السمكية وبلآلئه النفيسة، وبره سواحل غنية بالنفط وبسائر المعادن التي لم تستثمر بعد، وتتألف من ٥ أقاليم من دار الإسلام. وفوق هذا وذاك، بحره وبره محورا التجارة العالمية، والاقليمية، والمحلية في ثلاثة اتجاهات. وقد قسمه الجيولوجيون إلى ثلاث مناطق كبرى.

أولاً ـ الخليج العربي مجمع مائي قاري

ويتفرّع الخليج العربي من بحر عُمان، أي الجزء الغربي من بحر الهند، ويستطيل بين خليج عُمان والبصرة في العراق. ويبقى ضيقاً نسبياً في جميع الأماكن وضحلاً في جميع أقسامه.

آ ـ أقسام الخليج العربي

يتألف الخليج العربي من ثلاث مناطق بنيوية متميزة تابعة للرصيف العربي، وهي:

١ ـ حوضة الخليج العربي الشمالية، التي تعدّ امتداد منخفض بلاد ما بين النهرين، وتنفرد بمتوسط أعماق مقداره ٣٠ متراً تقريباً.

٢ ـ المنبسط الداخلي، الذي يشمل معظم جزيرة العرب الشرقية الحالية والبحرين وقطر وما يقابلها من المجمع المائي.

٣ ـ وثُلُثُ الخليج الجنوبي الضحضاح، الذي تقع فيه مغائص اللؤلؤ الكبرى، وهو في أصله قسم من الربع الخالي.

ويقلّ متوسط الأعماق في الخليج عن ٤٠ متراً. أما أعماقه حول محوره الرئيس، فتتراوح بين ٧٥ و ٩٠م. وقد اكتشف فيه أخدود أعماق كبيرة نسبياً واستثنائياً، تتراوح بين ١٧٣ و ٣٠٢م وتقع شمالي رأس مسندم مباشرة. وهذه معطيات عامة، نودّ أن نفصّلها على الوجه التالي.

ب ـ أبعاد الخليج العربي

ويلخّص الجدول التالي المسافات بين الأماكن الرئيسة في الخليج العربي وخليج عُمان.

المسافة بالكم	من	إلى	المسافة بالكم	من	إلى
٣٢٠	مدينة الكويت	بندر خور	٧٠	مدينة الشارقة	جزيرة أبو موسى
٢١٠	بندر الأحمدي	جزيرة خارك	١٠٠	مدينة الشارقة	جزيرة طنب الكبرى
٢٦٨	رأس الفاو	جزيرة خارك	١١٥	مدينة الشارقة	جزيرة صرّي
٣٢٠	رأس الفاو	مدينة بوشهر	١٣٠	رأس الخيمة	مدينة لنجة
١٧٥	جزيرة نخيلوه	جزيرة أبو علي	٨٥	رأس الخيمة	جزيرة أبو موسى
١٩٠	رأس تنورة	رأس الطوف	٧٤	رأس الخيمة	جزيرة طنب الكبرى
٣١٠	مدينة المنامة	مدينة بوشهر	٩٠	رأس الخيمة	جزيرة هنجام
١٩٠	مدينة المنامة	جزيرة نخيلوه	٥٠	جزيرة الغنم	جزيرة هنجام
٢٣٢	مدينة المنامة	بندر طاهري	٥٠	رأس مسندم	جزيرة لارك
٢٣٠	مدينة المنامة	رأس نابند	١٨	جزيرة لارك	جزيرة جرون
٤٥٠	مدينة المنامة	مدينة لنجة	١٠	جزيرة جرون	شاطىء كرمان
٥٠٠	مدينة المنامة	مدينة الشارقة	٤٦٥	مسقط	بندر عباس
١٨٠	رأس ركن	راس نابند	١٥٠	الفجيرة	حاسك
١٥٠	الشارقة	بندر لنجة	١٤٠	رأس سركان	حاسك

ويتضح من هذا الجدول أن عرض الخليج العربي يتروا‌ح بين ١٥٠ و ٢٠٠ كم فقط. لكن يبلغ طوله ما يقارب ألف كم من الفاو إلى رأس مسندم، وعرض مدخله، مضيق هرمز، حسب التعبير الأوربي، حوالى ٨٠ (ثمانين) كم بين ساحل جزيرة العرب وساحل إقليم كرمان. ولا تعني هذه الأرقام أن الملاحة فيه ممكنة في جميع أرجائه على حد سواء، بل الواقع انها ترتبط بوجود أعماق بحرية ملائمة لها.

جـ ـ الأعماق البحرية في الخليج العربي

وتتباين الأعماق في الخليج العربي، وتظلّ ضئيلة على وجه الإجمال. وتختلف في مدخله عما هي عليه قرب الساحل الغربي أو الساحل الشرقي أو في الباحة، أعني عرض البحر.

١ ـ الأعماق في مضيق هرمز

فالأعماق في مدخل الخليج تهبط إلى عشرة أمتار، وتصل أحياناً إلى ٤٥ متراً. إلا أن طريقين مائيتين تتميزان فيه، إحداهما شمالية، قريبة من جزيرتي قوين،

تستخدمها حالياً السفن القادمة إلى الخليج، والأخرى جنوبية، قريبة من شبه جزيرة مسندم، تختص بالسفن المغادرة له. وهاتان الطريقان مفصولتان بمياه أقل عمقاً عرضها نحو كيلومترين، بينما الأعماق في طريقي الدخول والخروج تبقى بين ٤٥ و ٦٠ متراً.

٢ ـ الأعماق على مقربة من الساحل الغربي

أما أعماق مياه الخليج على مقربة من الساحل العربي من رأس مسندم إلى الكويت، فضعيفة جداً. والشواطىء رملية مليئة بالسباخ، غالباً ما تنتشر مقابلها مجموعات من الجزيرات الصغيرة. وإذا اعتمدنا على التقارير الأجنبية القديمة عن أرصفة غوص اللؤلؤ (المغاصات) من رأس مسندم إلى القطيف، حصلنا على أرقام تتراوح بين ٣ ـ و٦ قامات(٥,٥م إلى ١٤,٥م). والجزيرة هنا غير مأهولة، تغمرها مياه المد العالي، ويكشفها الجَزْرُ، كما هي الحال بين جزيرة تاروت وجون القطيف. وجزيرة فيلكة ذاتها في شمالي غربي الخليج، منبسطة السطح (٢٠ كم٢، الطول: ١٠ كم، العرض ٢ كم) لا يبرز منه فوق مستوى الماء سوى نتوءات علوها ٥,٥ م فقط، والباقي يطغى عليه الماء عند المدّ.

٣ ـ الأعماق على مقربة من الساحل الشرقي

وأما مياه الخليج على مقربة من الساحل الشرقي، أي ساحل خوزستان وفارس وكرمان، فأعمق مما هي عليه مقابل الشواطىء العربية، في بعض الأماكن فقط، إذ يقول تقرير هولندي يعود إلى القرن السابع عشر، ان عمقها مقابل جزيرة خارك ١٢ ـ ١٨ قامة (٢٢ إلى ٣٣ متراً) إلا أن في شماليه ما يسمى «الخشبات، وهي الطامّة الكبرى: مضيق وبحر رقيق. وقد نُصب في البحر جذوعٌ عليها بيوتٌ ورُتّب فيها قومٌ يوقدون بالليل حتى يتباعد عنهم المراكب من رقّة تلك المواضع»[1]. وتتناقص الأعماق جنوبي خارك، حوالي جزيرة قيس، وفي مغايصها إلى ٣ ـ ٦ قامات.

٤ ـ الأعماق في الباحة أي عرض البحر

ويوحي اصطلاح الباحة أو عرض البحر عادة بوجود أعماق بحرية سحيقة. وهذا صحيح فيما يتعلق بالمحيطات وبمياه البحار الكبيرة البعيدة عن البر. أما في الخليج العربي، فجميع الأعماق في الباحة ضئيلة، تقلّ عن خمسين متراً على وجه العموم، ما عدا رقعة ضيقة بين شبه جزيرة قطر ورأس مسندم. حيث يبلغ العمق مائة متر ومترين وأكثر من ذلك إذ يصل إلى ١٧٣ و٣٠٢ م.

وهكذا نرى أن الخليج العربي ضحل إذا ما قورن لا بالمحيطات، بل بالبحار المفتوحة من جهة واحدة مثله، كالبحر المتوسط.

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢.

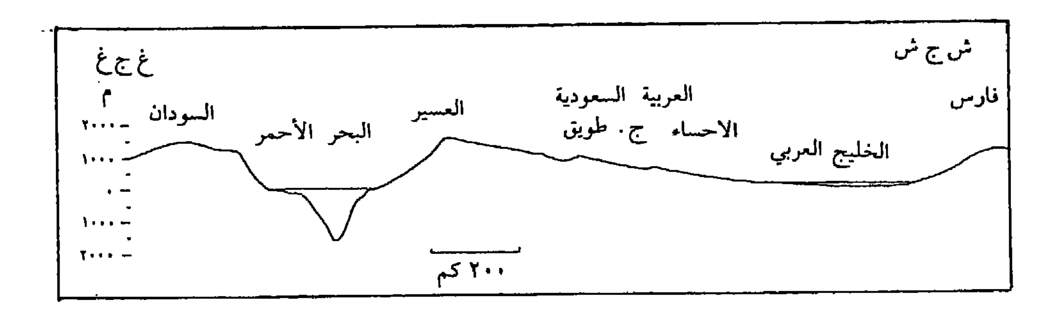
ثانياً ـ سواحل الخليج العربي وجزرها

يرتبط نشوء سواحل الخليج العربي الثلاثة ـ الغربي والشرقي والشمالي ـ وشكلها، بالحركة البنيوية، والخصائص المائية، ونظام الرياح، والتغيرات الجغرافية الكبرى القديمة. فلا بدّ من تلخيص تأثير هذه العوامل في نظرة عامة، قبل وصف السواحل إفرادياً(١).

آ ـ نظرة عامة إلى العوامل المؤثرة في تكوين سواحل الخليج

١ ـ الحركة البنيوية

الخليج العربي بحر ضعيف العمق، تمتدّ قرب شواطئه سواحل منخفضة في الغرب والشمال وسواحل أعلى منها قليلاً في الجهة الشرقية، مثلما يتضح من المقطع العرضاني التالي:

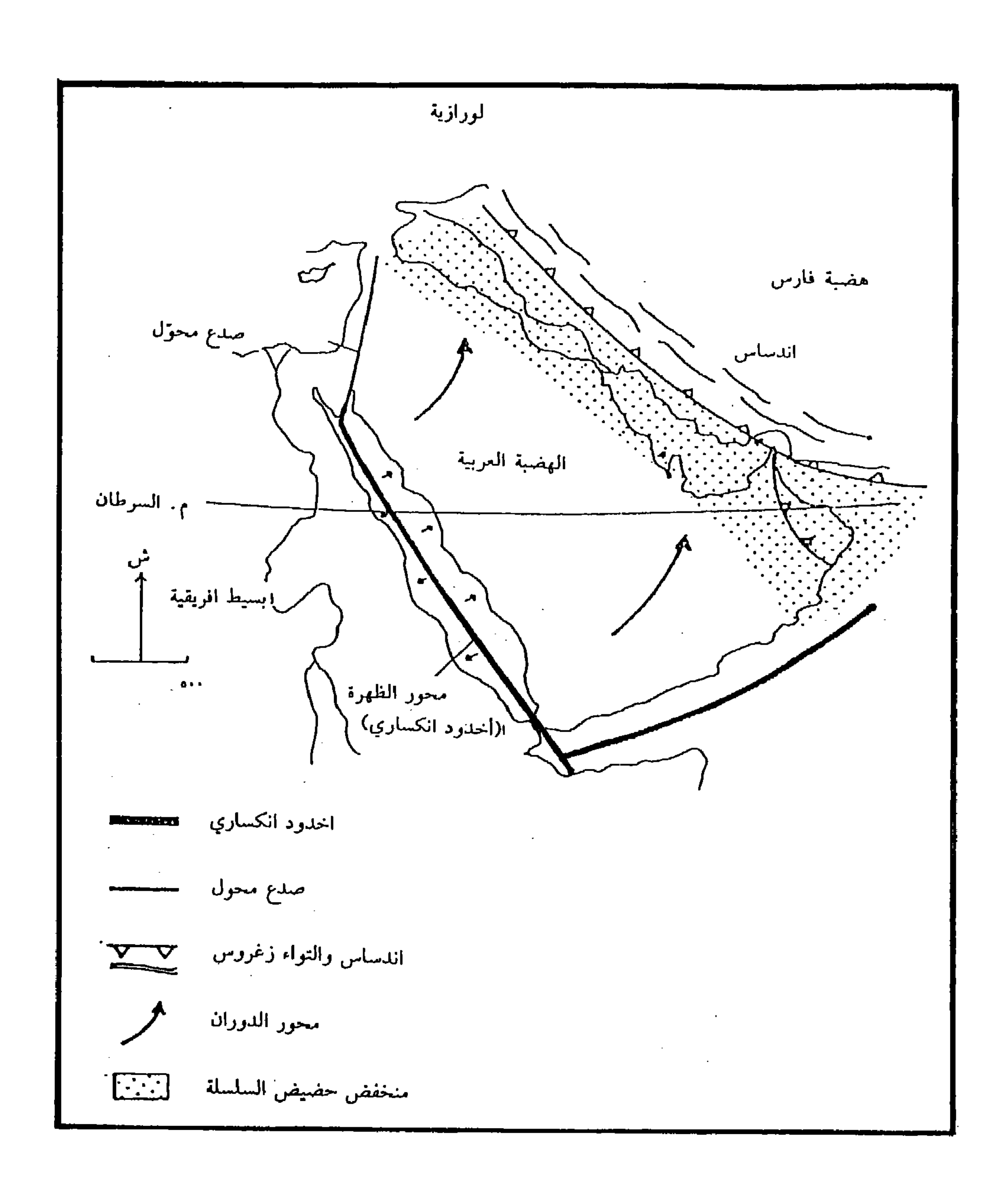


شكل ١ ـ مخطط مقطع عرضاني من السودان إلى فارس، عبر جزيرة العرب والبحار المجاورة لها

ويعلّل هذا التباين بميل شبه جزيرة العرب من الغرب إلى الشرق باتجاه الخليج والعراق، وباندساس رصيفها تحت هضبة فارس، مما أدّى إلى رفع طرف هذه الأخيرة المشرف علي الخليج نحو الأعلى ثم التوائه، كما يشاهد على المخطط البنائي العام الآتي:

---

(١) انظر بول سنلافيل بحران في وسط الصحراء، البحر الأحمر والخليج العربي الفارسي، في «جزيرة العرب والبحار المجاورة لها»، ١٩٨٨. ومحمد عبد النعيم، ما قبل التاريخ وأوائل التاريخ في شبه جزيرة العرب، الجزء الأول، الفصل الأول. المدخل. (١) البيئة الطبيعية.



شكل ٢ ـ مخطط بنائي عام لتشكل البحر الأحمر والخليج العربي

لكن جميع السواحل وطيئة ومستوية على العموم، بخاصة من الجهة الغربية. إلا أن رؤوساً صخرية قليلة الأجرف، تحدد مساحات جَزْر رملية ـ وحلية تجاورها بحيرات شاطئية واسعة وضحلة، تنردم شيئاً فشيئاً، وتتحول إلى سباخ تغمرها المياه دورياً، ويتوضع فيها الحصى والملح (لا سيما في المنطقة الشرقية السعودية وفي جنوبي دولة الإمارات). وينحصر وجود المرجان فيها على الشواطىء السعودية وفي البحرين وقطر، وعلى الواجهة الشمالية في الجزر الصغيرة التي تنتثر في جنوبي الخليج. أما الساحل الشرقي، فأشدّ انحداراً ووعورة، لأن جبال زغروس وامتدادها تطلّ عليه.

٢ ـ الخصائص المائية: المد والجزر والتيارات المائية

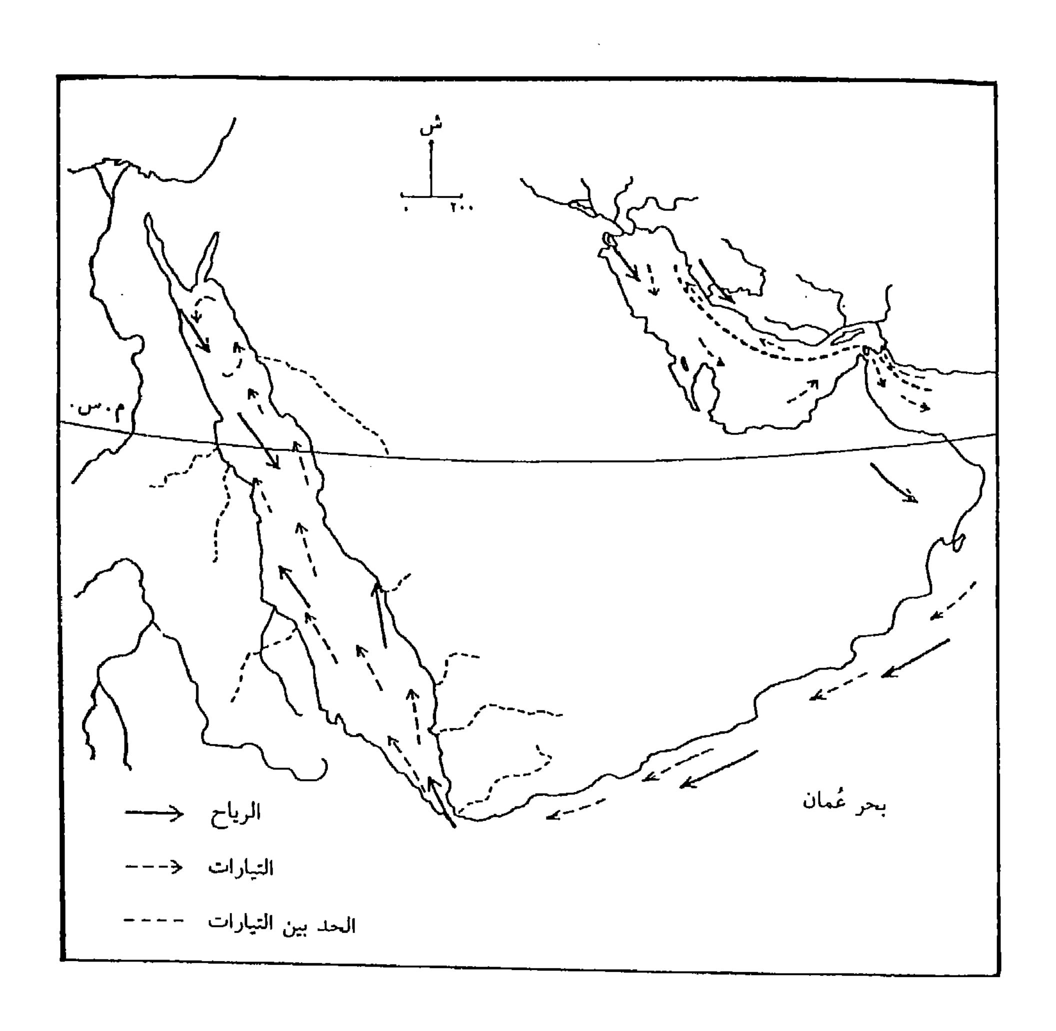
يتعرّض الخليج العربي إلى مدّ وجزر هامين نسبياً. فموجة المدّ العارمة تنشأ في بحر العرب، ويتبدّل شكلها، وتحدث، تبعاً لنوعية خط الشاطىء وتضاريس الأعماق، حركة مدّ أو جزر نصف يومية تتفاوت بوضوح (مدّ كبير ومدّ صغير في كل نهار) أو مدّاً وجزراً يومياً، كما بين قطر وأبو ظبي. وارتفاع المدّ عالي على وجه الإجمال، يبلغ متراً في دبي، ومتراً ونصف متر في أبو ظبي، و ٢,٥ م في البحرين، و ٣,٥ م في بندر عباس والكويت، وأكثر من متر في البصرة على بعد ١٥٠ كم عن البحر، حيث يتسبب بغمر حقول النخيل. وتساهم الرياح والضغط الجوي بتضخيم أو تخفيف تأثير المدّ والجزر. فعندما تهبّ ريح الشمال، يمكن أن يرتفع مستوى البحر متراً ونيفاً في واجهة قطر الغربية، بينما ينخفض ما يقرب من ٦٠ سم شرقيها.

ويحدث المدّ والجزر تيارات مائية محلية شديدة أحياناً. إلا أن نقص الماء في الخليج، الناشىء عن التبخّر الشديد، يؤدي إلى نشوء تيار ماء عام ينقل مياه المحيط الهندي إلى الخليج، ليعوّض عن فقدان المياه بالتبخّر. ويتضح هذا التيار بجلاء تام في وقت هبوب الموسميات الجنوبية الغربية على وجه التخصيص. ويفرض دوران الأرض المحوري سير التيار عكس اتجاه عقارب الساعة، فيصاقب أولاً الساحل الشرقي، ثم ينعطف عند رأس الخليج، ويرجع مجارياً الساحل الغربي (شكل ٣ و ٤).

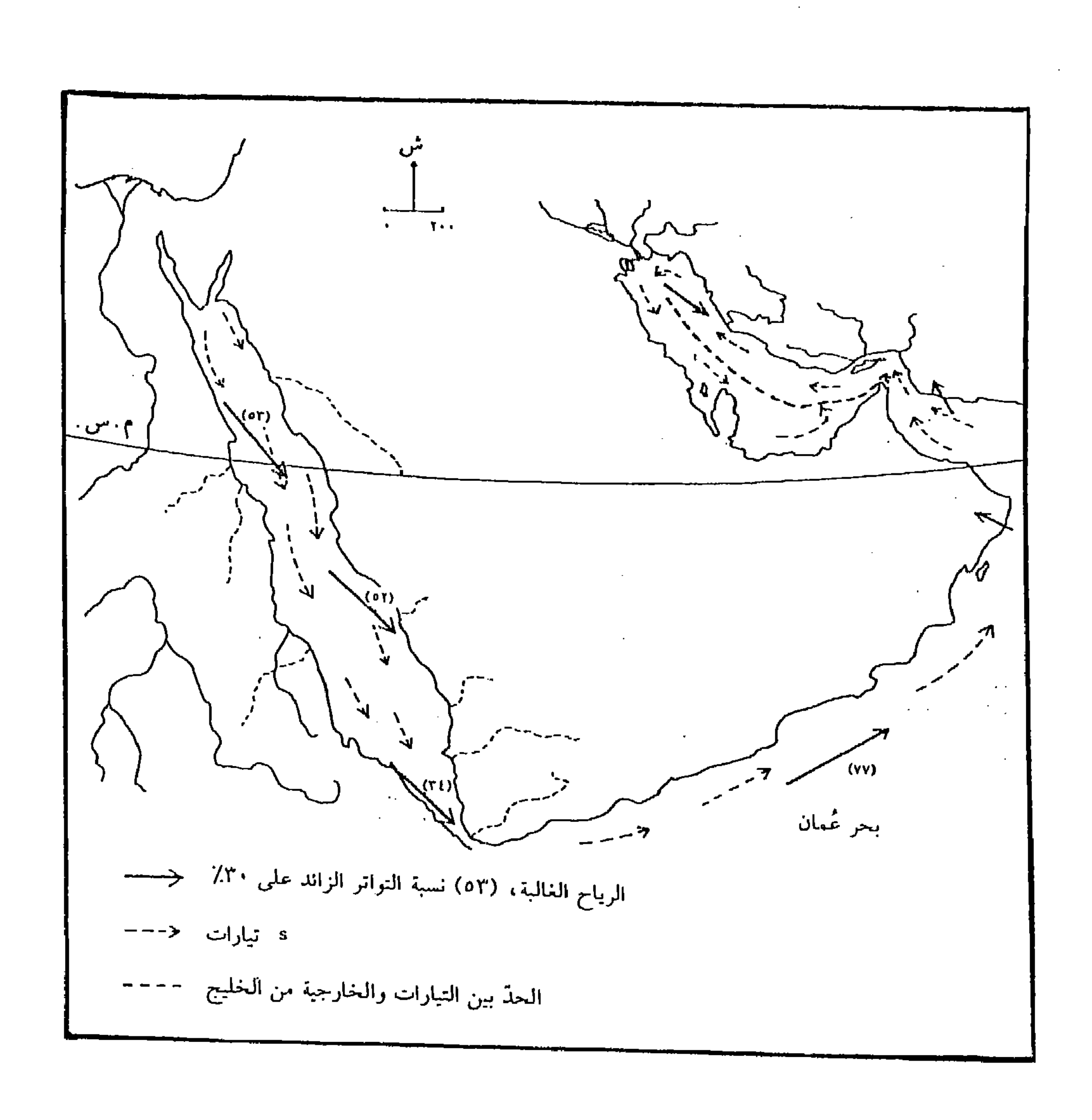
٣ ـ نظام الرياح المعقّد

لا تصل الرياح الموسمية إلى الخليج العربي، ولا المنخفضات الجوية (السيكلونات) المدارية. ويتعقّد فيه تبدّل الضغط الجوي، إلا أن الضغوط المنخفضة تسود إجمالاً. وتهبّ عليه ريح شمالية خلال معظم العام. وتكون معتدلة ومنتظمة

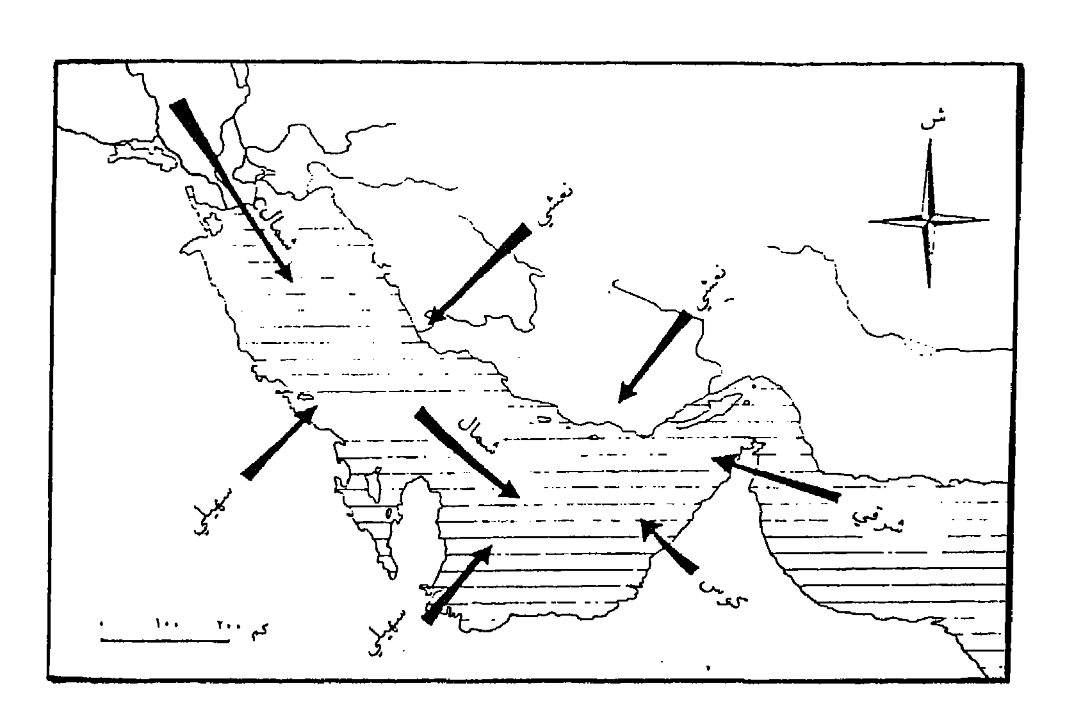
عامة، وشديدة وعاصفة أحياناً، لا سيما في الشتاء عند مرور الجبهات الباردة، لكنها تسبق في الغالب وفي الشتاء، وصول الاضطرابات الجوية. وتهب على الخليج أيضاً رياح آتية من القطاع الغربي والشرقي. ويحدث هبوب الرياح الشديدة أمواجاً واسعة تدوم فترة قصيرة، لكنها قاسية وخطرة على الملاحة، وتثير عواصف غبار، وتنشّط الحتّ الريحي.



شكل ٣ ـ الرياح الغالبة والتيارات المائية البحرية في كانون الثاني، حسب المرشدات الملاحية



شكل ٤ ـ الرياح الغالبة والتيارات المائية البحرية في تموز، حسب المرشدات الملاحية



شكل ٥ ـ أنظمة الرياح الرئيسية في الخليج العربي

٤ ـ التغييرات الجغرافية الكبرى القديمة

أخيراً ينبغي أيضاً أخذ التغييرات الجغرافية الكبرى القديمة بعين الاعتبار. فالخليج مثلاً كان جافاً تماماً منذ ٢٠٠٠٠ سنة. وكان شط العرب يصبّ مباشرة في خليج عُمان. ولا ريب أن طغيان البحر الذي أعقب العصور الجليدية كان هائلاً، فبلغ غمره مستواه الأعظم بين ٦٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة ق م. وكان مستوى الشاطىء آنذاك يعلو ما بين متر ومترين عن مستواه الحالي، ويصل الغمر إلى بحيرة الحمّار والعمارة على نهر دجلة. ثم ردمت اللحقيات القسم الشمالي من الخليج في بلاد ما بين النهرين الوطيئة حتى أوصلته إلى مستواه الحالي.

ب ـ الساحل الغربي أي الساحل العربي، وجزره

الساحل الغربي أو العربي سهل عريض، يميل ميلاً لطيفاً من الغرب إلى الشرق، دون أن يصل ارتفاعه إلى ٢٠٠ م فوق مستوى مياه الخليج إلا بعد التوغّل ٣٠ إلى ٦٠ ميلاً في داخل جزيرة العرب في معظم الأماكن، وعدة مئات من الأميال عند طرفيه

الشمالي والجنوبي. ويخلو من المجاري المائية الدائمة الجريان أو المتقطعة، الصابّة في الخليج، رغم وجود أسرّة رملية طويلة غير واضحة تماماً، تخترق البسيط الداخلي. ويتميّز مناخه بصيف حارٍّ جداً رطوبته شديدة.

١ ـ ساحل الكويت

ويبدو معظم سطح الكويت صلباً. وهو حصوي شمالي خط عرضاني يذهب من مدينة الكويت إلى الجهرة، فالحدود الغربية، ورملي جنوبيه. وينبسط ويصلب، ويصبح حصوياً في جميع الأماكن الأخرى من الشقّة إلى وادي الباطن. وينفتح فيه خور واسع، عرضه ٣٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب، مدخله بين مدينة الكويت وقصر الصبية الواقعتين على رأسين بارزين في جنوبه وشماله، تقابلهما جزيرة فيلكة (ايكاروس) على بعد ٢٥ كم من مدينة الكويت.

٢ ـ ساحل الاحساء

ويمتد ساحل الاحساء من حدود الكويت إلى حدود قطر، وتتناوب فيه الأراضي الرملية والحصوية والمالحة التي تتخللها أحزمة طمي. ويسود فيه مناخ حار وجاف، رطوبته عالية وشتاؤه عرضة لزخّات مطر قصيرة غير منتظمة. ويمتلك طبقة مائية جوفية واسعة تحت سطحه الأوسط من الهفوف إلى ما وراء البحرين وبعدها قليلاً، تعتمد عليها واحات الاحساء الكبيرة الموزعة على أكثر من ٤٠ ميلاً طولاً. ويسترعي الانتباه جبل قارا الواقع في وسط واحة الهفوف، المؤلف من رمل أحمر قرنقلي. وهو تلّ أعلاه مستوي حوّله الحتّ الشديد إلى خوانق وأعمدة، وفي واجهته الجنوبية كهف متشعّب واسع يشكل ملاذاً طبيعياً يحمي من القيظ.

٣ ـ ساحل قطر

وقطر شبه جزيرة كثيبة مساحتها ٤٠٠٠ ميل مربع، تندفع في الخليج باتجاه الشمال، وتشكّل هضبة كلسية ترتكز على سفحي محدّب إيوسيني اتجاهه شمالي جنوبي، تخدّدت بالغسل السفحي والانحلال الكارستي، خاصة في محدّب دخان، فأصبحت منخفضات وتلالاً متنوعة، يتخذ معظمها شكل مناضد أو أجرف طويلة، يعلو فيها الكلس القاسي الكلس اللين، ويقلّ ارتفاعها عن ٢٠٠ قدم على وجه الاجمال. ويؤلف معظم سطحها صحراء حصوية. وساحلها وطيء، تتناوب فيه السباخ الرملية والحصوية والملحية، المستندة أحياناً إلى مناضد كلسية منخفضة، وتفرّضه أخوار ضحلة عديدة وبحيرات شاطئية وأجوان ضيقة.

٤ ـ ساحل الإمارات

ويعرض ساحل الإمارات في إمارة أبو ظبي، ويضيق في إمارة رأس الخيمة. وتتميز منطقته في إمارة أبو ظبي بكثرة مستنقعاتها الضحلة وبسباخها. والسبخة، لغة، أرض ذات ملح ونزّ. والسبخة عملياً وعلمياً بسيط من الأرض مالح، تحته غضار وطمي ورمل. ويفرّق بعض الباحثين السباح الشاطئية عن السباخ الداخلية لا سيما عندما يقارنون سباخ أبو ظبي بسباخ المنطقة السعودية الشرقية. لكنهم يقولون إن نشوءها كلها تمّ في وقت واحد إثر انسحاب مياه الخليج من داخل جزيرة العرب الشمالية الشرقية بعد وصولها إلى مستويات عالية في البليوسين الأعلى (١٥٠ م فوق مستوى البحر الحالي) وفي البليستوسين (٧ ـ ١١ متراً فوق مستوى البحر الحالي). لكن يظل مستوى الماء الجوفي قريباً جداً من سطح السبخة. وتكثر المياه فيها في الشتاء، حتى إن المار عليها يغوص حتى ركبتيه. أما في الصيف فيجفّ سطحها ويتصلب حتى يسهل اجتيازها بالسيارة دون التعرّض إلى أي خطر.

وتمتد منطقة سباخ إمارة أبو ظبي على مسافة ٣٣٠ كم، بدءاً من خور العديد على حدود قطر. ويختلف عرضها من مكان إلى آخر، فيبلغ ١٥ كم قرب جزيرة أم النار، وأحياناً ٣٠ و٩٠ كم في حالات استثنائية.

وفي إمارة رأس الخيمة، يضيق الساحل كثيراً في الشعم على حدود عُمان. ثم يزداد اتساعه شيئاً فشيئاً على طول ٤٠ ميلاً حتى جزيرة الحمراء، ويؤلف رملة متدرّجة، رمالها بيضاء دقيقة، تصل إلى سبخة مشبعة بالماء تجاور الأخوار عند خور الخوير والرمس ورأس الخيمة، وتنتصب فيها أجرف رملية شديدة الانحدار على بعد ثلاثة أميال تقريباً جنوبي رأس الخيمة. وتلتصق هذه التلال الرملية بجنوبي شرقي السبخة. وتنتشر على خمسة أميال باتجاه الداخل، وتتجه ذراها من الشرق إلى الغرب، وترتفع إلى علو ١٣٠ قدماً.

٥ ـ الجزر الرئيسة على مقربة من الساحل الغربي

تقلّ الجزر مقابل القسم الشمالي من ساحل الخليج العربي، وتكثر مقابل قسمية الأوسط والجنوبي. ففي الشمال تقع جزيرة فيلكة الكويتية، وفي الوسط جزيرة تاروت وجزر البحرين، وفي الجنوب أرخبيل جزر إمارة أبو ظبي، وجزر أخرى تابعة لإمارتي الشارقة ورأس الخيمة. وما نذكره هو الرئيسي منها فقط. فجزيرة فيلكة تقع على نحو ٢٥ كم شرق شمال شرق مدينة الكويت عند العرض ٣٠″ ١٥′ ٢٩° شمالاً، والطول

الشرقي ٣٠" ١٥' ٤٨°. ويبدو شكلها العام تقريباً كهلال يتجه طرفاه إلى الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، ويبلغ طول محوره الكبير ١٠ كم وعرضه ٢ كم وسطياً. ومساحتها ٢٠ كم٢ في شمالها. ويتمثّل بحدبة من الكثبان والرملات القديمة المتصلبة، التي تعلوها تراكمات رملية حديثة، وتبلغ حدها الأعظم (٦,٥ م) في جنوبها الغربي، و ٦ أمتار في تل القصور الشاذ في وسطها. ويشكّل سطح فيلكة حوضة أو بسيطاً مقعراً جوانبه عالية، تشمل أجرفاً صغيرة متدرجة على الشاطىء الغربي والشمالي الغربي. مع ذلك يبلغ عرض منطقة المد والجزر فيها ألف متر تقريباً[1].

وجزيرة تاروت واقعة عند مدخل خور بندر القطيف، طولها مسيرة أربع ساعات إلى جنوبها، حقولها مروية جيداً ومزروعة نخيل. إذا مدّ البحر، أحاط بها وبأراضيها، وحوّلها إلى جزيرة، وإذا جزر، كشف المضيق الضحل الذي يفصلها عن البر الرئيس. وهي صغيرة مساحتها حوالي ٤ كم٢.

وجزر البحرين أرخبيل صحراوي، يبعد حوالي ٢٥ ميلاً عن ساحل الدّمام، ويقع عند طرف جون سلوى الشمالي، ويضمّ ٣٣ جزيرة مساحتها الاجمالية ٢٥٠٠ ميل مربع، معظمها في جزيرة البحرين وتستقرّ تلك الجزر على رصيف اللؤلؤ الكبير، فوق حيد ضحل من الصخور الكلسية. ويحيط بساحل البحرين، لا سيما الجنوبي، حاجز أدغال، يجعل الوصول إليها عسيراً من ذلك الجانب ما لم يكن بالزوارق الصغيرة. أما في جهتها الشمالية، فتستطيع السفن الكبيرة أن تقترب منها لوجود أخاديد عميقة قرب شواطئها. وأراضي جزيرة البحرين قاحلة على العموم، تشكّل محدّباً متطاولاً، تتناوب فيه جيولوجياً، طبقات الكلس الايوسيني الصلب وطبقات المارن اللين. وقد التوت كلها، وتقعّر وسطها بفعل الحتّ الذي خلّف حوضة بيضاوية مستوية السطح، تمتد على طول الجزيرة تقريباً، تطلّ عليها أجرف من الداخل، وينتصب فيها تلّ واحد علوه ١٥٠ م يسمى جبل الدخان. وأرض جزيرة البحرين لينة، فيها رقّ يغطي أكثر سفوح محدّبها وهضبتها الداخلية، ويتألف من حصى دقيقة يتراوح قطرها بين إنش وعدة إنشات، تعلو الرمل والطمي الواقعين تحتها.

وجزيرة أم النار إحدى جزر أرخبيل إمارة أبو ظبي. وهي صغيرة تتألف شواطئها من رملات منبسطة، يمتد وراءها سهل ساحلي لا يكاد يعلو عن مستوى سطح البحر،

---

(١) انظر بول سنلافيل، الوسط الطبيعي العام في فيلكة، في أعمال بيت الشرق رقم ١٨، فيلكة، الحفريات الفرنسية ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨.

يليه شريط سباخ شكّله خلال الألف السابع ق.م حتّ الرياح للكثبان الرملية وترسيب المدّ والجزر. فقد ارتفع مستوى البحر آنذاك، وطغا على السهل، وبلغ متراً فوق مستوى البحر الحالي في الألف الثالث، فتجزّأ السهل إلى جزر تجيط بها مياه ضحلة. ثم انخفض في الألف الثاني، وانردمت البحيرات الشاطئية تدريجياً. ويبلغ طول جزيرة أم النار حوالي ٣ كم وعرضها أقل من ٢ كم. وتخترق سطحها هضبة كلسية مغطاة بالصوان، مقسومة إلى هضبتين شمالية وجنوبية، بمنخفض رملي عرضه ٣٠٠ م إلى ٤٠٠ م(١).

وجزيرة غناصة إحدى جزر أرخبيل إمارة أبو ظبي أيضاً. وهي واقعة في خور يبعد ٧٥ كم عن دبي في الجهة الجنوبية، و ٦٥ كم عن جزيرة أم النار في الجهة الشمالية الشرقية. وتندس جزيرة طويلة بينها وبين البر الرئيس في الجهة الغربية، يفصلها عنها مضيق عرضه حوالي ٣٠٠ م. ويبلغ طولها ٤ كم، ويتراوح عرضها بين ٢ و ٢,٥ كم. وسطحها رملي على وجه الإجمال، فيه كثبان ترتكز على طبقة صخرية. وترتفع بضعة أمتار فقط، تقع في شمالها وغربها، وبعض جهاتها الوسطى، وتتخللها أحياناً بعض السباخ القديمة(٢).

ومن جزر الإمارات أيضاً، جزيرة طنب الكبرى، التي تبلغ مساحتها ١٩ كم٢، وطولها ١٢ كم، وعرضها ٧ كم، وتتميز بانبساط سطحها، ووجود مياه عذبة فيها وزراعة وتربية مواشي. وجزيرة طنب الصغرى التي تبعد ١٠ كم عن الكبرى من الجهة الغربية، ويبلغ طولها١ كم، وعرضها ٧٠٠ م ووسطها صخري تتخلله تلال لا يتجاوز أقصى علو لها ١١٦ متراً. وجزيرة أبو موسى متطاولة مساحتها نحو ٢٠ كم٢، وسطحها منخفض فيه بعض التلال مثل جبل الحديد الذي يرتفع إلى علو ٣٦٠ قدماً(٣).

جـ ـ الساحل الشرقي وجزره

يمتد الساحل الشرقي على شواطىء ثلاثة أقاليم، عُرفت عند الجغرافيين العرب الكلاسيكيين باسم خوزستان وفارس وكرمان.

(١) انظر مجلة الآثار، العدد الرابع ١٩٨٤، ص ١٠ ـ ١١.
(٢) انظر جزيرة أم النار، المجلد الأول، قبور الألف الثالث، ص ١٢ ـ ١٤.
(٣) انظر أحمد جلال التدمري، الوضع الجغرافي للجزر في كتاب الجزر العربية الثلاث، دراسة وثائقية، ص ٦٥ ـ ٧٠.

١ ـ ساحل خوزستان

فخوزستان أو عربستان القديمة تسمى أيضاً سوزيانه. واسم خوزستان أطلقه العرب على اقليمها عندما افتتحوها في القرن الثامن الميلادي. وهي تضمّ قسماً من سهل بلاد ما بين النهرين المنخفضة وطرف جبال زغروس الجنوبية، الذي يشرف عليه. وتقع بين العراق وفارس، ولها واجهة ضيقة على الخليج العربي. وأرضها مستوية إجمالاً، كثيرة المياه الجارية التي تجتمع وتعرض، فيقع فيها المدّ والجزر لاتصالها بالبحر.

٢ ـ ساحل فارس

وأطلق الفرس اسم بارسا Pārsa، واليونان اسم برسيس Persis على المرتفعات الجبلية التي تنتصب شمالي شرقي الخليج العربي[١]. وفي عام ١٩٣٥ أصبح «ايران» اسم فارس، وفي سنة ١٩٤٩، سمح باستعمال تسمية ايران أو فارس على حدّ سواء، إلا أن تسمية ايران غلبت. وتنحصر واجهة فارس المحدودة على الخليج بين خوزستان وبين كرمان. ويشرف على ساحلها الخليجي جبال فارس ولورستان، التي تعتبر امتداداً لجبال زغروس، وتتفرّع منها حيود تنتأ وتندفع نحو الخليج مؤلفة أشباه جزر، تقسمها إلى سهول ضيقة منعزلة وصغيرة، منها شبه جزيرة بوشهر التي يبلغ طولها ١٨٠، وعرضها ٦ كم، وتنفصل عن البر الرئيس بمنبسطات ضيقة عرضها ١٥ كم. ورأس الطوف وبقربه جزيرة نخيلوه وجزيرتا أم الكرم، ثم رأس نابند، وشبه جزيرة شيكوه العريضة التي تقابلها جزر لاوان وشتوار وهندرابي وقيس، ورأس لنجه الذي تقع جزيرتا فرور وجزيرة صرّي في جنوبه الغربي، وتتابع إلى شرقه جزيرة قشم وهنجام ولارك.

ولجزيرة خارك وقشم وقيس أهمية كبرى سيأتي الكلام عنها.

٣ ـ ساحل كرمان

يقع ساحل كرمان شمالي مضيق هرمز، بين ساحل فارس غرباً وساحل مكران شرقاً، ومفازة خراسان وسجستان شمالاً، والخليج العربي جنوباً. وأعلام مدن اقليم

---

(١) انظر تاريخ كمبريدج لايران، ايليا جرشفيتش، المجلد ٢، الفصل الخامس، ص ٢٣٨.

كرمان السير جان وجيرفت وبم وهرموز العتيقة وسطحها جروم أي أراضي مطمئنة شديدة الحرّ، وصرود أي مرتفعات شاهقة شديدة البرد. وتشكّل الجروم ٧٥٪ منه، وتمتد من هرمز العتيقة إلى حدود مكران شرقاً وفارس غرباً، وقصبة السيرجان في الوسط. وفي اقليم كرمان نهر ميناب الذي يصبّ في خليج يدعى خليج الخبر أو خليج هرموز، لوقوع هرمز العتيقة عليه. أخيراً جزيرة هرمز تابعة لاقليم كرمان تاريخياً ولسلطنة هرمز أيضاً.

٤ ـ الجزر الرئيسة مقابل الساحل الشرقي: خارك، قيس، قشم

تتوزع الجزر على مقربة من شواطىء الساحل الشرقي. وسوف نكتفي بالكلام عن ثلاث منها، هي خارك وقيس وقشم.

فخارك جزيرة صغيرة في بحر البصرة، لا تبلغ عشرين ميلاً. تبعد ٣٥ كم عن البر الرئيس، و٥٢ كم عن بوشهر. وهي قريبة من عبادان، وحولها مغاص لؤلؤ[١].

وجزيرة قيس أو كيش بالفارسية جزيرة في الخليج العربي ازدهرت في القرن الثاني عشر الميلادي بفضل الأمير ركن الدولة حسب السفرنامه. تبعد ١٧ كم عن البر الرئيس و ٢٨ كم عن جزيرة هندرابي و ٥٠ كم عن جزيرة لاوان. يقول عنها الأدريسي ما يلي: «جزيرة كيش جزيرة مربعة طولها اثنا عشرة ميلاً في عرض اثني عشرة ميلاً، وفيها مدينة كيش. فوليها عامل من اليمن فحصّنها وأحسن إلى أهلها وعمّرها وأنشأ بها أسطولاً، فغزا به بلاد اليمن الساحلية، فأضرّ بالمسافرين والتجار، ولم يترك لأحد مالاً، وأضعف البلاد، وانقطع بذلك السفر من عُمان، وعاد إلى عدن... وأخبر مخبر... أنّ عند صاحب مدينة كيش من هذه المراكب المسماة بالمشعيات خمسين مركباً كل واحد منها قطعة واحدة، وعنده من سائر المراكب الملفقة جملة عديدة. وبمدينة كيش زروع وأغنام وأبقار وكروم، وفيها مغائص اللؤلؤ الجيد[٢]. ولصاحب كيش... على التجار الذين يعاملون الغواصين شيء معلوم يقبض له في ديوان البيع منه ويبعث إليه بذلك ضريبة، وما وجد من الجوهر الغالي النفيس أمسكه الوالي...»[٣].

والقشم أكبر جزيرة في الخليج العربي، اسمها الحالي «الجزيرة الطويلة، والقديم

---

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٧٣.
(٢) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٥٦.
(٣) المرجع ذاته، ص ٣٩٠.

برخت». قال عنها أريان: «واقلعنا من هرموزية في رحلة ٣٦ ستاديوم، ومررنا بجزيرة قفراء مُدْغِلَةٍ. وحططنا قرب جزيرة أخرى كبيرة مأهولة. واسم الجزيرة القفراء أورغانا (= جرون) واسم جزيرة حطّنا أواركتا (= القشم)، المزروعة كروم عنب ونخيل وفيها كثير من الذرة[١]. وقال عنها علي ريس في كتابه المحيط: «ثم انطلقنا إلى جزيرة قيس أو هرمز العتيقة (كذا)، فجزيرة برخت، فبعض جزر البحر الأخضر، أي بحر هرمز»[٢]. ويسميها الأدريسي «جزيرة لافت»[٣] وابن كاوان[٤]، وياقوت الحموي «لافت» وبني كاوان[٥]. ويقول عنها أحمد بن ماجد: «الجزيرة التاسعة، وهي جزيرة بني جاوان، تعرف بجزيرة برخت والقسم، لأن القسم اسم محلة في رأس الجزيرة من المشارق والشمال، مما يلي هراميز. وهي معترج سلاطين هراميز. وبرخت متوسطة في الجزيرة، محلة فيها النخيل والزرع والدواب. وفيها قريب خمس مائة حائك يحوكون الثياب الحرير. ورأسها من المغارب المباني يسكنها العرب والعجم. وفيها خلق كثير، وفيها مراكب وزروع وبلدان بجميع دورتها. وهي جزيرة معترضة على البياقان في لشاتان»[٦].

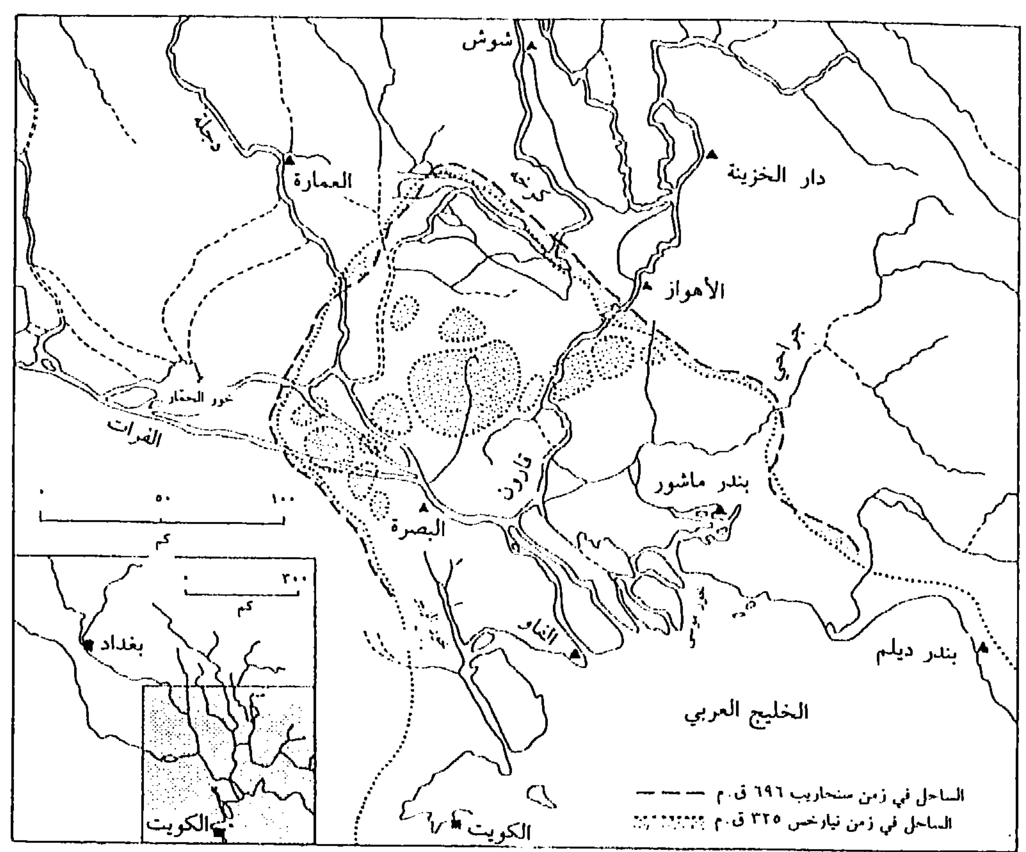
د ـ ساحل الخليج الشمالي

يتوزّع ساحل الخليج الشمالي أو ساحل رأس الخليج على أقليم خوزستان الشرقي وإقليم العراق الجنوبي والكويت الشمالية الشرقية. ويسمى دلتا أنهار الفرات ودجلة وقارون. وقد درسه العلماء الغربيون منذ القرن التاسع عشر[٧]، لا سيما ج.ت.بيكي، الذي تحدث عن تقدّم الدلتا في رأس الخليج في أثناء الهولوسين، وتصوّر أن خط الشاطىء كان يقع قرب بغداد وسامراء في عصور ما قبل التاريخ المتأخرة منذ ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ سنة ق.م. إلا أن ج.م.ليز و ن.ل.فلكون اعتمدا على تراصف طبقات الصخور وعلى النشاط البنائي الحديث، فقرّرا ان خط شاطىء رأس الخليج لم يكن البته بعيداً عن موقعه الحالي في أواخر الزمن الثالث

---

(١) هوبسون جوبسون، تأليف يول وبورنيل، ص ٤٨٥.
(٢) المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٢٧٩.
(٤) المرجع ذاته، ص ٤١١.
(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٩.
(٦) ابراهيم خوري، كتاب الفوائد لابن ماجد، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٧) انظر منطقة دلتا ما بين النهرين، إعادة نظر في رأي ليز وفلكون، في مجلة الجمعية الامريكية الشرقية، المجلد ٩٥، رقم ١، كانون الثاني ـ آذار ١٩٧٥.

(البليوسين). وتشير الأبحاث الحديثة إلى تواصل المصاطب البحرية المغمورة العائدة إلى ما بعد أوائل الزمن الرابع (بليستوسين) في قسم الدلتا الغربي. أما الغضار والطمي البحريّان، الواقعان تحت سطح الدلتا، فيثبتان منطقياً حصول ردم بحري ونهري[1] بدأ من خط شاطىء رأس الخليج الذي كان يقع قرب العمارة، وأوصله إلى وضعه الحالي ما بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة ق.م. وتدلّ الرواسب اللحقية التي تغطي الغضار على تقدم منطقة الدلتا ١٥٠ إلى ١٨٠ كم في العصور التاريخية. وتساعد تعرجات خط الشاطىء الحالي المُفْرِطَة بين خوري موسى والزبير على تصوّر تفريضه بعوامل شتى بنائية وحتية وترسيبية (شكل ٦)، وتكوين جزر عديدة في أجوانه وعلى مقربة منها مثل بوبيان.



شكل ٦ ـ خطوط الشاطىء التاريخية لمنطقة دلتا ما بين النهرين كما وصفها دي مورغان عام ١٩٠٠.
ويعتمد رسم خط الشاطىء لسنة ٦٩٦ق.م على تقارير حملة سنحاريب على عيلام،
ورسم خط شاطىء ٣٢٥ ق.م على يوميات نيارخس، أمير بحر اسكندر المقدوني

(١) توضّع دجلة والفرات وقارون اللحقيات في منطقة الدلتا. وتؤلف شط العرب الذي يصبّ في رأس الخليج وينقل إليه سنوياً ٢٢ مليون طن متري من المواد، بسبب التبخّر الشديد جداً.



الفصل الرابع

الخليج العربي ممر مائي بحري ونهري متميز
طرقه البحرية والطرق البرية منه وإليه
وسائط النقل المائي فيه، وفي بلاد الرافدين

يختلف واقع الخليج العربي الحالي كلياً عما كان عليه في العصور القديمة والقرون الوسطى وحتى في العصور الحديثة. فنفطه اليوم عصب اقتصاده وعصب اقتصاد العالم، السلمي والحربي معاً. وطرقه الملاحية المعاصرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً جداً بهذا النفط وباستثماره وشتى أعماله وما يصحبها من أنشطة مرافق اقتصادية تابعة له أو منبثقة منه.

أما في الماضي القريب والبعيد والأبعد، فكان الخليج ممراً مائياً متميزاً، ينفتح مدخله، أي مضيق هرمز، على امتداد بحري له، اسمُهُ، بحر العرب، أو خليج عُمان، تتكّسر أمواجه في الشمال على سواحل السند، وفي جهته الشرقية، على سواحل شبه جزيرة الدكن الغربية وساحل سرنديب، وفي جهته الجنوبية على سواحل أفريقية الشرقية. وتختلط مياه رأس الخليج العربي بمياه امتداد نهري له، نقصد به شط العرب وما يتألف منه من مياه أنهار قارون ودجلة والفرات. وعلى هذا النحو، يشكّل مع امتداديه طريقاً مائية مترامية الأطراف طولها من جرابلس، على الحدود السورية التركية، إلى مدينة بومباي، على ساحل الدكن الغربي لا يقل عن ٥٠٠٠ كم، ومن جرابلس إلى ساحل سيلان يتجاوز الـ ٦٠٠٠ كم. وتعني هذه الأبعاد الشاسعة أن هذه الطريق المائية، التي يُطْلَق عليها أحياناً اسم طريق الهند، تصل بلدان الشرقين الأقصى والأوسط ببلدان الشرق الأدنى في آسية الصغرى وفي بلاد الشام على سواحل حوضة البحر المتوسط الشرقية والجنوبية. فلابد إذن من دراسة امتداداها النهري والبحري على طرفي الخليج بعد أن شرحنا من قبل جزءها الأوسط الأساسي (الخليج العربي)،

وما عليهما من بنادر حط وإقلاع سفن أو مراكز انطلاق ووصول بالنسبة إلى نقل القوافل من الخليج وإليه. وهذا ما سوف نستعرضه الآن حسب التسلسل الآتي:

أولاً ـ امتدادا الخليج البحري والنهري.

ثانياً ـ طرق الخليج البحرية الفرعية والداخلية وأماكن حطّ السفن وإقلاعها.

ثالثاً ـ طرق الخليج البرية الفرعية الخارجية ومراكز انطلاق القوافل ووصولها.

رابعاً ـ طرق الخليج البحرية عبر بحر العرب.

خامساً ـ وسائط النقل المائي في الخليج وامتداديه.

أولاً ـ امتدادا الخليج البحري والنهري

آ ـ امتداد الخليج البحري: بحر العرب

بحر العرب مجمع مائي واسع، يتألف من القسم الشمالي من بحر الهند الغربي (= المحيط الهندي). تحدّه شبه جزيرة الدكن الهندية من الجهة الشرقية، بين خليج كمباية ورأس كمهري، وشبه جزيرة العرب الجنوبية والقرن الافريقي، من الجهة الغربية بين خليج عمان وخليج عدن، ومكران والسند وشبه جزيرة كاثياوار من الجهة الشمالية بين مضيق هرمز وخليج كمباية. ويجاوره بحر الزنج في الجهة الجنوبية الغربية، مقابل ساحل الصومال حتى شمال جزيرة مدغشقر.

وتتراوح أعماقه قرب سواحله بين متر و١٨٠ م، ثم تتزايد تدريجياً وبسرعة حتى تصل إلى ما يقرب من ١٨٠٠ م في معظم أرجائه، ما عدا الأماكن السحيقة. ويبلغ عرض الشريط الضعيف العمق إزاء السواحل مباشرة، قرب شواطىء الهند، ضعف ما هو عليه حيال شبه جزيرة العرب، وهذا يعني أن تدرّج الأعماق مقابل الهند بطيء.

وكانت الملاحة القديمة مُسَاحَلَةً في بحر العرب، أي تتبع تعرّجات شواطئه مهما طالت، ولا يجرؤ أهل البحر على قطعه عرضانياً إطلاقاً. ودامت الحال على هذا المنوال زمناً طويلاً، إلى أن اكتشف العرب أو الهنود أو كلاهما معاً، الرياح الموسمية في وقت مجهول تماماً، لكنه قطعاً يعود إلى العصور التاريخية القديمة. عندئذٍ أقدم البحّارة على إقتحام عبابه وإجراء سفنهم في باحته ذهاباً وإياباً، في أوقات معيّنة من السنة يحدّدها لهم هبوب الموسميات واتجاهها وبنادر الانطلاق، وتُسَمَّى مواسم السفر. وقد فصّلها أحمد بن ماجد في الفائدة الحادية عشرة من كتاب الفوائد في

أصول علم البحر والقواعد، وضمنّها قصيدة نونية من ١٩ بيتاً[١]. وأوجزها و . ب . هنتغفورد، محقّق كتاب الطواف حول البحر الأحمر (أرثرا ثالسا)، فقال: «يعرف المصنّف الموسميات، إلاّ أن شرحه مواسم الملاحة محدود جداً[٢]»، ويقسم السنة إلى فترتين: الفترة الأولى تهبّ فيها الموسميات الجنوبية الغربية، وتدوم من آخر شهر آذار إلى أيلول، ويسافر في غضونها من البنادر العربية إلى بنادر الهند، والفترة الثانية الموسميات الشمالية الشرقية، وتدوم من أواخر شهر تشرين الثاني إلى شهر شباط، ويسافر خلالها من بنادر الهند إلى البنادر العربية. وهذا كلام صحيح، لكنه عام جداً، لأن لكل بندر عربي أو هندي زمن سفر دقيقاً. وتفصيل أحمد بن ماجد أوفى وأدق وأوضح، يعتمد على طلوع النجوم وأفولها وعلى سنة النيروز، وعلى مواقع الموانىء.

ب ـ امتداد الخليج النهري: شط العرب، دجلة والفرات

ينبع نهرا الفرات ودجلة من جبال انتي طوروس، ويخترقان كثيراً من الأراضي الجبلية والسهلية، ثم يندمجان في القرنة، ويشكلان شط العرب الذي يصبّ في رأس الخليج العربي.

وقد سلك الفرات مجرى واحداً لم يتبدّل البتة في قسميه الأعلى والأوسط. لكنه غيّر سيره باستمرار في مجراه الأسفل بعد وصوله إلى دلتاه. أما دجلة، فغالباً ما هَجَرَتْ مجراها في العصور القديمة في دلتاها وفي مجراها الأوسط معاً. ويصعب كثيراً تحديد المجاري المهجورة. لكن منذ عهد سلالة أور الثالثة (٢١٢٥ ـ ٢٠٢٥ ق م)، أخذت الوثائق المكتوبة تذكر أقنية تقول عنها بصراحة أنها كانت تصلح للملاحة. ويسهم الجغرافيون العرب مثل ياقوت وابن رسته وابن سيرابيون وقدامة والمقدسي، في إيراد معطيات عن مجاري الأنهار في القرون الوسطى. أما العصور اللاحقة، فأخبار مجاري الأنهار واردة في تقارير الرحالة فقط. لذلك لا مجال لدراسة تغييراته فيُكتفى بوصف المجاري الحديثة[٣].

---

(١) كتاب الفوائد، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري، ص ٢١٣ ـ ٢٣٤.

(٢) الطواف حول البحر الأحمر، ترجمة من اليونانية إلى الانكليزية، هنتغفورد، ص ١٦٣.

(٣) ماري كريستين دي غريف، سفن الشرق الأدنى القديم (حوالي ٢٠٠٠ ـ ٥٠٠ ق م)، لوفين، ١٦٨١، ص ٤ ـ ١٨.

١ ـ نهــر الفــرات

أصل الفرات نهران، هما قره صو (٤٥٠ كم) ومراد صو (٦٥٠ كم) اللذان يتّحدان في كبان معدن، ويسمى قره صو الفرات في مجراه الأسفل. وأطلق اسم «ارسانياس» على مراد صو في العصور القديمة. وورد باسم «نهر ارسانياس» عند الجغرافيين العرب. ويسمي الأوربيون قره صو الفرات الغربي، ومراد صو الفرات الشرقي. ويبلغ طول الفرات ٢٣٣٣ كم من كبان معدن إلى البصرة. ويتلقى عدة روافد في تركيا، أهمها كورو صو وتولما صو على ضفته الغربية، ونهر هنزيت (بويوك صو) على ضفته الشرقية. ثم يجتاز جبال طوروس ويشكل عدة منعطفات على شرقه وغربه، ويتعمّق في بنية الصخور، ويتسارع جريانه. ويستأنف سيره نحو الجنوب الغربي، حيث يصل إلى أقرب نقطة له عن البحر المتوسط (١٦٣ كم). وتقع في هذه القطعة مدينتا كركميش وتل برسيب في موضعين ممتازين يسهل فيهما اجتيازه على الطريق الذاهبة من بلاد ما بين النهرين إلى البحر المتوسط، وآسية الصغرى. ويصب نهر سوبي في الفرات جنوبي كركميش، وهو أهم روافده الغربية. وبعد مسكنة (باليس)، يتجه الفرات إلى الشرق، ويتلقى البليخ والخابور، أعظم رافدين له.

وينبع البليخ من عين العروس على بعد ٢ كم من الحدود السورية التركية. ويصل عرضه بسرعة إلى ٧٠ م. وهو نهر سريع، ويتعرج ويتشعّب حتى رفده الفرات في الرقة.

والخابور أكبر من البليخ، وله عدة فروع في مجراه الأعلى. وينبع فرعه الرئيسي المسمى باسمه من رأس العين. ويتلقى عدة روافد، ويمر في تل حلف، ويستمر في جريه باتجاه الجنوب حتى مصبّه في الفرات في سيرسيزيوم التي يسميها العرب قرقيسية.

ويتعرّج الفرات بعد ذلك حتى الهضبة السورية. ويدخل العراق بعد أبو كمال (قرب مدينة ماري) دون أن يرفده رافد. ويثابر في اتجاهه إلى الشرق حتى عانة، حيث يبدّله وينعطف إلى الجنوب الشرقي. وتصعب الملاحة فيه في هذه المنطقة لوجود نتوءات صخرية. مع ذلك يتباطأ جريانه.

وتنتهي إليه بعض الأودية على ضفته اليمنى، ويدخل دلتاه في هيت على ارتفاع حوالي ٣٥ م عن مستوى سطح البحر (قيس الارتفاع في أيلول). واشتهرت مدينة هيت بقارها الضروري جداً في بناء السفن، منذ العصور القديمة. ويثابر الفرات على

الجريان في السهل، متجهاً إلى الشرق حتى مدينة الرمادي، التي يأخذ بعدها ببعثرة مياهه: فعلى ضفته اليمنى تقع بحيرة الحبانية المالحة الكبيرة. وتشكل دلتاه بأجمعها شبكة معقدة إلى أقصى حد، من المجاري. وبَعْد المسيب، ينقسم الفرات حالياً، إلى فرعين فرع الحلّة في الشرق، وفي الغرب فرع الهندية الذي ينقسم بدوره مجدداً إلى قناتين بعد الكفل: قناه الكوفة غرباً وشرقاً قناة شط الشامية التي تستأثر بمعظم المياه. وبعد تجاوز أبو صخير والشامية، تضيع المياه في المستنقعات، وتطغى على جميع هذه المنطقة في أثناء الفيضان. إلا أن القناتين تتميزان في فصل الخريف، وتلتقيان في الشنافية، وبعد مسافة قصيرة تعودان إلى الانفصال لآخر مرة إلى شط العطفان غرباً، وشط السبيل غرباً، قبل أن يصبا في الفرات الشرقي أو فرع الحلّة، الذي ينعطِف إلى الشرق، فيفقد بعض الماء في المستنقعات، وبعضه الآخر في الري، وبعضه الأخير بالتبّخر، فلا يبقى منه إلا النزر القليل الذي يرجع إلى مجرى الفرات الرئيس بعد السماوة. وفي مجرى واحد فقط، صالح للملاحة. ويعلو مستوى ماء الفرات في الناصرية ٢,٥ م عن مستوى سطح البحر في أيلول رغم أن على الفرات أن يقطع ١٦٠ كم ونيفاً أيضاً لكي يصل إلى البصرة.

* * *

والبطيحة أرض واسعة جداً، تقع شمالي البصرة، وتنحصر بينها وبين خط يصل الكوفة على الفرات بمدينة واسط القديمة على دجلة. وتتألف من لحقيات نهري الفرات ودجلة. وتطغى عليها سنوياً مياه الفيضان، التي تحوّلها إلى مستنقع كبير يجفّ جزئياً في الخريف، ويتحوّل إلى أخوار كثيرة، موصولة بعضها ببعض بأقنية قصيرة، ضيقة جداً وضحلة، تجري من الشمال إلى الجنوب على العموم، ويغطيها القصب. أشهرها خور الحمّار، الذي يمتد من سوق الشيوخ على الفرات إلى كرمة علي على شط العرب، ويبلغ طوله ١٣٠ م، ومساحته حوالي ٥٢٠٠ كم٢، تتقلص إلى ثلثي هذا الرقم في الصيف والخريف. ويتلقى هذا الخور كميات هائلة من المياه، فيتراوح عمقه في أثناء الفيضان بين ٢ م و٢,٨٠ م، ويتدنّى إلى ٠,٦٠ ـ ٠,٨٠ م في الصيف.

٢ ـ نهــر دجلــة

يشبه مجرى نهر دجلة مجرى نهر الفرات، وينبع من جبال انتي طوروس على مقربة من منابع الفرات. ويبلغ طوله ١١٤٦ كم، أي أقل من نصف طول الفرات.

ويتلقى قرب منبعه عدة روافد، وضع الجغرافيون العرب قائمة طويلة لها، لكن

يشك في مقابلاتها الحديثة. وعندما تمّر دجلة بديار بكر، يصبح عرضها ٢٢٩ كم. وتتضاعف غزارتها بعد تلقيها رافد بتمان صو من الشمال وبهتان صو من الشمال الشرقي.

ثم تخترق دجلة جبال الأكراد الشديدة الانحدار، وتدخل العراق عند التقائها بخابور الحسينية. ويسمى رافدها التالي وادي المّر (أبو مريه قديماً). ومتى وصلت إلى الموصل تجري في منطقة تلال عند لِخفِ الجبال. ثم تقطع ٤٨ كم صبباً، فيرفدها الزاب الكبير، وبعد حوالي مائة كم يصب فيها الزاب الصغير. ويصل عرض دجلة في تكريت إلى حوالي ٢٣٠ م في شهر أيلول، وحوالي ٥٤٨ م في شهر نيسان.

وتدخل دجلة دلتاها قرب القادسية، فتغير مجراها، وتتجه إلى الشرق، وتتلقى رافد نهر العزيم الذي يجفّ في الصيف في الغالب. وبعد مسافة قصيرة، ترفدها الديالة الغزيرة المياه. وتستمر دجلة في الجري في الاتجاه الجنوبي الشرقي وتتعرج كثيراً حتى كوت العمارة، حيث تتجه إلى الشرق، وتتضاءل تعرجاتها، وتفقد مقادير كبيرة من مياهها (٨١٪) في مستنقعات تقع شرقيها وغربيها. ويمدّها نهر كرخه ببعض المياه. أخيراً تلتقي دجلة بالفرات في القرنة، وتؤلف معه شط العرب.

وقد اختلفت مجاري دجلة عن مجراها الحالي في العصور القديمة، لا سيما بعد الزاب الصغير صبباً، لكنها لم تدرس دراسة كاملة، فيستحيل وصفها بدقة وافية.

ويرجّح أن دجلة كانت تتجه بعد تكريت اتجاهاً أقرب إلى الشرق من اتجاهها المعاصر بخاصة في الألف الثاني والأول ق م. فهي اليوم تمّر بسامراء وبغداد وكوت العمارة. وفي زمن العباسيين كان اتجاه مجراها أقرب إلى الغرب بين سامراء وبغداد. وتبدو وكأنها كانت تجري في سرير النهروان العريض (قناة قاطول ـ سامراء ـ النهروان). ويُظن أن هذه القناة شُقت في زمن الساسانيين، ثم حُسِّنت في أيام العباسيين، وتبدأ من دور التي تبعد ٢٤ كم عن سامراء صُعُداً، وكانت توازي مجرى دجلة تقريباً حتى تصب فيها بعد بغداد وكوت العمارة. وكانت ضفتها اليسرى تتلقى مياه نهر العزيم وديالة.

وقد حوّل هذان الرافدان مجرييهما أيضاً، فكان مجرى نهر العزيم القديم يبعد حوالي ٢٤ كم عن سريره الحالي في وادي الأبيض. وزاد انعطاف دياله إلى الشمال في مجراها الأعلى، ووصلت تدريجياً إلى مجراها الحديث في بعقوبة، ثم اتجهت إلى الجنوب إلى خفاجة لتصب في دجلة.

وباستمرار الاتجاه إلى الجنوب بعد كوت العمارة، يصبح لدجلة ثلاثة مجاري مختلفة، يُسمَّى أولها شط الغرّاف الذي ينعطف نحو الجنوب، وهو مجرى دجلة الرئيس في زمن العباسيين. وفي تلك الأثناء كانت مضرايا تقع على دجلة، على مقربة من كوت العمارة، وكان النهروان يرفد دجلة قربها. وكان مجرى دجلة أقرب إلى الشرق، ويُعرفُ بشط ديالة الذي يميل إلى الشرق حتى خور السنية، إلا أنه كان يتجه إلى الجنوب في الأزمنة القديمة، على طول شط الخضر. ويعد المجرى الثالث، أي شط العمارة الذي أُنشيء في القرن السادس عشر الميلادي المجرى الشرقي الحالي. وكانت عدة أقنية تتفرع من أقدم مجاري دجلة العريض أي شط الديالة. وجاء في الوثائق المكتوبة العائدة إلى ما قبل الفترة الأكدية، أن انتيمينا شق قناة سحبها من دجلة ليزوّد جرسو بالمياه. لكن لم يُمْسَحْ القطاع في أقصى الجنوب، فلا مجال لمعرفة مصب المجاري القديمة بدقة.

٣ ـ شــط العــرب

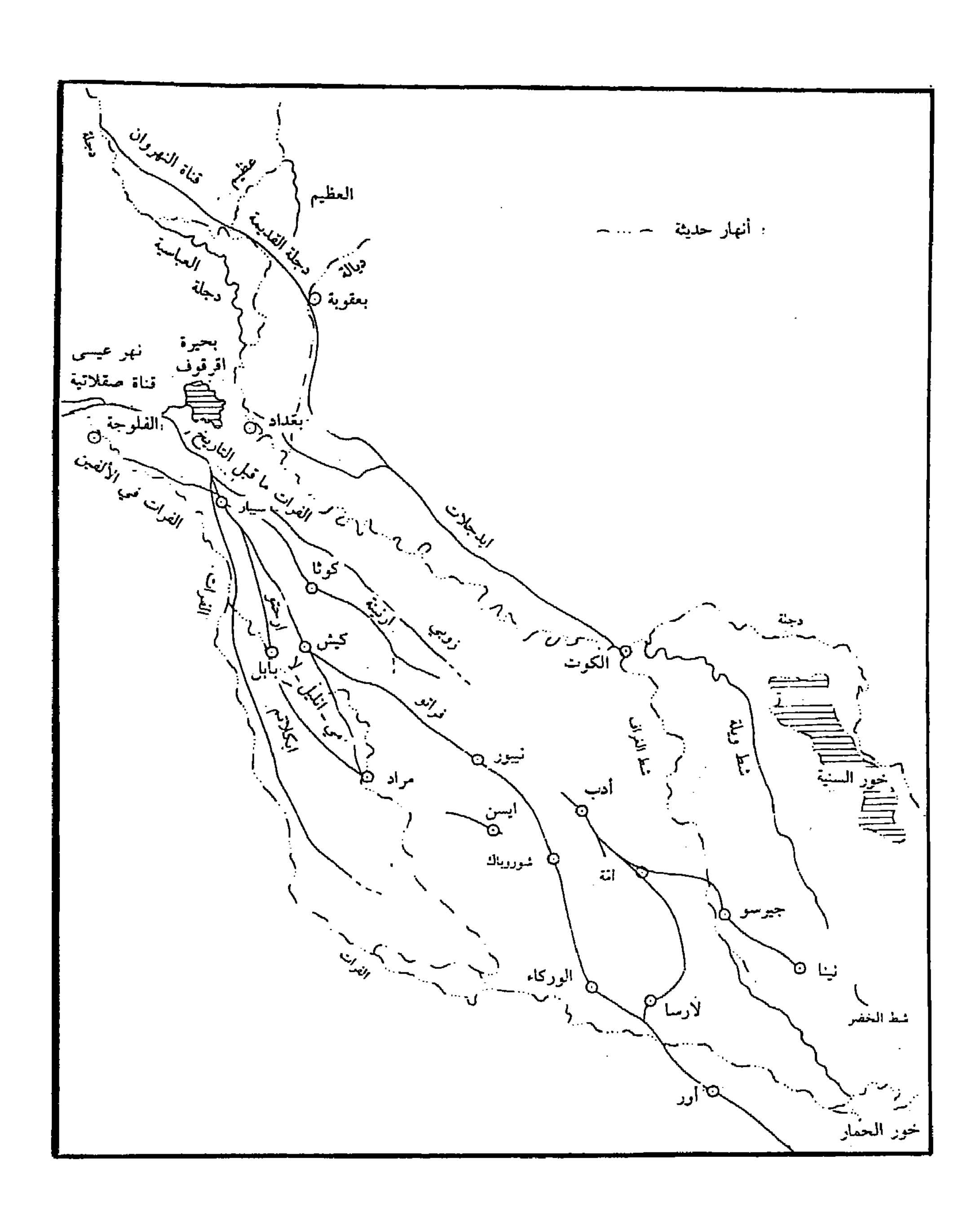
ويتكون شط العرب من التقاء دجلة والفرات في القرنة، وينتهي عند الفاو. ويبلغ طوله ١٩٦ كم، ويتراوح عرضه بين ٤٠٠ و١٣٠٠ م، ويصلح للملاحة. ويتلقى أيضاً مياه البطيحة في زمن الفيضان ومياه نهر الكرخة، الذي تقع عليه مدينة سوسة، ونهر قارون (٨٥٠ كم) الذي يصب فيه عند المحمرة. وكان هذان الرافدان ينتهيان في خليج واسع واحد في العصور القديمة، ويجريان في اتجاه أقرب إلى الشرق من وضعهما اليوم. وظلا حتى القرن العاشر الميلادي يقعان في الخليج العربي مباشرة في موقع سليمانان المجهول مكانه حتى الآن.

٤ ـ مميزات الأنهار في الامتداد النهري

(١) ـ مميزات نهر الفرات

يعتبر الفرات نهراً سريع الجريان، حاد الضفاف، كثير الصخور في مجراه الأعلى. ودلتاه طويلة ووطيئة جداً تسدّها رمال شطوطه.

وفي البدء تأتي مياه الفرات من منبعي قره صو ومراد صو. ثم تزداد زيادة هائلة بانضمام مياه البليخ والخابور. ولا يرفد الفرات أي رافد بعد نهر الخابور صبباً، بل تنتهي إليه بعض مياه الأمطار المتجمعة في بعض الأودية. ويخفض التبخّر حجم مياهه في سهل الجنوب الحارّ. ويتغذى الفرات بصورة رئيسة من تساقط المطر في أوائل



شكل ٧ ـ نهرا فراتّو وايدجلات القديمان

الشتاء، ومن ذوبان الثلج في فصل الربيع. وبالتالي يهبط مستوى مياهه إلى الحد الأدنى في شهر أيلول وتشرين الأول. وفي شهر تشرين الثاني، يأخذ مستواه بالارتفاع من جراء تدني التبخّر بعد انقضاء الصيف الحار. ويعطي تهطال المطر كمية كبيرة من المياه بدءاً من شهر كانون الأول. ويفيض الفرات عندما يذوب الثلج ويباشر فيضانه في شهر آذار، ويبلغ ذروته في شهر آيار، ثم يتضاءل بعد ذلك باضطراد بسبب التبخّر والري. ويصل عرض الفرات في هيت إلى ٣٢٠ م، وعمقه إلى ٤,٨٨ م، وسرعة جريانه إلى ثلاث عقد في الساعة في وقت الفيضان، والفرق العادي بين مستويه الأعلى والأدنى إلى حوالي ٣,٣ م. ويتضح من هذه المعطيات ان الفرات مجرى ماء ضعيف في الواقع، فمن جهة أولى مستواه منخفض جداً، تتخلله رقوق وأرصفة طيلة ثلاثة أشهر ونصف (من آب حتى منتصف تشرين الثاني). من جهة ثانية، تيار الجريان سريع في الفرات الأعلى يبلغ ٦,٥ كم/سا في زمن الفيضان، فتصعب الملاحة في بعض قطعه في الحد الأدنى.

أما عوائقه الرئيسة فهي: مستنقعات لملون بعد السماوة، حيث ينعطف المجرى الضيق انعطافات حادة، ثم الممر الضيق البالغ ٤,٥ م الذي تسدّه الصخور في أدونيج، على بعد ١٠٤ كم بعد هيت، فالدردور المائي في الخضر إلياس بين هيت وعانة، وأخيراً صخور بين عانة والقائم التي تعدّ أصعب قطعة في الفرات.

(٢) ـ مميزات نهر دجلة

والواقع أن مياه نهر دجلة أغزر من مياه نهر الفرت، لأن دجلة أقرب إلى المرتفعات الجبلية، وتتلقى منها عدداً من الروافد يفوق ما يتلقاه الفرات. ثم إن حوضة دجلة أوسع بكثير من حوضة الفرات، تمتد من تركيا الجنوبية الشرقية إلى الخليج العربي. كذلك مجرى دجلة الأعلى حاد الانحدار، وضيق السرير. وبالتالي، جريانه أسرع من جريان الفرات، وتدرّجه أشدّ من تدرجه. ومجرى دجلة الأدنى أقل انبساطاً. وتأتي مياه دجلة من السيول الجبلية خاصة، فيرتفع مستواها فجأة عدة أمتار، عندما تهطل الأمطار. وتؤدي ضخامة حجم المياه وسرعة الجريان وتبّدل المستوى المفاجىء إلى التسبّب بحدوث فيضانات مدمّرة وطغيانات مياه واسعة. ونهر دجلة أنشط حتاً وتوزيعاً للحقيات. ويسبب عظم حجم مياهه وشدة ترسيبه إلى حمله طمياً يعادل أربعة أمثال ما يحمله الفرات منها.

ويتماثل نظام النهرين على نطاق واسع. لكن لا يلحظ ارتفاع مستوى الماء في

دجلة، الناشىء عن ضعف التبخر، في نهر تشرين الثاني. ويسبق فيضان الفرات شهراً تقريباً، ويصير تدفقه حوالي تسعة أمثال تدفقه في فترة الشح في شهر أيلول، بينما لا يصل تدفق الفرات إلا إلى حوالي سبعة أمثال فقط. ويبلغ متوسط عرض دجلة ١٨٣ م بين الموصل وبغداد ويزداد تفريغها كثيراً عندما تصل إلى بغداد، وتطول مدة خطر حصول الفيضان فيها، لأن ذروته متباينة فيها وفي الزابين. فمتوسط مستوى الشح يقفز من ٢٨,٦٧ م إلى ٣٤,٢ م في شهر نيسان.

وتصعب الملاحة في دجلة لكثرة منعطفاتها، وضيق مجراها نوعاً ما في بعض أجزائها الذي يتغير في كل فصل، وتنتقل أخواره وحبال رمله بانتظام، فتتعرقل الملاحة فيها، خاصة في شهر أيلول، قبل مستوى الشح بفترة زمنية قصيرة. وتتمثّل عقباتها الرئيسة في «الخوانق» الواقعة في دجلة الدنيا، بين الغزير وقلعة صالح، وفي التعرجات المفرطة بين كوت العمارة وبغداد، وفي قسم من أعلاها بعد خابور الحسينية حيث يضيق مجراها كثيراً، ويزدحم بالصخور والجلاميد.

(٣) ـ الـريـاح:

وللرياح تأثير هائل في الملاحة النهرية. ويغلب هبوب الرياح الشمالية الغربية على بلاد ما بين النهرين بأجمعها طيلة السنة. إلا أن التدقيق في دراستها يكشف نواحي أساسية أخرى. فالرياح تشتد مع الاقتراب من الخليج العربي. وفي الصيف. يتجه تدرّج الضغط إلى الجنوب الشرقي نحو قطاع الضغط المنخفض السائد في الخليج ويؤدي هذا الوضع إلى ازدياد هبوب الرياح الشمالية الغربية وتواترها، واشتدادها إلى أقصى حد في النهار، فتصل سرعتها فيه إلى ١٥ عقدة. وتهب هذه الرياح الشمالية الغربية الشديدة المسماة الشمال، في شهر حزيران، وتنتهي عادة في وقت مبكّر من شهر تشرين الأول. مع ذلك، تدوم أحياناً أطول من هذه المدة وتبقى حتى تشرين الثاني، فتعترض عقبات جمة سبيل الملاحة، لأن دجلة تكون قد وصلت آنذاك إلى فترة الشح.

وفي الشتاء، تهب رياح جنوبية شرقية سموها الرياح الشرقية إلى جانب الرياح الشمالية الغربية. ويهب السهيلي أو الرياح الجنوبية الغربية أحياناً على منطقة الخليج بعد الرياح الشرقية.

والسفن النهرية خفيفة ومسطحة القعر، تتأثر بالرياح. فالشمال تسهّل كثيراً الملاحة صبباً، لكن يحتمل أن تسبب لها الرياح الشرقية، السهيلي ذاته، تأخراً هائلاً.

ويقتضي الوضع في بعض الحالات جر المراكب من الشاطىء. ويتخمم قطر السفن عند الملاحة صُعداً وضد اتجاه الرياح الشمالية الغربية.

(٤) ـ إمكانية الملاحة النهرية

يحدد مجرى النهر ومميزاته والرياح الهابة عليه إمكانية الملاحة فيه. ولأجل تسهيل البحث، قسمنا دجلة والفرات إلى مجرى أعلى ومجرى أدنى، مفصولين بخط غربي شرقي يمر شمالي بغداد أي عملياً مقابل إقليم الجزيرة، ومقابل بلاد ما بين النهرين السفلى.

فدجلة والفرات يجريان في بقعة منبسطة جداً في مجرييهما الأسفليين. ويصبح ميلهما في الـ ٣٠٠ كم الأخيرة منهما ضئيلاً إلى أقصى حد يبلغ ٤ سم في الفرات و٨ سم في دجلة، فيؤدي إلى حدوث فيضان سنوي فيهما وإلى غمرهما الأراضي المجاورة لهما على نطاق واسع. بالتالي يتألف جلُّ «البطيحة» أي المنطقة الجنوبية من مستنقعات، ينمو فيها قصب كثير طوله ستة أمتار، تضيع فيه الأنهار ويعيش أهل الأراضي المرزغيّة فوق الماء، ويتنقلون فيها بزوارق تتكيف مع ضعف العمق ومع طبيعة المستنقعات،صُممَ بدنُها، وعُطِفَ جؤجؤُها إلى الأعلى لتشق طريقها بين القصب.

ولم تحل حتى الآن قضية وضع شاطىء البحر القديم وأقصى جنوبي بلاد ما بين النهرين في العصور القديمة. لكن عثر على نقوش عائدة إلى أبكر الفترات الزمنية، تمثّل الزوارق في المستنقعات بين القصب، بالتالي يجوز لنا أن نستنتج أن المنطقة الجنوبية بقيت مستنقعات خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة (شكل ٦).

وكان الفرات الأدنى شمالي خور الحمّار يشكّل طريقاً مائية أفضل من الدجلة الدنيا. ويفوق طول المسافة بين بغداد وخور الحمّار كثيراً طولها على الفرات. والقطعة متعرجة جداً بين بغداد وكوت العمارة. إذن كان الفرات وما يزال مفضلاً. ويثبت تقرير مكتوب عن حملة سنحاريب السادسة أن سرية من الأسطول بُنِيَتْ في نينوى، وسارت في دجلة حتى أوبيس المجهولة الموقع. ثم نقلت السفن منها براً إلى قناة فراتو، ثم جَرَتْ في الفرات حتى الخليج العربي. ويرجّح، تبعاً لذلك، أن الأقنية تطورت على الفرات أكثر مما تطورت على دجلة.

وفي أوقات الازدهار على وجه التخصيص، عندما شُقَّ العديد من الأقنية وصِيْنَ، كانت حركة الملاحة نشيطة لأغراض سياسية ودينية وتجارية. وبلغت أوج

نشاطها في ذروة الفيضانات عند تضاؤل صعوبات الملاحة النهرية. وتنص عقود إيجار الأراضي ان ريعها العيني كان يسلّم «**في أثناء المياه العظمى**» ويبدو أن نوعاً ما من الدورة السنوية تطوّر وتوافق مع موسم الفيضان الأعظم، وهذا يعني أن الملاحة تتوقف كثيراً على أوضاع الأنهار.

ويتعرج نهرا دجلة والفرات جزئياً في بعض سهول مجرييهما الأعليين، وجزئياً بين تشكيلات الصخور. وتعترض كليهما عوائق هائلة في فترة الشح. فالملاحة فيهما صعبة، لكن يبدو أنهما استعملا على نطاق واسع في العصور القديمة

* * *

خلاصة القول تبدو الملاحة في نهري دجلة والفرات الطويلين عسيرة وشاقة. ففي مجرييهما الأعليين، يتعرجان بين تشكيلات الصخور وفي السهول الضيّقة، ويجريان بسرعة. أما في مجرييهما الأدنيين، فيبدّدان مياههما في مستنقعات واسعة، وتضطرهما اللحقيات إلى تشكيل فروع عديدة تبدّل أماكنها باستمرار. وفي أثناء فيضانهما السنوي، تطغى المياه على قسم كبير من دلتاهما. والملاحة في دجلة أكثر تعرضاً للأخطار من الملاحة في الفرات وتدرج الميل في مجراها أشد انحداراً من تدرج الميل في الفرات، وتدفق مجراها الأدنى أعظم من تدفق الفرات لكثرة روافدها. وبالتالي الملاحة في الفرات أفضل من الملاحة في دجلة. ثم ان قرب مجرى الفرات الأعلى من حوضة البحر المتوسط الشرقية، يجعل الفرات مجرى ماء طبيعياً مرغوباً به ومستعملاً في المواصلات بين الشرق والغرب. وتتحدث الوثائق المكتوبة عن نقاط حركة الملاحة النهرية فيه منذ فجر التاريخ، وتثبت أن السفن الكبيرة كانت تجري فيه، قلما يكون بعد تل برسيب صببا، أما دجلة فاقتصرت الملاحة فيها على قطعة منها محصورة بين نينوى وأوبيس، ثم تنتقل السفن من هذه المدينة الأخيرة إلى نهر الفرات لتستمر في مسيرها حتى الخليج.

ثانياً ـ طرق الخليج العربي البحرية الفرعية الداخلية وأماكن حط السفن وإقلاعها

أما طرق الخليج البحرية الفرعية الداخلية التي تهمنا، فهي طرق الملاحة على طول سواحله الشرقية في خوزستان وفارس وكرمان من مصب شط العرب إلى مضيق هرمز، وعلى طول سواحله العربية في شبه الجزيرة العربية من الفاو إلى رأس مسندم، وطرق الملاحة العرضانية بين السواحل الشرقية والسواحل الغربية، وهذه الطرق قديمة

جداً. بعضها اندثر، وبعضها الآخر قاوم في سبيل البقاء. وبعضها الأخير نشأ مع نشوء الامبراطوريات وذهب معها أو بقي بعدها. وسوف نستعرض هذه الطرق بإيجاز ونوضحها بخارطة حسية عند الضرورة.

آ ـ طرق الملاحة على سواحل الخليج الشرقية ومطالقها في القرن الخامس عشر:

أما طرق الملاحة على سواحل الخليج الشرقية ومطالقها، فقد فصّلها أحمد بن ماجد في قصيدة نونية وفي كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد. ويلخص الجدول التالي أبرز ما ورد في النونية.

الطرق الرئيسة في ملاحة الخليج الداخلية على السواحل الشرقية
حسب أحمد بن ماجد

الإقلاع	الحط	المسافة بالأيام	المسافة بالأزوام	خن الديرة النجمية
البصرة	خارج أو خارك	أقل من يوم	......	الثريا
خارج أو خارك	رأس الكهن	......	١٠ أزوام	مطلع العقرب
خارج أو خارك	رى شهر	......	زامان	الإكليل
جنّابة	روزبند	يوم وليلة	......	مطلع سهيل والحمار
رأس الكهن	رأس لفان	......	......	القطب الجنوبي
رأس الكهن	البحرين	......	٦ أزوام	مغيب العقرب
رأس الكهن	تاروت	......	......	مغيب الثريا
سيراف	البحرين	......	......	مغيب الإكليل
سيراف	روزبند	......	......	مطلع الإكليل
روزبند	البحرين	......	......	مغيب الثريا
رأس نّج	جزيرة لار	......	٥ أزوام	......
ج. هندرابي	البحرين	......	......	مغيب المرزم
ج. فرور	ج. صرّي	......	......	مطلع العقرب
ج. طنب الكبرى	رأس الخيمة	......	......	مطلع الإكليل
ج. طنب الكبرى	ج. هنجام	......	......	مطلع العيوق

ويلاحظ أن ابن ماجد تغاضى عن ذكر الرياح إلا مرة واحدة من جنّابة إلى روزبند، كذلك تدمج نونّيته الملاحة على السواحل الشرقية والملاحة العرضانية. أخيراً، يهمل أوقات الإقلاع أو مواسم السفر. لكنه يشرحها في كتاب الفوائد[1].

(١) انظر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري، ص ٢١٤ ـ ٢٣٤.

فيقول: «مواسم أول ريح الدبور أو الكوس (= الغربية): فأوله مائة وسبعون في تلك الأماكن. وعندهم نَفَسٌ في الموسم لمن يجاري البر لهرموز... وأما الذي يخرج في أول المائتين لبر قلهات وهراميز، فهو يلج». ويقول أيضاً: «وأما طالب باب المندب واليمن والحجاز، فأول موسمهم من هراميز آخر الكوس وابتداء الصبا (= الشرقية)، وهو ثلاث مائة وأربعون النيروز... وأما الذي يخرج من هراميز والأطواح لليمن، ويفارق البر، فموسمه إلى حدود غلق المائة، ولا خير فيما بعدها.

ويوضح الشكل ٨ طرق الملاحة في سواحل الخليج العربي الشرقية من البصرة إلى هرموز، وطرق الملاحة العرضانية الرئيسة بين السواحل الشرقية وبين السواحل الغربية المقابلة لها في جزيرة العرب. ويلاحظ على الخارطة وجود خط ملاحي مستمر من رأس الخليج إلى مدخله في مضيق هرموز، ومروره في جميع الجزر القريبة الواقعة إزاء إقليم خوزستان وفارس وكرمان، ثم نشاط الملاحة وكثرة خطوطها في الخليج الأوسط (تاروت، البحرين، قطر)، وكثافتها العالية من جزر طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى إلى جميع الجهات في الخليج الأدنى حيال دولة الإمارات، وهذه ظاهرة بارزة، تعيد إلى الذاكرة أهمية الحركة الملاحية بين سواحل الخليج الغربية وبين بلاد ما بين النهرين الجنوبية، ومنها إلى بلاد الشام (تدمر، حلب، دمشق، المشرفة قرب حمص، غزة).

ب ـ طرق الملاحة على سواحل الخليج العربية ومطالقها في القرن الخامس عشر

تعاقبت الأمبراطوريات الكبرى الآشورية فالبابلية، والأخمينية فالسلوقية والفرثية الأرشاقية فالساسانية، على السيطرة على بلاد ما بين النهرين أو فارس، وتجابهت، وهيمنت على تاريخ الألف الأول وما بعده، إلا أن أياً منها لم يراهن في أي عهد من العهود على الاستيلاء على الخليج العربي في صراعاتها، ولا استهدف فيما يبدو افتتاحه أو احتلاله، ربما لأن سواحله غير أمينة أو لأن قبائله ميّاله إلى الاستقلال، أو لأنها كانت، دون احتلال، تجني رسوماً طائلة من مرور السلع في أراضيها، أو لأي سبب آخر. من ناحية ثانية، أثبتت النصوص المكتوبة والمخلّفات الأثرية أن أي بادرة لا مبالاة لم تصدر عن إحدى تلك الأمبراطوريات التي حاولت كثيراً السيطرة على طريق الملاحة. بالفعل بقي الخليج محوراً تجارياً هاماً من الدرجة الأولى، وممراً ثابتاً للسلع الشرقية (توابل، مواد ثمينة وغيرها) التي تحمل إلى الحواضر الكبرى في بلاد ما بين النهرين، ومنها في وقت لاحق، إلى مدن بلاد الشام وبنادرها، ومنها في النهاية

شكل ٨ ـ الملاحة في الخليج العربي حسب أحمد بن ماجد

إلى الغرب.

ولعبت سواحل الخليج الغربية على الدوام دوراً أساسياً في هذا التبادل التجاري العالمي على مرّ العصور، لا سيما دلمون / أوال أو البحرين، وماغان / مكان/ عمان. ويطول الشرح لو أردنا التبسّط في وصف الانتعاش الاقتصادي في الخليج في العصور القديمة والوسطى، فنكتفي. مثلما فعلنا في حديثنا عن السواحل الشرقية. بالاستشهاد بما ورد عند أحمد بن ماجد في وصف الساحل الغربي وفي ازدهار البحرين الناشيء عن قيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب. فهو بقول في كتاب الفوائد في سياق كلامه عن دورة البحر في جميع الدنيا[1]: «الساحل من البصرة إلى رأس مسندم: إذا جاوزت البصرة الفيحاء، انجذب البر في السلمية والقطيف والحسا وقطر وعمان. الكل في المشارق والجنوب. وفيها جزر خراب وعمار، وعرب لهم بنادر. وفيها جزيرة البحرين التي حواليها مغاص اللؤلؤ، يغوص عليها قريب ألف مركب مدة الدهور، ولم يفرغ وحواليها عدة جزر فيها المغاص خراب وعمار. ومنها إلى حدود مسندم مسيرة شهر في البر، وسبعة أيام في البحر في المشارق بميله إلى الشمال قليلاً فإذا جئت مسندم، وهي آخر جزيرة العرب من الجنوب والمشارق، وهي جزيرة على رأس دخلة. وهناك عدة جزر مثل سلامة وبناتها...».

ويقول عن البحرين في سياق كلامه عن الجزر الكبار المشهورات وما يتعلّق بها[2]: «الجزيرة الثامنة، وهي البحرين المتقدم ذكرها، وتسمى اوال. وفيها ثلاث مائة وستون قرية. وفيها الماء الحالي من جملة نواحيها. وأعجب ما فيها مكان يقال له القصاصير. يغوص الإنسان في البحر المالح بالقربة، ويملؤها من الماء الحالي، وهو غرقان في الماء المالح. قوله تعالى: ﴿**هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج**﴾ لأنه مختلط، المالح من فوق والحالي من تحت. وهو على ثلاث قامات رجال طوال، أو ثلاثة أنواع المالح والحالي من تحت. وحولها معادن اللؤلؤ، وعدة جزر كلها فيها لؤلؤ، تأوي إليها مراكب كثيرة نحو ألف مركب. وفيها جملة قبائل عرب، وجملة تجار. وفيها كثير من النخيل المثمرات اللواتي تضرب بها الأوصاف والأمثال. وفيها الخيل والإبل والبقر والغنم. وفيها عيون جارية. وفيها رمان وتين وزيتون وترنج وليم. وهي غاية في العمارة وهي في تاريخ الكتاب لأجود بن زامل بن

---

(١) كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري، الطبعة الثانية، ص ١٩٦.
(٢) المرجع ذاته ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

حسين العامري، أعطاه إياها هي والقطيف السلطان سرغل بن نورشاه. . .».

ويعيّن في مكان آخر مواسم السفر منها وإليها، ويتحدث عن العمارة الزائدة فيها مجدداً[1]. ويشير دوارته بربوسه، إلى السلع التي تحملها سفن الخليج إلى البصرة، وإلى البضائع والأصناف التي تعود بها تلك السفن ويقول: «وتبحر سفن كثيرة إلى قلعة البصرة موسقة بكميات من السلع والتوابل وأقمشة القطن. وتشتري منها الكثير من القمح والسمن وزيت السمسم والشعير وأقمشة المخمل»[2]. وتدل هذه النصوص على العلاقات التجارية النشيطة بين سواحل شبه الجزيرة العربية وبين جنوبي العراق، بحراً. والصلات وثيقة بين الخليج وبلاد الرافدين بالطرق البرية.

ثالثاً ـ طرق الخليج البرية الفرعية والخارجية ومراكز انطلاق القوافل ووصولها

لا تتوفّر دوماً على طريق الهند، طرق مائية بحرية أو نهرية، فيلجأ إلى طرق برية تكمّل الطرق المائية، وتستخدم معها تتمة لها، لتصل سواحل الخليج الشمالية والغربية والشرقية بالسواحل الجنوبية الواقعة على حوضة المتوسط الشرقية في بلاد الشام، وبسواحل البحر الأسود. وأهم هذه الطرق البرية: طرق قوافل بلاد ما بين النهرين الجنوبية وبادية الشام، ثم الطرق البرية بين سواحل الخليج في شبه جزيرة العرب وبين بلاد الشام الجنوبية، وأخيراً الطرق البرية بين سواحل الخليج الشرقية وسواحل البحر الأسود. وتسلك هذه الطرق قوافل الإبل التي تعدّ جمالها بالمئات، وتشكّل كياناً خاصاً ينبغي تحليله قبل شرح الطرق البرية.

آ ـ نظرة عامة إلى القافلة وتكوينها، نموذجها: القافلة التدمرية

القافلة منشأة اقتصادية مؤقتة، يتجمع فيها عدد من التجار في شركة عابرة مؤقتة، هدفها القيام برحلة واحدة من نقطة تجمّع وانطلاق إلى نقطة وصول وتسليم السلع المنقولة، نموذجها المثالي قافلة تدمر التي تذهب منها إلى بابل أو فولوجيزياد أو خاركس، أو تأتي منها جميعاً إلى تدمر.

وقوافل تدمر على نوعين: قوافل تتجه إلى الشرق إلى مدن الفرات في بلاد ما بين النهرين أو إلى مدن رأس الخليج على شط العرب أو قربة، ثم قوافل تتجه إلى

---

(١) المرجع ذاته ص ٢١٤ ـ ٢١٧ و٢١٢.

(٢) دوارته بربوسة، كتاب دوارته بربوسة، الجزء الأول ص ٨٩، س ١٦ ـ ٢٠.

الغرب إلى المدن السورية الداخلية فمرافىء بلاد الشام.

١ ـ تنظيم القافلة

ويدير شؤون القافلة أربعة مسؤولين كبار، هم رئيس التجار. ورئيس القافلة، وحاميها ومدير المتجر المقصود[(١)].

(١) ـ رئيس التجار Archemporos

فرئيس تجار القافلة غير محدد الصلاحيات، إلا إذا ترأس القافلة في الوقت ذاته. وكل ما عليه تسليم السلع المطلوب نقلها.

(٢) ـ رئيس القافلة Synodiarque

أما مهام رئيس القافلة، فواضحة، إذ عليه أن ينظم قافلته، ويعدّها للحركة، ويقودها في البادية ويؤمن لها الماء والغذاء. فهو بالتالي خبير وتقني. وكان عليه أن يجمع مئات حيوانات الحمل والركوب من إبل وخيل مع جمّاليها وسائسيها وعلفها. ومن أشهر هؤلاء الرؤساء الأبجر ويدّاي.

(٣) ـ حامي القافلة Protecteur de la caravane

ويتولّى حامي القافلة حراستها من غارات البدو والتفاوض معهم ومع الجهات الرسمية الفرثية إذا اقتضى الأمر. وهذه مهمة عامة، تعيّن صاحبها تدمر والإدارة الرومانية. ويعتمد في تأمين حماية القافلة على قوّات مسلّحة خاصة، لاسيما الرماة التدمريين، لا على الجيش النظامي. ولم تكن الحماية ضرورية في القوافل الذاهبة من تدمر إلى الجهات الغربية لأن الأمن مستتب في جميع أرجائها. ومن أشهر حماة القوافل ساوودس واولبيوس ايارهاي.

(٤) ـ مدير المتجر التدمري المقصود

ولمدينة تدمر جاليات كثيرة في مدن عديدة قريبة منها نسبياً أو بعيدة جداً عنها. أشهرها ماري ودورا أوروبس وفولوجيزياس وخاركس. وتتألف هذه الجاليات من تجار ومن مجهزي سفن لهم نفوذ كبير حتى لدى السلطات المحلية. ومن تقاليدها اختيار زعيم لها يسمى رئيس الجالية، وهو الذي يعبّر عنه بمدير المتجر، لأنه يتولى الإشراف على مستودعات سلع أفراد الجالية وعلى البضائع الخارجة منها والداخلة إليها.

---

(١) انظر ارنست وبل، «التجار ورؤساء القوافل في تدمر»، مجلة سيريا، ١٩٥٧.

٢ ـ دروب القوافل من تدمر إلى مدن الفرات وإلى المدن الداخلية في بلاد الشام

(١) ـ أهمية تدمر واتساع مملكتها النسبي في نقل القوافل

تدل حركة القوافل من تدمر وإليها إلى أهميتها الكبرى في العلاقات التجارية العالمية، وإلى ارتباط مصيرها بمصير التجارة الدولية. فقد نشأت واحة في قلب البادية. وأوصلتها وساطتها في التبادل التجاري بين الشرق والغرب إلى أوج الازدهار والرقي في تلك الآونة. فأصبحت مملكة لها شأن كبير في قضايا العالم.

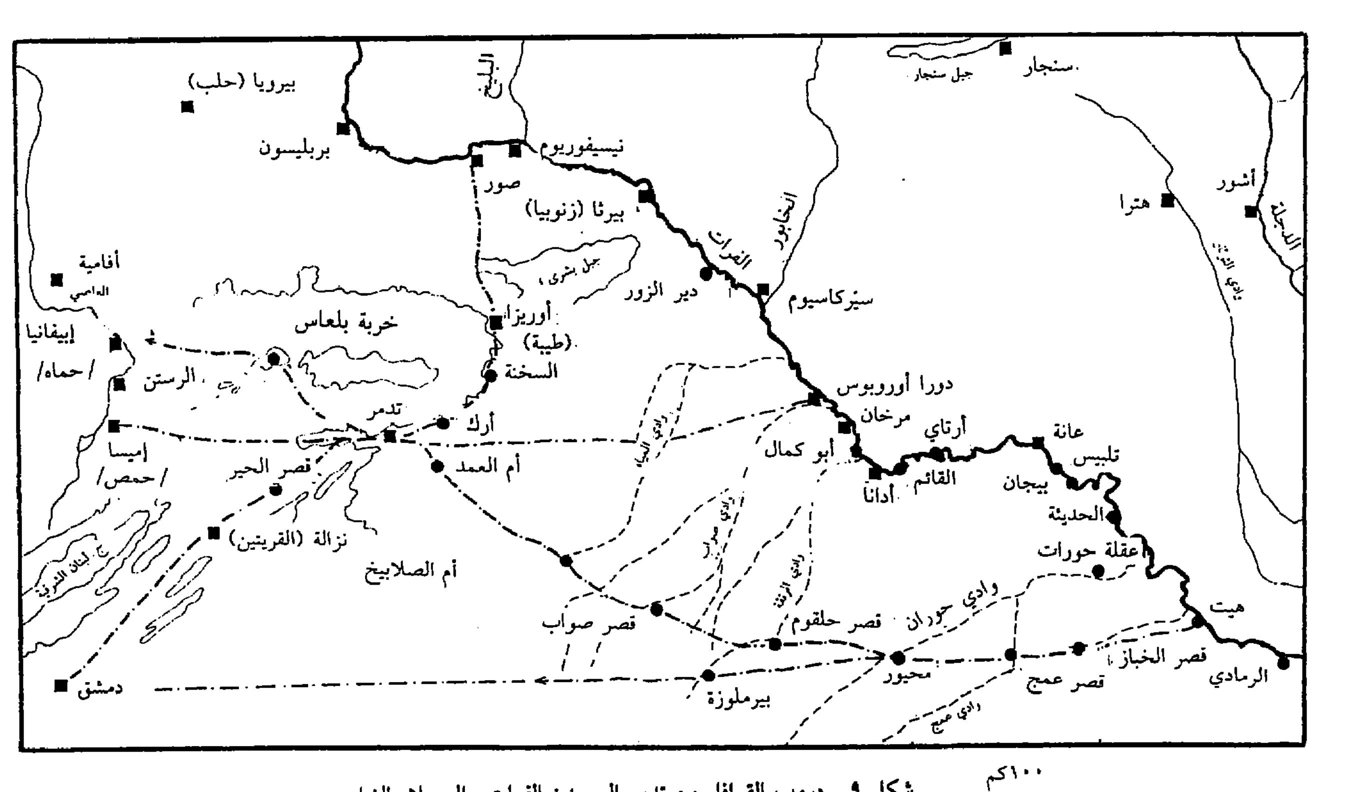
وتبيّن أن جذورها واغلة في القدم: فقد عثر في كهف دوارة على أدوات حجرية تعود إلى ٧٥٠٠ سنة ق م. وجمع من تل الزور القريب من عين افقا، أدوات أخرى ترجع إلى حوالي ٧٠٠٠ سنة ق م. وسمّى لوح تنش (كل تبه) في وسط آسية الصغرى (القرن ١٩ ق م) أحد التدمريين (بوزاشتان) الذي وقّع على أحد العقود كشاهد. وفي القرن الثامن عشر ق م، أشارت محفوظات مدينة ماري (تل الحريري) الواقعة على ضفة الفرات اليمنى قرب أبو كمال إلى أربعة تدمريين وصلوا إليها قادمين من قَطْنا (المشرفة قرب الرستن بين حمص وحماة). وورد في وثيقة أخرى أن نجل الملك الآشوري شمشي حدد الأول ١٨١٥ ـ ١٧٨٢ ق م، ونائبه في ماري، تزوج من كريمة ملك قَطْنَا مما يدل على وجود علاقات تجارية نشيطة بين بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، وإلى احتمال مرور القوافل فيها من تدمر. وفي القرن السابع عشر ق م، وصلت إلى تدمر من الجنوب من جزيرة العرب، قبيلة بني قدر العربية التي قضى أشوربانيبال عليها وعلى حلفائها[١].

وضمّت مملكة تدمر بعد نشوئها قطاعاً واسعاً من البادية السورية يمتد على حوالي ٤٦٠ كم من الشرق إلى الغرب من مدينة الحديثة الحالية إلى منتصف الطريق بين تدمر وحمص. أما من الشمال إلى الجنوب، فيبلغ انتشارها ٦٠ كم بين الصُوَّتين المكتشفيتين غربي تدمر. أخيراً لم تعيّن أبداً حدودها من الجهة الجنوبية الشرقية، لأنها كانت دوماً منتجعاً يرتاده البدو، ولا يمكن السيطرة عليه سياسياً إلا بواسطة مراكز مراقبة موزعة على طول دروب القوافل[٢]. وتعد تدمر عقدة مواصلات تنطلق منها القوافل ذاهبة إلى الشمال والشرق والجنوب الشرقي والغرب.

---

(١) ارنست وبل، «التدمريون، بندقية الرمال» (القرن الأول ق م ـ القرن الثالث ب م) ص ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) ميشيل غولوسكي، تدمر والفرات، مجلة سيريا، ١٩٨٣.



١٠٠كم

شكل ٩ ـ دروب القوافل من تدمر إلى مدن الفرات وإلى بلاد الشام

(٢) ـ درب القوافل من تدمر إلى الشمال

ويشكل الاتصال بين تدمر والشمال درب قوافل ينتهي إلى مدينة صورا على الفرات، ويمر بارك والسخنة والطيّبة والرصافة. وقد نشط في القرنين الأول والثاني الميلاديين. ومكن قوافل تدمر الواصلة إلى صورا من البيع والشراء في مدن حرّان واورفا وبتنه، التي تتلقى سلع الهند محمولة بسفن نهر الفرات، وبضائع الصين منقولة براً على طريق الحرير.

(٣) ـ درب القوافل من تدمر إلى الشرق

وتتصل قوافل تدمر من الجهة الشرقية بدورا اوروبس مباشرة، بعد أن تقطع وادي المياه عند الحميمة. ولا تبعد دورا اوروبس سوى ٢٣٠ كم عن تدمر. وقد بناها المقدونيون على ضفة الفرات اليمنى. وأقامت فيها جالية تدمرية تعنى بالنشاط التجاري.

(٤) ـ درب القوافل من تدمر إلى الجنوب الشرقي

وتسلك قوافل تدمر الذاهبة إلى بلاد بابل وطيسفون (قطسيفون) ومملكة ميسان طريقاً جنوبية شرقية، تخترق البادية، وتمر بأم العمد وأم الصلابيخ وقصر صواب، ومنخفض القعرة عند قصر حلقوم، ثم محيوير، فهيت على الفرات. ومن هيت تقصد فولوجيزياس فخاركس. وهاتان المدينتان واقعتان في الامبراطورية الفرثية (شكل ٨) ويخرج درب من محيوير يصل هيت على الفرات بدمشق مباشرة.

(٥) ـ درب القوافل من تدمر إلى الغرب في بلاد الشام، ودروب أخرى

ولقوافل تدمر، عندما تقصد القطاع الغربي، ثلاث دروب رئيسة، تقودها الشمالية الغربية منها إلى حماة بعد مرورها بخربة بلعاس، وتسوقها الغربية إلى حمص مباشرة، وتأخذها الجنوبية الغربية إلى دمشق بعد اجتيازها القريتين. وجميع هذه الطرق آمنة، ولا تحتاج فيها القوافل إلى حراسة أو حماية من غارات البدو أو سواهم.

وينبغي أن يضاف إلى الدروب القديمة السابقة المرتبطة في الأصل بتدمر، طريقان جديدتان، إحداهما شمالية والأخرى جنوبية. (بالنسبة إلى بلاد شام)، لا علاقة لهما بطرق قوافل مملكة تدمر. فالطريق الشمالية متعرجة ومتشعبة، تبدأ أساساً من البصرة، وتجاري الفرات الأسفل إلى أن تصل إلى بغداد. ومن بغداد تتفرع إلى شعبتين، تذهب الأولى من بغداد إلى الموصل مصاقبة نهر دجلة، ثم تنعطف من

الموصل متجهة إلى الغرب إلى أن تبلغ حلب حيث تلتقي بالشعبة الثانية التي تغادر بغداد لتتبع مجرى الفرات. ومن حلب توصل الطريق الشمالية إلى الاسكندرون مباشرة أما الطريق الجنوبية، فمستقيمة، تبدأ بهيت، وتعرّج على قصري خبّاز وعميج، ثم على محيوير وبير ميلوسة، فدمشق، فبيروت.

وتنتهي جميع دروب القوافل السابقة إلى مرافىء بلاد الشام أي إلى حوضة البحر المتوسط الشرقية. وعندئذٍ ترتبط بخطوط ملاحية متوسطية تصلها بالموانىء الأوربية الجنوبية. لذلك يمكن القول بأن الخليج العربي ممر مائي يصل بحرِ الهند بالبحر المتوسط أو الشرق بالغرب.

(٦) ـ دروب القوافل من الفرات إلى قَطْنَا (المشرفة)

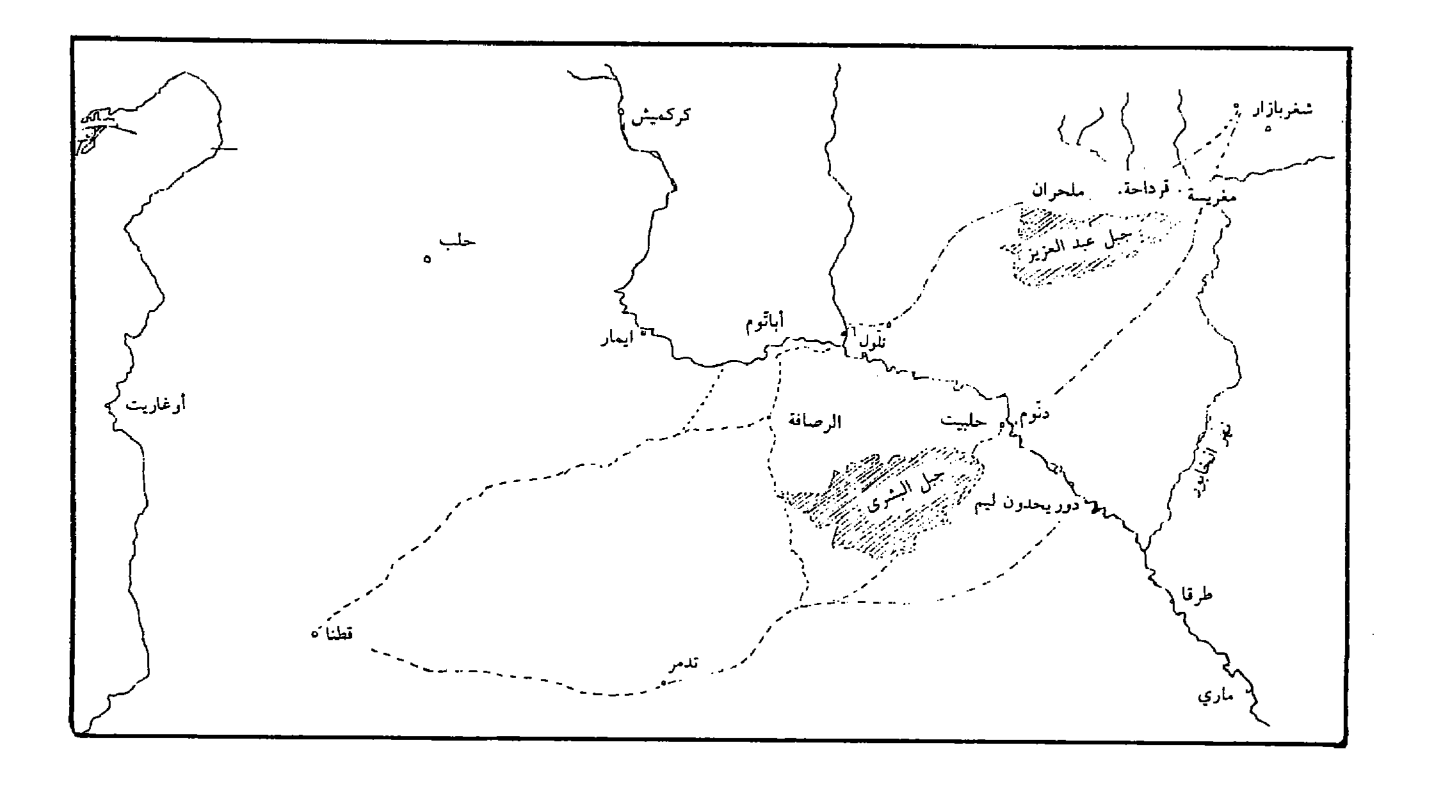
بعث شمسي ادد برسالة إلى نجله يسمح ادد، يحدد له فيها ثلاثة دروب يمكنه سلوكها لينتقل من ضفاف الفرات إلى قطنا (المشرفة). وما عليه إلا أن يختار أحدها. وسمّي الدرب الأول «الأعلى» الذي يبدأ من ابتّوم، والثاني «الأوسط» الذي يبدأ من حلبيت (حلبية ـ زموبية)، والثالث «الأدنى» الذي لم تعيّن بدايته، إما نتيجة خطأ الناسخ، وإما لأنه ينطلق من وسط المملكة[١].

ومعروف ان ابتّوم واقعة بين تتول وايمار (مسكنة)، حسب تصميم مخطط ييل. وقد اقترح م. عنبر اعتبارها مدينة صفين التي تسهّل قلعة جعبر عبور الفرات قربها. لكن لا يجوز إهمال مدينة صورا على خارطة دوسو، التي تتحدّث المصادر القديمة عن وجود جسر فيها.

أما الدرب الأوسط فيخترق دنّوم. فلو فرضنا أن بداية الدربين الأعلى والأوسط الأصلية من شغر بازار، لتبين لنا أن الدرب الأعلى يدور حول جبل عبد العزيز من الشمال، بينما يتحاشاه الدرب الأوسط ويمّر جنوبية.

وبالتالي، ينبغي أن ينطلق الدرب الثالث الأدنى من مملكة الجزيرة ذاتها، ويتبع الخابور الأسفل من مجريسا إلى سجّراتوم. وهذا يدل على أن دور يحدون ليم تتحكم بالتقاء الطرق الفراتية الشمالية الشرقية والطرق الشرقية الغربية التي تقطع الفرات. وينطبق هذا الوضع على موقع دير الزور.

(١) انظر ماري ٥، حوليات الأبحاث المتعددة الاختصاصات، جان ماري دوران، تاريخ مملكة الجزيرة ص ١٥٨ ـ ١٦٣.



شكل ١٠ ـ دروب القوافل من مدن الفرات إلى قَطْنا

فإذا رسمنا هذه الدروب على خارطة (شكل ٩)، لاحظنا عملياً وجود دربين فقط، يخترقان بادية بلاد الشام من الشرق إلى الغرب، يعبر أولهما الفرات من ابتوم لينتهي رأسا في قطنا، ويطول الدرب الثاني أكثر من الأول لأنه يعرّج على تدمر قبل أن يتجه إلى قطنا.

(٧) ـ مدن أخرى هامة على دروب القوافل أو في نهايتها

وسواء نقلت السلع بالسفن النهرية أو على ظهور إبل القوافل، فإنها كانت قديماً تؤخذ من مستودعات متجري مدينتي **خاركس والفرات** في مملكة ميسان قرب رأس الخليج، أو من مستودعات متجر **فولوجيزياس** القريب من سلوقية دجلة أو طيسفون. أو من **دورا اوروبس**.

ـ متاجر خاركس وفولجيزياس ودورا اوربس:

خاركس أو سبازينو خاركس عاصمة مملكة عراقية صغيرة قديمة، تدعى ميسان، تقع عند التقاء قارون بشط العرب[١]. وكانت تابعة للملوك الارشاقيين (٢٥٠ ق م ـ ٢٢٤ م) الذين قضى عليهم الساسانيون. واشتهرت بأنها متجر هام تخزّن فيه ـ وفي متجر مدينة الفرات القريبة منها ـ السلع المنقولة براً على طريق الحرير، أو بحراً عبر الخليج العربي. وقد تعاملت تدمر مع مملكة ميسان منذ مجيء القائد جرمانيكوس الروماني إلى المشرق سنة ١٧ ميلادية وتوطدت العلاقات التجارية بينهما على مر الزمن، حتى شكّل التجار التدمريون جالية كبرى موثوقة، عيّن ملك ميسان أحد أفرادها، المدعو يرهاي نبوزيد، مرزبانا في تيلونا أي جزيرة البحرين على الأرجح، وتدمرياً آخر والياً على مدينة الفرات، وتدمرياً ثالثاً رئيس سفارة إلى عيلام. وتدّل هذه الأمور على اهتمام التدمريين الشديد بطريق الهند البحرية التي تعدّ خاركس والفرات سوقين لبضائع الهند وبضائع تدمر على رأس الخليج.

ـ وتعتبر مدينة **فولوجيزياس** متجراً هاماً جداً أيضاً. وهي سوق تجارية بناها الملك فولوجيز الأول الفرثي حوالي سنة ٧٠ ميلادية على بعد فرسخ أو خمسة كم جنوبي سلوقية دجلة أو طيسفون، أو جنوبيها الغربي، إذن قرب مجرى نهر دجلة وقيل على الفرات الأدنى وقد ضمت هي أيضاً جالية تدمرية، بنت فيها بيت نار وهيكل عبادة

---

(١) أسسها اسكندر المقدوني وأعمرها وسماها الاسكندرية. ثم سماها انطيوخس الرابع ابيفان: انطاكية. أخيراً سماها هيسباوزينس، ملك ميسان سبازينو خاركس في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد.

امبراطورية منذ عام ١٠٨ م، واشتهر منها رئيس الجالية المسمى ساوودس، الذي كان فيها وكيلاً مفوّضاً، وصنع له ١٨ تمثالاً، تقديراً لخدماته في حماية قوافل مواطنيه التدمريين في الامبراطورية الفرثية.

- وتقع دورا اوروبس على بضعة كم شمالي غربي قرية الصالحية الحالية. أسسها نيكاتور قائد انتيغونس، حوالي ٣٠٠ ق م، وسماها دورا. ثم دعاها سلوقس الأول اوروبس واحتلها الفرثيون لأول مرة سنة ١٣٩ ق م. ثم احتلها الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م). لكنها عادت إلى الفرثيين تنفيذاً لاتفاق سلام هادريان سنة ١١٦ م. واسترجعها الامبراطور فيروس سنة ١٦٥. وفيها قلعة يحيط بها خندق يزيد عرضه على مائة متر. وقد أثبتت مجموعة من النقوش، المكتوبة باللغة التدمرية، وتماثيل أوثان تدمر، وجود جالية تدمرية في دورا اوروبس تزايدت أهميتها بعد احتلال الرومان النهائي لها.

ب - دروب القوافل العرضانية في شبه جزيرة العرب الشرقية

لن نستعرض جميع دروب القوافل، بل نكتفي بدرب الجوعاء العرضاني وفرعيه، وبالدروب الساحلية من الإحساء إلى بلاد ما بين النهرين.

١ - درب الجرعاء العرضاني وفرعاه

فالجرعاء معروفة حتى الآن، ذكرها الهمداني فقال: «فالإحساء منازل ودور لبني تميم ثم لسعد من بني تميم، وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتبايع عليه العرب[1].

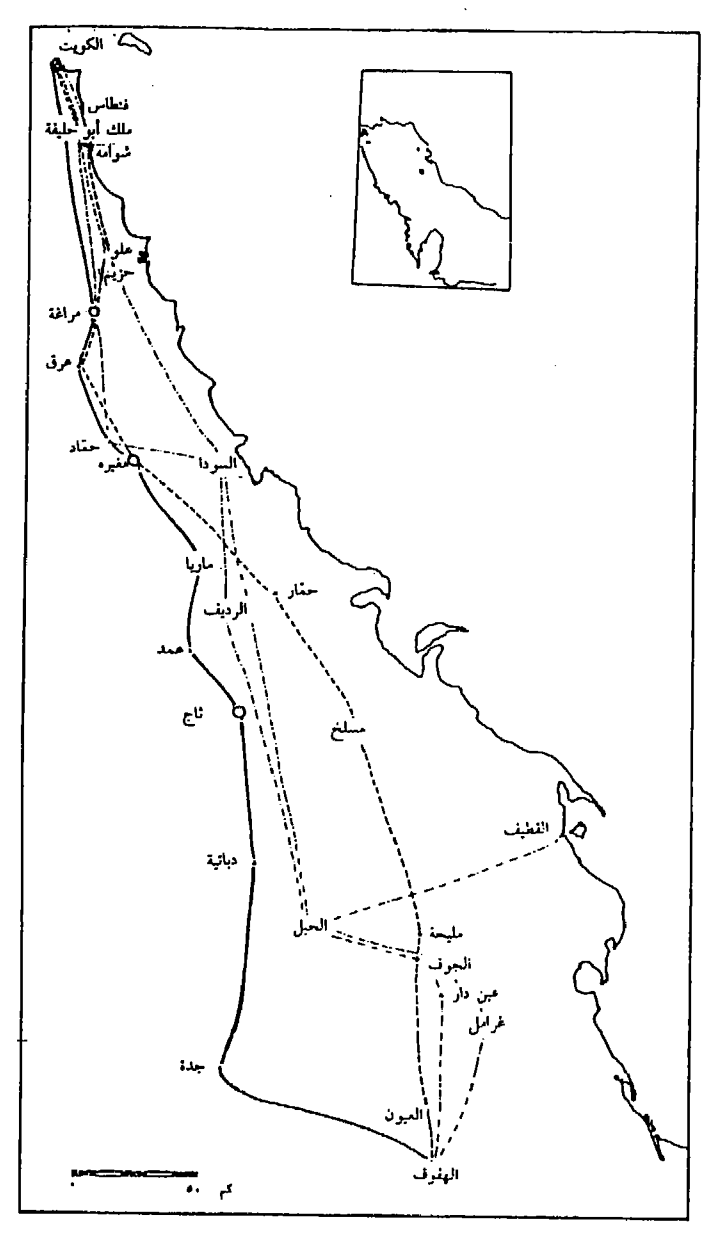
والإحساء هي المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، التي كانت أيالة عثمانية سنة ١٥٥٣ م، ثم سنجقا في ولايتي البصرة وبغداد. وقبيل العهد الإسلامي، كانت جزءاً من المنطقة المسماة «البحرين» التي امتدات من كاظمة (الكويت) إلى عمان، وكانت هجر في واحة الهفوف الحالية عاصمتها.

والإحساء من الناحية الجيومورفولوجية، امتداد لمنخفض بلاد ما بين النهرين، يسمى عادة منطقة خليج العرب الساحلية، أو المنطقة الساحلية في المملكة العربية السعودية، على الخليج. وتعد واحة القطيف أوسع المناطق الزراعية فيها وفي المملكة

---

(١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب. ص ٨٥١، س ٨ - ٩.

شكل ١١ ـ الدرب من الجرعاء إلى مأرب، ومن الجرعاء إلى تيماء، فالبتراء، فبلاد الشام الجنوبية



شكل ١٢ ـ الدروب من الهفوف والقطيف إلى الكويت وبلاد ما بين النهرين الجنوبية(١)

---

(١) انظر د. بوتس، جزيرة العرب الشمالية الشرقية في فترة ما قبل الإسلام المتأخرة، في جزيرة العرب الشرقية وبلاد ما بين النهرين وفارس الجنوبية، من عصر الحديد إلى بداية الفترة الإسلامية، باريس ١٩٨٤. بوتس أيضاً، ثاج وموقع الجرعاء، محضر الدراسات العربية، المجلد ١٤/ ١٩٨٤.

العربية السعودية، وتشمل بساتين نخيل عرضها ٢,٣ كم، وطولها ١٠ كم، مقابل خليج تاروت. وإذا أضيفت إليها القرى التابعة لها، تصبح مساحتها ٥٧ كم٢. وتفصلها السباخ والرمال عن الداخل.

وتقع إلى جنوبها واحة الحسا أو الهفوف، وفيها مدينتا الهفوف والمبرزة وتفصلها رمال الجافورة عن مياه الخليج، وفيها حوالي ٣٠٠ كم٢ من الأراضي الزراعية التي لا تستثمر كلها.

وهكذا يتضح أن الجرعاء واقعة في وسط منطقة زراعية غنية جداً. وكانت نفسها مستودعاً لسلع الشرق التي تنقلها القوافل منها إلى تيماء، فالبتراء، فبلاد الشام الجنوبية بخاصة غزة، ومستودعاً أيضاً لبخور جزيرة العرب الجنوبية، ينقل إليها من مأرب وتحمله قوافلها إلى بلاد ما بين النهرين وإلى بلاد الشام الجنوبية[١].

ونشير إلى مقالين مطولين، حاول بوتس في أحدهما أن يثبت أن ثاج وهجر والجرعاء تقع في مكان واحد، واستفاض في الآخر في دراسة علاقة الجرعاء بمأرب، ثم بتيماء فالبتراء فبلاد الشام الجنوبية، ثم ببابل وبلاد ما بين النهرين. ويوضح تحاليله بعدة خارطات، منها خارطتا الشكلين ١١ و١٢، اللتان تغنيان عن التعليق.

٢ ـ الدروب الساحلية من الإحساء إلى بلاد ما بين النهرين

وظلت جزيرة العرب الشمالية الشرقية على اتصال دائم بالمناطق المجاورة لها بدروب قوافل برية، تربط الإحساء بالكويت وببلاد ما بين النهرين الجنوبية، التي قال عنها منذافيل: «تفصل مئات أميال من الصحراء الإحساء عن البصرة وبغداد. ولكنها ليست أرضاً قاحلة خالية من الماء يستحيل اجتيازها. ففيها مراكز استعذاب تتوزع على مسافات معلومة في فصول معينة، تجهيزها ملائم، تسر القوافل باستخدامها. ويعبتر بيل أول أوروبي كتب تقريراً عن أربعة دروب بين الهفوف والكويت سنة ١٨٦٥ م، ورسمها على خارطة، وحفظ أسماء مراحلها القديمة، هي:

(١) ـ الدرب الأول والأهم يمّر في خرائب ثاج.

(٢) ـ الدرب الثاني يتقاطع مع طريق الرياض.

(٣) ـ الدرب الثالث ينتهي بالقطيف.

---

(١) كريستوفر ايندنز وغوث بودن، تاريخ تجارة تيماء والحجاز في الألف الأول ق م، مجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماع، المجلد ٣٢، القسم الأول/ شباط ١٩٨٩.

(٤) ـ الدرب الرابع درب مباح لا يمر بمدينة أو قرية محددة.

ويمكن الاعتماد على الجغرافيين العرب لمعرفة الوقت الذي يستغرقه قطع هذه الدروب. فالادريسي يذكر أن اجتياز المسافة بين البصرة والبحرين (الإحساء) يتطلب ١١ يوماً على الدرب الرئيس، و١٨ يوماً مساحلة. ويذكر بيلي أن المسافة بين الكويت والقطيف تقطع بستة أيام على ظهور الإبل، بمعدل ٨ ساعات ركوب في اليوم الواحد، يقابلها عشرة أيام لقطع المسافة بين الكويت والهفوف.

جـ ـ دروب القوافل على سواحل الخليج الشرقية

أما دروب قوافل سواحل الخليج الشرقية، فتتحكم بها سلاسل جبال توازي خط الشاطىء، وتقترب كثيراً منه، وتضطرها إلى قطع مرتفعاتها قبل أن تسلك الهضبة الداخلية لتنفذ في نهاية المطاف إلى البحر الأسود أو حوضة البحر المتوسط الشرقية. ويتوزع أهمها على أقاليم خوزستان وفارس وكرمان.

١ ـ درب سوسة في خوزستان:

وكانت سوسة عاصمة العيلاميين ثم الاخمينيين الذين ازدهرت في عهدهم. ويعزى ازدهارها في أيامهم وبعدها، إلى تجارتها الدولية تثبتها عملتها المسكوكة في محارفها وعثر عليها فيها وفي أماكن أخرى من مدن وبنادر وغيرها، خاصة سلوقية دجلة وجزيرة فيلكة، كما تثبتها أيضاً العملات الأجنبية التي عثر عليها في سوسة ذاتها، وضربت في سلوقية دجلة وفارس وبلاد ما بين النهرين والجرعاء وبلخ.

ويبدو أن سوسة تمثّل قطعة من طريق تجارية بالغة الأهمية، تصلها بالخليج العربي وببلاد ما بين النهرين وبلاد الشام. وقد جمعت ثروة طائلة من هذه النشاط. فهي مدينة مرور سلع شرقية وتصدير محاصيل زراعية من إنتاجها. وقد انتعشت تجارة المرور فيها منذ حكم انطيوخس الثالث في آخر القرن الثالث[١].

٢ ـ دروب القوافل في فارس وكرمان:

وتتعدد دروب القوافل في فارس وكرمان، وتتشعب، وتتشابك إلى أن تلتقي في شيراز، ثم تنطلق منها إلى تبريز، ومن تبريز إلى طرابزندد على البحر الأسود وإلى

(١) انظر ر. بوشرلا، سوسة سوق زراعية أم مرحلة في التجارة الدولية، سوسة وخوزستان في عهد الامبراطوريات الكبرى، مجلة باليواورينت، المجلد ١١/٢ ـ ١٩٨٥.

الاسكندرون على حوضة البحر المتوسط الشرقية.

وتوضح خارطة مبّسطة[1] دروب القوافل بين ساحل الخليج الشرقي في فارس وكرمان، وبين شيراز (شكل ١٣) من القرن العاشر إلى القرن السادس عشر:

(١) ـ أولها دربان استخدما في القرن العاشر ينطلق أولهما من هرمز إلى سورو، فتارم، ففرج، فدارارب فشيراز، وينطلق الدرب الثاني من سيراف إلى شيراز ماراً بفيروزاباد.

(٢) ـ ثم درب قيس، ويذهب من الساحل المقابل لها إلى خنج، فلاغر فشيراز. وقد سلك من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر.

(٣) ـ ثم درب هرمز ـ شيراز، ويجتاز سورو فلار التي يتفرع بدءاً منها إلى شعبتين: شعبة تسلك درب خنج لتصل إلى شيراز، استخدمت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وشعبة تتجه إلى جهرم فشيراز، استعملت في القرن السادس عشر.

ويجب أن يضاف إلى هذه الدروب درب آخر يذهب مباشرة من بوشهر إلى شيراز أما بعد شيراز، فتتوحد الدروب[2]. وتمر بأصفهان وطهران وتبريز وارضروم التي ينقسم فيها إلى شعبة أولى تنتهي في طرابزون على البحر الأسود، وشعبة ثانية تصل إلى اسكندرون بعد اجتيازها سيواس (شكل ١٤).

د ـ بعـض المـدن الهـامـة

ويسترعي الانتباه أن بعض مدن فارس، لا سيما تبريز وسلطانية، عاصمتي الابلخانيين والخاروف الأسود (قره قويونلو)، وسلطنة هرمز ومدنها واتساعها، بهرت المراقبين الأوروبيين.

١ ـ مدينة تبريز

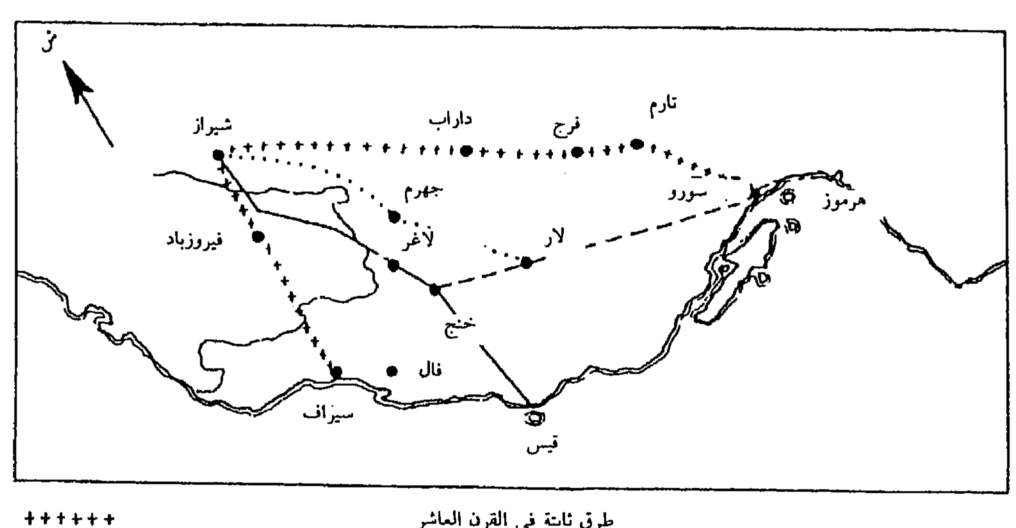
فاودريك دي بورد ينون وصف تبريز على النحو التالي في وقت مبكر من القرن الرابع عشر (الثامن الهجري): أنها أنبل من أي مدينة أخرى، وأفضل للتجارة. ولا يوجد محل آخر على وجه الأرض يتوفر فيه ما يتوفر فيها من أنواع المؤن والسلع، وبكميات هائلة... فالتجار يقصدونها من جميع أنحاء العالم تقريباً. وعلى الرغم من

---

(١) انظر اندرو وليمسن، هرمز وتجارة الخليج في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في محضر المؤتمر السادس للدراسات العربية، لندن ١٩٧٢.

(٢) انظر اوجين ويرث، الأساكل الكبرى لحوضة البحر المتوسط الشرقية وطرق التجارة العالمية الذاهبة إلى آسيا.

فتح التيموريين لها وتعاقب سلالتين على حكمها. فإن اتساع تجارة تبريز الهائل أذهل راي غونزاليز دي كلافيجو، عندما مرّ بها بين ١٤٠٣ و١٤٠٥ م.



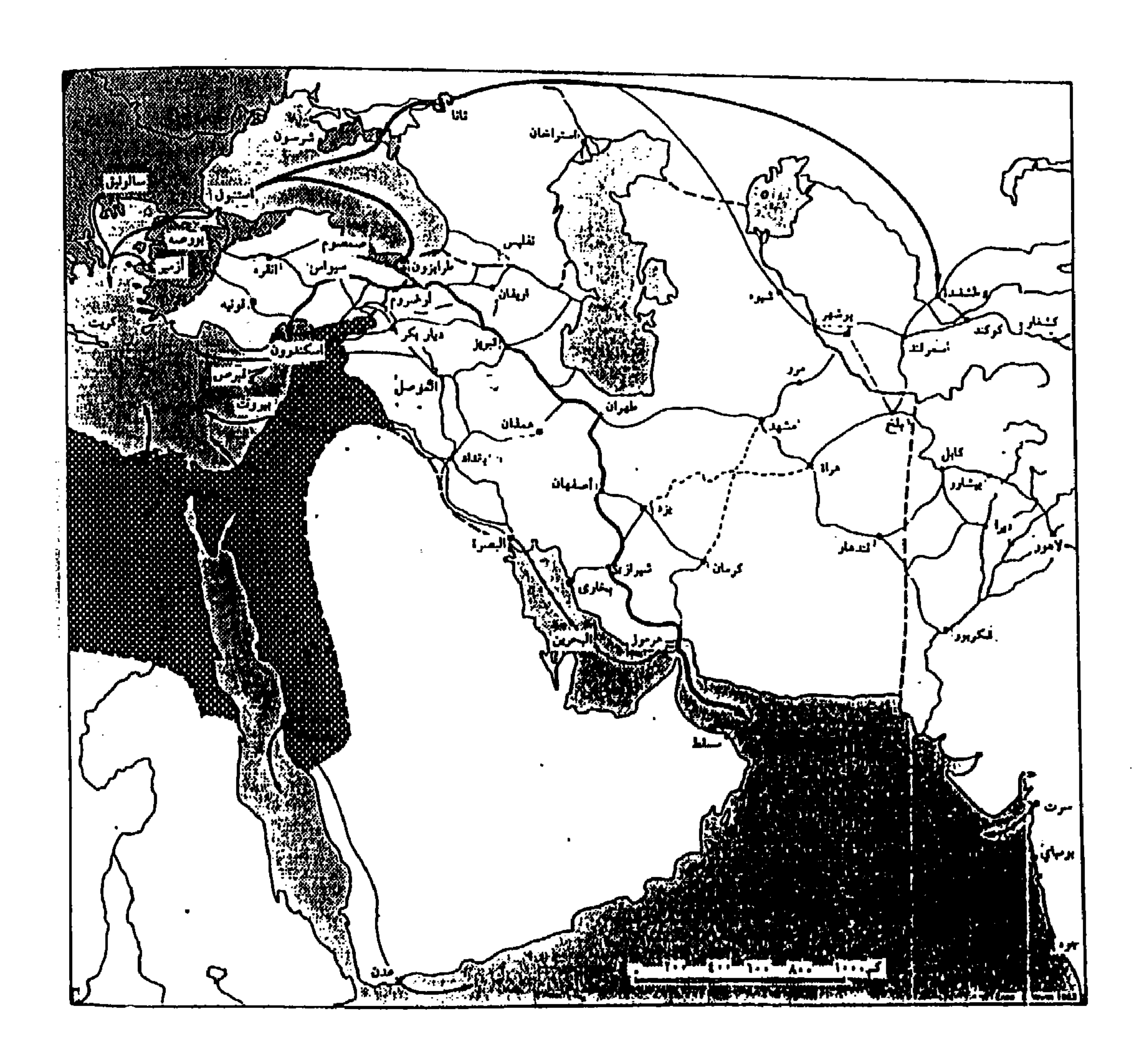
++++++ طرق ثابتة في القرن العاشر

——— طرق قيس من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر

— — — طرق هرمز إلى خنج في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

.... طريق لارالي شيراز في القرن السادس عشر

شكل ١٣ ـ دروب القوافل بين ساحل الخليج الشرقي وشيراز



شكل ١٤ ـ درب القوافل من هرمز إلى البحر الأسود وخليج اسكندرون

٢ ـ مدينة السلطانية:

وكتب راي غونزاليز عن سلطانية، فقال: «في كل عام، يأتي إليها تجار من الهند، حاملين معهم كبش القرنفل، وجوز الطيب، والقرفة، والمن، والبسباسة وغيرها من التوابل والسلع الثمينة التي لا تحمل إلى الاسكندرية». وتباع في أسواقها أيضاً سلع أخرى منها حرير شيراز وجيلان والقطن والتافتا، ثم الجواهر واللالىء من هرمز وكاثاي.

وتقع مدينة السلطانية[١] في شمالي غربي فارس، على مسافة ١٢٠ كم شمالي غربي قزوين، على طريق تبريز. وقد اختارها ارغون عاصمة صيفية له لوفرة الكلأ في منطقتها. ثم حولّها نجله محمد الجايتو خدابنده إلى عاصمة الامبراطورية الايلخانية. وتعرضت السلطانية إلى التخريب من آن إلى آخر. إلا أنها لعبت دوراً أساسياً كسوق في وسط قبلي، وموقع استراتيجي، ومحطة على طريق التجارة الرئيسة بين الشرق والغرب. وحافظت على أهميتها حتى القرن السابع عشر إلى أن جعل شاه عباس أصفهان في وسط فارس عاصمة بدلاً منها، مما أدى إلى انحطاطها بسرعة. لكنها انتعشت انتعاشاً مؤقتاً، عندما اتخذها الامبراطور القاجاري فتح علي شاه (١٧٩٧) معسكراً صيفياً له باسم سلطاناباد.

قال عنها أبو الفداء: «والسلطانية عن تبريز في سمت الشرق بميلة يسيرة إلى الجنوب، وبينهما مسيرة ثمانية أيام. وهي مدينة محدثة، بناها خدابنده بن ارغون، وجعلها كرسي ملكه. وهي في مستو من الأرض، ومياهها قني وهي بالقرب من جبال كيلان، على مسيرة يوم منها. وهي قليلة الفواكه والبساتين...»[٢]. وأراد الجاتيو أن يجعل السلطانية عاصمة نشيطة، لا معسكراً ملكياً فقط. ويخبرنا الكاشاني[٣] أنها كانت تعتز بوجود ما يزيد على ١٠٠٠٠ مخزن فيها، مليئة ببالات الأقمشة الصينية المطرزة، والصناديق الصغيرة، والكؤوس والأباريق والسلع الأخرى. وقد يظن أن عدد المخازن مبالغ به، إلا أن مؤرخين آخرين يؤكدون على كثرة الحرفيين فيها. ويروي كلافيجو[٤] في أوائل القرن الخامس عشر أن سوقها كانت أهم من سوق تبريز، وأنها كانت

---

(١) انظر شيلاس بلير، السلطانية عاصمة المغول الايلخانيين، مجلة إيران، مجلة المعهد البريطاني للدراسات الفارسية، المجلد ٢٤، ١٩٨٦، ص ١٣٩ ـ ١٥١.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٣) أبو القاسم الكاشاني، مصنف تاريخ الجايتو وكتب أخرى.

(٤) هو روي عونزاليز دي كلافيجو، سفير هنري الثالث، ملك قشتالة وليون إلى بلاط تيمور سنة ١٤٠٤.

مستودعاً للتوابل الهندية، وحرير جيلان وشروان، وقطن شيراز، وأقمشة خراسان، وصدف هرمز. وكانت اللالىء وأم اللؤلؤ المصدر من الخليج تصنّع عقوداً أو حلقاً فيها. وكان فيها العديد من الفنادق لاستقبال التجار. هذا إضافة إلى البازارات التي يتحدث عنها المطرقي، ورسم مناظر لبعضها[١].

٣ ـ مدن يزد وكاشان وشيراز

مع ذلك، لم تزدهر تبريز والسلطانية وحدهما دون سائر المدن الفارسية في تلك الفترة. فيزد وكاشان كانتا مزدهرتين وكبيرتين إلى حد هائل. وازدهرت هراة عاصمة الغوربين ثم التيموريين في وقت لاحق. أما شيراز، الأقرب إلى الخليج، فقيل إنها كانت تضم ٢٠٠٠٠٠ منزل في القرن الخامس عشر، فكانت بالتالي أكبر من القاهرة وأجمل منها.

٤ ـ مدينة هرمز وسلطنتها

أخيراً، ذكر غرسيا دي سيلفا اي فيغويرس أن عدد سكان هرمز الجديدة أربى على ٤٠٠٠٠ نسمة. وقارن مؤلف تعليقات البوكيركية تجارتها بتجارة ملقة وعدن فقال: «في الهند ثلاثة أماكن تستخدم أسواقاً لجميع أصناف سلع التجارة في هذا الجزء من العالم، ومصادر إتجار رئيسة. أولها ملقة ... ثانيها عدن... ثالثها هرمز عند مدخل ومخرج مضايق الخليج الفارسي. وفي رأيي أن مدينة هرمز أهمها كلها». وكانت السلع الشرقية تصل إلى هرمز الجديدة. وتنّزل فيها، ثم يعاد تصديرها براً أو بحراً، ويشحن القليل منها إلى عدن. وكانت كمية كبرى منها تنقل براً إلى شيراز. ومنها إلى تبريز، فالبحر الأسود وخليج الاسكندرون.

أما الأراضي الخاضعة لسلطنة هرمز السياسية المباشرة، فقد شملت معظم ساحل الخليج وحتى ما وراءها. ففي جزيرة العرب، لم تفرض هرمز هيمنتها الفعلية على الداخل. مع ذلك أقامت سلسلة مستوطنات محصنة على الساحل، شمالي رأس الحد، شملت صور وقلهات ومسقط وصحار وخورفكان. وفي الخليج ذاته سيطرت هرمز على رأس الخيمة وجلفار والبحرين، وتقطعت هيمنتها على القطيف. وعلى ساحل خوزستان وفارس وكرمان ومكران والسند، وحكمت هرمز مباشرة جميع الأراضي الواقعة بين ما شوال في خوزستان وبين جوادار على بعد ١٨٠٠ كم إلى الشرق في

(١) هو نصوح مطراقي، رحالة، وصف السلطانية ورسم بازارتها.

باكستان الحالية. وحوالي هرمز ذاتها، يمتد شريط ضيق وراء الساحل يحميه نطاق من القلاع حتى ٢٨ فرسخاً تقريباً في الداخل. ويشمل أراضي زراعة النخيل الغنية على نهري ميناب وشنيل، التي تحوي اليوم ما يقرب من أربعة ملايين شجرة نخيل، تسقى بطرق ري كانت تطبق في القرن الخامس عشر الميلادي[١].

رابعاً ـ طرق الخليج في بحر العرب في القرن الخامس عشر الميلادي

تبدو طرق الملاحة الرئيسة كثيفة جداً في بحر العرب، بعضها طرق باحة، قصيرة المدى، تنطلق من بندر عدن إلى الصومال مجتازة خليج عدن، ومن رأس الحد إلى مكران وجوزرات، مارة في خليج عمان، وبعيدة المدى تقطع بحر العرب من سواحل جزيرة العرب الجنوبية، خاصة عدن وفرتك، قاصدة بنادر سواحل شبة جزيرة الدكن الغربية في كنكن وتلوان ومليبار، خاصة كالكيوت (شكل ١٥)

وهنالك أيضاً طرق مائلة، شبه مساحلة، لا تبتعد كثيراً عن الشواطىء، تسعى إلى الاقتراب من بنادر جوزرات ومكران وساحل عمان بين رأس الحد ورأس مسندم، لتنتهي إلى هرموز. وبعدها تصبح خليجية (شكل ٨).

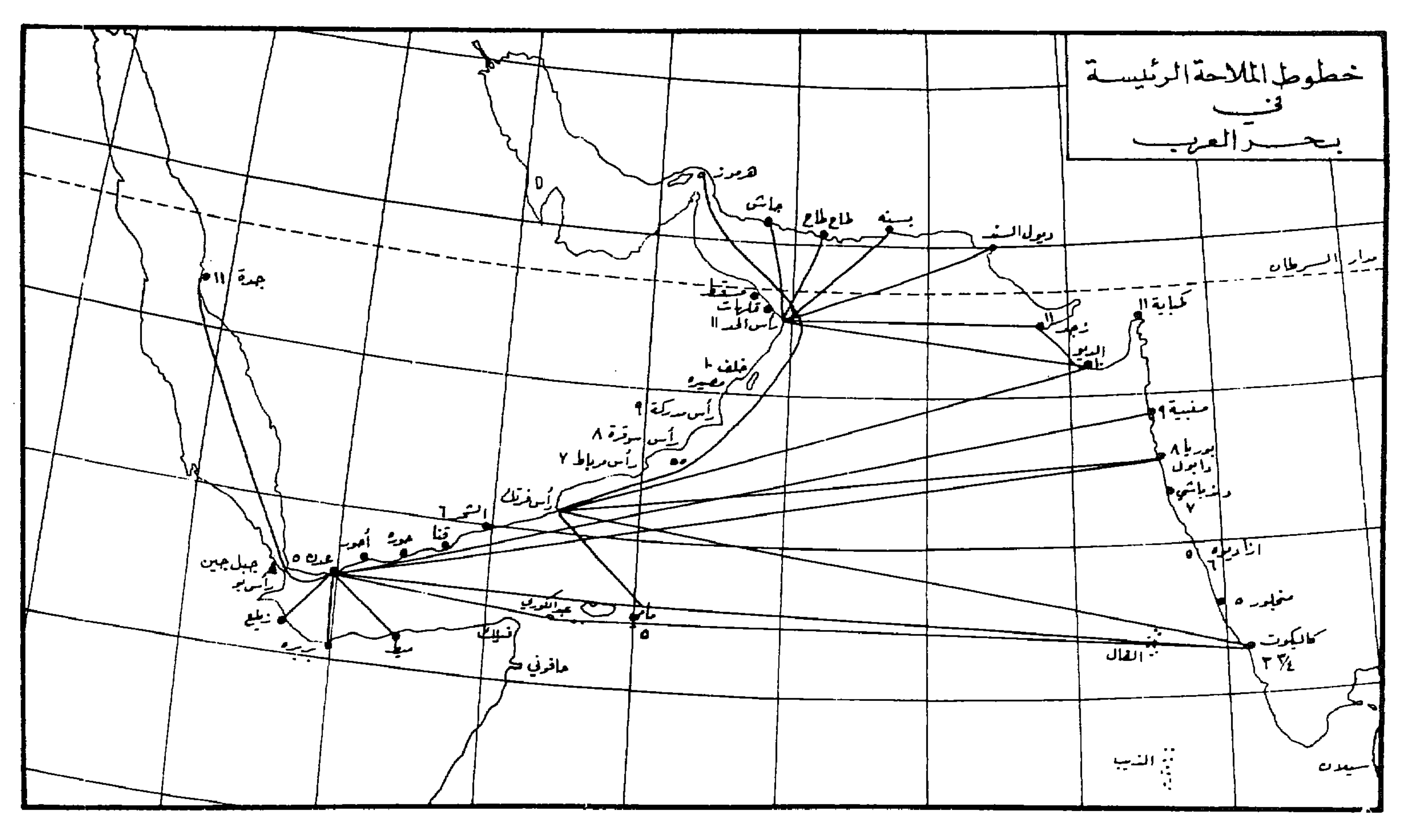
ويظن أحمد بن ماجد أن الطرق السابقة حديثة، معاصرة له ولسلطنة هرموز، وقديمة تغيّرت عما كانت عليه في أيام آبائه وأجداده. ووجه الاختلاف بينها ينحصر في مواسم السفر، أي تواريخ سلوك هذه الطريق أو تلك لا غير، فيقول: «فلعل المواسم قد أصابها الزمان بعلة من العلل، لم تطلع عقولنا على تلك العلة. فقد قيل إن الموسم يتأخر في كل مائة سنة درجة واحدة وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى».

خامساً ـ وسائط النقل المائي في الخليج وامتداديه

وسائط النقل المائي كثيرة ومتنوعة في الخليج العربي وامتداديه، منها النهرية في بلاد الرافدين، ومنها البحرية في الخليج وفي بحر العرب. وتتكيف كلها مع عمق الماء ومع معوقات الملاحة الأخرى إن وجدت.

---

(١) انظر اندرو وليمسن، هرمز وتجارة الخليج في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، في محضر المؤتمر السادس للدراسات العربية، لندن، ١٩٧٣.



شكل ١٥ ـ طرق الملاحة الرئيسة في باحة بحر العرب حسب أحمد بن ماجد

آ ـ وسائط النقل المائي النهرية في بلاد الرافدين

وتعتمد وسائط النقل النهرية على نهري الفرات ودجلة وروافدهما وأقنيتهما جزيئاً، رغم تباين أوضاع الملاحة فيها جميعاً على مر الأيام.

١ ـ تباين أوضاع الملاحة النهرية في بلاد الرافدين

وتبين أن جميع تلك المجاري المائية كانت مستعملة على نطاق واسع في العصور القديمة، خلافاً لما هي عليه في العصور الحديثة. وهذا ما تثبته الوثائق المكتوبة، خاصة رسائل ماري، التي تزودنا بمعلومات وافية عن ملاحة الفرات وتجارة الاستيراد والتصدير بين بلاد الشام الشمالية، وبين ماري وبلاد ما بين النهرين الجنوبية. ونتوخى نحن الاختصار على الدوام، فنذكر من تلك الوثائق، وثيقة بابلية تقول: «فيما يتعلق بالسفن الجارية صعداً وصبباً، نفتشها ونسمح لها بالمرور، إذا كان التاجر يحمل إجازة مرور. أما التاجر الذي لا يحمل إجازة مرور، فنعيده إلى بابل. والآن منذ استلم الحكم في بابل ريس ـ شمس من آل اناتوم، أصبح مسموحاً لكل تاجر من ايمار وحلب أن يمر بلا إجازة ويحظر علينا تفتيش أي سفينة معه».

واضح من هذا النص أن سفن الفرات تنتقل من ايمار إلى بابل صعداً وصبباً وأن مركز رقابتها في بابل في عهد حمورابي (١٧٩٣ ـ ١٧٥٠ م) يدل على وجود تجارة منظمة، يصل نشاطها حتى أراضي الحثيين، بعيداً إلى جهة الشمال، كما ورد في نصّ من بوغازكوي قيل فيه إن السفن كانت تنقل مواد غذائية من بتياريغا وارزيا إلى شاموخا، الواقعة على ضفة الفرات الأعلى الغربية.

وهكذا يمكن الاستنتاج بأن حركة السفن في الألفين الثاني والأول ق م، كانت نشيطة جداً في الاتجاهين بين بابل وايمار، وأنها كانت تتم صبباً فقط بدءاً من تل برسيب، بينما يرجح أن تنقلها كان محلياً فقط بين بتياريغا وشاموخا.

لكن لا تتوفر إلا معلومات محدودة عن حركة الملاحة على دجلة. ويشاهد على منحوتات سنحاريب النافرة أفلاك ومراكب صغيرة موسقة بمواد البناء تتجه صبباً إلى قصره في نينوى. وبنى سنحاريب أيضاً بعض سفن اسطوله في نينوى، وسيّرها صبباً حتى اوبيس ثم تم نقلها من مجرى دجلة إلى مجرى الفرات. وهذا يعني أن دجلة تصلح لجري السفن الحربية من نينوى إلى أوبيس فقط[1].

---

(١) انظر ماري كريستين دي غريف، سفن الشرق الأدنى القديم (حوالى ٢٠٠٠ ـ ٥٠٠ق م) ص ١٥ ـ ١٧.

٢ ـ وسائط النقل المائي المعروفة في بلاد الرافدين

مهما يكن درست ماري كريستين دي غريف وسائط النقل المائي في بلاد الرافدين. وصنفتها إلى أربع فئات، هي:

(١) ـ القرب المنفوخة والعامات أو الاكلاك.

(٢) ـ السفن المصنوعة من الجلود أو القفف.

(٣) ـ أطواف القصب وسفن القصب.

(٤) ـ السفن الخشبية[١].

(١) ـ القرب المنفوخة والعامات

وتعتبر القرب المنفوخة أبسط وسيلة عوم وأسهلها، إذ يمكن إملاء جلد أي حيوان، ماعز خاصة، بالهواء، ثم ربطه بإحكام ليطفو الإنسان به على وجه الماء. وهي أفضل طريقة، بل الوسيلة الوحيدة. في الغالب لقطع نهر عريض سريع الجريان في المرتفعات الجبلية. ثم إن جلد الحيوان متوفر في جميع الأماكن والقرب المنفوخة مستعملة في أنحاء كثيرة من العالم وما تزال تستعمل، ولا تدل إطلاقاً على البدائية، ويؤخذ عليها أن مساحتها صغيرة، وتحتاج إلى عناية متواصلة لحفظ التوازن عليها. وبالتالي تستخدم على مسافات قصيرة، وفي حالات طارئة لا تتوفر لها وسائل أخرى.

أما العامات (بتخفيف الميم كما جاء في لسان العرب) باللغة العربية أو الاكلاك باللغة الأكدية، فعلى ثلاثة أنواع: هي أكلاك القرب المنفوخة وأكلاك القصب، والاكلاك الخشبية. فالعامات أو اكلاك القرب المنفوخة تتألف من عدة قرب منفوخة تعلّق أرجلها بإطار مقطع إلى مربعات فتحاتها موجهة إلى الأعلى، ويشّد بعضها ببعض وتغطى بالأغصان أو غيرها، فتصبح مسطحاً فوق الماء، تحمل عليه السلع والناس، ويعبر عليه. وتستعمل في المناطق الجبلية، لأن الملاحة النهرية خطرة في المجريين الأعلى والأوسط من دجلة والفرات لسرعة الجريان فيهما وكثرة المندفعات وغيرها من المعوقات مثل مشاريع الري القديمة والسدود القديمة. ويعرض متحف العلوم البريطاني في لندن نموذجاً من هذا النوع. ولا تختلف اكلاك القصب إلا بتغطيتها بالقصب عوضاً عن الأغصان. أخيراً، تصنع الاكلاك الخشبية من قطع خشبية أو جذوع

---

(١) ماري كريستين دي غريف، سفن الشرق الأدنى القديم (حوالى ٢٠٠٠ ـ ٥٠٠ق م) لندن، ١٩٨١ ص ٧٩ وما يليها.

أشجار مشدودة بعضها ببعض[١].

(٢) ـ السفن المصنوعة من الجلود أو القفف

والقفة واسطة نقل نهري، استمر استعمالها شائعاً حتى وقت قريب. وتعود أقدم إشارة إليها إلى اسطورة ولادة سرجون الأكدي (٢٣٠٠ ق م). وكان اسمها آنذاك «قفة القصب». وأصبح «القارب السلة» في العهد البابلي الحديث (٦٠٠ ق م). وشكل القفة دائري، قعره مائل قليلاً نحو الوسط. ويدفعها مجدفان متقابلان أو أربعة أشخاص يجدف اثنان منهما إزاء الاثنين الآخرين.

والقفة اسم عربي يطلق على نوع من السفن الصغيرة النموذجية التي تستعمل على دجلة والفرات. وهي سفينة تشبه سلّة مستديرة تدور في الماء وتحرّك بالتجديف عادة. وتصنع من مواد محلية تفي بحاجات المجتمع المحدود. وكانت شائعة جداً حتى أوائل القرن العشرين، ثم أخذت الزوارق المسحوبة تحلّ محلها تدريجياً، وما تزال مستعملة حتى الآن (عام ١٩٨١). وقد وصف هيرودوتس القفف الدائرية، المزودة بهيكل من أغصان الصفصاف، المغطاة بجلود حيوانية مشدودة حولها. ويثبت توزع سفن الجلود على مرّ العصور في العراق والهند والصين وأمريكة الشمالية وارلندة وبلاد الغال، أنها تصلح للملاحة البحرية أيضاً.

(٣) ـ أطواف القصب وسفن القصب

وتغطي الأهوار معظم بلاد بابل الجنوبية، وتتغطى هي بمقاصب، يستعمل قصبها في إشادة الأكواخ، وصنع الأشرعة والسلال وبعض الأدوات المنزلية الأخرى، وفي بناء الأطواف والقوارب.

ويشاهد عدد كبير من الأطواف على المنحوتات الأشورية النافرة، التي تصف افتتاح سنحاريب واشوربانيبال أهوار بلاد بابل الجنوبية وعيلام. وقد صنعت جميعها من حزمات قصب مشدودة بإحكام بعضها ببعض بعدة ربط. ويمكن تمييز أربعة أنواع منها، أولها وأبسطها طوف صغير، يرتفع أحد طرفيه قليلاً، وتبدو حزمات القصب فيه أكثف في قاعدتها مما هي عليه في رأسها، مما يدل على أنها رتبت في اتجاه واحد. ويمثل هذا النوع الطوف المسمى الشاشه في العراق.

(١) انظر أيضاً رضا جواد الهاشمي. الملاحة النهرية في بلاد الرافدين، مجلة سومر، مجلد ٣٧، عدد ١ ـ ٢ ١٩٨١.

والنوع الثاني طوف حزماته مرتبة رأساً على عقب، مشدودة بديس أخضر. وكان يستعمل في نقل كميات كبيرة من الحصر وشكله مستطيل طوله ٢٠ م، وعرضه ٦,٥ م.

والنوع الثالث قارب قصب، يشبه صنعه صنع النوعين الأول والثاني.

وحفر النوع الرابع على الأختام العائدة إلى العهد الآشوري الوسيط. ويبدو القارب عليه ضيقاً وخطوطه مائلة. ويتجه صدره وعجزه إلى الأعلى ويرتفعان كثيراً، وتعلو كلا منهما صورة وعل ينظر إلى رفيقه. وعجز هذا النوع مستقيم تقريباً، وصدره منحني إلى الأمام. ويجريه بحّار السكان الذي يحّرك دفة التوجيه، وصياد سمك يمسك بيده رمحاً. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن هذا النوع يمثل قارباً أو سفينة لا طوفاً.

(٤) ـ السفن الخشبية

تعد بلاد ما بين النهرين منطقة فقيرة بالخشب. ولا يتوفر لها خشب لبناء السفن في الأهوار الجنوبية، فتصنع سفنها المحلية من القصب في الجنوب. وقد أكدّ سترابون وأريان على ندرة خشب بناء السفن في بلاد بابل التي ينمو السرو في غياضها وحدائقها العامة فقط، مما دفع اسكندر المقدوني إلى بناء معظم سفنه في فينيقية ونقلها مفككة إلى ثبساكس على الفرات، ثم تجميعها هناك لإجرائها على الفرات حتى بابل.

إلا أن نقص الخشب بولغ به في الغالب، لأن أشجار التوت تنمو في بلاد ما بين النهرين الشمالية، وتعطي خشباً رديء النوعية. وذكرت نصوص معبد بو الإدارية، العائدة إلى عهد وركاجينا (حوالي ٢٣٧٨ ـ ٢٣٧١ ق م) عشرة أنواع شجر مشاتل زراعية، أُوصِي باستعمال اثنين منها في بناء السفن. ثم إن تجارة البابليين مع منطقة جبال الأمانوس في الغرب والخليج العربي في الجنوب، كانت تؤمن لهم أفضل أصناف الخشب. ويشير نص التمثال ب لجوديا بوضوح إلى استيراد الخشب من دلمون وماغان وملوخة، وإلى نقل جذوع أرز طولها ٣٠ متراً من جبال الأمانوس. مهما يكن، يستعمل خشب الأرز والتّنوب والحور في بناء سفن بلاد الرافدين.

وقد درست ماري كريستين دي غريف هذه السفن، وصنفتها إلى خمس فئات: هي قوارب الجذوع المفرّغة، والقوارب الطويلة، والسفن النهرية المصنوعة من ألواح خشبية، وسفن الملاحة البحرية، والقوادس الحربية.

ـ **قوارب الجذوع المفرّغة:** عندما جرى مسح الوركاء، اكتشفت قطعة صغيرة من نموذج قارب، بسيط الشكل طرفه مستدير، وشفيره أفقي تماماً، فيه تجذيف يثبّت جانبيه معاً، وتوحي معالمه بأنه يمثّل قارب جذع مفرّغ، ربما أذهل وجوده في الأهوار ولو لم يكن فريداً في العالم.

فقد عثر في فلسطين على أربعة نماذج قوارب صلصالية، طول الواحد منها ٤٠ سم، اشترى متحفها ثلاثة منها من بائع أكّد أنه عثر عليها في ضريح قريب من مدينة غزة، وأعاد خبراؤه تاريخها إلى منتصف الألف الثاني ق م. ووجد صياد سمك النموذج الرابع في شبه جزيرة سيناء، قرب سبخة بردويل، وترجّح أنه يرجع إلى القرن ١٣ أو ١٢ ق م.

وعثر على نموذج آخر في مصر التي يندر وجود جذوع الشجر فيها، وهو طويل وضيق جؤجؤه ناتيء وكوثله متشقّق.

وتعد قوارب الجذوع المفرّغة أصل بناء السفن الخشبية، من أبسطها إلى أكثرها تطوراً. فبعد تصور إضافة ألواح خشب إلى القوارب لتوسيعها وتكبيرها، ظهرت أنواع معقدة جداً، أبسطها الجذع المجرّف الذي سدّ طرفاه، ثم رفعا بالنسبة إلى الجزء الأوسط، ثم زيدت ألواح طويلة بين المقدمة والمؤخرة.

ـ **القوارب الطويلة الضيقة (المشاحيف):** القوارب الطويلة الضيقة، زوارق صغيرة، مكشوفة من صدرها إلى عجزها، تستعمل للنقل والصيد، ويتنوّع حجمها حسب الغاية من بنائها والمواد المتوفرة لصنعها. ويندر الآن أن يتجاوز طولها تسعة أمتار. وتسير بمجداف أو مجدافين، لا مرتكز لهما وينظر الملاح المحرك لهما إلى الأمام.

ويقول عنها رضا جواد الهاشمي: «والمشحوف قارب متوسط الحجم للنقل والصيد والحمولة الخفيفة والسريعة. يستخدم على نطاق واسع في أهوار جنوبي العراق. وقد يستخدم في الأنهار أيضاً ولكن للمسافات القريبة. يتميز بعمقه القليل، ويسير عادة بقطع من القصب قوية وطويلة تعرف باسم (مرادي)، وبخاصة في المياه الضحلة. حيث يكون قاع الهور في مدى يصله (المردي) وطريقة التسيير بالمردي تتمثل في مسك الملاح بالعصا الطويلة وهو يقف في إحدى نهايتي القارب وبدفعها إلى أرضية الهور وبشدها إليه ثم يدفعها بالاتجاه المعاكس للحركة المطلوبة للقارب فتنتقل قوة الدفع إلى القارب فيسير. ويواصل الملاح دفع عصاه ويغيّر موقعه من مقدمة

القارب حتى نهايته ليستفيد من أقصى مدى يمكن أن يعتمده في مواصلة تسيير القارب. كما أنه في نهاية المطاف يستفيد من طول العصا فيواصل دفعها حتى نقطة يتعذر بعدها الإمساك بالمردي. فيسحبها من موضعها. ويتقدم حاملاً إياها فوق سطح الماء صوب مقدمة القارب ثانية ليكرر العملية ويواصل القارب سيره نحو الجهة المطلوبة. . . لكن تبقى واسطة أخرى رئيسة في تسيير المشاحيف، وبخاصة في المياه العميقة. وقد يستفيد أصحاب السفن من هبوب الرياح المواتية لاتجاه واسطتهم. فينصبون أشرعة صغيرة وبسيطة قد تكون أحياناً من الحصران التي ينسجونها محلياً من القصب (البارية) لتساعد في تحريك ودفع قاربهم بالاتجاه المطلوب.

وعندما يكون المشحوف كبيراً ومثقلاً بالحمولة والرياح هادئة، يسحب بواسطة الحبل (الشاروقة)، وكانت عملية سحب واسطة النقل بالحبال ضرورية عندما يراد لها الانتقال عكس تيار النهر. ويتذكر الذين يبلغون من العمر خمسين عاماً فأكثر مثل هذه الطريقة في سحب سفن المسافرين والحمولة في أنهار العراق عندما تسير عكس مجرى النهر[1].

ـ **السفن النهرية المصنوعة من ألواح خشبية:** سفن دجلة والفرات مصنوعة من خشب، مسطحة القعر على وجه العموم مراعاة لضعف أعماقها، تقسم عادة إلى ثلاث فئات: هي السفن المسطحة القعر ذات النهايتين المستقيمتين العاليتين، والسفن المسطحة القعر ذات النهايتين المنحيتين العاليتين، والصنادل.

١ ـ **السفن المسطحة القعر ذات النهايتين المستقيمتين العاليتين:** فسفن هذه الفئة الأولى ممثلة أكثر من غيرها على المنحوتات الآشورية الحديثة، لكن لا تعني هذه الظاهرة أنها تميز تلك الحقبة. ويرجّح أن عدم العثور عليها، من العهد البابلي القديم إلى العهد الآشوري الحديث، يعود إلى أن منحوتات هذه الفترة مختلفة عنها. ومهما يكن، أثبتت الأمثلة المتوفرة منها على وجود خمسة أنواع هامة منها تبعاً لاستعمالاتها، هي سفن النقل، وسفن المسافرين وسفن المركبات الحربية، وسفن الخيل، وسفن صيد اشوربانيبال.

٢ ـ **السفن المسطحة القعر ذات النهايتين المنحنيتين العاليتين:** وتعتبر سفن هذه الفئة الثانية سفن الآلهة بخاصة مردوخ، والشعائر الدينية الوثنية التي تشمل أصلاً جنائز

---

(١) رضا جواد الهاشمي، الملاحة النهرية في بلاد الرافدين، سومر، مجلد ٣٧، عدد ١ ـ ٢، ١٩٨١، ص ٤٣.

الأموات، والسحرة وممارسات النذر، والأعراف الدنيوية.

٣ - **الصنادل:** والصندل سفينة عريضة، مسطحة القعر، مصممة لنقل أكبر كمية من المواد الثقيلة، ومقدمتها عالية قليلاً، وشفيرها مستقيم، ومؤخرتها مربعة تقريباً.

- **سفن الملاحة البحرية:** لا تمتلك بلاد ما بين النهرين سفناً بحرية من ابتكارها. فهي بلاد نهرية تحديداً وتعريفاً، وسفنها نهرية وجوبا. إلا أن لديها واجهة بحرية جنوبية لا يجوز تجاهلها، تمت اتصالات مبكرة جداً وتجارة قديمة جداً بينها وبين الخليج العربي ووادي نهر الهندوس والهند، تحتّم وجود ملاحة بحرية بينها وبين تلك الأرجاء، ولو لم يعثر في بلاد الرافدين على منحوتات تصور حركة السفن في البحار الجنوبية.

وتمثل السفن البحرية في بلاد ما بين النهرين سفناً فينيقية - من حوضة البحر المتوسط الشرقية - غالباً ما تذكر نصوصها التاريخية تطلع ملوكها إلى افتتاح ساحل البحر المتوسط وبخاصة في الحقبة الآشورية الحديثة، في زمن حملاتها على فينيقية. وانعكست أنشطتها العسكرية على نطاق واسع على زخرفات قصور ملكوها. وغالباً ما تمثلت السفن في مشاهد ذكرى حروبهم وانتصاراتهم وصُوِّرَتْ مقلعةً من قواعدها، ذاهبة إلى المعركة، ومشتركة بها أو عائدة إلى مراكز انطلاقها. وكان على الأقطار المغلوبة أن تؤدي اتاوات. وقد شملت بعض الفتوحات جزراً مثل صور وارادس، فكان لا بد من نقل الأتاوات المفروضة بالسفن . لذلك استدعى الملوك الآشوريون الفينيقيين الخبيرين، وطلبوا منهم أن يبنوا لهم سفناً، بدا طرازها فينيقياً واضحاً. وهي نوعان: السفن المنحوتة مقدمتها بشكل رأس فرس، والسفن التجارية.

١ - **السفن المنحوتة مقدمتها بشكل رأس فرس:** أطلق هذا الاسم على هذا النوع من السفن نقلاً عن اللغة اليونانية (ايبوس = حصان)، لأن جؤجؤ السفينة مصوّر بشكل رأس فرس. لكن لم يتعمم جعل المقدمة بشكل رأس فرس. فهذه الزخرفة شوهدت في منحوتتين عائدة إحداهما إلى عهد سرجون. وترجع الأخرى إلى أيام اشوربانيبال. وزيّنت برأس حيوان أيضاً نهايتا سفينتين مماثلتين تعودان إلى عهدي شيلمنصر الثالث وتجلات بليزير الثالث. وهذه السفن مسطحة القعر. ونهايتاها متساويتا العلو ومزخرفتان بشكل رأس حيوان تقليداً لرأس الفرس، وتسير بالمجاذيف وتستعمل في النقل الشاطئي.

٢ - **السفن التجارية:** ويشاهد على منحوتة تمثل أسطول لولي نوعان مختلفان من

السفن، أولهما متناظر تماماً يسيّر بالمجاذيف، والثاني غير متناظر يسير بالمجاذيف والأشرعة معاً وهي ضخمة عادة. تقطع مسافات طويلة في عرض البحر. وترد عند ابن ماجد أسماء سفن تسير في الخليج العربي وخليج عمان وبحر العرب، نشير إليها لأهميتها في عهد سلطنة هرمز وهي العيكار والجلبة والجهاز والسنبوق[١]. ويذكر سليمان المهري الدنجوى في عمدته[٢].

- **القوادس الحربية:** والسفن أو القوادس الحربية مراكب طويلة وضيقة، تسير بالمجاذيف والأشرعة بوقت واحد لتتحرك بسرعة كبيرة في جميع الظروف وجميع الأماكن. وتتصف بشكل بدنها غير المتناظر. وبتزودها بمهماز متين قاطع يغرق السفن العدوة عندما يصدمها. وهي ثلاثة أنواع: قوادس بصف مجاذيف واحد، وقوادس فينيقية بصفي مجاذيف، وقوادس فينيقية بثلاثة صفوف مجاذيف.

ب - وسائط النقل المائي البحرية في الخليج العربي وخليج عمان وبحر العرب:

ويتحدث عيسى أحمد النشمي في كتابه «الملاحة في الخليج العربي»، عن أنواع السفن والمراكب في الخليج العربي[٣]. ويعدّد عيسى القطامي في كتابه «دليل المحتار في علم البحار» أسماء ما سماه أنواع وأسماء سفن الغوص[٤]. وترد في كتاب «الطواف حول بحر أرثره»، المجهول المؤلف، أسماء كثيرة لسفن المحيط الهندي ومراكبه[٥]. ويتضمن الجدول التالي معظم الأسماء.

الطواف	القطامي	النشمي
البتيل	البتيل	البتيل
البدن	-	-
البغلة	-	البغلة
-	البقارة	-
-	البوم	البوم

(١) انظر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد تحقيق إبراهيم خوري ص ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٢١، ٢١٦.
(٢) العمدة المهرية، تحقيق إبراهيم خوري، ص ١٨٨.
(٣) الطبعة الأولى، ١٩٦٩، ص ١١٣ - ١٣٠.
(٤) الطبعة الثالثة، ١٩٦٤، ص ٣٠٢.
(٥) ترجمة ج. و. ب. هنتنغفورد، ١٩٨٠، ص ١٥٨ - ١٦٥.

-	الجالبوت	الجالبوت
الدو	-	-
-	السمبوك	السنبوك
-	الشوعي	الشوعي
الغانجي	-	-
السنغاره	-	-
-	-	الكوتيه
المدرعة	-	-
وغيرها	-	-

لكن يلاحظ أن أسماء كتاب الطواف تعود إلى القرن الأول الميلادي في الحد الأدنى. فهي موثوقة وموثّقة، وتوثّق ما يماثل تسمياتها عند القطامي والنشمي، أي البتيل والبغلة والجالبوت فقط. ففضّلنا الاعتماد على تسميات أحمد بن ماجد، الثابت استخدامها في الخليج العربي وخليج عمان وبحر العرب في عهد سلطنة هرمز. وهذه الناحية أساسية بالنسبة إلى أبحاث هذه السلطنة، لتحاشي الخلط بين ما يعود منها إلى أيامها ولو كان أقدم منها، وبين ما استحدث بعدها مما ليس له علاقة لا بحاضرها وبماضيها.

وقد احصينا تسميات السفن والمراكب الواردة في مصنفات أحمد بن ماجد التي حققناها وحللناها وطبعناها، فتبيّن لنا أنها تبلغ ثلاث عشرة اسماً هي: **الخشب، السنجار، والجلبة، والجهاز، الخفّ، والسطمير، السنبوق، السفينة، الطراد (الطراريد)، العيكار، الفلك، القارب، المركب.**

فتعبير **الخشب** يطلق على جميع السفن والمراكب بلا استثناء. وقد يقترن بنعت يعطي فكرة عن حجمها، كأن يقال **خشب صغار** أو سرعتها وحمولتها محدودتان: **خشب خفّ**[1]. ويدل لفظ **سنجار** على مجموعة سفن ومراكب (قافلة) تسير وراء سفينة هداية[2]. وما تبقى من وسائط النقل البحرية، ينعتها ابن ماجد بصفة، تغنيه عن وصفها وتبرز استعمالها أو ضخامتها أو سرعتها وما إلى ذلك.

(١) الحاوية ف ٥/ ٤٢، الفوائد ص ٧٤، ٢٤٥.
(٢) الفوائد ص ٢٧٩.

فالجلبة، جمعها جلاب، مذكورة عنده مرتين[١]. ويفهم من سياق حديثه عنها ومن تحديده حمولتها بما يزيد على ألف بهار، أنها سفينة شحن. ومركب **الجهاز** مشار إليه مرة واحدة لا تسمح باستنتاج المقصود به[٢]. **والخف**، جمعه خفاف، كل مركب سريع أو متدنّي الحمولة[٣].

والسفينة واسطة نقل بحرية نادراً ما يستعملها أحمد بن ماجد[٤]. ويستعيض عنها في أراجيزه وقصائده، بـ **الفلك** على نطاق واسع جداً[٥]. ويؤدي **بالسنبوق** بصيغة المفرد وبالسنابيق بصيغة الجمع. معنى السفينة الصغيرة (=الخفّ) أو معنى قارب استطلاع الأعماق أمام الجلاب أو حولها[٦] ويذكر ابن ماجد أيضاً **السطمير**، وهو الرمث أو الطوف مرة واحدة[٧] دون ان يشرح استعماله، **والعيكار** عنده عيكار معتد وعيكار خفيف العدة[٨]، **والطراريد** (جمع طراد)[٩]، **والقارب**[١٠].

ويكاد **المركب** بصيغة المفرد[١١]، أو التصغير (مريكب)[١٢] أو المنعوت بصفة معينة: الرزين، الشاحن، الكبير، الماشي، المحصّن، النجيب، ينحصر وجوده في كتاب الفوائد[١٣]. أما المراكب بصيغة الجمع، فيعثر عليها في الفوائد بكثرة، ومرتين

---

(١) التائية، البيت الأول، الفوائد ٢٦١.

(٢) الفوائد ص ٢٥٨.

(٣) مواسم السفر، البيت ١٩، الفوائد ص ٢٥٤.

(٤) السبعية، البيت ١٠.

(٥) الذهبية البيت ١٩٢، ١٩٣. القافية. الأبيات ١، ٤، ٥٥، ٥٧. مواسم السفر البيت ١٩. المخمسة: ٢، ٤. مقدمة الحاوية ص ٩/ س ٢، ف ١/ ١٠، ٤٠، ف ٩/ ٦٤، ف ١١/ ٦٦، ١١٤، الفوائد ص ٢٣ (٢)، ٢٤ (٣) ٣٢، ٣٨، ١٧١، ١٧٣.

(٦) مواسم السفر، البيت ٥ المكية البيت ١٣٢، الفوائد ص ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٤.

(٧) الفوائد ص٢٢١، هوبسن ـ جونسن ص ١٧٣.

(٨) الفوائد، ص ٢١٤، ٢١٦.

(٩) الفوائد، ص ٢٢٧.

(١٠) الذهبية، البيت ١٩٣.

(١١) الحاوية، ف ١/ ٥٠، ف ٢/ ٥٨، ف ١٢/ ٣٨. الفوائد، ص ٣٠، ٣٢ (٢)، ٩٣ (٢)، ١٢١ (٢)، ٢٤١ (٢)، ٢٦١ (٢)، ١٢٧، ١٤١ (٢)، ١٤٣ (٢)، ١٧١، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٤٨ (٢)، ٣٥٢، ٣٦٣. (السفالية)، البيت ٥٠٨.

(١٢) الفوائد، ص ٢٣١ ـ ٢٣٩ الحاوية، ف ١٠/ ١٩، ف ٧/ ٣٨، الفوائد، ص ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٦١، ٢٥٦ ـ ٢١٩ ـ ٢٢٩.

(١٣) الحاوية، ف ١٠/ ٦٠. الذهبية، البيت ٤٢، ١٤٢، الفوائد، ص ٢٩، ٨٣، ١٢٧، ١٨٣، ٢١٧، ٢٢١ (٢)، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٩١.

في الذهبية، ومرة واحدة في الحاوية. وترد بلا نعت[١]. أو تنعت بصفة محددة: خفيفة، شحن، صغار، كبار، مجاوزة، معتدة، مراكب الهند[٢].

ويستنتج من معلومات ابن ماجد عن السفن أنه يهتم حصراً بسفن الشحن دون سواها من سفن صيد السمك أو اللؤلؤ. ويصنفها ضمناً إلى صغيرة ومتوسطة وكبيرة: ومعياره في هذه الناحية الجلبة بحمولة ٢٠٠ طن: فما قل عنها صغير، وما زاد عليها كبير. ويربط سرعة حركة المراكب أو بطئها وسهولة قيادتها بحمولتها وبـ «أوساخ البحر». ويسترعي الانتباه قوله أن بندر هندسان يسع ألف مركب. فهل نستخلص من كلامه أن مراكب الشحن المستعملة في الخليج وبحر العرب آنذاك كانت متوسطة الحجم والحمولة؟

(١) الفوائد، ص ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٤، ٢١٦ (٢). ٢١٦ (٢)، ٢٢٤، ٢٥٤ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٢) الفوائد، ص ٣٥٥، س ٧.

الفصل الخامس

الخليج العربي وسيط تجاري اقليمي وعالمي قديم
المواد التجارية الرئيسة المارة فيه

يستلزم كون الخليج العربي ممرّاً مائياً اقليمياً وعالمياً، ترتبط سواحله بشبكة طرق بحرية محلية، وبشبكة خطوط ملاحة عالمية تصلها بسواحل بحر الهند في الهند وفي الشرق الأقصى، وبشبكة طرق قوافل برية، وجود تبادل تجاري دولي بين بلدان الخليج وبين البلدان الشرقية القريبة منه والبعيدة عنه، وقيام تجارة مرور عالمية بين بلدان سواحل المحيط الهندي وبين بلدان سواحل حوضة البحر المتوسط الشرقية، ومنها إلى موانىء أوربة الجنوبية ذاتها، لا سيما في ايطالية وفرنسة.

ويتناول التبادل المحلي ضمن الخليج والتبادل الدولي بين الشرق والغرب سلعاً كثيرة، لا بدّ من التعريف بها. لكن يستعصي إجراء تدقيق شامل لجميع البضائع المُتَاجر بها في الخليج العربي، لكثرتها، ولتعدّد الدول الواردة منها سواء من الشرق أم من الغرب. مع ذلك أحصينا تسعاً وأربعين سلعة أساسية، معظمها مواد نباتية، وبعضها مواد حيوانية، وأخرى أرضية (معادن أو أشباه معادن)، وأخيرة مواد مصنّعه، مما يدلّ على أن الخليج العربي شريان مائي عظيم، لا لمرور التوابل وحدها فقط، بل لمرور جميع ما يتعامل به الشرق والغرب من شتى الأصناف بيعاً وشراءاً بالاتجاهين، أي من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق. وهذا ما سوف يلحظه القارىء في تفاصيل الفقرات التالية.

أولاً ـ تجارة المواد النباتية (٣٣ مادة)

فالمواد النباتية ثلاث وثلاثون[1] عدا الحبوب، وهي:

١ ـ الألوة أو اللوّة

والألوة عود يتبخّر به. ولّوة، بالضمّ، عود قماريّ يتبخّر به، ويعتبر لغة في الألوة، وهو فارسي معّرب Eagle Wood.

وعودها جيد جداً، ذكر في المصنّفات التجارية، وفي قوائم التعرفات الجمركية في الغرب الأوربي. ويستهلك الشرقيون كميات هائلة منه منذ أقدم العصور. فالصين تستورد مقادير كبيرة منه، وتفضّله سوق مدينة زيتون على غيره. وتستخدمه الهند في طقوسها الدينية. ويهديه الحجّاج الهنود إلى بدّ الملتان، فيحرق بعضه فيه، ويقدّم بعضه إلى ملك البلاد، ويباع الباقي إلى التجار. وكان يخزن في بلاط الخليفة المستنصر الفاطمي وفي بلاط السلطان أكبر في الهند. أما في أوربة، فكان يستعمل في صنع الأثاث وفي تركيب العقاقير الطبية في القرون الوسطى، ويشرى من أسواق القسطنطينية ودمشق وعكا والاسكندرية وفاماغوسته في قبرص.

وكان الطلب شديداً على عود الألوة في تلك الأيام. ويؤتى به من قمار أو القامرون. ويسميه ابن بطوطة العود الهندي، ويقول عنه: «شجره يشبه شجر البلوط، إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء، ولا ثمر له، وشجرته لا تعظم كل العظم، وعروقه طويلة، وفيها الرائحة العطرة. وأما عيدانه فلا عطرية فيها. وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو ممتلك. وأما الذي في بلاد الكفار، فأكثره غير ممتلك. والممتلك منه ما كان بقاقلة، وهو أطيب أنواع العود. ويبيعونه لأهل جاوه بالأثواب».

ويذكر المصنّفون العرب (ابن خرداذبه والأدريسي مثلاً) أن الألوة تنمو في مملكة رحمه عند التقاء نهري الغانج والبراهمابوترا، وفي سيلان، وعلى ساحل رأس كمهري

(١) لمزيد من التفاصيل لجميع الأصناف النباتية يمكن الرجوع إلى هايد (و)، تاريخ التجارة في القرون الوسطى، لايبزغ، ١٩٢٣، ص ٥٦٣ ـ ٦٧٦، والأمير مصطفى الشهابي معجم الألفاظ الزراعية، بيروت، ١٩٨٢، ومعجم أسماء النباتات الواردة في تاج العروس للزبيدي، جمع وتحقيق مصطفى الدمياطي، القاهرة، ١٩٦٦، والجغرافيين والرحّالة العرب، بخاصة التجارات في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي البشاري، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة.

في هضبة الدكن وفي الصنف. ويعثر عليها أيضاً في جزيرتي سومطره وجاوه. فكان العرب يحملونها من جميع تلك الأقطار، ويبيعونها لتجار أوربة الغربية.

٢ ـ الإهليلج

والإهليلج ثمر ذو نواة شبيه بالخوخ، كان يتاجر به على نطاق واسع في القرون الوسطى. وقد عرف التجار والعطّارون والأطباء وعلماء الطبيعيات خمسة أنواع منه، هي: الأملج Mirobalani Emblici، والبليلج Mirobalani Bellirici، والإهليلج الأسود Black Myrobalan، والإهليلج الهندي Mirobalani Indi، والإهليلج الأصفر Yellow Myrobalan.

وتنمو أشجار الإهليلج في الهند، بخاصة على ساحل مليبار حتى كولم وحول قاليقوط وباتيقالا وكننور، وفي أفغانستان حتى كابل. وكان خراج خراسان يتضمن أداء ١٥٠٠ كغ من الإهليلج عيناً إلى الخلفاء العباسيين، وهذا يعنى إما أن الإهليلج كان متوفّراً في هذا الأقليم، أو أنه كان يحمل إليه من الهند برّاً عن طريق كابل وهراة، ثم إلى الأقطار الأخرى.

ويرغب الهنود بالإهليلج لأنه مليّن، ويساعد على الهضم، وينفع المعدة، ويعدّونه أحد أفضل المواد الداخلة في تحضير أدويتهم (أقراباذين). كذلك استعمله العرب في تركيب أدويتهم وفي إعداد كثير من العقاقير. وأخذه عنهم الروم في مطلع القرن الثاني عشر، ثم الغرب عن طريق مدرسة سلرن الطبية الشهيرة في إيطالية. ويستخدم أيضاً في الدباغة وفي الصباغة.

٣ ـ البقّم: Sappan Wood, Red Brazil Wood

خشب شجر عظيم، ورقه كورق اللوز وساقه أحمر. كان العرب يبيعونه باسم البقّم. وتعرف منه ثلاثة أنواع، هي:

ـ بقّم كولم Verzino Colombino: الذي يذكر ماركوبولو انه بقّم جيد جداً، ينمو في نواحي كولم في الهند. ويتحدث عنه مصنّفون عرب كثر، رأوه عياناً مثل ابن بطوطة، أو نقلوا أخباره عن غيرهم.

ـ بقّم لامري Verzino Ameri: نسبة إلى مقاطعة لامري في جزيرة شمطرة، التي يكثر فيها. وقد أشار إليه ماركوبولو.

ـ بقّم الصين Verzino Sini: ويُظَنّ أن هذه التسمية شاعت على هذا النحو لأن جنوك الصين كانت تنقله إلى الهند الصينية أو تناصري أو فيجوه أو السيام. وتنتج

قاليقوط وساحل مليبار عامة الكثير منه. وجزيرة سيلان مشهورة بجودة بقمها، حتى إن ماركوبولو اعتبره أجود أنواعه في العالم.

وكانت أصناف البقم الثلاثة تصدر إلى أوربة في القرون الوسطى، وتحمل إلى أسواقها جذوعاً قاسية وثقيلة، منزوعة القشور والجزء الأبيض اللين، أي أنها تباع أجلاباً (جمع جلب أي القلب الصلب) تستخرج منها المادة الملوّنة المستعملة في صباغة الأجواخ أو تلوين المنمنمات أو المخطوطات أو الرسوم ويستهلك بعض البقم في صنع أثاث المنازل.

٤ ـ ترنجبين

لفظ فارسي معناه عسل الندى. يسمى أيضاً المنّ Manne. وهو مادة سكرية تفرزها بعض النباتات كالندى المنعقد، إما طبيعياً، أو بتأثير حشرة المنّ. ويعرف منه نوعان:

ـ المنّ العربي أو المكي Mechina: الذي يفرزه شوك الجمال Alhagi Camelorum وينمو في جزيرة العرب وفي أقليم فارس. ويسمى أيضاً المنّ السوري، وهو الترنجبين العسلي الذي يتقطّر من نبات العاقول أو شوك الجمال. ويجمع حالياً في خراسان في نواحي بخارى. وكان الأطباء العرب يعرفونه جيداً. ويشرى من أسواق سمرقند وتبريز ومدينة السلطانية. وكان العطارون الفرنج يبتاعونه من حلب واللاذقية.

ـ ومنّ الطرفاء Tamarix Gallica: ويعثر عليه في جزيرة العرب وفي سيناء.

٥ ـ جوز الطيب أو جوز بوّا Myristica Aromatica Nutmeg

تحدّث الروم والأوربيون عن جوزة الطيب، ثمرة جوزها، وعن تابل يستخرج من قشرتها الخارجية يسميه الألمان «نوّار جوزة الطيب» Mace، نقلاً عن المصنفين والجغرافيين والرحالة العرب، الذين قالوا إن شجرها ينمو في الهند والصنف وبعض الجزر الهندية. وورد خطأ عند ابن بطوطة نصّ يظن انه إضافة من الناسخ يقول إن ثمر القرنفل هو جوز بوّا المعروفة ببلادنا بجوزة الطيب، والزهر المتكوّن فيها هو البسباسة. رأيت ذلك كلّه وشاهدته (ص ٦٣٥). كذلك عدّد ماركوبولو ثروة أهالي جزيرة جاوة الكبرى، أي بورنيو، وجعلها تشمل الكبابة Piper Cubeba والخولنجان، Galanga ونوّار القرنفل. وفي القرن الخامس عشر، عرف أن شجر جوزة الهند ينمو في جزر باندا وأمبوان والملوك.

وعندما تنضج جوزة الطيب على شجرتها، يصبح لونها أرجوانياً، يتحوّل إلى

أصفر برتقالي متى جفّفت في الشمس لتباع في الأسواق.

وتعتبر جوزة الطيب وتابل قشرها من التوابل النفيسة المفضّلة التي تنقل في البرّ لتحاشي مخاطر شحنها في البحر، وتحمل إلى بغداد، وتشرى من أسواق تبريز والسلطانية وسمرقند.

٦ ـ الخرنوب الهندي Cassia Fistula

وهو شجر ثماره قرون تحوي لبّاً طيّب الطعم يستعمل للإسهال، وينمو في مصر وعلى السواحل الغربية في شبه جزيرة الدكن الهندية، بخاصة في مملكتي كننور وقاليقوط، وفي جزيرة جاوة. ويذكر دروواته بربوسه ان قرونها كانت تحمل إلى الإسكندرية عن طريق عدن والبحر الأحمر، وتوصف الجيدة منها بأنها سوداء داكنة وسميكة وثقيلة.

٧ ـ الخولنجان Galanga

عرّفت مصنفات الأطباء العرب بجذور الخولنجان، واحتفظت باسمها نقلاً عن اللغة الصينية، وأدخلتها في فئة العقارات والأغذية المسخنة والمنبّهة. وكان التجار الأوربيون يشترونها من القسطنطينية وعكا والاسكندرية وفاماغوستا.

ويميّزون عادة نوعين من جذور الخولنجان: الجذور الصغيرة التي تجلب من الصين والكبيرة التي يؤتى بها من آسية الجنوبية. وتوصف الصغيرة بأنها حمراء داكنة من الداخل والخارج وعطرة وثقيلة. أما الكبيرة، فخفيفة، لا طعم لها، وهي حمراء ضاربة إلى السمرة أو بنفسجية الخارج وصفراء الداخل. وكان النوعان متوفرين في الأسواق في القرون الوسطى. وذكر ماركوبولو ان الصين مصدر الجذور الصغيرة وأن جاوة وبنجالة مصدرا الجذور الكبيرة. وقد وجدهما البرتغاليون على ساحل مليبار وفي منطقة كمباية وفي جزيرة جاوة.

٨ ـ الـــــراوند Rhubarb

هو جذور عشب يدعى Rheum، عرفه العرب جيداً، وعرفوا أن جذوره تجلب من الصين، وكانوا يبيعونه باسم الراوند الفارسي أو التركي. إلا أن الأطباء العرب أدركوا أن هذا النوع المليّن، الوارد من الصين من مقاطعات كانسو وشانزي وستشوان، عن طريق سمرقند وبخارى وهراة وسلطانية وتبريز، والمباع إلى الأوروبيين باسمه الفارسي أو التركي، ليس وحيداً، بل توجد أصناف أخرى منه تنمو في هضاب التبّت العالية.

٩ ـ الزعفران أو الجادّي Saffron

هو سمات مجففة من نوّار نبتة Crocus Sativus، التي كانت تنمو في القرون الوسطى في جميع أنحاء آسية وأوربة تقريباً. أصلها من المشرق، ثم نقلها العرب إلى الأندلس في القرن العاشر، ومنها إلى سائر أرجاء أوربة الملائمة لها مناخياً. ويعتبر المسعودي أن زعفران المشرق أفضل من الزعفران الأوربي. وكان العرب يصفون الزعفران دواءاً لهم وكذلك غيرهم من الأطباء. ويستعمل الجادي أيضاً في تلوين الرسوم وفي تركيب العطور وفي تتبيل المآكل.

١٠ ـ الزنجبيل Ginger

الزنجبيل أحد أشهر التوابل في القرون الوسطى، وأوسعها استعمالاً، كالفلفل تماماً. وهو نبتة، تنمو في بلدان كثيرة متباعدة. ويميّزون ثلاثة أصناف منه، هي البلدي والكولمي والمكّي.

ـ ويقصد بالزنجبيل البلدي الزنجبيل الهندي، وبدقة، زنجبيل ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي، وهو الاسم الذي أطلقه مسلمو الهند على الزنجبيل السهلي أي الساحلي، الذي ينمو على الساحل من كمباية إلى جبل هيلي، لذلك يسمى أيضاً الزنجبيل الجبلي أو زنجبيل ديلي. ويقول بربوسه انه موجود من جبل ديلي إلى مدينة كننور، وأفضله يؤخذ من نواحي قاليقوط.

ـ والزنجبيل الكولمي جيد، ينمو في نواحي مدينة كولم.

ـ والزنجبيل المكي يباع في أسواق مكة، لكنه ينمو في جميع أنحاء جزيرة العرب وفي جزر البحر الأحمر، ويقال في زنجبار ومدغشقر أيضاً. وهو أقل جودة من الصنفين الهنديين.

ويباع الزنجبيل إما أخضر، أو مربباً مضافاً إليه سكر. ويصنع الهنود منه محفوظاً، يسميه العرب زنجبيلية، ويشتريه التجار الغربيون من الاسكندرية. ويستعمل الزنجبيل في التتبيل وفي إعداد الخمور.

١١ ـ زودار أو جدوار

هو جذور نبات Curcuma Zedoaria وهي مرّة، كان التجار الغربيون يبتاعونها من بنادر المشرق. على أن مصدرها الشرق الأقصى، بخاصة شرقي الهند، ونواحي قاليقوط. ويذكر بربوسه أن أصلها من جهات كننور. وينمو شجرها في جاوة ومدغشقر أيضاً.

ويوصي الأطباء العرب باستعمالها مضادة للسموم. وهي منبّه قوي، تريح المعدة

وتستعمل أحياناً في تتبيل المآكل وفي إعداد المشروبات.

١٢ ـ سقمونية Scammony

السقمونية أو المحمودة (تسمية مصرية) نبات معرّش اسمه العلمي Convolvolus/Scammonia، تجرح جذوره ليستخرج منها نسغ أبيض يجفّف فيصير دبقاً، كان يستعمل على نطاق واسع مسهّلاً قوياً في القرون الوسطى. وهي تكثر في شمالي سورية، وتعتبر الأنطاكيّة منها أجود أنواعها. وتباع إلى الأوربيين في أسواق حلب.

١٣ ـ الصبر Common Socotrine Aloes

شجر ورقه طويل وعريض وثخين، كثير الماء جداً، يستخرج منه عصارة مرة تجفّف، وتباع جافة في الأسواق. يميّزون ثلاثة أنواع منها، هي الصبر الليموني أو الأصفر الضارب إلى الحمرة، والصبر الكبدي (نقلاً عن التسمية اليونانية) الكامد اللون، والصبر الشديد الكمد.

إلا أن الصبر السقطري كان مشهوراً في القرون الوسطى، وصفه الشريف الأدريسي في سياق كلامه عن جزيرة سقطرى، فقال: «وأما جزيرة سقطرى، فهي جزيرة واسعة القطر، جليلة القدر، بهية الأرض، نامية الشجر. وأكثر نباتها شجر الصبر. ولا صبر يفوق صبرها في الطيب، كالذي يتخذ بحضر موت اليمن والشحر وغيرها». وذكر أن أرسطاطاليس طلب من الاسكندر أن يوصي اليونايين المنقولين إلى سقطرى بحفظ شجرة الصبر وحياطتها، لما في ذلك من جمل المنافع الطبية، وانه لا تتم الايارجات إلا به، مع انتفاع جميع الأمم بأخذه وتصريفه، ولأنه في ذاته دواء جليل كثير المنافع... إلى أن يذكر أن أوراق شجر الصبر تجمع في شهر يوليه، ويستخرج لعابها، ويطبخ في قدور نحاس وغيرها، ويوضع في زقاق، ويجفف في شهر أغشت بالشمس. ويباع منه بهذه الجزيرة قناطير، فيتجهّز به إلى سائر بلاد الله في المشرق والمغرب. وصبرها ينسب إليها وبها يعرف[1].

وينمو شجر الصبر في بلاد كمباية وبنجالة وأنحاء هندية أخرى. كذلك يغرس في اليونان وايطالية ومالطة واسبانية.

ويكثر استعمال عصارة أوراق الصبر في الطب للإسهال، وفي بعض الأعمال الحرفية مثل صنع اللازورد والتذهيب.

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الايطالية، ص ٥١ ـ ٥٢.

١٤ ـ صمغ الكثيراء أو القتاد Gum - Tragacanth

تضمّ شجيرات أسطراغالس الصمغي أنواعاً عديدة، إذا جرح جذعها، تقطّر منها سائل لزج، يجفّ بسرعة، متى تعرّض للهواء، فيباع في الأسواق باسم صمغ كثيراء أو القتاد.

وكان هذا الصمغ يستخرج من جذوع شجيراته في القرون الوسطى في اليونان بكثرة، وفي آسية الصغرى ـ وصمغها أفضل ـ وستالية أعظم سوق له فيها، وإن كان يشرى من أسواق قبرص والاسكندرية.

ولهذا الصمغ استعمالات شتى: فهو دواء فعّال، ويدخل في صنع الشراب المرطّب، وفي التذهيب وفي تثبيت ألوان الأقمشة وفي تحضير اللازوردي وتلوين المآكل.

١٥ ـ الصنـدل Santal Wood

هو خشب طيّب الريح، تباع ثلاثة أنواع منه في الأسواق، هي الصندل الأحمر والصندلان الليموني والأبيض، المأخوذان من شجرة خشب الصندل الأبيض.

وتفوح من الصندل الليموني ريح طيّبة نافذة، ويكثر استعماله في بلدان الشرق التي تحرق موتاها أو تحنّطهم أو تبخّر في احتفالاتها الدينية. والطلب عليه شديد.

وعندما يتحدث المصنّفون العرب عن الصندل ـ بلا صفة ـ يقصدون الأبيض منه، الذي كان يحمل من جاوة وشمطرة وملاقة، مع أن نوعاً جيداً منه ينمو على ساحل مليبار.

وكان يظّن أن الصندل الأحمر يؤخذ من شجرة الصندلين الليموني والأبيض، ثم تبيّن أن شجرة أخرى تعطيه أيضاً، وتنمو على ساحل كورومنديل في الهند. كذلك يعثر عليها في سيلان.

١٦ ـ العفصة الجوزية Gallnut

العفص تضخّم في النسيج النباتي لنوع من البلّوط، يسمى شجر العفص أو البلوط البرتغالي Quercus Lusitanica var.infector ينشأ عن لسعة حشرة عفصية الصباغ Cynips Gallae tinctorial أو Galll mite. ويتميّز هذا التضخّم باحتوائه كمية كبيرة من الدبغ. وهو قابض يفيد في الطب ويتخذ منه الحبر.

وقد اعتبر العفص سلعة هامة جداً في القرون الوسطى، مرغوباً بها عندما تكون

ثقيلة، ويكون لونها ضارباً إلى الخضرة. أما العفص الأصفر فسيّء. وكان العفص الجيد يباع في اليونان وفي آسية الصغرى في أسواق غاليبولي وبلاتيا وستاليا وكنديلوس.

١٧ ـ الفلفل Pepper

وصف ابن بطوطة الفلفل في رحلته، فقال: «شجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب، وهم يغرسونها إزاء النارجيل، فتصعد فيها كصعود الدوالي، إلا إنها ليس لها عسلوج، وهو الغزل كما للدوالي. وأوراق شجره تشبه آذان الخيل، وبعضها يشبه أوراق العليق، ويثمر عناقيد صغاراً، حبّها كحبّ أبي قنينة، إذا كانت خضراء. وإذا كان أوان الخريف، قطفوه، وفرشوه على الحصر في الشمس، كما يصنع بالعنب عند تزبيبه. ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه، ثم يبيعونه من التجار... ولقد رأيته بمدينة قاليقوط يصبّ للكيل كالذرة في بلادنا».

وينزع أحياناً قشر حبّات الفلفل المستديرة عنها، فيصبح الفلفل أبيض مرغوباً به في البلدان الشرقية لتدنّي حدتّه. وقد شاهد ماركوبولو كميات كبيرة منه في أرخبيل ماليزية الذي يصدّره إلى الصين وغيرها من الأقطار.

وتعتبر مقاطعة مليبار بلاد الفلفل، وتشتهر به قاليقوط ومنغلور وبدفتن وكولم وجبل هيلي، ورأس كمهري. وينمو الفلفل أيضاً في جزيرة سيلان وجزيرتي شمطرة وجاوة. ويحمل من جميع تلك الأرجاء إلى البلدان العربية عن طريق الخليج والبحر الأحمر، ومنها إلى أوروبة.

١٨ ـ الفلفل الطويل Pepper longum:

الفلفل الطويل ثمر شجر اسمه العلمي Chavica officinarum Miq. وثمر بعض الأشجار الأخرى، التي تنمو جميعها في شمالي جزيرة شمطرة وفي جزيرة جاوة. ويظن أن أصله من بنجالة. ويستعمل هذا الفلفل تابلاً في المآكل.

١٩ ـ الفوّة Madder

الفوّة نبات يسمو، اسمه العلمي Rubia Tinctorum، في رأسه حبّ أحمر شديد الحمرة، كثير الماء، يكتب بمائه وينقش. وله عروق رقاق طوال حمر تصبغ بها الأقمشة في الهند. وقد كانت تزرع في أوربة منذ قرون طويلة. لكنها كانت تحمل إليها في القرون الوسطى من جزيرة العرب الجنوبية، غير سورية وقبرص والاسكندرية.

٢٠ ـ القاقلّة أو الهال أو الهيل Cardamom

كانت القاقلّة سلعة واسعة الانتشار في القرون الوسطى. وتستعمل دواءاً في الطب، وتتبّل بها المآكل والمشروبات. وتحمل إلى أوربة الغربية عن طريق عدن وعكا والاسكندرية.

وقد ميّزوا في الماضي وما زالوا يميّزون بين ثمار القاقلّة البرية وبين ثمار القاقلّة المزروعة في الحدائق. وكان العرب يعرفون أنها تنمو في جزر بحر الهند الصينية، واسم هذا النوع العلمي Amomum وهنالك أيضاً قاقلة مليبار ومقاطعة كنارة، المسماة Elettaria Cadaemamum المتوفرة في أسواق كننور وفندرينة وقاليقوط. إلا أن انتاجها الرئيس والأجود يأتي من سلسلة جبال الغات ومقاطعاتها الجبلية.

٢١ ـ القرفة Cinnamon, Cassia

القرفة ثمرة أشجار القرفة.. وقد كانت تتوفر بكثرة في بنادر المشرق في القرون الوسطى، وتعرض للبيع في أسواق تبريز والسلطانية وسمرقند أيضاً. وكانوا يفضلون نقلها في البحر عبر المحيط الهندي وبحر القلزم، فالنيل فالاسكندرية.

وتسمى القرفة باللغة الفارسية درتشين أي خشب الصين، ومنه تسميتها دار صيني أي قرفة الصين، مما يدلّ على وجودها في الصين. بالفعل ينمو شجر القرفة في الصين الجنوبية وعلى سواحل الهند الصينية والهند. وكانت الجنوك الصينية تنقل قشوره إلى آسية الغربية، وكان العرب والفرس يطلقون اسم دار صيني على جميع أنواع القرفة المحمولة من تلك الأصقاع. وابن بطوطة أول من أشار إلى وجود أشجار القرفة في جزيرة سيلان وعلى ساحل مليبار في قاليقوط وكولم.

ولا تستثمر قشور أشجار القرفة وحدها، بل يستفاد أيضاً من أزهارها وأوراقها، لأنها تحوي دهناً له رائحة القرفة ومذاقها، فيدخل في إعداد الترياق وتتبيل المآكل.

٢٢ ـ القرنفل Clove Tree

جنبة يقطف زهرها قبل أن يتفتّح، ثم يجفّف في الظل، ويباع في الأسواق. اسمها العلمي Eugenia Aromatica.

في أوائل القرون الوسطى، شاع استعمال نوّار القرنفل على نطاق واسع في تركيب بعض العقاقير وفي تتبيل المآكل وإعداد المشروبات العطرية. وكانت عكا إحدى الأسواق الرئيسة له في القرن الثاني عشر. ثم صارت أوربة الغربية تتلقاه بعد ذلك التاريخ، إما عن طريق تبريز والسلطانية والقسطنطينية، وإما عن طريق عدن ومكة

والاسكندرية وقبرص.

وينمو القرنفل في جزر الملوك. ولم يحدد الجغرافيون العرب مصدره، وجهله ابن بطوطة، واستعصت معرفته على ماركوبولو. وروى بعض الرحالة القلائل انه يعثر عليه في جزر السوند وجزر باندا وجزر نيقوبار.

٢٣ ـ قُسْت أو قُسْتُسْ Costus Arabicus

هو جذور نبات Aucklandia Costus Falc.، ظنّ في العصور القديمة والقرون الوسطى ان لها خصائص علاجية جيدة. وكانت تستعمل في التبخير في الاحتفالات الدينية، وتباع في مرافىء المشرق. وهي على نوعين جذور حلوة وجذور مرّة. وقد صدّرت قديماً من بندر منّاغاره على نهر مهران الأسفل ومن بندر بريغازة على خليج كمباية. وذكر مصنّفو القرون الوسطى انها تجلب من حوض نهر الهندوس ومن ساحل الدكن الغربي. أما في القرن السادس عشر، فكانت تحمل من كمباية إلى جزيرة هرمز ومرفأ عدن، وتنقل منهما إلى أوربة الغربية.

٢٤ ـ القطن Cotton

كان القطن يزرع في ايطالية (بوية وصقيلية)، وفي اليونان، بخاصة في جزيرة كريت، وفي جزيرتي قبرص ومالطة والأندلس. إلا أن نوعيته كانت رديئة. وأفضل منه بكثير قطن المشرق (حلب، حماه، دمشق، اللاذقية في سورية) الذي كانت السفن الأوربية تشتريه من مرافىء اللاذقية وطرابلس وبيروت ويافا وعكا.

مع ذلك، كانت أوربة تستورد القطن الهندي لجودته. ويذكر ماركوبولو أن قطن بلاد كمباية يصدر إلى شتى الأقطار. أما بعد وصول البرتقال إلى الهند، فصارت كمباية وبنجالة تبيعان مقادير كبيرة من قطنهما وغزلهما وأقمشتهما إلى عدن ومكة ومملكة هرمز، ثم ينقل بعض هذا الانتاج إلى أوربة.

٢٥ ـ الكافور Camphor Tree

عرف العرب الكافور في أوائل القرن السادس الميلادي (الشاعر امرؤ القيس). ولما أخذ البحّارة والتجار العرب يسافرون إلى الهند ثم إلى الصين، تبيّنوا مراحل وصوله من آسية الجنوبية إلى بلدان حوضة البحر المتوسط الشرقية، من كلّه في شبه جزيرة ملاقة، وكولم وسوفارة على ساحل الدكن الغربي، وسيراف في الخليج العربي، وعدن قرب مدخل بحر القلزم. وزاروا البلدان التي تنمو أشجاره الشاهقة فيها، واستظلّوا في ظلها. وتعلموا طرق الحصول على الكافور، إما سائلاً بجرح جذوع

أشجاره، وإما صلباً بقطع أشجاره واستخراج النسغ الجامد من لبّ جذوعها. وهكذا استطاع الأطباء وعلماء النبات العرب أن يصنّفوا أنواع الكافور على أساس بلدان المنشأ أو على أساس اللون.

واتفق الرحّالة والجغرافيون على أن كافور فيسور على ساحل شمطره الغربي أفضل الأنواع المعروفة منه. وكافور جزيرة بورنيو نفيس أيضاً. وأشار ماركوبولو إلى وجود الكافور في الصين واليابان واستعماله فيهما لتحنيط الأموات وتعطير الأصنام. وقد أدخلت مدرسة سالرن الطبية الكافور في إعداد العقاقير الطبية، التي توصف للتشنّج والآلام الموضعية.

٢٦ ـ الكتان Linen

تنتج أوربة كمية كافية من الكتان، لكنها كانت تستورده من مصر لجودته. وكان يزرع على مقربة من فرعي النيل شمالي القاهرة، وفي دلتاه. ويستهلك معظمه في محارف نسج أقمشة نفيسة منه. ويصدّر بعضه خاماً من دمياط والاسكندرية إلى إيطالية واسبانية وجهات أخرى.

٢٧ ـ لاذن أو قستوس Ladanum

نبات يسمى القستوس الكريتي Cistus Creticus يستخرج منه صمغ بني غامق يعرف باللاذن الذي يستعمل عطراً وفي تركيب بعض المراهم. كان ينمو في أوربة الجنوبية وعلى السواحل الغربية من قارة آسية، ولم يعد موجوداً إلا في المشرق. وتؤخذ أفضل أنواعه من جزيرة قبرص.

٢٨ ـ اللبان أو الكندر أو البخور Incense Birdwood

اللبان نسغ أبيض، يتحلّب من جذوع شجيراته متى جرحت. اسمها العلمي Boswellia Carterii وترتبط جودة اللبان بدرجة نصوع بياضه وبنقائه، ويتسم الرديء منه بسمرته وباختلاطه بالقشر أو الشوائب الأخرى. ويباع أفضله في أسواق تبريز وبغداد، وأدناه في أسواق الاسكندرية، وينمو بكثرة في جزيرة العرب الجنوبية واليمن السعيد. وذكر ماركوبولو، نقلاً عن بعض التجار، ان الشحر وظفار تنتجان اللبان الأبيض، وأن السلطان كان يستولي على محصوله بثمن بخس، ويبيعه بأضعاف أضعاف ما يشتريه. ويشير الجغرافيون العرب الأوائل إلى وجوده في بندري مرباط وحاسك. وهذا يعني أن بلاد المهرة تكاد تنفرد بنموه فيها. إلا أن شجيراته تنمو أيضاً على ساحل الصومال المقابل.

وكانت تجارته مزدهرة جداً في القرون الوسطى، ويحمل عبر الخليج العربي إلى اقليمي فارس والعراق، وإلى تبريز وبغداد، ومنهما إلى مرافىء البحر المتوسط، فأوربة.

٢٩ ـ لبان جاوة Benzoin

هو صمغ عطري يُتبخّر به، ويستخدم في الطب وفي صناعة العطور. وهو نسغ شجرة Styrax Benzoin مجفّف، يسميه العرب اللبان الجاوي، نسبة إلى جاوة الصغرى المقصود بها جزيرة شمطرة في القرون الوسطى. وذكرت بعض الوثائق البرتغالية انه ينتج في شمطرة والهند الصينية ويباع في أسواق قاليقوط وهرمز الساحلية والاسكندرية، تتهاداه سلاطين مصر ودوقات البندقية وجينوة.

٣٠ ـ اللكّ Gum - Lac

الأشجار التي تفرز اللكّ كثيرة، منها الشجرة المسماة Aleurites laccafera wild التي تتثبت ألوف حشرات Coccus Lacca على أغصانها، وتثقبها بمرشفها، فيخرج نسغها اللزج من الثقوب، وينسكب على جوانبها، فيتصلّب، ويتلّون بالحمرة مؤلفاً اللكّ، الذي استعمل في العصور القديمة في التلوين وفي تركيب البرنيق ومعجون التلميع. وكانت تجارته مزدهرة في القرون الوسطى، فيباع خاماً أو مسحوقاً أو حبيبات، في أسواق قاليقوط وكمباية.

وتنمو أشجار اللكّ في وسط الدكن وغربيها وعلى ساحل كورومنديل. إلا أن موطنها الرئيس مقاطعات فيجوه ومرطبان وتناصري، وبورما وجزيرة شمطرة.

٣١ ـ المصطكى Mastic

المصطكى علك رومي ينمو شجره على سواحل البلدان المشرفة على البحر المتوسط، ويسمى Pistacia Lentiscus. إلا أن جزيرة شيو في الأرخبيل اليوناني تشتهر بانتاجه دون غيرها. وتجرح جذوع أشجاره، فيتقطر منها النسغ المطلوب. إلا أن التجار يفضلون المصطكى الذي يتصلّب على الأغصان. وهو يستعمل في التبخير العطري وفي تركيب بعض أنواع البرنيق. وله فوائد علاجية حسب أطباء القرون الوسطى.

ويباع في أسواق الشرق وبخاصة في الاسكندرية ودمشق بنسبة ثلثي انتاجه، ويذهب الباقي إلى أوربة الغربية.

٣٢ ـ النيل أو النيلج Indigo

استعمل النيل في الصباغة منذ العصور القديمة. وكانت بغداد سوقه الكبرى في القرون الوسطى، ينقل إليها من الهند عبر الخليج العربي. وأشار ماركوبولو إلى وجود مزارع أشجاره في كولم وجوزرات ونواحي كمباية. واشتهرت كابل بانتاج نوع جيد منه وبتصدير كميات كبيرة. ونيل منطقة مدينتي كرمان وهرمز العتيقة غاية في الجودة. وذكر المصنّفون العرب نيلج الهند ونيل كرمان والنيل المصري أيضاً. ويبدو أن أوربة كانت تشتري جميع أنواع النيلج باسم نيل بغداد.

٣٣ ـ البلسم Balsam

البلسم دهن يستخرج من أشجار البلسان، ذكر ياقوت الحموي[1] انه شاهد بساتينها في قرية المطرية في مصر، ويقدّر أن عدد أشجارها تراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ شجرة. وقال إن بعض أهلها يجرحونها، ويستقطرون ماءها من سوقها في آنية لطيفة من زجاج، ويجمعونه بجدّ واجتهاد عظيم، يتحصّل منه في العام مائتا رطل مصري. وقيل أيضاً تقطع أوراقها وأغصانها الصغيرة، ويجمع ماؤها أيضاً. ثم يوضع في الشمس، أو يغلى ليركد عكره، فيتحوّل لونه الأبيض إلى لون أحمر جميل.

وكان سلطان مصر يراقب انتاج البلسم عن كثب، ويأخذ محصوله كاملاً، لأن بساتين المطرية ملكه. واعتاد أن يهديه إلى أصدقائه من الملوك والأمراء، وأن يهب رجال الدين والوجهاء والمستشفيات شيئاً منه، ويبيع الباقي إلى التجار. أما فلاحو المطرية، فكانوا يأخذون الأوراق والأغصان المقطوعة، ويغلونها، ويعصرونها، ويحصلون على بلسم جودته أدنى من جودة بلسم جرح الجذور.

ويستعمل البلسم في الطقوس الدينية وفي معالجة الجروح وفي تحنيط الموتى.

* * * * *

بذا تنتهي المواد النباتية الرئيسة المتاجر بها في الخليج العربي محلياً ودولياً، نقلاً من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق. لكن لم يقتصر ذلك التبادل على تلك السلع وحدها، بل شمل مواد أخرى كثيرة منها المواد الحيوانية.

---

(١) معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٩.

ثانياً ـ تجارة المواد الحيوانية (٧ مواد)

آ ـ الحرير الخام Raw Silk

نقل العرب زراعة أشجار التوت ودودة القزّ إلى صقلية والأندلس، فازدهرت فيهما مع مرور الزمن، حتى أحصي حول جاين (٣٠٠٠) قرية يربّي سكانها دودة القزّ. وكانت مملكة غرناطة تنتج حريراً خاماً يكفي استهلاك حاكة مدينة المرية، ويفيض بعضه عن حاجتهم، فيصدّر. أما في ايطالية، فكانت تربية دودة القزّ في بدايتها، وكذلك في فرنسة. فكان لا بد من استيراد الحرير الخام من بلدان المشرق ومن بلدان أخرى أبعد منه. مثل شراء حرير جيلان وحرير طبرستان (اسم مزندران القديم) واستراباد وأران وفارس (تبريز وسلطانية) وسورية وغيرها. أما حرير الصين الخام، فيحول البعد دون نقله إلى أوربة بكميات كبيرة بعد انتشار تربية دودة القزّ في أقطار تعدّ نسبياً قريبة جداً منها.

ب ـ العـــاج Ivory

تستهلك الصين والهند كميات كبيرة من العاج، وتربيان الفيلة لاستخدامها في الأعمال المنزلية، وتشركانها في الحرب. وكانتا تستوردان العاج من سواحل افريقية الشرقية، رغم أن الأنياب الافريقية أطول وأثقل من مثيلاتها الآسيوية. كذلك كانت تفعل أوربة الغربية، إضافة إلى شرائها بعض العاج من الهند. وكانت أسواق العاج الشهيرة شبه محصورة آنذاك في زنجبار، ومدغشقر وزيلع والاسكندرية في افريقية، وفي سيراف وعدن وعكا في آسية، وفاماغوستا في قبرص.

ويصنع الأوربيون أدوات كثيرة من العاج كالأمشاط ومقابض السكاكين، ويستعملونه في التجليد الفاخر، ويعالجون برماده بعض الأمراض.

جـ ـ العنبـــر Ambergris

العنبر مادة قاسية رمادية شبيهة بالشمع، تفوح منها رائحة طيبة، متى سخّنت، وتعدّ أحد العطور. وكانت تجمع من ساحل بحر الهند، ومن بين صخوره أو تكون عالقة في أمواجه أو دفينة في بطون حيتانة.

واختلف قديماً في منشأ العنبر. فقال الأدريسي: «ومن هذا البحر (يقصد بحر هركند) يخرج العنبر الكثير، الطيب الرائحة. وقد توجد منه العنبرة من قنطار وأكثر وأقل. وهو شيء تقذف به عيون في قعر البحر مثلما تقذف عيون هيت بالنفط. فإذا اشتدّ هيجان الريح، رمي به إلى الساحل. وقد وهم به بعض الناس، حين ظنّوا أنه

رجيع دابة. وليس هو برجيع دابة، وإنما هو ما ذكرناه. وقد حكى ذلك ابراهيم بن المهدي في كتابه المسمى بكتاب الطيب، وذكر فيه أن هارون الرشيد بعث إلى اليمن قوماً من قبله يبحثون عن العنبر ما هو على الحقيقة، فأخبر أهل عدن وشرمة وحاسك انه شيء تقذف به عيون في قعر البحر، فيسوقه الموج إلى الساحل صغيراً وكبيراً. وليس العنبر بشيء غير ما ذكرناه»[1].

ورأى ابن سينا فيه رأياً مماثلاً. وقال آخرون إنه نبات ينمو في قعر البحر وتقتلعه الأمواج العاتية وتقذفه على الشاطىء. وقال غيرهم انه زبد بحر متصلّب. وتتفق جميع هذه الأقوال على أن منشأ العنبر بحري، ويعرف أصحابها أن أصله حيواني، وأن الحوت المسمى عنبر هو الذي ينتجه، وانه يعثر عليه على سواحل المحيط الهندي من ساحل افريقية الشرقية (بربره، الزنج) وساحل جزيرة العرب الجنوبي إلى أندونيسية.

وكان العنبر المجموع من كل تلك السواحل يصدّر إلى أوربة عن طريق عدن وبحر القلزم وعن طريق الخليج العربي إلى البصرة وبغداد. ومعروف أن أسواقه الرئيسة هي الاسكندرية وفاماغوستا وبيروت وتبريز والقسطنطينية.

ويباع العنبر خاماً قطعاً متفاوتة الحجم مثلما جمع على الساحل، أو قطعاً صغيرة مثقوبة ومنظمة في سلك. ويستعمل في الطب (صبغ عنبر) على نطاق واسع في الشرق، وعطراً في الشرق والغرب. ويصنع منه في الشرق عقود وتماثيل صغيرة وكؤوس، وفي الغرب صلبان ومسابح وأزرار. ويدخل العنبر في عداد مواد تحنيط الأموات.

د ـ قرمزية السنديان Coccus Ilicis

حشرة كُرَويّة، لونها أسود ضارب إلى البنفسجي، تعيش على السنديان المسمى Quercus Coccifera، فتجمع وتقتل، وتستعمل كمادة صبغية. كانت تعرف في القرون الوسطى باسم حبّة اللون القرمزي، لشبهها بالعنبية. ويعثر عليها في الأندلس وفي بروفانس ولانغدوك، فلا تستوردها لا إسبانية ولا فرنسة. على النقيض، كانت مدن توسكانية (ايطالية) تشتريها من المشرق ومن اليونان من أسواق كورنتس وبتراس وجزيرة كريت وكورون (موريه الجنوبية). ويتحدث الأصطخري عن قرمزية معروفة في دبيل (أرمينية) وفي برذعة (أران)، كانت تحمل إلى الهند وإلى بلدان أخرى، وتستعمل

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية، ص ٦٦.

في صبغ الحرير.

هـ ـ اللـؤلـؤ Pearls

تتجمع مغاصات لـؤلـؤ المحيط الهندي في الخليج العربي وفي مضيق منار بين جزيرة سرنديب وطرف شبه جزيرة الدكن[1].

١ ـ اللـؤلـؤ في الخليج العربي:

وكان اللـؤلـؤ متوفراً بكثرة في الخليج العربي عامة في القرون الوسطى. وكانت أنواعه جيدة ونفيسة، ومطلوبة في الأسواق المحلية والعالمية في الشرق والغرب. وأبرزت المصادر العربية والأجنبية خمس مناطق مغائص رئيسة له: هي جلفار ـ كسير وعوير، وأوال، والقطيف، وجزيرة خارك، وقيس ـ أبو شعيب. وتحدّث المصنفون عنه بشيء من التفصيل. منهم البيروني والأصطخري والمسعودي والأدريسي وياقوت والقزويني وأبو الفداء وابن بطوطة. وانفرد الأدريسي بالتوسع في الكلام عن مغائص أوال (البحرين)، فقال: «وفي هذه الجزيرة (أوال) رؤساء الغواصين في البحر ساكنون بهذه المدينة (البحرين). والتجار يقصدون إليها من جميع الأقطار بالأموال الكثيرة، ويقيمون بها الأشهر الكثيرة حتى يكون وقت الغوص، فيكترون الغوّاصين... وزمان الغوص في شهر أغشت وشتنبر. فإذا كان أوان ذلك... خرجوا من المدينة في أزيد من مائتي دونج. والدونج أكبر من الزورق... فإذا خرج الغواصون، عن أوال، تقدمهم الدليل، والغواصون خلفه في مراكبهم صفوف لا تتعدى جريه ولا تخرج عن طريقه... فإن وجد ما يرضيه خرج، وأمر بحطّ قلاع دونجه، وأرسى، وحطّت جميع المراكب حوله وأرست، وانتدب كل غواص إلى غوصه. وهذه المواضع يكون عمق الماء فيها من ثلاث قيم إلى قامتين فدونها... فإذا أتمّ الغواصون في البحر مقدار ساعتين، صعدوا، ولبسوا ثيابهم، وتدثروا، وناموا. وانتدب المصفّي، وهو صاحب الغواص، فيشق ما معه من الصرر، والتاجر ينظر إليه، حتى يأتي على آخره. فيأخذه التاجر منه، ويصرّه عند نفسه بعدد مكتوب... ويغوصون هكذا كل يوم. وكلما فرغوا من مكان أفنوا صدفه، انتقلوا إلى غيره. ولا يزالون بهذه الحال إلى آخر أغشت. ثم ينصرفون إلى جزيرة أوال في الجمع الذي خرجوا فيه. وما معهم من الجوهر في صررهم، وعلى كل صرّة منها مكتوب اسم صاحبها، وهي مطبوعة بطابع. فإذا نزلوا، أخذت تلك الصرر من التجار، وصارت في قبض الوالي وفي ذمته. فإذا كان يوم

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية، ص ١٥٥، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٤، ٣٨٧ ـ ٣٩١.

البيع، اجتمع التجار في موضع البيع، فأخذ كل واحد مكانه، وأحضرت الصرر. ودعي باسم كل واحد من أصحابها، وفضّت خواتمها واحدة بعد واحدة. وصبّ ما في الصرة من لؤلؤ في غربال، موضوع تحته ثلاثة غرابيل. وتلك الغرابيل لها أعين بمقادير، ينزل منها الدقيق والمتوسط. ويمسك كل نوع منها في صحن غربال، فلا يبقى على وجه الغربال الأول الأعلى إلا ما غلظ من الجوهر، ويبقى على وجه الغربال الثاني اللؤلؤ المتوسط، ويستقر على الغربال الثالث اللؤلؤ الدقيق. ثم يعزل كل صنف منها، وينادي عليه بأسوامه ومستحقّ أثمانه... وينتصف التجار من الغواصين، والغواصون من التجار. وينفصل كل أحد من كل أحد. وينصرف الناس، ثم يعودون إلى هناك في العام القابل هكذا أبداً»[1].

٢ ـ اللؤلؤ في مضيق منار (بالك)

وهنالك مغائص لؤلؤ في مضيق بالك بين جزيرة سرنديب وبلاد المعبر. وقد قال الأدريسي في سياق كلامه عن سيلان أن «بجميع سواحلها مغائص اللؤلؤ الجيد النفيس الثمن». وذكر ابن بطوطة في رحلته أن سلطان سيلان أراه جواهر كثيرة نفيسة أتى بها من مغاص بلاده، وسأله عن رأيه فيها، فأثنى عليها. وروى أحد الرحالة الأوربيين أن ٤٠٠٠ زورق ونيفاً يعملون في الغوص على الجوهر طيلة ثلاثة أشهر من السنة. وتتوزع المغائص مقابل ساحل سرنديب الشمالي الغربي بدءاً من خليج منار. وكانت هذه المغائص وحدها معروفة حتى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، ثم تضاءلت أهميتها في القرنين التاسع والعاشر الهجريين أمام مغائص أرصفة قايل التابعة لمملكة كولم (اندثرت وحلّت محلها توتوكورين)، على ساحل بلاد المعبر. ويذكر دوارته بربوسه أنّ ملك كولم المقيم في قايل لزّم رسوم مغائص قايل لتاجر عربي كبير. وكانت أوربة تستورد بعض اللآلىء من أسواق مكة والاسكندرية، وكثيراً منها من هرمز وتبريز وسلطانية وسمرقند وبغداد، وكل هذه المدن تتعامل مع الخليج العربي[2].

و ـ المرجان Coral

المرجان نوع من الحيوانات البحرية الثابتة، يفرز هيكلاً كلسياً متشعباً أحمر أو وردياً أو أبيض، يؤخذ من حوضة البحر المتوسط الغربية. أكثره وأفضله يأتي من بحر الخرز قرب مدينة بونه، وبعضه من ساحل تنس وسبتة. واشتهر أيضاً مرجان صقلية

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية، ص ٧٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٠٦.

وسردينية وكورسيكة.

تصنع منه أوربة شتى الحلي، وتبيع ثلثي انتاجها منه تقريباً إلى آسية الجنوبية، بخاصة الهند والهند الصينية في أسواق الاسكندرية. وذكر ماركوبولو أن أهالي كشمير يقبلون على شرائه، وأشار المصنفون العرب إلى طلبه في الهند والصين، ولاحظ البرتغاليون أنه كان ما يزال مرغوباً به في الشرق في أيامهم.

ز ـ المسك Musk

المسك عطر فوّاح حاد، يتجمع في نوافج ظباء المسك، جاء وصفه في «أخبار الصين والهند»[1] وتحدث عنه كوزما أنديكوبلوستس في القرن السادس الميلادي، ووصف المسعودي صيد ظباء المسك لمسكها. وأجوده ما حكّه الظبي على أحجار الجبال.

وتعيش ظباء المسك في التبت والصين، وفي آسية الوسطى في بوادي القرقيز والكيماك، وفي أركان وسيلان وجاوة.

وينقل المسك إلى أوربة براً مع سلع قوافل آسية الوسطى، وبحراً في المراكب رغم أن هواء البحر يعطبه ويدنّي نوعيته. ويصلها عن طريق الخليج، وعدن، ثم سمرقند وتبريز. ويحمل مسك الهند الصينية إلى بندري فيجوه وتناصري، ومنهما إلى الهند. وبيعه رائج في بيروت والاسكندرية.

هذه هي المواد الحيوانية الرئيسة. وننتقل الآن إلى المواد الأرضية.

ثالثاً ـ تجارة المواد الأرضية (٤ مواد)

آ ـ الحجارة الكريمة

تأتي الحجارة الكريمة في طليعة المواد الأرضية. وهي كثيرة، كانت تؤخذ من آسية ومن صعيد مصر الأعلى قبل اكتشاف البرازيل ومناجم جبال الأورال.

ففي مصر استثمرت مناجم الزمرد منذ العصور القديمة في الصعيد الأعلى من موضع يعرف بالخربة من أعمال مدينة القفط. وكان يؤخذ منه أربعة أنواع هي: ١ ـ المرّ، وهو أجودها وأغلاها ثمناً، ٢ ـ والبحري، الذي ترغبه ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين، ٣ ـ والمغربي، الذي ينسب إلى المغرب، وتشتريه ملوك

---

(١) أخبار الصين والهند، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، ص ٧٩.

الأفرنجة والنوكبرد والأندلس والجلالقة والوشكند والصقالبة والروس، ٤ ـ والأصمّ، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً. ويستخرج من أرض مصر الزمرد الريحاني، والياقوت الأحمر، من قرية ثارة جنوبي القاهرة. وتباع جميعها في أسواق الاسكندرية[١].

ومكامن الحجارة الكريمة في آسية كثيرة. فأجمل الفيروز يكثر في اقليمي كرمان وخراسان وفي فرغانة وبذخشان المشهورة باللازورد وباللعل أو البلخش.

أما الهند، فتمتلك أنفس الحجارة الكريمة. فأسواق كمباية تتلقى الخلقيدوني والعقيق الأحمر والبجادي من الداخل، وتصدر كميات كبيرة منها إلى أوربة عن طريق مصر. ويحمل من الهند من بلاد سندان ونحو كمباية ومملكة بلهرا صاحب الكانكير، نوع من الزمرد، يعرف بالجوهر المكي، ينقل إلى عدن وغيرها من سواحل اليمن، ويؤتى به مكة[٢]. ويعثر على السفير في جبال الغات، خلف سواحل كناره ومليبار. وأهم من ذلك كله الماس المتوفّر في شرقي الهند في خمس من مقاطعاته، واقعة بين درجتي عرض ١٤ و ٢٥ شمالاً، بخاصة في مملكة نرسنغا وفي فليكات شمالي مدراس.

وتحوي أرض سيلان أنواعاً لا تحصى من الحجارة الكريمة. ويذكر الأدريسي أن «على جبل الرهون وحوله، توجد أنواع اليواقيت كلها، وأنواع من الأحجار وغيرها، وفي واديه الماس»[٣]. ويؤكد ابن بطوطة أن «في جزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها، وهي ممتلكة. فيشتري الإنسان القطعة منها، ويحفر عن الياقوت، فيجد أحجاراً بيضاء مشعة، وهي التي يتكوّن الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكّاكين، فيحكّونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت. فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق ويسمونه النيلم. وعادتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت مائة فنم، فهو للسلطان، يعطي ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه. وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب. وجميع النساء بجزيرة سيلان لهنّ القلائد من الياقوت الملوّن»[٤]. ويسمي البلاذري سيلان جزيرة الياقوت.

وفي القرن العاشر الهجري / ١٦ ميلادي، علم الغرب أن الهند الصينية لديها

(١) مروج الذهب، ج١، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.
(٢) المرجع ذاته، ج١، ص ٤٤٦.
(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية، ص ٧٣.
(٤) ابن بطوطة، ص ٦٠٨.

يواقيت قيمة جداً، تبعث بها إلى الهند لتأطيرها. وتنتج الهند الصينية ياقوتاً رمانياً وسفيراً. وعندما ترسل حجارة الهند الصينية إلى أسواق فليكات، تجتمع فيها مع حجارة سيلان والدكن، وتجعلها أهم سوق لها، وتتفوق على سوق قاليقوط.

أما أشهر أسواق الحجارة الكريمة في العالم، فهي هرمز وشيراز وتبريز وسلطانية، ثم بغداد وحلب ودمشق والقاهرة والاسكندرية، وأخيراً القسطنطينية. وكان التجار الغربيون يشترونها من هذه المدن إما مباشرة أو بواسطة عملائهم حسب قرب السوق أو بعدها عنهم.

ب ـ الشـــبّ

كان الشبّ سلعة مطلوبة جداً في القرون الوسطى. اكتشفت مكامنها في أوربة قبل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. إنما كان استخراجه منخفضاً ونوعيته رديئة. لذلك اضطر الغرب إلى استيراده من الشرق، بخاصة من آسية الصغرى ومن الجزر اليونانية الواقعة بينها وبين اليونان ومن ثراقية، من أسواق القسطنطينية. وكان الشبّ يشرى أيضاً من الاسكندرية التي كانت تتلقاه من صعيد مصر ومن النوبة ومن اليمن. ويباع في حلب شبّ حلبي، يأتيها من داخل آسية من أماكن لم تحدد بعد بدقة.

وصفات الشبّ الجيد معروفة، إذ يشترط فيه أن يكون متماسكاً وصافياً ولمّاعاً وأبيض أو ضارباً إلى الحمرة أو الخضرة الخفيفتين. فيما عدا ذلك فهو عادي.

ويستعمل الشبّ في تثبيت ألوان الأقمشة وإعطائها لمعاناً وبهاءاً. لذلك يكثر استخدامه في الصباغة والزخرفة والرسم والتذهيب وفي دباغة الجلود.

جـ ـ المـوميـاي:

هي نوع من القطران المعدني، له خصائص علاجية، قال عنه ابن حوقل ما يلي: «وبقرية من قرى دارابجرد المومياي الذي يحمل إلى الآفاق. وهي ملك للسلطان، ولا نظير له. وهو غار في جبل، قد وكّل به من يحفظه. وهو مسدود الباب والمدخل مغلق مقفل مختوم، معلم بعلامات كثيرة لمن يحضر فتحه من ثقات السلطان. ويفتح في كل سنة في وقت معروف. وقد استجمع في نقرة حجر هناك ما اجتمع منه. وفي غير تلك النقرة الشيء بعد الشيء منه. فإذا جمع يكون الموجود في كل سنة كالرمانة. فيختم بمشهد من ثقات السلطان والحكام وأصحاب البرد والمعدّلين من أهل الأمانة، بعد أن يُرْضَخَ للحاضرين بالشيء اليسير منه. وهو المومياي الصحيح. وما عداه فمزوّر

ليس بصحيح. وبقرب هذا الغار قرية تعرف بـ «آبي». فنسب هذا الموم إليها. وتفسيره موم قرية آبي[1]. ويسميه أبو الفداء معدن الموميا، ويتحدث عنه الأدريسي وياقوت بما لا يخرج عما قاله ابن حوقل[2].

د ـ التوتياء

يطلق اسم التوتياء في القرون الوسطى على فلزات التوتياء المستخرجة من المنجم أو على أكسيد الزنك الممزوج بالشوائب الذي يعلق بمداخن الأفران التي تعالج فيها فلزاته. وقد عرف العرب التوتياء في هاتين الحالتين، وعنهم أخذها الغرب. وكانت التوتياء تجلب إلى الاسكندرية من إقليم كرمان والهند والصين. وتستخرج أيضاً من نواحي أصفهان ومن شبه جزيرة ملاقه (كله). وكان الفرس يسمونها حجر الصين أو حديد الصين.

وكان العرب يعتبرون أن للتوتياء خصائص قابضة ومجففة ومبرّدة. واستعملها أطباؤهم في علاج أمراض العين.

رابعاً ـ تجارة المواد المصنّعة (٥ مواد)

أخيراً المواد المصنعة، المُتَاجرُ بها في الخليج، محلياً ودولياً، كثيرة، نكتفي بإبراز خمس منها.

آ ـ الأقمشة

اشتهرت القرون الوسطى بإنتاج أربعة أنواع من الأقمشة: الحريرية والقطنية في الشرق، والصوفية والكتانية في الغرب.

١ ـ الأقمشة الحريرية والقطنية في الشرق

في أوائل القرون الوسطى، لم يكن أفراد الشعب في أوربة يقبلون على شراء الأقمشة الحريرية لارتفاع أسعارها. بالمقابل، كان رجال الدين المسيحي يتهافتون عليها في أسواق رومة، ويزيّنون بها كنائسهم، ويصنعون منها ملابس طقوسهم الدينية. ولما تحسّن مستوى الحياة، صار الأمراء والفرسان يطلبونها لصنع خيم اجتماعاتهم في شتى احتفالاتهم، ولتفصيل برادي غرف نومهم. كذلك اقتناها الأهالي لتزيين شوارعهم بالسجاد والأعلام في أثناء مرور المواكب الرسمية فيها. وكان على الشرق أن يزوّدهم

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٦٢.

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٤٠٨، معجم البلدان ج٢، ص ٤٤٦، تقويم البلدان، ص ٣٣١.

بجميع تلك الأقمشة والسجاد من مراكز تصنيعها عنده في الاسكندرية وطرابلس ودمشق وانطاكية وبغداد. أما فارس والهند والصين، فكان بعدها يحدّ من الاستيراد منها، ويفرض شراء كميات ضئيلة من حرايرها. ولوحظ أن الأقمشة الحريرية المصدرة إلى أوربة تحمل أسماءاً كثيراً ما تشير إلى اسم منشأها: محرفاً فالبلدكينو في بغداد، والكمخا (كاموكاتو) من الصين، والدمسشينو من دمشق، والمحارم من عكا، والتافتا ـ اسم فارسي ـ من تبريز والسلطانية وسمرقند، والترتريسك من بلاد التتر، والزيتونية من مدينة زيتون.

وكان القطن المزروع في بويه وصقيلية في ايطالية رديئاً لا يفي انتاجه بحاجة أوربة التي أخذت تشتري القطن الخام وغزوله وأقمشته من الهند وبلاد الشام ومصر وآسية الصغرى.

٢ ـ الأقمشة الصوفية والكتانية في الغرب

توفرت مقادير كبيرة من الصوف الخام الجيد في انكلتره في القرون الوسطى. وكانت تفيض عن حاجتها. فزوّدت البلدان الأوربية بها، واشتهروا جميعاً بإنتاج الأجواخ الصوفية التي زادت عن استهلاك أسواقهم الداخلية، فصدروها إلى الشرق. وتدفّقت أجواخ انكلترة ومقاطعة الفلاندر وفرنسة وايطالية على مدينة البندقية، لتحمل على سفنها، وتنقل إلى المشرق أي مرافىء حوضة البحر المتوسط الشرقية، وتباع فيها. وحوالي سنة ١٤٧٠، كان حاكة الصوف في فلورنسة وحدهم يشحنون من البندقية ١٦٠٠٠ قطعة جوخ سنوياً، لتعرض في أسواق مصر وسورية واليونان ورودس وقبرص.. وكان أسطول مدينة جينوة التجاري يقوم بنقل أجواخ الصوف الأوربية إلى اليونان وبحر بنطس وهذا ما كانت تفعله سفن مونبيلية وناربون وبرشلونة. ووصلت تلك الأجواخ إلى آسية الوسطى وفارس والهند.

كذلك كانت البلدان الشرقية ترغب بشراء الأقمشة الكتانية الأوربية، لا سيما أقمشة مدينة ريمس. وكانت حياكة الكتان مزدهرة جداً في القرن الثالث عشر الميلادي في إيطالية، بخاصة في مدينة لوك التي كانت ماهرة في تقليد أقمشة يزد ودمشق.

ب ـ الخــــزف

الخزف فخار نفيس، مصنوع في الصين في الأصل، اهتم به الرحالة العرب كثيراً في القرون الوسطى. ومما قاله عنه ابن بطوطة: «وجميع أهل الصين والخطا، إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا... ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار

الصيني، ويضيفون إليه حجارة سواه»[1]. وأما الفخار الصيني، فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان. وهو من تراب جبال هنالك، تقد فيه النار كالفحم... ويضيفون إليه حجارة عندهم. ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبّون عليها الماء، فيعود الجميع تراباً. ثم يخمرونه: فالجيد منه ما خمّر شهراً كاملاً، ولا يزاد على ذلك. والدون ما خمّر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً. ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب، وهو أبدع أنواع الفخار»[2].

وكان البنادقة يجلبون من مصر الأواني الخزفية الصينية. لكن لم يثبت أن الخزف الصيني كان سلعة رائجة في القرون الوسطى.

جـ ـ خيوط الذهب والفضة

شاع صنع خيوط الذهب والفضة في القرون الوسطى. وهي خيوط كتان مغلّفة بطبقة رقيقة إلى أقصى حدّ من معي الخنازير أو الغنم، ومغطاة بطبقة من الذهب أو الفضة. وكانت تستعمل لتوشية الأقمشة أو لتطريز أطراف الثياب أو السجاد، أو لتزيين الأقمشة وانتاج البروكار. وتعدّ قبرص أشهر مركز لتصنيعها. وقد انتقلت حياكة الحرير وصنع المطرزات من الشرق إلى الغرب، إلى مدينتي لوك وباريس في القرن الثالث عشر. وحمت قوانين جينوة هذه الخيوط من التزييف. وقامت صناعتها في البندقية وميلانو. وحوت فلورنسة ٣٠ محرفاً تعمل في انتاجها. وازدهرت هذه الحرفة إلى حدّ جعل انتاجها يصدّر إلى الشرق عن طريق القسطنطينية.

د ـ الـزجـاج

اقتصرت صناعة الزجاج الأوربية في القرون الوسطى على انتاج الزجاج الأبيض البسيط والملوّن وصنعت بعض المراكز النادرة زجاج الفسيفساء أو كؤوس زجاج إمّا مفضضة أو مزخرفة. واحتل البنادقة المرتبة الأولى بهذه الأعمال، وتتلمذوا على اليونان والسوريين والمصريين. مع ذلك بقيت المصنوعات الزجاجية الشرقية مرغوبة في الغرب، ودأب أثرياؤه على تزيين منازلهم بها، لا سيما بما كان يصنع في دمشق، كالطاسات والقوارير والصحون المتعددة الألوان، وكانت تصدّر إلى القاهرة قبل انتقالها منها إلى أوربة. وتذكر كتب التاريخ أن تيمورلنك نقل زجّاجي دمشق إلى سمرقند.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص٦٤٢.
(٢) المرجع ذاته، ص ٦٤٠.

أخيراً اشتهرت القادسية في العراق بأوانيها الفاخرة، وبيعت في الشرق والغرب. بالمقابل، ابتكرت البندقية لآلىء زجاج ملوّنه وحجارة كريمة زائفة، ازدهرت تجارتها، فراجت في البصرة، ووصلت إلى الصين في أوائل القرن الرابع عشر.

هـ ـ السـكـر

زرع قصب السكر في الهند والهند الصينية وجنوبي الصين قبل أن ينتشر في البلدان الأوربية. لكن لم يبتكر لا الهنود ولا الصينيون طرق صنع السكر منه. لتحويله إلى سلعة هامة تطرح في الأسواق. وأمضوا قروناً طويلة، اكتفوا خلالها بسحق قصب السكر واستخراج عصارته ثم غليها لتكثيفها. لكن اشتهرت سهول خوزستان الخصبة بزراعته، واكتشفت تصفية عصارته بطريقة كيميائية في مخابر جامعة جنديسابور وفي الأهواز، وحسّنت تلك الطريقة في بغداد، التي كانت تنتج كميات كبيرة من السكر وتستعمله في إعداد المربيات والأشربة. والعرب هم الذين عمّموا تصفية السكر في جميع أنحاء الخلافة العباسية وفي الشرق والغرب. فالمصريون علّموا الصينيين تصفية السكر في عهد كوبيلاي خان (١٢٦٠ ـ ١٢٩٤). وكان تأثير العرب كبيراً في انتشار تصفية السكر في الهند: ففي عهد السلطان علاء الدين (١٢٩٦ ـ ١٣١٧) عرف السكر الخام الأحمر والسكر الأسمر والقند (السكر المصفى) في الهند. وانتجت باتيكالا، بندر مملكة كنارة، السكر المصفى والسكر الناعم.

وكانت الصين والهند تصدران السكر. فهرمز وعدن كانتا تتلقيانه من سواحل الدكن الغربية. لكن لا يظنّ أنه وصل منهما إلى أوربة، ولا من خراسان أو فارس أو خوزستان أو مكران التي كانت تصنع الفانيذ (مزيج من السكر وزيت اللوز الحلو). فمنذ القرن العاشر الميلادي، كانت مزارع قصب السكر منتشرة وتصفيته متطورة في سورية ومصر والمغرب العربي، ونقله العرب معهم إلى الأندلس وصقيلية، وسمّوا مراكز تصفيته معاصر. وهذه البلدان أقرب إلى أوربة من الهند والصين. لذلك كانت هذه القارة تستورد منها أنواع السكر بخاصة من دمشق وطرابلس وبيروت وصيدا وصور والاسكندرية وقبرص.

ويذكر أن الأطباء العرب كانوا يعالجون أمراض الصدر بالسكر. وحذا الأوروبيون حذوهم، فاكتفوا باستعماله دواءاً في البدء، ثم استخدموه في إعداد المربيات أيضاً، على غرار ما حدث في العراق.

هذه هي السلع الرئيسة المتاجر بها في الخليج العربي استيراداً وتصديراً ومروراً. إنما يستحسن أن تضاف إليها بعض الأصناف الأخرى، مثل استيراد الأرز، وتصدير الخيول العربية[1]، وبيع الملح من المراكب، والإتجار بالأسماك والتمور والكمون وغيرها. وسوف يأتي ذكر كل ذلك في حينه. وفي جميع الأحوال، كانت الكيانات السياسية الخليجية المتعاقبة، ومنها سلطنة هرمز، تجني أرباحاً طائلة من تجارة تلك البضائع، عدا الرسوم الجمركية والضرائب الأخرى التي تفرضها عليها وتجبيها في جميع مدنها، بخاصة في هرمز العتيقة والجديدة وفي قلهات وجلفار، مما اثار أطماع المتنفّذين في داخلها، والسلالات الحاكمة المجاورة في خارجها، حتى اضطّرت هذه الدولة إلى العيش في صراع شبه مستمر في سبيل الدفاع عن نفسها وبقائها. وقد نجحت، تارة بقوة السلاح، وطوراً بدفع فدية استقلال مالية، سميت ضريبة أحياناً، وأتاوة أو مقرّرية في معظم الأحيان. وهذا ما سوف نراه في الكتاب الثاني من هذا الجزء الأول.

أما الآن فننتقل إلى دراسة المراكز العالمية الرئيسة، المتعاملة مع الخليج، والمراكز الخليجية الكبرى المتعاملة مع العالم، ثم نستعرض القوى الخارجية والداخلية النافذة في الخليج وفي سلطنة هرمز.

(١) انظر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والفصول، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، ص ٣٦١/ ٢٠، قصيدة الخيل أو النونية الكبرى.

الفصل السادس

المراكز العالمية الرئيسة المتعاملة مع الخليج العربي

ثبت على مرّ العصور، من الألف الرابع ق.م في الحد الأدنى، إن لم يكن قبله، إلى أواخر الألف الثاني الحالي بعده، أي خلال ستة آلاف سنة، أن العلاقات بين أرجاء المعمورة في حوض «البحر الأعلى» (= البحر المتوسط) وبين حوض البحر الأسفل (= بحر الهند)، لم تستغن سفنها عن المرور في الخليج العربي، ولا قوافلها عن الاعتماد على سواحله أو مجاراة شواطئه، أي سلوك دروبها. فنشأ مع الزمن انفتاح دائم متبادل بين المراكز البشرية المتطورة في الغرب والشرق من جهة أولى وبين الخليج من جهة ثانية، مبنيّ على الواقع المُحَتَّم والثقة الضمنيّة. فالخليجيون يسهّلون عبور مياههم واستخدام سواحلهم، دون أن يحاولوا البتة عرقلة الملاحة أو المواصلات البرية في الظروف العادية. ويُقْـدِمُ أهل المعمورتين الغربية والشرقية على عبور مياه الخليج، أو السير على سواحله بلا تردد أو وجل. ويرتكز تصرف الطرفين على هذا النحو على المصلحة المشتركة: فالخليجيون يتقاضون رسوماً مُجْدية، وسكان المعمورتين الشرقية والغربية يجنون أرباحاً طائلة. فكل منهما يستفيد ويفيد، وتتفتح أمامه آفاق، تسدّهاالقوقعة على الذات، مهما كانت مبرراتها، فيما لو حصلت.

فمن جهة رأس الخليج، يمكن الاتصال ببلاد الرافدين، ويجري فعلاً، ومنها ببلاد الشام والأناضول والبحر الأسود. ومن ناحية مخرجه، تتمّ الصلة بوادي نهر الهندوس وساحل عُمان، وساحل افريقية الشرقية، وسواحل الدكن الغربية (جوزرات، كنكن، تلوان، مليبار)، إضافة إلى إمكانية الوصول إلى أواسط آسية عبر كرمان وما وراء النهر، وإلى فلسطين عبر جزيرة العرب.

والعامل الأساسي الحاسم في هذا الوضع، هو موقع الخليج العربي الذي يخترق آسية الجنوبية الغربية، على طول ألف كم تقريباً، بعرض وسطي يتراوح بين ١٥٠

و ٢٥٠ كم. فيتيح له هذا الموقع المتميّز فرصة القيام بدور حضاري فريد وشامل بين معمورة حوض «البحر الأعلى» (= البحر المتوسط) وبين «البحر الأسفل» (= الخليج وبحر الهند). ولولا مستواه الحضاري الرفيع ومؤلاهته المادية والمعنوية والفكرية وقدرته السياسية. لناء به هذا العبء الثقيل بين مشرق الشمس ومغربها. ذلك أن المعمورة مفهوم يوناني عبّر عنه الأغارقة بلفظ ايكوميني οικουμενη بلغتهم، وقصدوا به أرض أهل البيوت أو الحضر، وعنوا بالحضر السكان الثابتي الإقامة في مكان واحد، المتعاطين الزراعة لتأمين أسباب حياتهم منه ومنها، فصاروا يتجمعون في أراضي معينة مع مرور الزمن: فالمغرب أو حوض البحر المتوسط هو المجتمع الأول في نظرهم، الراقي والمكتظّ بأهله، يقابله المشرق أو حوض بحر الهند، وهو المجتمع الثاني المتطور المزدحم بالبشر. ويمثّل الخليج العربي، بيمّه وجزره وسواحله وامتداده وأهله وخصائصهم، صلة وصل متعددة الوجوه بين أعظم مركزين حضاريين في العالم. بالتالي الخليج العربي منفتح على الشرق والغرب، والشرق والغرب منفتحان عليه. وقد اتخذ هذا الانفتاح المتبادل شكل علاقات ثابتة وطويلة الأمد، امتدّت من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، تتبعناها نحن من البدء حتى نشوء سلطنة هرموز ثم زوالها في القرن السابع عشر الميلادي. وقد تنوّعت هذه الصلات بين الخليج والأقطار القريبة منه والبعيدة عنه، وتولّتها كيانات سياسية خليجية حكيمة، من مدن وممالك وسلطنات، ظهرت في تواريخ معيّنة، وثبتت ردحاً من الدهر على مرّ العصور، سوف نسلّط الأضواء على عدد محدود منها فقط، لأنها تكشف، أكثر من غيرها، عن الدور الحضاري المحلي والعالمي، الذي لعبته القوى البشرية الخليجية في تأسيس علاقات تبادل المصالح الاقتصادية، وتسهيل كل ما يمكن أن يدعم استمرارها، رغم الأحداث الخطيرة التي كانت تجري أحياناً حولها وحتى ضمن حدودها.

ولم يكن هذا الوضع أبداً طارئاً أو مؤقتاً في الخليج، بل فرضه عليه موقعه الجغرافي، الذي يحتّم عليه ألاّ يعيش في عزلة عن العالم منذ عصور ما قبل التاريخ. فارتبط بالأقطار المجاورة له مباشرة بعلاقات برية وبحرية أثّرت تأثيراً عميقاً في حياة سكانه وثقافتهم، حتى أصبحت جزءاً أساسياً في أنشطتهم في عصور ما قبل التاريخ وأوائل تاريخهم وبعده. والواقع أن الخليج كان وما يزال، ممراً تجارياً ومنطقة التقاء ثقافات منذ العصر الحجري فما بعده في الجهة الشرقية، أي فارس ووادي نهر الهندوس بخاصة والساحل الغربي من هضبة الدكن وما وراءها حتى الصين، وفي جهته الشمالية، أي بلاد ما بين النهرين والأناضول وبلاد الشام. فعندما كانت القوافل أو

السفن تنقل إليه السلع من تلك الأقطار، كانت تحمل معها ثقافة وأفكاراً جديدة. وكانت هذه السيرورة تجري أيضاً في الاتجاه العكسي: فالخليجيون كانوا يسافرون إلى الأصقاع الأجنبية، ويشكّلون جاليات فيها، ويحملون معهم أفكارهم وثقافتهم وسلعهم، ويؤثّرون في الثقافات حيثما حلّوا. وهذا ما فعلته دلمون وسيراف وقيس وسلطنة هرموز وغيرها.

وهكذا، لا بدّ من التعرّف على بعض المراكز الحضارية الكبرى، الاقليمية، والدولية، التي تعاملت مع المراكز الحضارية الخليجية الرئيسة منذ القدم وعلى مدى الدهر، لإيضاح العلاقات الاقتصادية والثقافية والحضارية بينها جميعاً.

ولن نتحدث عن جميع هذه المراكز، بل نكتفي في هذا الفصل بالكلام عن مراكز عالمية تعاملت مع الخليج، هي: ١ ـ بلاد ما بين النهرين. ٢ ـ ووادي نهر الهندوس. ٣ ـ وساحل هضبة الدكن الغربي. ٤ ـ والصين، ٥ ـ وماغان أو مكّان (عُمان). على أن نستعرض في الفصل التالي المراكز الخليجية الكبرى المتعامِلة معها.

أولاً ـ تعامل بلاد ما بين النهرين والخليج العربي

تشمل بلاد ما بين النهرين منطقتين مختلفتين كلياً، هما الجزيرة والعراق العربي. فالجزيرة هضبة عريضة، يخترقها دجلة والفرات في أودية عميقة، ثم يدخلان في سهل منخفض، هو العراق العربي، الذي يشكّل بلاد ما بين النهرين بالمعنى الصحيح، وتكثر فيه المجاري المائية التي تغذي أخواره لا سيما «خور الحمّار». وينتهي العراق العربي على الخليج بدلتا، كوّنها نهرا قارون وشط العرب، جنوبي التقاء دجلة والفرات وروافدهما. ويرجّح ان ساحل الخليج الشمالي كان يقع على مسافة قصيرة شمالي بغداد الحالية، وبقي على حاله حتى الألف الخامس ق.م. ويقدّر العلماء أن بر العراق العربي يكسب ثلاثة كم من البرّ المردوم من رأس الخليج كل مائة عام.

والزراعة هامة جداً في بلاد ما بين النهرين، يتجلى ازدهارها في الإفادة من وفرة المياه في سقاية بساتين نخيل تمر كثيرة موزّعة على جانبي دجلة والفرات بدءاً من عانة وسامراء، إضافة إلى بناء السدود وشق الأقنية منذ أقدم العصور. إلا أن عنف الفيضانات وعدم انتظامها ألحقا أضراراً جسيمة بزراعة العراق العربي، كما أهملت شبكة الري في أعقاب الاجتياحات المغولية.

آ ـ بلاد ما بين النهرين القديمة

ونشأت «حضارة سومرية أكدية» في بلاد ما بين النهرين، دامت بضعة آلاف من السنين في عصور ما قبل التاريخ، ثم سيطرت، طيلة ما يزيد على ثلاثة آلاف عام، على الشرق الأدنى الآسيوي، وخلّفت للغرب تراثاً هائلاً، ثم زالت في السنوات الأخيرة التي سبقت التاريخ الميلادي. وتعتبر بلاد ما بين النهرين ملتقى طرق مواصلات بين آسية وافريقية وأوربة، يلائم ظهور حضارة عظيمة.

على صعيد آخر، أدّى تلاشي الجليد في أوربة، حوالي الألف السادس ق.م، إلى حدوث جفاف شديد في الشرق الأدنى القديم، فتحوّلت الهضاب إلى صحارى، وكشفت أودية الأنهار عن أراضي سهلية واسعة صالحة للزراعة، هاجر إليها سكان الهضاب. وكان الساميون الرعاة، القادمون من جزيرة العرب الشرقية، والسومريون المهاجرون من السهول الآسيوية من أشهر الأقوام التي نزحت من الهضاب المتصحّرة، إلى السهول الزراعية. وينتمي الساميون إلى فئة اثنية ولغوية معروفة جيداً، أعمرت «الهلال الخصيب»، وصعدت باتجاه الشمال في أودية الفرات ودجلة. أما السومريون، الذين يتكلمون لغة وحيدة المقطع، فاستقروا على مشارف الخليج العربي. وامتزج الساميون والسومريون منذ عصور ما قبل التاريخ في بلاد ما بين النهرين المنخفضة، التي ازدهرت فيها حضارة سومرية في جوهرها، قضى مدّ هائل، أثبتت الآثار المكتشفة في أور حدوثه، على معظم المؤسسات السامية، وأسهم بالتالي في بقاء السيطرة السومرية مدة طويلة في بلاد ما بين النهرين المنخفضة.

ب ـ تاريخ بلاد ما بين النهرين المنخفضة

١ ـ الحقبة السومرية: ٣٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م

ويبدأ التاريخ في بلاد ما بين النهرين المنخفضة، حوالي منتصف الألف الرابع باكتشاف الوثائق المكتوبة الأولى، وهي ألواح صغيرة تصويرية عثر عليها في الوركاء (أرك)، سوف تصبح طريقة كتابتها الطريقة المسمارية في وقت لاحق، عندما يشرع النسّاخ والكتبة باستعمال الألواح الفخارية، عندئذٍ، ساد في بلاد ما بين النهرين نظام الإمارات المتنافسة وقيام ملك في كل مدينة هامة، مثل أور، أو لجش، أو كش، أو أرك (الوركاء)، وصارت تلك المدن تتناوب في ممارسة السيادة على جميع بلاد ما بين النهرين.

ومن هذه الإمارات التي تستحق الذكر، إمارة أكـد، المجهول موقعها حتى الآن، ولو كان يرجّح أنها قريبة من كش. وقد أسس سرجون عاصمتها أكـد حوالي ٢٣٠٠ ق.م، وأخضع كامل بلاد ما بين النهرين، من الخليج العربي إلى آسية الصغرى، ومن لبنان إلى عيلام، وأسس الامبراطورية الأكدية الأولى. إلا أن بقاء هذه الامبراطورية السامية لم يدم طويلاً، وعاد خلفاء سرجون ملوك سلالات محلية، أما جوديا، الذي سيطر على لجش حوالي ٢١٠٠ ق.م، فهو أحد أشهر الأمراء السومريين بكثرة تماثيله وكتاباته ومشاريعه المنفذة. وفي أعقاب انهيار سلالة أور الثالثة، انتقلت السيطرة نهائياً من أيدي السومريين إلى أيدي الساميين. وقلّ تدريجياً استعمال اللغة السومرية، لكنها بقيت حتى التاريخ الميلادي لغة دينية. مع ذلك لم تنقرض الحضارة السومرية، وفرضت نفسهاعلى الحكام الجدد.

وسومر منطقة من بلاد ما بين النهرين المنخفضة قرب رأس الخليج العربي ظهر السومريون فيها حوالي منتصف الألف الرابع ق.م. وهي تدين لهم بلا ريب بشغل النحاس، وبناء الدور بالآجر، وصنع الأختام، والكتابة. وقد طوّر السومريون الري، وتعاطوا تجارة المعادن، والحجارة القاسية، التي دفعتهم إلى الاتصال ببلدان حوضة المتوسط الشرقية وبحر قزوين ووادي نهر الهندوس. وهم يتجمعون في مدن (أريدو، أور، أرك «الوركاء»، لجش، أمّة، أدب، شوروباك «فارة»، يتوق زعماؤها إلى الهيمنة على بلاد سومر، وحَمْل لقب لوغال أي ملك، وإذا لم يستطع حاكم المدينة الوصول إلى هذا المنصب، اكتفى بلقب نائب (باتيسي) إله المدينة المحلّي أو الملك. والديانة السومرية كثيرة الشعائر المستوحاة من السحر، فهي تكرّم آلهة يملك كل زوج إله وإلهة منهم إحدى المدن. ويأتي المعبد قبل القصر، وهو مركز الإمارة الاقتصادي الذي يتألف من مجموعة واسعة من المباني تشرف عليها الزقورة. وقد نقل السومريون حضارتهم إلى جيرانهم لا سيما الأكديين الذين يختلطون بهم في بلاد ما بين النهرين الجنوبية ويشكّلون أكثرية في الشمال (بلاد أكـد) وأقلية جنوبها (بلاد سومر). وقد تناولت التحريات الأثرية والنصوص التاريخية حتى الآن مدناً وعصوراً مختلفة. لذلك يصعب فصل بداية التاريخ السومري (حوالي ٣٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ق.م) عن الأساطير. وقد سبقت لجش في الخروج من الظلمة في عهد أباتّوم، لكنها سرعان ما نشب الخلاف بينها وبين مدينة أمّة. فحوالي ٢٧٥٠ق.م، استولى لوغال زكيزي ملك أمّة وأرك، على لجش، ودمّرها، وأسس الامبراطورية الأولى في بلاد ما بين النهرين، لم يلبث الساميّ سرجون الأكدي أن اغتصبها. وبعد سقوط السلالة الأكدية واحتلال البرابرة جوتي

سومر، عادت السيطرة إلى المدن السومرية، أرك مرة أخرى، ولجش (عصر جوديا). أخيراً عجز ملوك سلالة أور الثالثة (بين ٢١٠٠ و ٢٠٠٠ق.م) عن إبقاء بلاد ما بين النهرين تحت سيطرتهم بواسطة عملائهم، وعن مقاومة تسلل الأموريين. وإذا كانت المدن السومرية بقيت تلعب دوراً تاريخياً مع السلالات الأجنبية الأصل (أيسن ولارسة) في مطلع الألف الثاني، فإن اللغة السومرية أصبحت لغة ميتة، وتأثرت سومر السامية تأثراً عميقاً، وذهبت ضحية توحّل الخليج العربي، وصارت تعرف باسم «بلاد البحر» (ابتداءاً من ١٦٥٠ق.م)، وأصبحت ملجأ المنشقين والبدو الآراميين. إلا أن الحضارة السومرية الرائعة بقيت، وتقبّلها أسياد بلاد الرافدين حتى العصر الهلنستي.

٢ ـ الحقبة الأكـديـة: ٢٠٠٠ ـ ٥٣٩ ق.م

(١) ـ الأمـوريـون

وقد انتهت امبراطورية أور الثالثة في عهد أبي سين خامس ملوكها وآخرهم. وبقيت قرابة قرن واحد (٢١١٢ ـ ٢٠٠٤ق.م) وأتى زوالُها على يد أشبي ايرا الأموري، ملك سلالة إيسن السامية ومؤسسها (٢٠١٧ ـ ١٧٩٤ق.م)، الذي يرجع أصله إلى مدينة ماري. وتنافست سلالة إيسن السامية مع سلالة لارسة السامية (٢٠٢٥ ـ ١٧٦٣ق.م) على السيطرة على سومر وأكد. إلا أن أموريّاً آخر، يدعى سومو آبم، وهو سابع ملوك لارسة، أسس سلالة بابل الأولى (١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ق.م). وتنازعت سلالتا إيسن ولارسة، وآل الصراع بينهما إلى تغلّب الملك ريم سين على سلالة إيسن وضمّها إليه. وبذلك انحصرت المنافسة الجديدة بعد الآن بين السلالالتين المتنفذتين: لارسة والبابلية الأولى.

وخلف الملك سين مبلط أباه على عرش بابل، وهو الملك الخامس من ملوك سلالة بابل الأولى، ووالد حمورابي الشهير، الذي ورث عن أبيه مملكة صغيرة لا يتجاوز طولها ١٢٨ كم وعرضها ٤٠ كم. ولما تسنّم العرش (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠)، كان ريم سين ملك لارسة القوي وشمس أدد الأول ملك أشور يهددان مملكة حمورابي بالزوال. إلا أن حمورابي جمع حول بابل بلاد ما بين النهرين بأجمعها وقضى على سلالتي إيسن ولارسة، واستولى على ماري، وفرض سلطته على أشور البعيدة. ولم يُلاقِ صعوبة البتة في صد هجمات الجبليين والعيلاميين وطردهم إلى ما وراء حدود مملكته. ولم يكتف بهذه الانتصارات، فقررّ توحيد بلاد ما بين النهرين، وفعل. ونظّم بريداً متواصلاً بينه وبين حكام الولايات والملوك التابعين له، وسنّ قانون حمورابي،

وفرض مردوخ إلهاً على جميع أتباعه.

وخلف حمورابي خمسة ملوك ورثوا عنه مملكة واسعة موحدة ومنظمة وقوية. لكنهم اضطروا أن يجابهوا الكثير من الأعداء: كالسومريين في «بلاد البحر»، والكشيين، والجبليين في مرتفعات زغروس. وانتهزت آشور الفرصة، واستعادت استقلالها. ثم وجّه الحثّيون القادمون من الشمال (تركيا) الضربة القاضية إلى بابل في عهد سمسو ديتانا، آخر ملوكها (١٦٢٥ ـ ١٥٩٥ق.م).

(٢) ـ الفاصل الكشي (سلالة بابل الثالثة): ١٧٠٠ ـ ١١٥٧ق.م

والكشيون أقوام اختلطوا اختلاطاً واسعاً بالعناصر الآرية (الهندية الاوربية)، مثلما تدل أسماؤهم وأسماء آلهتهم. وقد اقتصرت سيطرتهم أصلاً على بلاد ما بين النهرين الجنوبية، التي سموها كاردونياش. وبقيت بلاد ما بين النهرين الشمالية ملحقة بالمملكة الحورية في الميتاني، وربما حكمت سلالة آرامية حوالي ١٥٠٠ق.م أقصى جنوبها. ومثّلت قرون السيطرة الكشية الأربعة فترة فوضى، فقيرة بالوثائق المكتوبة التي يصعب وصول المؤرخ المعاصر إليها. وهدرت جميع طاقات البلاد في صراعاتها الدائمة: فاشور في نزاع متواصل مع الميتاني الذي قلب سلطتها الحورية آشور ـ أوبالط (القرن الرابع عشر ق.م) وأُبْعِدَ الحثيون المستولون على الميتاني إلى ما وراء الفرات على يد تكلتي ننورتا (حوالي ١٢٤٠ق.م) واضطر الكشيون أن يناضلوا ضد العيلاميين. أخيراً نشأ صراع بين آشور وبابل، وأدى إلى تدمير العاصمتين في وقت واحد.

وقد استكشفت مجموعة تلال عدة مرات في القرن التاسع عشر شرقي بابل، لكنها لم تنقّب بانتظام إلا عام ١٩١٢، ثم بين ١٩٢٣و ١٩٣٣. فأعطى التل آ A قصراً «سومرياً»، ومقبرة يعود تاريخها إلى ما قبل العصر السرجوني، نُقِّب ١٥٤ قبراً فيها، حَوت كمية من الفخار والتماثيل الصغيرة (النصف الأول من الألف الثالث). وعثر تحت تل الأحيمر على معبد وزقورة، مكرسين للإله زبابة، رمّمه حمورابي ثم نبوخذ نصر الثاني. وكشف في تل أنغارا؟ على معبد بابلي حديث وزقورتين، وفي التل ط على حي ساماني ودور غنية بالزخرفة (القرن الخامس ق.م). وقد احتفظت كش بأهميتها خلال جميع أدوار بلاد ما بين النهرين.

(٣) ـ الآراميـــون

قضى الآشوريون والعيلاميون على الكشيين في بابل سنة ١١٥٠ ق.م. وسيطرت على الفترة الآشورية، الخصومة بين الملوك الآشوريين والبابليين، التي أفاد منها

أعداؤهما في الخارج. وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ق.م، استقر ملوك مشهورون في هذه العاصمة أو تلك. فنبوخذ نصر صدَّ مدة طويلة العيلاميين على حدوده، بينما وسّع تجلاتبليزر الأول الآشوري امبراطوريته حتى شواطىء البحر المتوسط.

وتوارت الامبراطورتان كلياً تقريباً عن مسرح التاريخ في القرن العاشر ق.م. وانتهز الفرصة الآراميون البدو أو نصف البدو، وتغلغلوا في بلاد ما بين النهرين، واستولوا على بابل. وأصبحت اللغة الآرامية لغة دبلوماسية إلى جانب اللغة الآشورية في جميع أنحاء الشرق الأدنى. ثم جابه ملوك آشور حوالي القرن التاسع ق.م، الآراميين الأوائل، ووصلوا في القرنين الثامن والسابع إلى قوة وشهرة بلغتا ذروتيهما في زمن السرجونيين: سرجون الثاني وسنحاريب وآشور بانيبال، ووضعوا أيديهم على بلاد ما بين النهرين بأجمعها. إلا أن بابل تحمّلت بصعوبة نير الآشوريين، وأثارت حكومتهم قضية عويصة في نينوى، استخدم ملكها جميع الوسائل لحلها: مثل إبعاد البابليين المتنفّذين إلى سامراء، ونقل أهل سامراء إلى بابل، وتعيين شقيق ملك نينوى حاكماً في بابل، فلم تُجْدِ تلك الإجراءات، وكانت بابل تثور ضد سلطة آشور حتى بدا عليهما شيء من الوهن. في النهاية في شهر تموز سنة ٦١٣ق.م، تشكل تحالف بابلي ماذيّ (بقيادة كي اخار) وأومان مندا، حاصر نينوى (العاصمة الآشورية)، واحتلها بعد ثلاثة أشهر لكن انسحب الملك الآشوري منها إلى حرّان (سين شار اسكن) واستنجد بملك مصر بسامتيك الأول الذي تأخر وصوله إلى ٦١٠ق.م بعد أن احتل التحالف حرّان نفسها.

عندئذٍ ازدهرت بابل في عهد نبوخذ نصر الثاني، الذي امتدت امبراطوريته حتى حدود مصر. واحتل أورشليم سنة ٥٩٧ق.م، وقضى على الدولة اليهودية. وكان من أعاظم الملوك في مجال البناء والتعمير والتنظيم والقانون. وأراد أن يعيد لبابل مجدها القديم في عهد حمورابي. وحكم نبوخذ نصر ٤٣ سنة. وخلفه بضعة ملوك لم يكونوا جديرين بإدارة الدولة. فاحتل كورش الثاني الأخميني بابل في ١٣ تشرين الثاني سنة ٥٣٩ق.م.

٣ ـ الحقبة الآريـة الأخمينية: ٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م

يبتدىء العهد الأخميني بفتح كورش الثاني بابل عام ٥٣٩ق.م، وينتهي بفتح الاسكندر الكبير عام ٣٣١ق.م. فيكون قد دام قرابة القرنين في العراق. أما كورش

الثاني، فجعل بابل ولاية أخمينية لكنه أبقى تنظيماتها على حالها، وذهب إلى حد إعلان يوم وفاة نبونيدس يوم حداد وطني وقسّم دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ق.م) الامبراطورية الأخمينية إلى عشرين ولاية، ربطها بطريق ملكية تبدأ من أفسس وتنتهي في سوسة، طولها ٢٦٨٣ كم، ودعمها بشبكة طرق مواصلات فرعية تسهّل توزيع البريد والاتصال بين أرجاء الامبراطورية وبين العاصمة برسيبوليس (أصطخر). وحافظ الأخمينيون على سيطرتهم على ولاية بابل، رغم حدوث بعض التمرد فيها أحياناً. وتأثرت بلاد ما بين النهرين تأثيراً بالغاً بالهلنستية، لكنها نقلت إلى الأغارقة مجموعة معارف متنوعة تجمعت لديها خلال آلاف السنين من الملاحظة، لا سيما في مجال الفلك والقوانين.

جـ ـ بلاد ما بين النهرين الهلنستية: ٣٣١ ـ ٦٥ ق.م

افتتح الاسكندر الكبير بلاد ما بين النهرين سنة ٣٣١ق.م، وحوّلها إلى ولاية (مرزبانة) (٣٢٣)، وأعطاها انتي باتروس إلى امفيماخوس. ونال سلوقس (٣٢١) بلاد بابل، ثم ألحق بها بلاد ما بين النهرين نهائياً (٣١١ ـ ٣١٠ق.م). وحاول الملوك السلوقيون إضفاء الصبغة الإغريقية على امبراطوريتهم. لكن جاء عملهم محدوداً وسطحياً لضعف عدد اليونانيين في المدن المؤسسة أو المعادة تسميتها تسمية جديدة (مثل سلوقية، دجلة، وانطاكية، وخاركس، وأيديس أورفا أو الرها ودورا أورويس)، ففشلوا في تغيير الحضارة المحلية الراسخة في أذهان الناس وعاداتهم منذ آلاف السنين. ثم إن معظم تلك المدن تتجمع عند منعطف الفرات. وزال استعمال اللغتين الأكدية والمسمارية في القرن الأول الميلادي، وحلّت محلهما اللغة الآرامية، التي تفرّعت عنها اللغة السريانية. وصارت بلاد ما بين النهرين التي تمرّ فيها معظم السلع المتبادلة بين البحر المتوسط والشرق الأقصى، بوتقة تتكوّن فيها حضارة مركّبة، يضاف فيها إلى العنصر السامي القديم عناصر فارسية تتفوّق على العناصر اليونانية الطارئة. ووهنت سلطة السلوقيين بسرعة، حتى إن مولون المرزبان ثار على انطيوخس الثالث الذي أخمد ثورته (٣٢١). لكن أبعد الفرثيون حلفاء انطيوخس الثالث السوريين عن بلاد ما بين النهرين، واحتلوا بابل (١٤١ ـ ١٢٩ق.م)، وجعلوا نهر الفرات حدودهم مع الرومان (اتفاق سولا وميتريدات الثاني سنة ٩٢ق.م). وفي عام ٦٦ق.م، أقرّ لوكولوس ذلك الاتفاق.

د ـ بلاد ما بين النهرين في عهد الارشاقيين والساسانيين:
٦٥ ق.م ـ ٦٣٥ ميلادية (القادسية)

ظهر الفرثيون الارشاقيون على مسرح التاريخ في حدود عام ٢٥٠ق.م بزعامة ارشاق. وانتهى حكمهم عام ٢٢٤م، فدام حوالي ٤٧٥ سنة. وتميّز بكثرة حروبهم أولاً مع السلوقيين، ومع الرومان أيضاً.

فالسلوقيون دخلوا في نزاع شبه دائم مع بطالسة مصر، فضعفوا. وانتهز الارشاقيون وهنهم، وتمكّن الملك افراهاط الثاني (١٣٨ ـ ١٢٨ق.م) من التغلّب على الجيوش السلوقية. واستتبّ الأمر للارشاقيين في العراق في عهد أرطبان الثاني. وسيطروا على التجارة الدولية بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط. وألحقوا الضرر بمصالح الرومان الذين حاولوا عدة مرات افتتاح بلاد ما بين النهرين لتأمين مرور القوافل. فنشبت حروب متواصلة بينهم وبين الارشاقيين، برز فيها حصول كارثة انتحار كراسوس حاكم سورية الرومانية (٥٣ق.م) وفشل حملة الامبراطور تراجان (١١٧م) ووفاته فيها. لكن استمرت الحروب، ففرض مرقس أوريليوس على ولغاش الثالث قبول وضع الرها تحت الحماية الرومانية (١٦٦م)، وحوّل سبتيموس سويروس نصيبين إلى مستعمرة رومانية (١٩٥)، وأحدث ولاية ما بين النهرين (١٩٩)، وعيّن والياً رومانياً لها. أخيراً وقّع مكرينيوس صلحاً (٢١٨م) بينه وبين أرطبان الخامس، آخر الملوك الارشاقيين.

لكن ارهقت الفوضى الداخلية والحروب المتواصلة الارشاقية ـ الرومانية، الامبراطورية الارشاقية، وحلّ محلهم سنة ٢٢٤م الساسانيون، الذين احتلوا بلاد ما بين النهرين بأجمعها (٢٣٧ ـ ٢٤١)، ودام حكمهم حتى القادسية (٦٣٥م). وأثار هجوم شابور الأول (٢٥٨) رد فعل فاليريان، الذي أسر قرب الرها (٢٦٠). ونجت بلاد ما بين النهرين من الفرس، لكن ضمّها أذينة بين ٢٦٢ و ٢٦٦ إلى امبراطوريته العربية، ثم وقعت تحت سيطرة الفرس بعد انهيار تدمر (٢٧٣م). ثم اجتاحها الرومان في أيام كاروس (٢٨٢ ـ ٢٨٣). أخيراً، فشل هجوم نرسيس الملك الساساني (٢٩٦ ـ ٢٩٧)، الذي تنازل مكرهاً عن كل بلاد ما بين النهرين إلى ديوكليسيان، وقسمها ديوكليسيان إلى ولايتين: الرها وبلاد ما بين النهرين. واستمر الصراع من أجل بلاد ما بين النهرين حتى القرن السادس الميلادي. لكن في عام ٦٠٧، أخذ الساسانيون الرها من البيزنطيين. وهجّروا المسيحيين إلى الشرق قبل أن يعيدوا إلى هرقل جميع الأراضي

التي استولى عليها. أخيراً اضطر هرقل سنة ٦٤٠ أن يتخلى نهائياً عن السيطرة على شواطىء الفرات أمام الضغط العربي.

ثم انتصر العرب على الساسانيين في القادسية سنة ٦٣٥م، واحتلوا أراضي امبراطوريتهم، وسموها العراق العربي في بلاد ما بين النهرين، وبنوا فيها البصرة والكوفة لحمايتها. وفي عام ٧٤٩ ـ ٧٥٠م أصبحت بلاد ما بين النهرين تحت سيطرة العباسيين، الذين أسسوا فيها عاصمتهم بغداد، ومقرّين صيفيّين لهم: الرقة وسامراء.

لكن لا بدّ من الإشارة إلى ازدهار تجارة الخليج في عهد الساسانيين[١]، ووصولها إلى أوج ازدهارها في أيام العباسيين.

فعندما أطاح الملك الساساني أردشير الأول بارطبان الخامس، آخر الملوك الفرثيين الارشاقيين، عام ٢٢٤م، كان الخليج العربي ممراً مائياً هاماً منذ أمد طويل. ففي القرن الأول الميلادي، درج التجار على الإفادة من الرياح الموسمية، التي تسمح للسفن بالإبحار مباشرة من الخليج العربي إلى الهند وسيلان (سري لنكا)، وجلب التوابل والحرير وغيره من السلع الكمالية. بالمقابل يصطاد الخليجيون محار اللؤلؤ وتنتج جزيرة العرب الجنوبية اللبان وغيره من الراتنجات المطلوبة كثيراً. وكان مركزان رئيسان عربيان يتعاملان بالسلع التي تمرّ في الخليج. فمن الجرعاء، كانت القوافل تنطلق ذاهبة إلى غزة وأسواق فلسطين. وأثْرَت الجرعاء من تجارة اللبان. ويروي سترابو قصصاً عن روعة دورها وأثاثها المرصّع بالذهب والفضة. وفي الوقت ذاته اعتادت القوافل أن تخرج من خاركس عند رأس الخليج، وتعبر البوادي قاصدة تدمر، حاملة السلع العادية واللآلىء والبضائع الكمالية المجلوبة من الهند وما وراءها. وكانت تدمر تسيطر على الوضع التجاري عملياً. وفي تدمر ذاتها، يصف نقشان بعض الأسفار إلى سكيثيا (أي الهند الشمالية الغربية ودلتا الهندوس)، ونصبت فئة من البحارة تمثالاً في الأغورا سنة ١٥٧م. ويرجّح أن التجار التدمريين أقاموا متاجر في خراسين وخوزستان، وفي جزيرة الخرج، شمالي بوشير، ويظنّ أن بعض القبور المنحوتة في الصخر تشكل مقبرة جالية تدمرية.

وترد معظم المعلومات عن نشاط الساسانيين في الخليج العربي عند بعض مؤرخي القرون الوسطى، كالطبري، والثعالبي وحمزة الاصفهاني. وهذه المعلومات

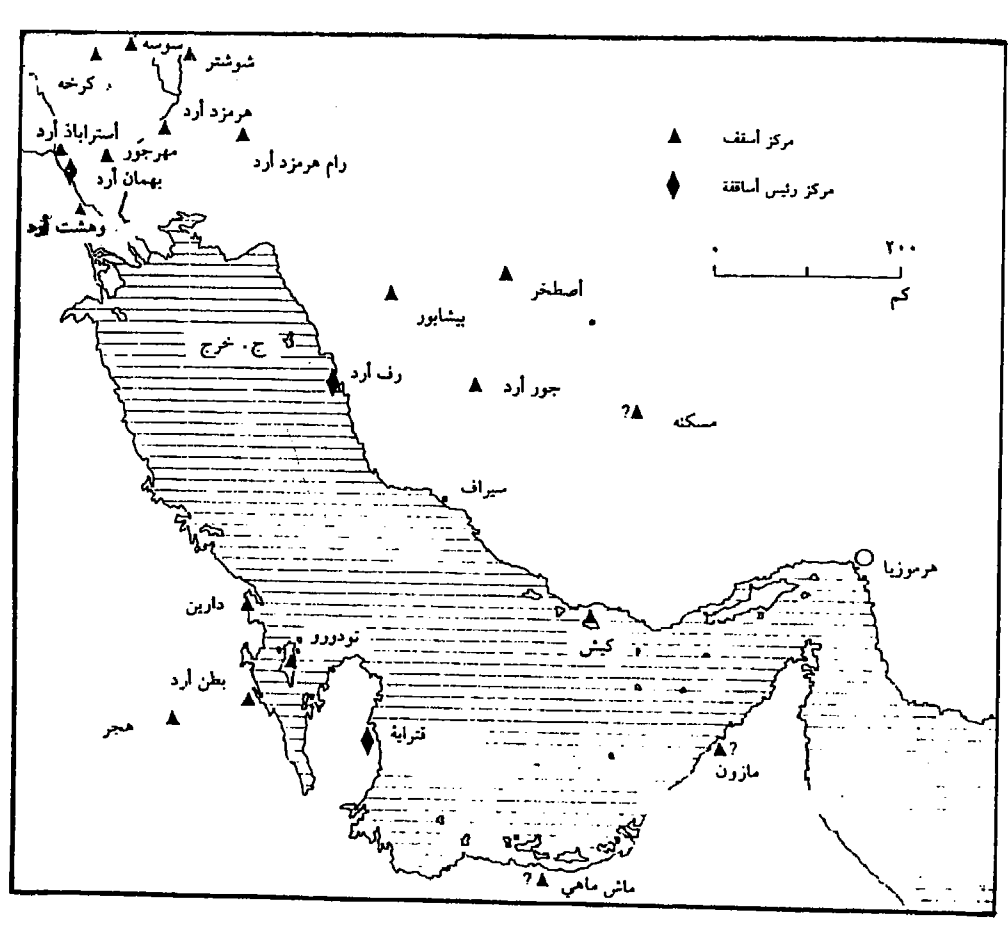
(١) ديفد هوايتهاوس وأندرو ولیامسن، تجارة الساسانيين البحرية، مجلة إيران، مجلد ١١، ١٩٧٣.

ضحلة ومتناقضة أحياناً. مع ذلك، يروي جميع هؤلاء الكتّاب أن أردشير الأول بذل جهوداً خارقة ليسيطر على الخليج. مثلاً يسمى حمزة الأصفهاني إحدى عشرة مدينة اشتهرت بأن أردشير أسسها أو أعاد بناءها، منها ما لا يقلّ عن ثمانية بنادر واقعة في الخليج أو على أنهار خوزستان وبلاد ما بين النهرين. ونذكر من المدن المقرون اسمها باسم أردشير: استرباذ أردشير (خاركس سابقاً)، وبهمان أردشير (فرات ميسان سابقاً)، ووهشت أردشير ومنها على سواحل الخليج: ريف أردشير (موقعها عند ريشهر في شبه جزيرة بوشير)، وكوجران أردشير (لعلها مقابل جزيرة قيس)، وبطن أردشير (على الساحل العربي مقابل جزيرة البحرين فيما يظن).

وقطعاً، كان عامل الأمن هاماً في تقرير سياسة أردشير التوسعية وبنائه المدن. فقد استصعب إلى أقصى حدّ السيطرة على البر الداخلي وعلى الساحل في فارس الجنوبية. فمناخ الخليج لا يسمح بالقيام بحملات عسكرية إلا في أشهر الربيع الثلاثة لفقدان العلف في الصيف، واستحالة سلوك الطرق في الشتاء أحياناً. بالفعل تعيق ندرة ممرات السلاسل الجبلية الموازية للساحل المواصلات بين الداخل والخليج في جميع الأوقات، وتعرّض الجيوش لأخطار المكامن. ثم إن القادة العسكريين على الساحل الفارسي يتحالفون عادة مع الساحل العربي، فيمكن أن يصبحوا أقوياء إلى حدّ يهدّد أمن فارس. بالتالي يقتضي أمن فارس المطلق سيطرة ساسانية تامة على الخليج. ومن هنا جاء تأسيس بطن أردشير على الساحل العربي مركز دفاع أمامي ومستودع تجارة رابحة.

وتأزّم الوضع العام مرة ثانية في عهد سابور الثاني (٣١٠ ـ ٣٧٩)، عندما دفع الجفاف والجوع عرب البحرين وهجر إلى التحرك بأعداد كبيرة وعبور الخليج وسلب سواحل فارس وخوزستان والسواد ومدينة ريف أردشير ذاتها. فجمّع سابور جيشاً في جور، ونزل على ساحل فارس، ثم خرّب الساحل العربي المقابل، وتقدّم حتى يثرب (المدينة) على بعد ١١٠٠ كم، وأمعن في تقتيل القبائل العربية وتدمير آبارها، وثقب أكتاف الأسرى العرب، وربطهم بحبال (من هنا لقبه سابور ذو الأكتاف).

لكن رغم هذه الحملة الشرسة، ازدهر الخليج في القرن الرابع الميلادي، ووصفه مرسيلينوس أميانوس، المولود في انطاكية حوالي ٣٣٠م، بقوله: «فيه (أي الخليج) العديد من المدن والقرى على جميع سواحله، وتمخر مراكب كثيرة عبابه». وقد حلّت استرباذ أردشير محل خاراكس، وقامت مدينة بطن أردشير في منطقة الجرعاء، وازدهرت التجارة.



شكل ١٦ ـ المدن المقترن اسمها باسم أردشير (مختصرة : أرد)

شكل ١٦ ـ المدن المقترن اسمها باسم أردشير (مختصرة : أرد)

هـ ـ بلاد ما بين النهرين في زمن الخلافة العباسية

اتسعت التجارة البحرية عبر الخليج في زمن العباسيين، الذين حلّوا محلّ الأمويين سنة ٧٥٠، وقرروا تأسيس عاصمة جديدة لهم خارج سورية، ففتحوا لها أسواقاً جديدة. واعتمد العباسيون على العراق، فاختار أبو العباس (٧٥٠ ـ ٧٥٤) قصر ابن الهبيرة بين بغداد والكوفة، ثم نقل بلاطه عام ٧٥٣ إلى الأنبار على الفرات. وبنى خلفه المنصور (٧٥٤ ـ ٧٥٥) عاصمة ثالثة في الهاشمية بين الكوفة والحيرة، لكنه لم يلبث أن تخلى عنها، وأشاد بغداد على ضفة دجلة الغربية في نقطة يبعد مجريا دجلة والفرات عن بعضهما أقل من أربعين كيلومتراً، ويتصلان بأقنية.

وبغداد العباسية مطمورة تحت بغداد الحديثة، فلا يُعْرَفُ عنها إلا ما ورد في وصف الجغرافيين والمؤرخين والرحالة وغيرهم. منهم المقدسي البشاري (كتب حوالى ٩٨٥م) الذي قال عن بغداد: «ثم استشار (المنصور) أهل الرأي من أهلها، فقالوا نرى أن تنزل أربع طساسيج في الجانب الشرقي بوق وكلوازي، وفي الغربي قطربل وبادوريا. فتكون بين نخل وقرب ماء. فإن أجدب طسوح أو تأخرت عمارته، كان في الآخر فرج، فانت على الصراة، تجيك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية. وتجيك آلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة. فأنت بين أنهار لا يصل إليك العدو، إلا في سفينة أو على قنطرة على دجلة وفرات...».

ومنهم أيضاً اليعقوبي، الذي قال عن بغداد في مصنفه تاريخ اليعقوبي: «وصار أبو جعفر إلى بغداد سنة ١٤٤، فقال: ما رأيت موضعاً أصلح لبناء مدينة من هذا الموضع بين دجلة والفرات وشريعة البصرة والأبلّة وفارس وما والاها، والموصل والجزيرة والشام ومصر والمغرب ومدرجة الجبل وخراسان. فاختطّ مدينته المعروفة بمدينة أبي جعفر في الجانب الغربي من دجلة، وجعل لها أربعة أبواب...».

ويسترعي الانتباه ان اكتظاظ السكان في بغداد ومستوى حياتهم العالي ونشاطهم التجاري أدّت كلها إلى تدفّق جميع أنواع السلع بكثرة على العاصمة العباسية خاصة وعلى إقليم العراق عامة وما يجاوره من البلدان في الشام وآسية الصغرى. وانعكست حركة مرور السلع الدائمة على نشاط الخليج التجاري، لا سيما في سيراف وقيس وغيرهما من بنادره.

ثانياً ـ تعامل ملوخّة أو وادي نهر الهندوس والخليج العربي

يدعى نهر السند نهر سندهو Sindhu أو الهندوس، ونهر سنتو عند الرحالة الصينيين، ويقول البيروني إن نهر الهندوس الأعلى، فوق التقائه بنهر شناب، يعرف بنهر سندهو، وباسم بنكتاد بين هذا الالتقاء وبين أرور، ثم نهر مهران من أرور إلى مصبّه في البحر(١).

وقد أعطى نهر الهندوس اسمه إلى واديه، الذي يعترف الآثاريون اليوم على نطاق واسع بأنه يسمى «ملوخّة» في المصادر الأكدية القديمة والسومرية الجديدة. فإذا صحّ هذا الاعتقاد، يحتمل عندئذٍ أن يكون عدد محدود من الناس، أصلهم من وادي نهر الهندوس قد استوطنوا في بلاد بابل في الألف الثالث المتأخر. وقد جاء اسم «ملوخّة» كاسم شخص في جرسو في نصّين أكديين قديمين وفي نص واحد سومري جديد، وفي نص أكدي قديم، مجهول المنشأ، دفع لو ـ شونزيدا، «وهو رجل من ملوخّة» (lu-me-luh-ha-ke4) لرجل اسمه أورور عشرة شيكلات من الفضة، تعويضاً له عن كسر أحد أسنانه. ويسجّل نصان أكديان من مدينة أمّة إعطاء «زيت لشرطي ومسافر (؟) في سفينة ملوخة». ويطلق على شو ـ ايليشو، «مترجم ملوخّة»، على ختمه الاسطواني الأكدي القديم. ويتلقى جوديا الأبنوس، والذهب، واللازورد، والقصدير، والعقيق الأحمر، من ملوخّة. وورد في أحد نصوص تللو، يعود تاريخه إلى سنة شولجي ٣٤، أي ٣٠٦٠ ق.م أن «قرية ملوخّة» (e-duru-me-luh-ha-ta)، وربما وجب فهم هذا التعبير على أن أهلها ملوخّيون أو أناس (تجار ؟) لهم صلة بملوخّة كانوا موجودين في أراضي لجش.

وقد لاحظت أ. بربولا أن تراكيب الرموز الهندوسية على أختام الخليج العربي، لم يثبت وجودها في وادي الهندوس ذاته في معظم الأحيان، مما يوحي بأن مفردات من النوع غير الهارابي، ربما كانت أسماء أشخاص، أُدِّيَتْ في هذه النقوش. ويحتمل أن تكون أسماء مكتوبة باللغة السومرية أو الأكدية، أو أي لغة أو لغات أخرى، محكية في البحرين في الألف الثالث المتأخر. ويحتمل أن يكون مالكو هذه الأختام ملوخّيين «متثاقفين»، شبيهين بملوخّيي أراضي لجش، ممن سموا بأسماء غير هارابية، ويقيمون في مناطق مثل أور وفيلكة والبحرين. لسوء الحظ، جاء ختم واحد فقط من أختام

(١) بيمالا شورن لو، جغرافية الهند القديمة التاريخية، ص ٢٠.

أور، من نطاق يمكن تحديد تاريخه، مع ذلك يهمنا أن نشير إلى أن هذا الختم عثر عليه في أحد القبور (PG 1847)، الذي يعود تاريخه إلى أور ٣ الباكرة. وبذا يصبح معاصراً تقريباً للدليل على وجود ملوخّيين حوالى لجش، أشير إليهم سابقاً. وتوحي الواقعة الجقيقة المتمثله باختيار هؤلاء «الملوخّيين» المحتملين أداةً لهم الختمَ الخليجي المستدير، لا الختم الاسطواني الخاص ببلاد ما بين النهرين، بأن مالكي الأختام كانت لهم علاقة معينة بمنطقة الخليج العربي[١].

واشتهر وادي الهندوس بحضارة تحمل اسمه أو اسم الحضارة الهربية، نسبة إلى هربّة التي تقع في البنجاب الغربية حيث تشاهد أطلالها العظيمة، التي تجاوزت وادي نهر السند وأشعّت منه إلى جميع الجهات المجاورة لها، ووصلت إلى بحر العرب[٢].

ولحضارة هربّة ثلاثة مراكز أمامية ساحلية هي:

١ ـ سوتكاجن دور Sutkagen-Dor في وادي نهر دشت.

٢ ـ سوتكا كه Sutka-kuh قرب بسني في وادي خور شادي.

٣ ـ بيلا كوه Bela Kuh قرب سمنياني في خليج بيلا شمالي كراتشي.

وتبعد هذه المراكز عن بحر العرب حالياً، لأن شاطىء بحر العرب الشمالي زحف نحو الجنوب خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة، حسب أحدث الدراسات الجيولوجية.

ومن واردات ملوخّة أصناف متنوعة من الخشب، خاصة خشب سيسو العالي الجودة، والنحاس الذي يختلف عن نحاس ماغان، والذهب والفضة والحجر الأحمر (= العقيق الأحمر أو ربما اللازورد) والعاج وأدواته مثل الأمشاط، والطيور الملوّنة، وأخيراً اللآلىء.

وعلاقات ملوخّة ببلاد ما بين النهرين ثابتة ما بين ٢٤٠٠ و٢٠٠٠ ق.م تقريباً. وتستخدم فيها ثلاثة نماذج من السفن الشراعية، عثر على صورها في نقوش شنهو دارو Chenhu-daro وموهنجو دارو Mohengo-daro، وتذكر بعض النصوص الأكدية رسوّها في بنادر بلاد ما بين النهرين الجنوبية[٣].

---

(١) دانيال ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، المجلد ١، ص ١٦٢ ـ ١٦٧.

(٢) بيمالا شورن لو، جغرافية الهند القديمة التاريخية، ص ٩٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر اليزبث س. ل. دورين كسبرز، التجارة الهربّية في الخليج العربي في الألف الثالث ق.م، محضر المؤتمر السادس للدراسات العربية، ١٩٧٢، ص ٣ـ٢٠.

ثالثاً ـ تعامل سواحل هضبة الدكن الغربية والخليج العربي

تضمّ سواحل هضبة الدكن الغربية، من الجنوب إلى الشمال أربع مقاطعات، هي مليبار، وتلوان، وكنكن وجوزرات، من رأس كمهري إلى رأس زجد[1].

آ ـ مليبار أو منيبـار:

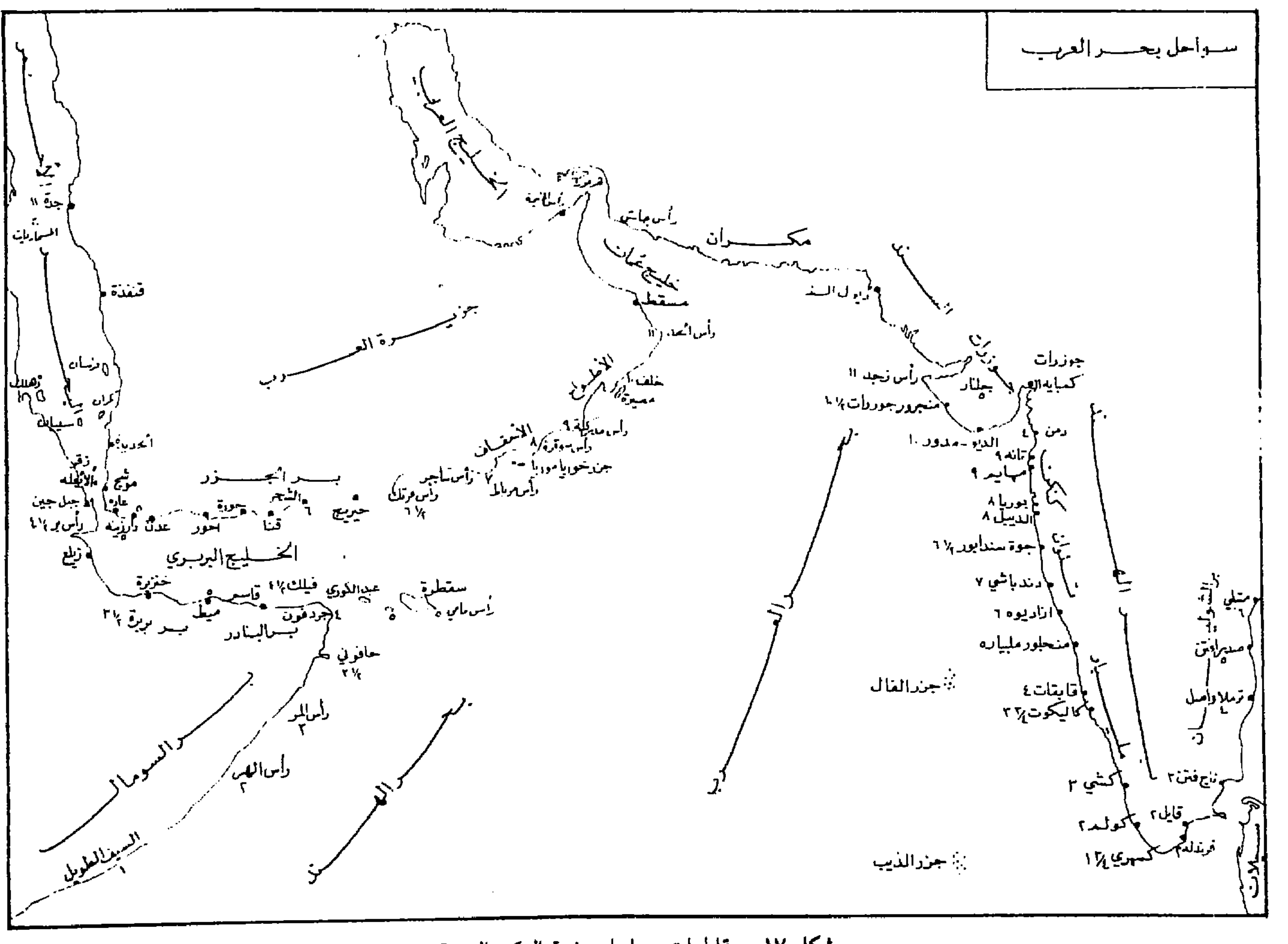
فمليبار أو منيبار بلاد ساحلية في جنوب بر الهند، كما كانت تسمى السواحل الغربية المشرفة على حوضة بحر الهند الغربية (بحر العرب أو بحر عُمان).

ويحوي هذا الساحل المنيباري بنادر ومراسي وأماكن عديدة هامة جداً بالنسبة إلى التجارة والملاحة العربيتين. وقد ذكر منها سليمان المهري: رأس كمهرى، وبلنجم، وكولم، وكاين كولم، وغبة الكات كوري، وبندر كشي، وفناني، وكلنكلور، وشاليات، وقاب قات، وقاليقوت، وبدفتن، وجزيرة كاكاديوا، ورأس هيلي، وكننور، ومنجيشرم، وقنبله (هيلي دروع)، ومنجرور، وكرملي، وارمال، وفاكنور، وجبل قرطل، وباد قله، وجزيرة أزاديوه، وانكولي، وهنور، وسيوره، وجبل فانكري.

ويستعمل معالمة العرب في المحيط الهندي صيغتي مليبار ومنيبار، إلا أن مليبار غالبة في فوائد أحمد بن ماجد، ومنيبار نادرة، وعنده مليبارات أيضاً، والعكس صحيح عند سليمان المهري: فمنيبار هي القاعدة في عمدته ومنهاجه، ومليبار قليلة جداً.

واسم مليبار القديم كيرالا، التي تمتد بين بحر عمان وجبال الغات الغربية، من مدينة منجلور إلى رأس كمهري. ولم تبدّل الأحداث السياسية هذه الحدود تبديلاً حسياً لأن تعاريج الشاطىء ونتوءات التضاريس ترسمها رسماً. وتوازي الغات الغربية الجنوبية اليمّ، وتعلو تدريجياً، لتشكّل كتلتي الجبال الزرق (نلجيري) وجبال الفيلة (انّامالّيه)، ويفصلها نهر بونّاني، ويفتح بينها ثغرة بلغات العريضة، التي تنفذ إلى أودية كرناتيك وكورومنديل. وفيما عدا هذه الأماكن، تنتصب سلسلة الجبال مثل الجدار المشرّم، الذي تخترقه بضعة ممرات تنفتح باتجاه هضبة الدكن وبلاد التامول، وتكتسي مرتفعاتها بغابات تُغْنِي الأراضي المشرفة عليها بالدبال، فتسهّل زراعة المنحدرات الوطيئة. وينحدر أكثر من أربعين نهراً من قممها، تجري متعمّقة في أوديتها القديمة التي تنتشر المرزّات على مصاطبها الضيقة. ويحدّ الساحل شريط رملي فيه أشجار نارجيل،

(١) انظر العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، مصنفات سليمان بن أحمد بن سليمان المهري، الجزء الثالث، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢، ص ٤٣٧ـ٥١٨.



شكل ١٧ - مقاطعات سواحل هضبة الدكن الغربية

يفرّضه شاطىء مضرّس في أرجائه الشمالية، ويغلق في جنوب بونّاني شبكة بحيرات شاطئية وأقنية تمتد حتى تصل إلى أدغال تلال منخفضة عند لحف السلسلة الكبرى.

ومناخ كيراله مداري تسيطر عليه الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، التي تهبّ في الأيام الأولى من شهر حزيران، وتضرب الساحل بشدة بعواصف كانت تفرض في الماضي إغلاق البنادر حتى شهر آب في الحد الأدنى. وتهطل الأمطار فيها من شهر حزيران إلى شهر كانون الأول، وتغرق مياهها أودية الأنهار الجافة وغابات الجبال.

وعلى وجه الإجمال، شكّلت غابات الهند المتشابكة، على الأرجح أكثر من الارتفاع، عقبة اعترضت الحركات الكبرى السياسية والدينية، التي حبت سائر أصقاع الهند وحدة حضارية. أما كيراله، فإن حاجز الغات دفعها إلى الاتجاه نحو المحيط والانفتاح على تأثيرات البلدان الساحلية. وأعدّها كل شيء فيها إلى هذا الانفتاح: مثل وجود خشب البناء وألياف النارجيل الضرورية لصنع السفن واتجاه المجاري المائية التي كانت تنقل محاصيل الداخل إلى البحر، ووجود ساحل تفرّضه مصبّات أنهار عميقة ومتعرّجة تقوم فيها البنادر في قسمها الشمالي، ووجود شبكة بحيرات شاطئية في قسمه الجنوبي، وبخاصة الموسميات التي كانت تدفع نحو شواطئها سفن افريقية الشرقية وجزيرة العرب وفارس. وكانت هذه الرياح ذاتها تنظّم حياة كيراله الاقتصادية والسياسية، لأنها تفرض على البنادر تناوب فترات نشاطها وأشهر عزلتها عن العالم[1].

ويشتق لفظ مليبار من كلمة مالا الدرافيدية، ومعناها التل أو الجبل. وكان البحارة العرب يطلقون اسم مالا على ساحل بر الهند الغربي في القرن السادس الميلادي. ثم أضيف إليه لفظ بر العربي، فصار مالافار ثم مالابار. وتنوّع إملاء هذا الاسم المركّب عند الكتّاب العرب في القرون اللاحقة فاستعملوا مليبار وموليبار ومنيبار ومونيبار.

والاسم الهندي المحلي هو مالايالام ومالايام ومعناه بلاد التلال. ويقولون أيضاً كيرالام ومعناه بلاد كيرا، وكيرا وكيرالا واحد. ويقال إن كيرالا اسم الساحل قبل مجيء العرب إليه.

وعرف كثير من مؤلفي العرب ورحّالتهم مليبار أو منيبار، أو بلاد الفلفل الواردة

(١) جينيفييف بوشون، المسلمون في كيرالا في زمن الاكتشاف البرتغالي في البحر البرتغالي الهندي»، مجلد ٢، ص ٣ـ٥٩.

بكثرة عندهم، مثل أبو مخرمة وبرزك بن شهريار وياقوت الحموي والدمشقي وأبو الفداء وابن بطوطة وابن خرداذبه والإدريسي والقزويني.

ومن أشهر الأجانب الذين كتبوا عن مليبار دوارته بربوسه وتومه بايرس الذي يعدّد ممالك مليبار من الشمال إلى الجنوب (١١ مملكة)، أشهرها مملكة قاليقوط ومملكة كولم.

١ ـ مملكة قاليقوط (كاليكوت)

هذه المملكة صغيرة، لكنها لديها جيش قوي. ويدعى ملكها السامري، وهو ملك عظيم وسيد مليبار. وعلى ساحل مملكته بنادر كثيرة، أشهرها قاليقوط وشاليات، ومعظمها مراسٍ صغيرة، فيها سفن وتجار.

وكاليكوت، كاليكودو، التي يعني اسمها «قلعة الديك»، وهي مقرّ السامري ومزدحمة بالسكان ونشيطة. يكثر فيها التجار الوطنيون والغرباء، كالكلنج والشتي وغيرهم، وهم مسلمون وكفرة. وقاليقوط شهيرة في جميع أنحاء آسية، وفيها مراكز بيع وشراء كبيرة لجميع الناس. ويَحُوكُ أهلها أصنافاً عديدة من الأقمشة الحريرية.

ويقول عنها ابن بطوطة: «ثمّ سافرنا منها (أي فندرينا) إلى مدينة قاليقوط، وهي أحد البنادر العظام ببلاد المليبار، ويقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل البحر وفارس، ويجتمع فيها التجار من سائر الآفاق، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا»[١].

ويقول عنها نيكيتين: (حوالي ١٤٧٥): «قاليقوط بندر لجميع الدنيا. وتنتج أراضيها الفلفل، والزنجبيل، والزنجبيل الأخضر(اردرخ)، ونباتات الأصبغة، وجوز الطيب، والقرنفل، والقرفة، والجذور العطرية».

٢ ـ مملكة كـولـم

ملك كولم أعظم ملوك مليبار لاتساع أراضيه، وكثرة سكان مملكته. وكان أحد ملوك سيلان تابعاً له يرسل له أربعين فيلاً كل سنة. وفي مملكته بندر بلنجم وبندر كولم. وكولم مرفأ عظيم تقصده سفن التجار المسلمين والمسيحيين والوثنيين من جميع الجهات لتبيع فيه وتشتري منه. وتسافر مراكبه إلى شول مندل وسيلان والجزر

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٧٥، ص ٦ ـ ٩. هويسون جوبسون، كلمة كاليكوت.

وبنجاله وملاقة وشمطرة وفيجوه، لكنهم لا يتعاملون مع كمبايه.

وكولم مرفأ كبير من مرافىء الهند الغربية في القرون الوسطى على ساحل شبه جزيرة الدكن الغربية. واختلف في اشتقاق الاسم، فرفض كالدويل اعتباره آتياً من لفظ كولم بمعنى خزان. وأكّد أن الاسم تاميلي يمكن اشتقاقه من لفظ كولو ومعناه الحضرة الملكية أو غرفة الحضرة، أو قاعة استقبال الملك. ويمكن أن يؤخذ من لفظ كولو ذاته بمعنى العلو أو الأرض المرتفعة.

ووردت كولم في المصادر العربية عند ابن خرداذبه وابن الفقيه والإدريسي وياقوت والقزويني وأبي الفداء وابن بطوطة وغيرهم.
قال عنها ابن بطوطة: «وهي من أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصوليين، لهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه، ويوسقه من داره بالسلع، وبها من التجار المسلمين جماعة»[1].

ب ـ تلـــوان:

تلوان بلاد ساحلية في غرب شبه جزيرة الدكن، تمتد من جوه سندابور إلى رنتافور أو ساجوان، وتنحصر بين مليبار وكنكن. تحوي ضمن حدودها بعض البنادر والمراسي والأماكن الهامة بالنسبة إلى الملاحة العربية، نذكر منها جوه سندابور وباندا وجزر دندباشي وسنجسر وساجوان ورنتافور.
ويقابلها من الأسماء الهندية: Tulu-nadu, Tuluva, Tulavu, Tolovu وكنارة تحريفاًعن كنّادة Kannada ومعناها البلاد السوداء، إشارة إلى تربة القطن الداكنة الغالبة فيها. ويسميها بيمالا بلاد كرناتا Karnata country[2].

ويبدو أن تلوان نادرة الذكر في المؤلفات الأجنبية، إلا عند دووارته بربوسه وتومه بايوس. ويستشهد هوبسون جوبسون بنصوص أوربية كثيرة تتعلق بكناره المرادفة مبدئياً لتلوان.

وكان في تلوان في مدينة جوه تجار من جميع الجنسيات، وكانت التجارة في بندرها نشيطة تتوفر فيه أخشاب بناء السفن وكان التجار يجلبون الخيل إلى جوه من

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٧٩.
(٢) انظر باربوسا، الجزء الأول، ص ١٨٢، ج١، وص ١٨٢ـ١٨٤. وبايرس، جزء أول، ص ٥٤ـ٦٠، ٦٤. وهوبسون جوبسون، ص ٤٥، ١٥٢ـ١٥٣، ١٦٤. وبيمالا شورن لو، جغرافية الهند القديمة التاريخية، ص ١٩٠ـ١٩١.

جميع الجهات من شبه جزيرة العرب وهرموز وفارس وكنبايه، ويرسلونها فيما بعد إلى الدكن الداخلية ونارسنغا وكانت جوه تمتلك سفناً كثيرة في البحر تقصد جميع البلدان، وتلقى معاملة حسنة لأن المسلمين نافذون فيها. وكان بحارة السفن من مدينة جوّه ذاتها. وكانت واردات تلوان كثيرة تأتي من الزراعة والتجارة والرسوم على السفن.

ولا شكّ أن أهم مدينة فيها جوّه سندابور أو جوه باختصار. التي ذكرها أحمد بن ماجد وسليمان المهري من معالمة البحر والمسعودي وبزرك بن شهريار وابن بطوطة وأبو الفداء ودوارته باربوسه من البرتغاليين.

ومما قاله ابن بطوطة بشأنها: «ولما أقلعنا من هذه المدينة (قوقه)، وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سندابور... وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور. وإذا كان الجزر، فماؤها عذب طيب. وإذا كان المدّ، فهو ملح أجاج. وفي وسطها مدينتان، إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية من بناء المسلمين عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول. وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد، عمّره الناخوذه حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري..»[(١)].

ويتفق جوهر وصف بربوسا لجوّه مع وصف ابن بطوطة لها. وقد جاء فيه: «وبعد ذلك يصبّ على الساحل نهر جميل جداً، يرسل فرعين إلى البحر، تقوم بينهما مدينة غوا. وكانت تؤلف سلطنة تشملها مع ما حولها من أراضٍ وبعض أراضي الداخل... وسكانها مسلمون كرام، كثير منهم غرباء، جاؤوا إليها من بلدان عديدة. وهم بيض البشرة، بعضهم زرّاع، وبعضهم تجّار أثرياء جداً. وبندرها جيد، وتجارتها واسعة، وتأتي إليها السفن من جدة وعدن وهرموز وكنباية... والمدينة كبيرة جداً، ومساكنها جميلة. وهي محاطة بأسوار ضخمة لها بروج. وحواليها بساتين خضار، وبساتين أشجار مثمرة، وبها أحواض ماء عذب. وبها جوامع ومعابد (بدود) هندية والأراضي القريبة منها خصبة. لذلك يحصل صاحبها على واردات وافرة من البر والبحر...».

ونشير أخيراً إلى أن سندابور وجوّة اسم لمسمى واحد أي لمدينة واحدة.

جـ - كـنـكـن

اسم كنكن بالسانسكريتية كنكانة Konkana وبالتاميلية Konkanem وبالهندية كنكن

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٥٦٤.

وكوكن Konkan, Kokan وتذكر في بعض مصنفات القرون الوسطى بصيغة كنكن تانا باعتبار تانا بندراً فيها(١).

وهي شريط ساحلي يمتد من رأس مريا إلى سندان، بين تلوان وجوزرات. وتشمل ضمن هذه الحدود مدناً وبنادر وأماكن أخرى هامة بالنسبة إلى الاقتصاد والملاحة البحرية، منها رأس مريا، وخورمهار، ودابول، ورأس بوريا، وانزلنا، ودندراس فور، وشيول، وجزيرة قنديل، ومهايم، وهجاسي، ودهنوه، وسندان.

وقد وردت كنكن في كثير من المصادر العربية بصيغة كمكم، كما عند ابن خرداذبه، واليعقوبي وابن رسته والمسعودي والإدريسي. وإملاءات المصادر الأجنبية أو تصحيفاتها محيّرة، لا سيما عند بربوسا، وبايرس، على نقيض باروس الذي يضبط اسمها وموقعها بدقة.

د ـ جــوزرات

جوزرات Guzarat, Guzerat مملكة إسلامية أسسها مظفر شاه سنة ١٣٩٦ في شمالي غربي الهند، وقضى عليها أكبر سنة ١٥٧٢، أي بعد أقل من مرور قرنين على تأسيسها، وألحقها بامبراطوريته، وعيّن لها نائباً عنه يحكمها باسمه.

ولها تاريخ عريق، وإن كانت مساحتها تقلّصت أو اتسعت حسب بأس سلاطينها والظروف السياسية الطارئة عليها. لكنها بلغت أوج ازدهارها في فترة الحكم الإسلامي.

ويشتق اسمها من اللغة السانسكريتية، وأصله Gurjarafashta ويعني مملكة الغرجار. والغرجار قبائل، يظنّ أنها تنتسب إلى الهون البيض، أقامت مملكة واسعة دامت من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلاديين. وكانت عاصمتها في البدء بهلمان Bhilman التي تقع في الصحراء إلى شمال جوزرات الحالية. ولم يحتفظ باسم جوزرات فيما بعد سوى القسم الجنوبي من تلك المملكة الشاسعة، بما في ذلك المنطقة المحيطة بخليج كمباية.

وكانت جوزرات قبل تأسيسها مباشرة جزءاً من سلطنة دهلي، حاكمها المحلي مظفر خان، الذي تمرّد، وأعلن انفصاله وأسس مملكة جوزرات، ولقّب نفسه بمظفر

(١) هوبسون جوبسون، ص ٢٤٤.

شاه، بعدما استولى تيمور على سلطنة دهلي سنة ١٣٩٦م.

وتمتد جوزرات العهد الإسلامي شمالاً إلى ما وراء مدينة أحمد اباد، وشرقاً إلى ما بعد مدينة بارودة، وتشمل في الغرب شبه جزيرة كاثياوار بأجمعها. وتبدأ سواحلها من بندر دمن شرقاً وتنتهي عند زجد غرباً، وتضم عدداً كبيراً من البنادر والأماكن البحرية، موزعة على جميع شواطئها، منها خور دنبسي، وخور القاري، ودمن، ورأس مدور، وسرت، ورأس دنت، وجزيرة فيرم، وشوروار، وبروج، وقوقة (جوجة)، وبهادري، وجندهار، وماسيه، وفورميان، وكنباية، ورأس زجد، ودلواره، والشبرة، وكولينات، وسومنات.

ويسمي الدمشقي جوزرات الجزرات، وكذلك أبو الفداء.

وشاهد باربوسا مملكة جوزرات، وقال عنها إنها كبيرة جداً، وإن فيها مدناً كثيرة على الساحل وفي الداخل. وإن لها مرافىء عديدة وتجارتها البحرية نشيطة. وإن في بنادرها تجاراً كباراً مسلمين ووثنيين يبيعون ويشترون شتى السلع. وذكر من وثنييها الراجبوت والبانيان والبراهمان.

ويتحدث بايرس عن مملكة كمباية، ويعني بها جوزرات، ويؤكد على اتساعها وطول سواحلها وعلى غناها بالحبوب والخضار والفواكه، وبالخيل والفيلة، وعلى ازدحام السكان في مدنها الجميلة وقراها، ويشير إلى فرسانها ومدفعيتها وعددها الحربية.

وينتشر التجار الجوزراتيون في جميع بنادر المحيط الهندي، ويتعاونون مع أقرانهم في الوطن الأم. ويسهل وجود التجار الأجانب المستقرين في جوزرات التبادل التجاري مع أوطانهم الأصلية. وتتاجر جوزرات مع عدن وهرموز وجوة ومليبار وملاقة وجاوة[١].

رابعاً ـ تعامل الصين والخليج العربي

تعامل العرب والصين قديم، يظنّ أنه أقدم مما جاء بشأنه في الوثائق المعروفة حالياً، العربية والصينية.

---

(١) انظر العلوم البحرية عند العرب في مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق إبراهيم خوري، القسم الأول، مصنفات سليمان المهري، الجزء الثالث، ص ٤٩٩ ـ ٥١٨.

فحمزة بن الحسن الأصفهاني (٢٨٠هـ/ ٩٨٣م ـ ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، والمسعودي ذكرا أن الفرات كان صالحاً للملاحة حتى الحيرة، الواقعة جنوبي غربي بابل القديمة، قرب الكوفة. وكانت سفن الهند والصين تشاهد راسية أمام دورها. وتنطلق منها إلى الأبلّة، ومن الأبلّة إلى البصرة، ومن البصرة إلى سيراف، ومن سيراف إلى قيس (كيش)، فهرمز. ويشك بعض الباحثين في صحة هذا الخبر.

ويعدّ كتاب أخبار الصين والهند، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي[١] من أهم المصادر العربية عن علاقة العرب بالصين. فقد أطلع عليه كبار الجغرافيين الكلاسيكيين في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين. ونقلوا عنه حرفياً أو بتصرف، منهم ابن خرداذبه مؤلف كتاب المسالك والممالك، وابن الفقيه الذي ألّف حوالي ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م، موسوعة كتاب البلدان، وابن رسته المتوفى حوالي ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م المشهور بموسوعته المسماة الأعلاق النفيسة، والمسعودي المتوفى سنة ٣٥٥هـ أو ٣٥٦هـ/ ٩٥٦ أو ٩٥٧م.

ووصف كتاب أخبار الصين والهند العلاقات التجارية البحرية بين الصين والعرب على الوجه التالي[٢]:

١ ـ العلاقات التجارية البحرية بين العرب والصين

(١) ـ مرفأ خانفو في الصين مجتمع تجارات العرب وأهل الصين

فيقلّ المتاع. ومن أسباب قلة المتاع، حريق ربما وقع بخانفو، وهو مرفأ السفن، ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين، فيأتي الحريق على المتاع. وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مشقق. ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة أو الواردة، أو أن ينهبوا، أو أن يضطروا إلى المقام الطويل، فيبيعون في غير بلاد العرب.

وربما رمت الريح إلى اليمن أو غيرها، فيبيعون المتاع هناك. وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل.

---

(١) انظر أخبار الصين والهند، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي، تحقيق ابراهيم خوري.

(٢) المرجع ذاته، ص ١٤ ـ ٢٠.

وذكر سليمان التاجر أن بخانفو، وهو مجتمع التجار، رجلاً مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين. وخطب، ودعا لسلطان المسلمين. وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً في أحكامه، وعمله بالحق، وربما في كتاب الله، عزّ وجلّ، وأحكام الإسلام.

(٢) ـ سيراف في الخليج العربي مركز تجميع السلع العربية وشحنها إلى الصين بالسفن الصينية

فأما المواضع التي يرتادونها، ويرقون إليها، فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمّل من سيراف، وأن المتاع يحمل من البصرة وعُمان وغيرها إلى سيراف، فيعبأ في السفن الصينية بسيراف. وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه[١].

٢ ـ وصف الطريق البحرية من سيراف إلى خانفو

(١) ـ السفر من سيراف إلى مسقط

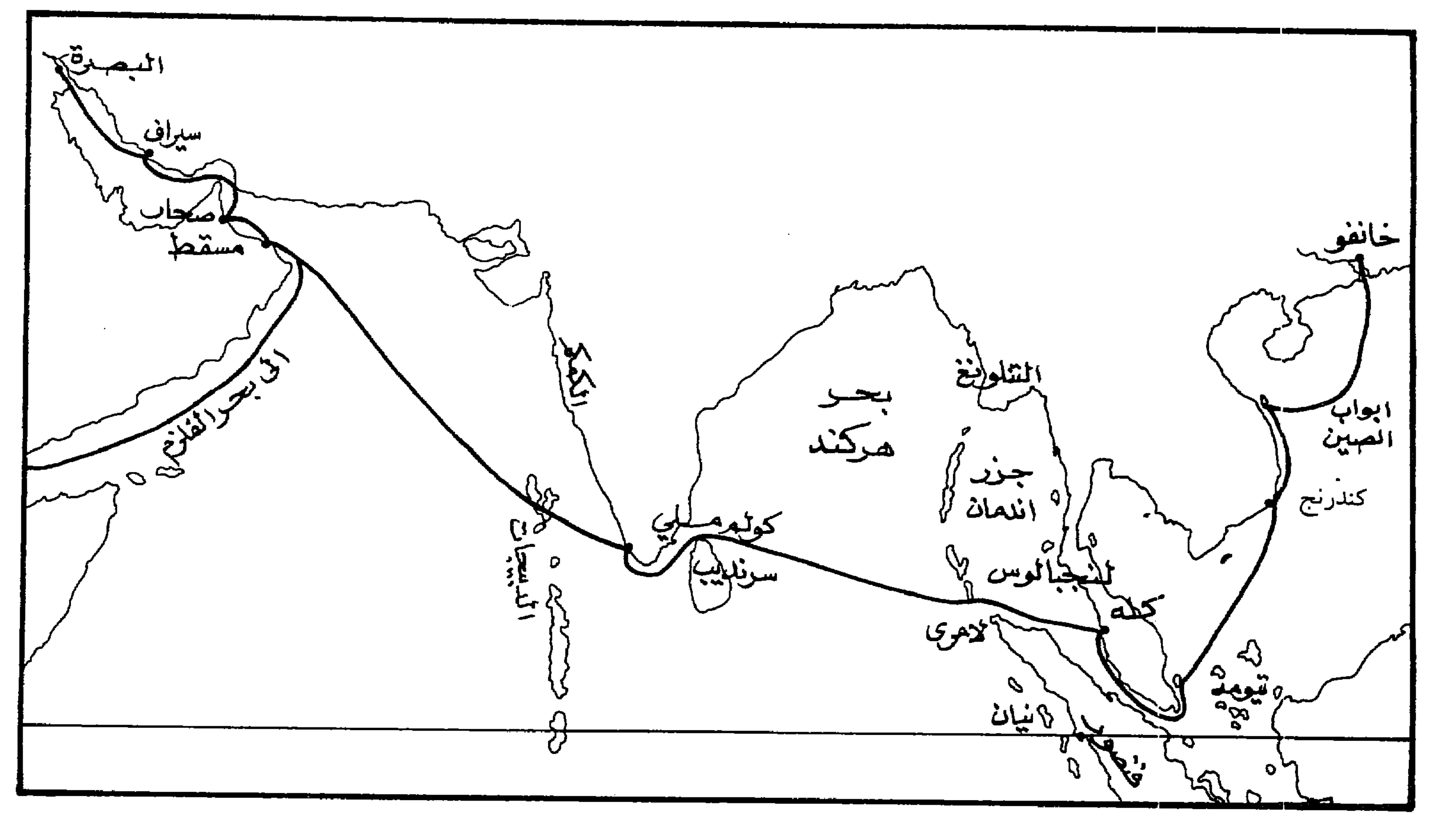
والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء، مائة وعشرون فرسخاً. فإذا عبّيء المتاع بسيراف، استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها أهل البحر، يعني يقلعون ـ إلى موضع يقال له مسقط، وهو آخر عُمان. والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ. وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد، سيف بني الصفّاق، وجزيرة ابن كاوان. وفي غربي هذا البحر جبال عُمان. وفيه الموضع الذي يسمى الدردور، وهو مضيق بين جبلين، تسلكه السفن الصغار، ولا تسلكه السفن الصينية. وفيه الجبلان اللذان يقال لهما كسير وعوير، وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير. فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عُمان، فنستعذب الماء من مسقط من بئر بها. وهناك فيه رعاة غنم من بلاد عُمان.

(٢) ـ سفر المراكب من مسقط إلى كولم ملي

فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند، فتقصد كولم ملي. والمسافة من مسقط إلى كولم ملي شهر على اعتدال الريح. وفي كولم ملي مسلحة لبلاد كولم ملي، تجبي السفن الصينية وبها ماء عذب من آبار. فيؤخذ من الصينية ألف درهم ومن غيرها من

---

(١) المرجع ذاته، ص ٣٤ ـ ٣٨.



شكل ١٨ ـ الطريق البحرية من سيراف إلى خانفو

السفن ما بين عشرة دنانير إلى دينار. وبين مسقط وبين كولم ملي وبين هركند نحو من شهر. وبكولم ملي يستعذبون الماء.

(٣) ـ سفر المراكب من كولم ملي إلى لنجبالوس

ثم تخطف المراكب ـ أي تقلع ـ إلى بحر هركند. فإذا جاوزوه، صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس، لا يفهمون لغة العرب، ولا ما يعرفه التجار من اللغات. وهم قوم لا يلبسون الثياب بيض كواشح. وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء. وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل، وقصب السكر، والموز، وشراب النارجيل، وهو شراب أبيض، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل، فهو حلو مثل العسل. فإذا ترك ساعة صار شراباً. وإن بقي أياماً صار خلاً. فيبيعون ذلك بالحديد. وربما وقع إليهم العنبر اليسير، فيبيعونه بقطع الحديد. إنما يتبايعون بالإشارة، يداً بيد، إذ كانوا لا يفهمون اللغة، وهم حذّاق بالسباحة، فربما استلبوا من التجار الحديد، ولا يعطونهم شيئاً.

(٤) ـ سفر المراكب من لنجبالوس إلى كلاه بارفي مملكة الزابج، فتيومه، وكندرنج

ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كلاه بار. المملكة والساحل كل يقال له بار. وهي مملكة الزابج. متيامنه عن بلاد الهند. يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط. يلبس السريّ والدنيّ منهم الفوطة الواحدة. ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة. وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر. ومسافة ما بين كولم، وهي قريبة من هركند إلى كلاه بار شهر. ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له تيومه. وبها ماء عذب لمن أراده. والمسافة إليها عشرة أيام. ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كندرنج عشرة أيام. وفيها ماء عذب لمن أراده، وكذلك جزائر الهند، إذا احتفرت فيها الآبار، وجد فيها الماء العذب. وبها جبل مشرف، ربما كان فيه الهرّاب من العبيد واللصوص.

(٥) ـ سفر المراكب من كندرنج إلى صنف فولاو، فصنخي فابواب الصين، فخانفو

ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صنف، مسيرة عشرة أيام. وبها ماء عذب. ومنه يؤتى بالعود الصنفي. وبها ملك. وهم قوم سمر، يلبس كل واحد منهم فوطتين. فإذا استعذبوا منها، خطفوا إلى مكان يقال له صنف فولاو. وهي جزيرة في البحر. والمسافة إليها عشرة أيام. وفيها ماء عذب. ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صنخي، ثم إلى أبواب الصين، وهي جبال في البحر، بين كل جبلين فرجة تمرّ فيها المراكب. فإذا سلّم الله من صنف فولاو، خطفت المراكب إلى الصين في شهر. إلا أن

الجبال التي تمرّ بها المراكب مسيرة سبعة أيام. فإذا جازت السفينة الأبواب، ودخلت الخور، صارت إلى ماء عذب إلى الموضع الذي ترسي إليه من بلاد الصين. وهو يسمى خانفو: مدينة. وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية ومسالح وأسواق من كل ناحية. ومما جاء في أخبار الصين والهند وصف ثورة يانشو ونتائجها الاقتصادية على العلاقات العربية الصينية، فقد نصّ على ما يلي[1]:

٣ ـ سيطرة ثورة سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م في الصين وتبدل أحوالها

وقد تغيّر بعد هذا التاريخ أمر الصين خاصة، وحدثت فيها حوادث انقطع لها الجهاز إليهم، وخرب البلد، وزالت رسومه، وتفرّق أمره. وأنا أشرح ما وقفت عليه من السبب في ذلك إن شاء الله.

السبب في تغيّر أمر الصين، ما كان عليه من الأحكام والعدل وانقطاع الجهاز إليه من سيراف، أن نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك، يعرف بيانشو. وكان مبتدأ أمره الشطارة والفتوة وحمل السلاح والعبث واجتماع السفهاء إليه، حتى اشتدت شوكته، وكثر عدده، واستحكم طمعه.

فقصد خانفو بين مدن الصين، وهي المدينة التي يقصدها تجار العرب، وبينها وبين البحر مسيرة أيام يسيرة. وهي على واد عظيم، وماء عذب. فامتنع أهلها عليه، فحاصرهم مدة طويلة، وذلك في سنة ٢٦٤، إلى أن ظفر بها. فوضع السيف في أهلها. فذكر أهل الخبرة بأمورهم أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس، سوى من قتل من أهل الصين، مائة وعشرين ألف رجل، كانوا تبوّؤوا بهذه المدينة فصاروا بها تجاراً. وإنما عرف مقدار عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم. وقطع ما كان فيه من شجر التوت وساير الأشجار. وذكرنا شجر التوت خصوصاً لإعداد أهل الصين ورقه لدود القزّ حتى يلف الدود فصار سبباً لانقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب. ثم قصد بعد تخريب خانفو إلى بلد، بلد، فأخربه. وعجز ملك الصين عنه إلى أن قارب مدينة الملك، وتعرف بخمدان. فهرب الملك منه إلى مدينة بمذو، المتاخمة لبلاد التبّت، فأقام بها. ودامت أيام هذا النابغ، وعظم شأنه. وكان قصده وكده خراب المدن وقتل أهلها إذا لم يكن من بيت ملك ومن يطمع في

(١) المرجع ذاته، ص ٦٠ ـ ٦٣.

اتساق الأمر له. فبلغ من ذلك مبلغاً فسد به أمر الصين إلى وقتنا هذا.

٤ ـ قضاء ملك التغزغز على ثورة يانشو والتعدي على نواخذه العرب وأرباب المراكب والتجار

ولم تزل تلك حال هذا النابغ إلى أن كتب ملك الصين إلى ملك التغزغز من بلاد الترك، وبينهم مجاورة ومصاهرة. ووجه إليه رسلاً يسأله كشف هذا الرجل عنه. فانفذ ملك التغزغر ابناً له إلى هذا النابغ في عدد كثير وجموع وافرة، فأزاله بعد حروب متصلة، ووقايع عظيمة، فزعم قوم انه قتل، وزعم آخرون انه مات. وعاد ملك الصين إلى بلده المعروف بخمدان. وقد أخربه عليه، وعلى سبيل ضعف في نفسه، ونقص في أمواله، وهلاك قواده وصناديد رجاله وكفاته. وغلب مع ذلك على كل ناحية متغلّب منع من أموالها وتمسك بها في يده منها. فدعت ملك الصين الضرورة، لقصور يده إلى قبول العفو منهم بإظهار الطاعة والدعاء له، دون السمع والطاعة في الأموال، وما كان من الأموال ينفذ إليه، فصارت بلاد الصين على سبيل ما جرت عليه أحوال الأكاسرة عند قتل الاسكندر لدارا الكبير، وقسمته أرض فارس على ملوك الطوائف. وصار بعضهم يعضد بعضاً للمغالبة بغير إذن الملك ولا أمره، فإذا أناخ القوى منهم على الضعيف، تغلّب على بلاده واجتاح ما فيه، وأكل ناسه كلهم. وذلك مباح لهم في شريعتهم، لأنهم يتبايعون لحوم الناس في أسواقهم. وامتدّت أيديهم مع ذلك إلى ظلم من قصدهم من التجار. ولما حدث هذا فيهم، التأم إليه ظهور الظلم والتعدي في نواخذة العرب وأرباب المراكب. فالزموا التجار ما لا يجب عليهم، وغلبوهم على أحوالهم، واستجازوا ما لم يَجْرِ الرسم به قديماً في شيء من أفعالهم. فنزع الله، جلّ ذكره، البركات منهم جميعاً، ومنع البحر جانبه، ووقع الفنا بالمقدار الجاري من المدبّر، تبارك اسمه، في الربابنة والأدلاء بسيراف وعُمان.

نستنتج من الوثائق العربية أن تعامل العرب عامة والخليجيين خاصة كان نشيطاً قبل عهد سلالة تنغ (٤ق هـ/٦١٨م ـ ٢٩٥هـ/٩٠٧م) وقبل عهود ما سمّي بالسلالات الخمس التي تلتها (٢٩٥هـ/٩٠٧م ـ ٣٤٩هـ/٩٦٠م) إلا أن ثورة يانشو (٢٦٤هـ/٨٧٨م) والفوضى التي أعقبتها قضتا على ذلك النشاط. ولم تستأنف العلاقات التجارية والسفارات إلا في زمن سلالتي سنغ الشمالية (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م ـ ٥٣١هـ/١١٢٧م) والجنوبية (٥٢١هـ/١١٢٧م ـ ٦٧٨هـ/١٢٧٩م) وسلالة يوان (٦٧٨هـ/١٢٧٩م ـ ٨٧٣هـ/١٣٦٨م). وازدهرت في عهد سلالة منغ (٨٧٣هـ/١٣٦٨م ـ ١٥٤هـ/١٦٤٤م).

ب ـ الوثـائق الصينيـة

وقد درس المؤرخون اليابانيون والاوربيون التعامل التجاري العربي والخليجي مع الصين اعتماداً على الوثائق الصينية، نذكر منهم هنري يول وهنري كورديه، وج.ف.ج ميلز وياجيما هيكواشي، الذي يؤكد في بحث طريف أن بعض الباحثين جزموا ان انحطاط السيادة العباسية وقيام الفاطميين في مصر في أواخر القرن العاشر، تسببا في تحوّل مركز الأنشطة البحرية المسلمة في المحيط الهندي من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. إلا أنه هو لا يجيز إهمال أهمية استمرار التجارة والمواصلات بين الخليج العربي وافريقية الشرقية والهند حتى بعد حدوث بعض التغييرات على الأوضاع السياسية والاقتصادية في أراضي الخلافة الشرقية، ويقدم وجهة نظره ويدعمها بحجج استقاها من الوثائق الصينية. قال[1]:

١ ـ ازدياد المعارف الجغرافية الصينية عن البلدان الخليجية بدءاً من القرن ١١ م

في القرنين ١١ و١٢ الميلاديين (٥ ـ ٦ هجريين) ازدادت فجأة المعارف الجغرافية الصينية عن البلدان الخليجية. فأطلع الشعب الصيني لأول مرة على أسماء أماكن مثل القطيف ومرباط، (ظفار)، وعُمان، والبحرين، والبصرة، وقيس، وهرمز، من خلال التبادل التجاري وتبادل السفارات بين الخليج العربي وبين الصين الجنوبية. ويثبت هذ الحدث ببساطة أن بعض بنادر ساحل الخليج العربي ظلت تؤدي أدواراً هائلة كمراكز أنشطة بحرية في عالم المحيط الهندي حتى بعد القرن الحادي عشر (الخامس الهجري).

وسوف أناقش الآن بعض العلاقات بين البلدان الخليجية وبين الصين في القرنين ١١ و ١٢ (٥ ـ ٦ هـ)، كما جاءت في المصادر التاريخية الصينية. فبعد تزايد المعارف الجغرافية الصينية عن البلدان الخليجية. كثر العصيان والاضطراب العسكري في الأعوام الأخيرة من حكم سلالة تنغ الصينية (٦١٨ ـ ٩٠٧)، وفي فترة الحكم القصير للسلالات الخمس التالية (٩٠٧ ـ ٩٦٠)، فتعذّر على التجار الغرباء، خاصة المسلمين منهم، مواصلة أنشطتهم التجارية في بنادر الصين الجنوبية.

---

(١) ياجيما هيكواشي، أنشطة الخليجيين البحرية، وعالم المحيط الهندي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، مجلة الدراسات الآسيوية والافريقية، المجلد ١٤، السنة ١٩٧٧، ص ١٩٥ ـ ٢٠٨.

ثم استعادت سلالة سنغ (٩٦٠ ـ ١١٢٧، ١١٢٧ ـ ١٢٧٩م) السلطة ووطّدتها على وجه أكمل في الصين الجنوبية. لكنها لم تسيطر سيطرة قوية على الصين الشمالية ولا على طريق آسية الوسطى، فاضطرت منذ البداية أن توجّه أنشطتها التجارية نحو آسية الجنوبية ونحو عالم المحيط الهندي. بالتالي، تزايدت التجارة والمواصلات تزايداً هائلاً في زمن هذه السلالة. وفاقت واردات التجارة والجمارك لأول مرة في تاريخ الصين واردات الزراعة. ورُوِيَ أن مكاتب تفتيش التجارة البحرية تأسست عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م في خانفو (كانتون)، ومين هو، وكاو شو، غايتها تطوير التجارة الخارجية وتبادل السلع، وحلّ جميع قضايا التجار الغرباء وقضايا جالياتهم في الصين.

وفي الوقت ذاته، استخدم البحارة والتجار الصينيون جنوكهم الضخمة، وطبّقوا تقنيّاتهم الملاحية المتطورة حديثاً، فوسّعوا تجارتهم في أرجاء آسية الجنوبية الشرقية. وفي عهد سلالة سنغ، كانت الجنوك الصينية تزور بانتظام بعض البنادر في فيتنام، وجاوة، وشمطرة، وبالتالي تزايدت مستوطناتهم ومهاجروهم في بلدان آسية الجنوبية.

واقترح بعض الباحثين الثقات أن السفن الصينية والبحارة الصينيين وصلوا قبل القرن التاسع إلى الحيرة، والأبلّة وسيراف، والجار (ميناء المدينة)، لأن التعبير العربي «سفن صينية» و«مركب صيني» ورد في بعض المصادر الجغرافية العربية الباكرة. لكن يصعب قبول هذا الرأي: فتعبير «سفن صينية» أو «مركب صيني» يشيران ببساطة إلى سفن تجارية عربية تذهب إلى آسية الشرقية وإلى الصين.

٢ ـ معلومات شو ـ كو ـ فيي و شو ـ جو ـ كوا

ولا ينكر أحد أن الجنوك الصينية بقيت حتى منتصف القرن الثالث عشر (السابع الهجري)، ترتاد بعض بنادر الهند الجنوبية، مثل كولم، وبعد ذلك، في القرن الثالث عشر (السابع الهجري)، تتردّد على قاليقوط وجرفتّن، وهيلي. فقد كتب شو ـ كو ـ فيي سنة ١١٧٨م (آخر عهد سلالة سنغ الجنوبية)، العديد من التقارير الهامة عن البلدان الأجنبية في «البحر الجنوبي»: نان ـ هاي. ويقول عن كولم:

«تجاور كولم البلدان العربية (تازي) أو (تاسي). وتقطع الجنوك الصينية (جنوك كانتون) المسافة بين كانتون ولامري (في شمطرة) بعشرين يوماً، وتمضي فصل الشتاء في لامري. وفي السنة التالية، تُوْصِلُها رحلة أبعد تدوم حوالي شهر إلى هذا البلد (كولم)... وتعيش أعداد كبيرة من المستوطنين العرب معاً في ذلك البلد... وينقل العرب خيولاً ليتاجروا بها في هذا البلد... ويعبد ملك ذلك البلد السماء، ومن يقتل

ثوراً فيه، يخسر حياته». وينبغي على تجار الجنوك الصينية الذين يرغبون بالسفر إلى البلدان العربية، أن يستقلّوا في كولم مراكب صغيرة (سفن مسلمة) قبل الذهاب إلى أبعد من كولم. ويستطيعون الوصول إليها بملاحة شهر بالإفادة من الموسميات الجنوبية. لكن ينقضي عامان قبل أن يتمكنوا من العودة إلى كانتون.

ونعلم من هذا التقرير أن الجنوك الصينية في عهد سلالة سنغ الجنوبية، كانت تذهب إلى ساحل مليبار في الهند، وأنهم كان لهم اتصالات تجارية بالملاحين والتجار المسلمين القادمين من البلدان العربية. ويبدو طبيعياً تماماً أن يقوم عدد هائل من التجار والمبعوثين المسلمين بزيارة بنادر الصين الجنوبية في الجنوك الصينية وفي مراكبهم العربية أيضاً. ولا بدّ من الإشارة إلى أن معظم التجار والمبعوثين المسلمين المرتبطين بصلات وثيقة بسلالة سنغ في القرنين ١١ ـ ١٢/ ٥ ـ ٦هـ كانوا يأتون من البلدان الخليجية مثلما جاء في مصنفين جغرافيين شهيرين، كتبا في عهد سلالة سنغ، هما: (١) شو ـ كو ـ فيي، Ling-wai-tai-ta (٢) شو ـ جو ـ كوا، Chu-fan-shi، وفي بعض حوليات سنغ الامبراطورية.

وقد جمع شو ـ كو ـ فيي المعلومات الدقيقة الأولى عن مكة وبغداد وغزنة. أما شو ـ جو ـ كوا، مفتش التجارة الخارجية في فو ـ كيين، فيذكر ما كان يعرفه الصينيون في القرنين ١١ و١٢/ ٥ ـ ٦ هـ، عن البلدان الأجنبية في آسية الشرقية والجنوبية، وافريقية الشرقية، وحتى عن البلدان العربية، وعن شعوبها ومنتجاتها. ونستطيع أن نستنتج من أوصافه أنه حصل على معلومات متنوعة عن البلدان العربية من البحارة والتجار المسلمين الذين كانوا يزورون كانتون وبنادر أخرى في الصين الجنوبية. ويرد في مصنّفه الجغرافي البلدان والمدن العربية الآتية: مرباط، الشحر، ظفار، المهرة، مكران، قلهات، عُمان، البحرين، العراق، بغداد، البصرة، قيس، الموصل، أصبهان، الخوارزم، مكة، بربره (الصومال)، زنجبار، قنبالو، مصر، بجاية (قرب الجزائر)، صقلية، الاسكندرية، المغرب الأقصى، الأندلس.

يتضح من هذه الأسماء الجغرافية أن ما جاء عند شو ـ كو ـ فيي و شو ـ جو ـ كوا، من معلومات عن البلدان العربية، تتعلق بالدرجة الأولى ببلدان الخليج وما يجاورها. ويرد النزر القليل عن عدن وعن بنادر المرور إلى مصر وعالم البحر المتوسط، الواقعة على سواحل البحر الأحمر.

وإذا دقّقنا أسماء التجار والمبعوثين والرحالة، الذين أتوا من البلدان العربية،

حسب أوصاف حوليات سلالة سنغ، زاد تفهّمنا لاستمرار العلاقات التجارية والدبلوماسية المتكررة، التي قامت بين بلدان الخليج وبين سلالة سنغ.

٣ ـ معلومات الحوليات الصينية

ويرد في حولية سنغ، المسماة سنغ شيح (تاريخ سنغ) وصف عام للبلدان العربية (تازي) على الوجه التالي:

«تقسّم البلدان العربية حسب القبائل، وتحمل اسماً خاصاً بها. وبذا يبين أن بعضهم من ماجون (مازون)، ودا ـ باسري أو (دا ـ باسري ـ جي = تبريز) و بي ـ رو ـ ما ـ شي (القطيف)، وما ـ را ـ بتسو (مرباط) الخ.. لكنها تعرف كلها بتعبير تازي (البلدان العربية). وتشمل أصناف الضريبة التي ترسلها مازون إلى الصين العنبر، وقطن كرا؟».

وواضح أن «مازون» هي صحار في عُمان، لأن بعض الكتّاب العرب، منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (مثلاً ابن الفقيه والمسعودي والمقدسي والمبرّد والبكري وياقوت) قالوا إن «مازون» هو الاسم القديم لمنطقة عُمان التي سيطر عليها الساسانيون، وإن مركزها كان معروفاً لدى العرب باسم صحار. وقد عرف الصينيون ان اسم مازون يطلق على صحار منهذ نهاية القرن الثامن / الثاني الهجري. وهذا الاسم مستعمل في كتاب مسالك هام يشرح الطريق البحرية من كانتون إلى الخليج العربي، صنّفه كياتان بين عام ٧٨٥ و ٨٠٥م (عهد سلالة سنغ). وجاء في هذا المصنّف أن طريقاً تذهب من كولم ملي مباشرة إلى عدن (سمران) عبر المحيط الهندي، ثم تجاري ساحل جزيرة العرب الجنوبية، فتمرّ في بعض البنادر مثل الشحر ومسقط ومازون، ثم تدور حول رأس مسندم، وتدخل الخليج العربي.

وتذكر حوليات سلالة سنغ الشمالية أن مدينة «مازون» أرسلت سفارات إلى سلالة سنغ مرتين في عامي ٤٠٢هـ/ ١٠١١م و ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م.

«ففي العام الرابع من داي ـ تسو ـ سيو ـ فو (١٠١١م) في السابع عشر من شهر شباط، زار ناخذاه اسمه هو ـ كا ـ شين (أبو القاسم)، أصله من مدينة مازون جيو ـ زاي (كنساي = عاصمة سلالة سنغ)، وأدّى الأتاوة».

«وفي العام الخامس من كي ـ ني (١٠٧٢م)، في عهد امبراطور سلالة سنغ، شين ـ سو (١٠٦٨ ـ ١٠٧٧م)، أرسلت مدينة مازون الواقعة في بلاد العرب سفارة

هاشن ـ دا ـ را (هاشم عبد الله) إلى الصين، الذي قدّم لآلىء وكركدنات، وكافوراً، ولباناً، ومرجاناً، وزجاجاً، وعنبراً، وزجاجاً مزخرفاً، وماء ورد، وتموراً، وخمسة أشياء تَذَوُّق؟، وزيتاً افريقياً وطاووساً أبيض، ونخيل تمر، وثياب أي ـ تسودا. . وعاد إلى بلاده. وأعطي بنوع خاص حصاناً أبيض ومجموعة سرج وأكياساً».

أما بلد القطيف، فيرد بشأنها تقرير، كتب في سجل سلالة سنغ الرسمي المسمى سنغ ـ هاي ـ ياو Sung-hai-yao.

«في العام السادس من كي ـ تي (١٠٧٣م)، السادس عشر من شهر كانون الأول، أرسل بلد عربي يسمى يو ـ رو ـ ها ـ شي (القطيف) سفارة بو ـ را ـ سن (أبو الرازي)، حاملةً معها أتاوة لبان وأشياء أخرى. . فوُهِبَ ٩٠٠٠ وحدة «كان» من العملة النحاسية، وتلقى ٢٠٠٠ ريو من الفضة».

ونجد أوصافاً عديدة لبلد عربي يدعى «سو ـ طان». وفي البدء، ظنّ الدكتور ق. هورث و و. و. روكهيل أن المقصود به الزنج، إلا أن الدكتور ت. فوجيتا، وهو ياباني مختص في الصينيات، أصاب في اعتباره «سلطان» السلالة السلجوقية. وقد دعمت أبحاثي وجهة نظره ويحوي علم صيني، يُسَمَّى ون ـ شهنغ ـ تسا ـ لو Wen-chhang-tsa-lu وصفاً موجزاً لموقع «سو ـ طان» الجغرافي، نصّ على ما يلي:

«يحدّ البحر (على الأرجح الخليج العربي) بلد سو ـ طان من الجهة الشرقية، وكو ـ رو ـ مو (سلالة خوارزم شاه) من الغرب، وكا ـ مو ـ دان (سلالة الحمدانيين بداهة) جنوباً، ولي ـ كي ـ بان (ينبغي أن تكون لي ـ كي ـ بان على الأرجح كي ـ لي ـ بان = كرمان) من الشمال».

وهناك وصف آخر مثير لـ«شوكان» السلطان السلجوقي. فقد جاء في حولية سنغ شيح ما يلي:

«تقع شوطان في البحر الجنوبي. وتبعد ٢٠ لي عن ساحل البحر. وفي العام الرابع من كي ـ ني (١٠٧١م) أرسلوا هدايا إلى بلاطنا (بلاط سلالة سنغ) لأول مرة. وسافر المبعوث بالبحر، واستغرقت رحلته ١٦٠ يوماً بريح موسمية ملائمة. ومرّ بمازون وكولم وسريبزة (بلمبنغ)، ووصل إلى كانتون وكان حاكم هذا البلد يدعى أ ـ مي ـ رو ـ أ ـ بي ـ ران (أمير الأمراء). وقد حكموا البلاد خمس مائة سنة. (منذ ظهور محمد) من عشرة أجيال. وتشبه أصوات لغتهم تماماً أصوات اللغة العربية. ومناخها حار طيلة العام. ويلبس الأغنياء عمائم من مادة YU-E، ويرتدون ثياباً مطرزة

ومزهّرة.. ولديهم من الحبوب الأرز والذرة البيضاء والقمح. ويتغذون بالسمك. وعندهم من الحيوانات الغنم والماعز والجاموس وجاموس الماء، والإبل والخيل، والكركدن والفيلة... وعندهم لآلىء وزجاج، وثلاثة أنواع من المشروبات تسمى مي (ميي = خمر) وشا (شراب) وهوا؟ ويستعملون في الصفقات التجارية عملات تضربها الدولة دون غيرها، ثلاثة منها من ذهب ونحاس بالتساوي، والرابعة من فضة. ويحظّر على الأشخاص «سكّ العملة».

وفي عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، أعلن طغرل بك السلجوقي نفسه «سلطاناً» في نيسابور (عاصمة خراسان)، وقرر ربط سياسته بقضية السنّة، وحرّر الخلافة العباسية من البويهيين الشيعة. وفي عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م. دخل بغداد، ووافق الخليفة على تلقيبه سلطان. ويرجّح أن السلطانين السلجوقيين اللذين أرسلا سفارات إلى سلالة سنغ في الصين في الأعوام ١٠٧١ و ١٠٨١ و ١٠٨٣م، هما السلطان عضد الدولة ألب أرسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٧١ ـ ١٠٧٣م)، والسلطان جلال الدولة ملك شاه الأول (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م). وجاء في حولية سلالة سنغ التقرير التالي عن وصول مبعوث السلاجقة:

«في العام السادس من يوان ـ فو (١٠٨٣م) جاء مرة ثانية إلى البلاط الصيني المبعوث فو ـ جون ـ رو ـ شو ـ كا ـ ني (الأرجح نائب زكريا). وأخذ الامبراطور شين ـ زو (١٠٦٨ ـ ١٠٨٥م) بعين الاعتبار المسافة الكبيرة جداً التي قطعها، فأضاف ٢٠٠٠ ريو من الفضة إلى الهدايا ذاتها التي منحه إياها من قبل».

ويذكر شو ـ كو ـ فيي مرباط، بندر التجارة الهام في القرون الوسطى، الواقع في مقاطعة ظفار في عُمان، ويقول عنه:

«هنالك بلد يدعى ما ـ بي ـ را (مرباط). فالسفن التي تغادر كانتون بعد منتصف الشتاء، وتستفيد من الرياح الشمالية، تستطيع أن تصل إلى البلد المسمى لان ـ لي (لامري في شمطرة) بعد ٤٠ يوماً، فتتاجر فيه وتشتري خشب البرازيل، والقصدير الأبيض، وأسل الهند الأبيض الطويل. وفي السنة التالية في فصل الشتاء، يستأنفون سفرهم في البحر، مستفيدين من الموسيمات الشمالية الشرقية، فتستغرق رحلتهم نحو ستين يوماً، ليصلوا إلى مرباط، التي لديها لبان، وعنبر ، ولآلىء، وزجاج معتّم، وقرون كركدن، وعاج ومرجان، وبوتامن Putamen؟ ومرّ، ودم التنين، وحلتيت وميعة سائلة، وعفص بلوط، وماء، وكلها أصناف يتردد تجار البلدان العربية على مرباط

ليتاجروا بها».

ويهمنا أن نشير إلى قدوم بعثات تجارية من مرباط سنة ١٠٨٩م و ١٠٦٤م مُدَوَّن في بعض حوليات سلالة سنغ، وعند شاو ـ جو ـ كوا أيضاً وكانت مرباط بندر التجارة الرئيس في مقاطعة ظفار، ومركزاً هاماً للاتصال ببلدان الخليج والهند وافريقية الشرقية لجودة موقعها الجغرافي بالنسبة إلى ملاحة الموسميات وبعد أن أصبح ابن زياد سيد حضر موت ومرباط ولحج وعدن والولايات البحرية في البحر الأحمر، أسس فيما يبدو، بعض المهاجرين من بلدان الخليج مستوطنات (جاليات) تجارية في مقاطعة ظفار. ونعرف من بعض أوصاف ابن حوقل وابن المجاور وابن الاثير وبا مكرمة أن إحدى الأسر المهاجرة من سيراف تسمى المنجو أو المنجويين، أسست في أوائل القرن الثاني عشر مستوطنة في مرباط وسيطرت على مقاطعتها إلى أن شكّل تاجر غني وناخذاه يدعى أحمد بن محمود الحميري سلالة جديدة هي سلالة حبوفي في أوائل القرن الثالث عشر. بالتالي نستطيع أن نفترض أن بعض التجار والبعثات التجارية المرباطية ممن لهم علاقات دبلوماسية أو تجارية مع الصين في عهد سلالة سنغ، كانوا مهاجرين سيرافيين من أصل منجو.

٤ ـ الصادرات الصينية الرئيسة إلى البلدان الخليجية

وكانت الصادرات الصينية الرئيسة التي اشتراها العرب من الصين في عهد سلالة سنغ، حسب الحوليات الصينية تتمثل بالخزف الصيني، والفضة وعملة النحاس، وثياب الحرير. وما يزال يستحيل حتى الآن التدقيق في تحديد تاريخ السلع الصينية العائدة إلى أوائل القرون الوسطى. وتأتي أفضل بيّنة من سامراء على نهر دجلة، ويتراوح تاريخها بين ٨٣٦ و ٨٩٢م. وعثر بينها على عدة أنواع من الخزفيات الصينية والأدوات الحجرية. وعثر على العديد من النماذج ذاتها وعلى خزف سلالة سنغ أيضاً، في الفسطاط، وعيذاب، وعدن، وبلدان الخليج، وحتى على سواحل افريقية الشرقية. وبذا يتضح أن الصينيين شرعوا منذ القرن التاسع / الثالث الهجري، يصدرون بانتظام الخزفيات والأدوات الحجرية إلى الشرق الأدنى وعالم المحيط الهندي. وقطعا، وصل بعضها إلى الخليج براً عبر فارس، إلا أن البيّنة الأدبية تدل على أن الكثير جاء بالبحر ماراً حوالي الهند، ثم شحن إلى بلدان الخليج، وفي النهاية إلى مصر وافريقية الشرقية. وقد أُفترِضَ أن معظم حمولة الجنوك الصينية كانت تتألف من الخزفيات في عهد سلالة سنغ. ولا بدّ من الإشارة أيضاً إلى أن معظم العملات الفضية والنحاسية

أصبحت في أواخر القرن العاشر نادرة إلى أقصى حد في البلدان العربية الشرقية، وبالتالي صارت تجارة الفضة والنحاس مع آسية الوسطى والصين أهم بكثير بالنسبة إلى الاستقرار الاقتصادي في البلدان العربية. وافترض ان ملاحي بلدان الخليج وتجارها زاروا في القرن الحادي عشر / الخامس الهجري بنادر الصين الجنوبية من أجل استيراد عدد هائل من قطع العملة الصينية.

وتقودنا المواضيع المناقشة من قبل إلى الاستنتاج بأن العلاقات التجارية والدبلوماسية بين بنادر الصين الجنوبية في عهد سلالة سنغ وبين دول الخليج تواصلت كثيفة حتى بعد التغييرات السياسية والاقتصادية التي طرأت على الخلافة الشرقية خلال القرنين ١٠ ـ ١١م/ ٤ ـ ٥هـ. ويبدو أن الخليجيين حافظوا على شبكات تجارتهم ومستوطناتهم التجارية على سواحل عالم المحيط الهندي التي أسسوها في العصور الذهبية للخلافة العباسية من بغداد إلى جميع أنحاء عالم المحيط الهندي التي تُوْصِلُ إلى الصين.

جـ ـ رحلات شنغ هو إلى بحر الهند الغربي وسلطنة هرمز

اسم شنغ هو الحقيقي «ما هو» أي محمد. وهو من أسرة عاشت في مقاطعة كونْ ينغ، الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية من بحيرة تيان شيه في يونان. وكان جدّه الثاني يدعى بايان، وهو اسم مغولي. فلعله كان أحد جنود الحامية المغولية المتمركزة في يونان. وكان لقب والده «ما»، وينادى بـ«الحاج»، لأنه مسلم وحجّ إلى مكة.

وولد ما هو حوالي ١٣٧١. وكان الولد الثاني في أسرة لديها أربع بنات. وبدت أمارات النباهة عليه في صغره. ولما بلغ العشرين انخرط في خدمة الأمير تشوتي، رابع أنجال الامبراطور هونغ ـ وو. وصار هذا الأمير امبراطوراً سنة ١٤٠٣، وأصبح اسمه تشنغ تسو (يونغ لو).

وقد اتقن شنغ هو، فنون الحرب، واشتهر بقمع فتنة في يونان. فأنعم عليه الامبراطور يونغ لو بلقب شنغ سنة ١٤٠٤، ورقّاه إلى منصب كبير الخصيان وناظر ديوان الخصيان، وعيّنه رئيس المبعوثين والقائد العام لست حملات بحرية أرسلت إلى المحيط الغربي بين ١٤٠٥ و ١٤٢١.

ولما اعتلى الامبراطور جن ـ تسونغ العرش سنة ١٤٢٤. أوقف الحملات البحرية، وسمى شنغ هو حامي نانكين. وفي عام ١٤٢٨، أمره الامبراطور هسوان تي بإكمال بناء معبد «باو ـ ان» في نانكين. وفي عام ١٤٣٠، عيّنه قائد الحملة السابعة

والأخيرة إلى المحيط الغربي. وبقي حامي نانكين بعد عودته إلى أن توفى فيها سنة ١٤٣٥.

وهكذا خدم شنغ هو ثلاثة أباطرة، وقاد سبع حملات صينية إلى المحيط الغربي، توالت على الوجه التالي:

١ ـ الحملة الأولى: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م ـ ٨١٠هـ/١٤٠٧م، آخر مراحلها كاليكوت.

٢ ـ الحملة الثانية: ٨١٠هـ/١٤٠٧م ـ ٨١٢هـ/١٤٠٩، آخر مراحلها كاليكوت.

٣ ـ الحملة الثالثة: ٨١٢هـ/١٤٠٩م ـ ٨١٤هـ/١٤١١م، آخر مراحلها كاليكوت.

٤ ـ الحملة الرابعة: ٨١٦هـ/١٤١٣م ـ ٨١٨هـ/١٤١٥م، آخر مراحلها جزيرة هرموز.

٥ ـ الحملة الخامسة: ٨٢٠هـ/١٤١٧م ـ ٨٢٢هـ/١٤١٩م، آخر مراحلها هرموز، عدن، ملندي.

٦ ـ الحملة السادسة: ٨٢٥هـ/١٤٢١م ـ ٨٢٦هـ/١٤٢٢م، آخر مراحلها هرموز، عدن براوه.

٧ ـ الحملة السابعة: ٨٣٥هـ/١٤٣١م ـ ٨٣٧هـ/١٤٣٣م، آخر مراحلها هرموز وسفارة إلى مكة.

وفيما يلي عدد المراكب الصينية في كل حملة (جنوك):

١ ـ الحملة الأولى: ٣١٧ مركباً.

٢ ـ الحملة الثانية: ٢٤٩ مركباً.

٣ ـ الحملة الثالثة: ٤٨ مركباً.

٤ ـ الحملة الرابعة: ٦٢ مركباً.

٥ ـ الحملة الخامسة: غير محددة.

٦ ـ الحملة السادسة: ٤١ مركباً.

٧ ـ الحملة السابعة: أكثر من مائة مركب[١].

---

(١) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى مقالنا في مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٢٤ ذو العقده ١٤٠٦ تموز «يوليو» ١٩٨٦، السنة السادسة، وعنوانه «العرب والصين، علاقات ودية وتبادل سفارات ـ وثيقة صينية نفيسة من عهد سلالة منغ»، الكامل في وصف سواحل المحيط، تأليف ماهوان، ٨٣٧هـ/١٤٣٣م.

خامساً ـ تعامل ماغان / مكّان (عُمان) والخليج العربي

درس الآثاريون الألف الثالث المتأخر ق.م بعناية فائقة في الخليج العربي، إلا أن تحرياتهم لم تتناول جميع مناطقه بالتساوي بل ركّزت على شبه جزيرة عمان[1]، التي كانت تسمى ماغان عند السومريين، ومكّان عند البابليين.

ففي عام ١٩١٧، استشهد م.كموسكو بتقرير ويلستيد عن النحاس بعمان الشمالية، واعتبره إحدى حججه الرئيسة لتعيينه موقع ماغان القديمة في عمان، لأهميتها بتزويد مدينة أور بالنحاس في عصر سلالة أور الثالثة. وفي عام ١٩١٩، طبع كتاب مايلز «بلدان الخليج العربي وقبائله»، وذكرت فيه مصادر النحاس التي أشار إليها ويلستيد وكارتر، وزيد عليها القريات. ويبدو أن تلك التلميحات دفعت «الاتحاد البريطاني لتقدّم العلوم» إلى تشكيل لجنة عام ١٩٢٤، وتكليفها بكتابة تقرير عن أرجحية مصادر النحاس المستعمل عند السومريين.

وفي عام ١٩٢٥، موّل وليام نوكس دارسي، مؤسس شركة النفط البريطانية الفارسية (شركة النفط البريطانية لاحقاً) مَسْحَ عمان جيولوجياً من أجل التنقيب عن النفط. وتمكّن المهندس الجيولوجيّ ج.م.ليز أثناء هذا المسح من فحص عدة مناجم نحاس قديمة مهجورة، وعاد ومعه عيّنات فلزات وخبث من مكان معروف باسم جبل المعادن، واقع في وادٍ وراء صحار من جهة الداخل. ونفّذ س.هـ.ديش عملاً للجنة النحاس السومري، لم تطبع نتائجه الأولية إلا في عام ١٩٣٨، لكن تسرّبت أخبارها قبل نشرها، ويحتمل أن تكون فكرة اعتبار عمان أحد المصادر الرئيسة للنحاس السومري قد خطرت ببال ا.ت.ويلسن في شهر كانون الثاني ١٩٣٨، قبل أن تُحَلّل العينة العمانية التي جمعها ليز، وقبل أن تُنشر نتائجها. ثم درس ديش عيّنات فلزات ليز في صيف السنة ذاتها، واقترح هـ.بيك في محاضرة ألقاها في مؤتمر المستشرقين الدولي السابع عشر المعقود في أكسفورد في ٢٩ آب، أنَّ عمان هي المكان الذي كان السومريون يحصلون منه على النحاس». وكان أساس هذا الاقتراح وجود ١٩,٠٪ من النيكل في النحاس العماني. ولوحظ أيضاً وجود النيكل في أشياء عثر عليها في أور وكيش، وظُنَّ في ذلك الوقت أن فلزات نحاس عمان تنفرد باحتواء النيكل دون سائر بلدان أورازية، لكن نعرف الآن أن فلزات النحاس المأخوذة من العديد من أرجاء

(١) طبيعياً، تشمل شبه جزيرة عمان الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان من حدود قطر حتى رأس الحد.

العالم تحوي النيكل. بالتالي لا قيمة لأساس اعتبار عمان مصدر نحاس سومر، واستمرّ هذا الاعتقاد يتعاظم على مرّ السنين، مرتكزاً على نطاق واسع على سوء فهم قضية النيكل.

واليوم لم يعد أحد يشكّ باتساع توضّعات النحاس الكبريتي في عمان ومدلولها. وثبت غنى مصادر النحاس فيها منذ عام ١٩٧٣، بعدما زار جيولوجيان أمريكيان من دائرة المسح الجيولوجي في الولايات المتحدة عدداً من مواقع المناجم فيها. وتمّ توقيع اتفاق بين سلطنة عمان (شركة التنقيب المحدودة) وبين شركة استكشاف مارشال العماني المحدودة، أدّى إلى إجراء مسح معدني لسلطنة عمان، وإلى تجديد استثمار مناجم نحاسها. وتعيّنت مواقع ما يقرب من خمسين توضعاً رئيساً ومواقع العديد من التوضعات الثانوية، إضافة إلى التأكد من استغلال هذه الموارد في الماضي، اعتماداً على وجود ما يزيد عن ١٥٠ موقع صهرٍ حولها، وعلى تراكمات خبث يتراوح وزن الواحد منها بين طن تقريباً وحوالي ١٥٠ ٠٠٠ طن[١].

ثم إن تعامل الخليجيين مع ماغان/ مكّان قديم جداً. وماغان أو مكّان اسم عمان في أواخر عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية الأولى. وفي عهد سلطنة هرمز العربية، أصبحت تسمية عمان تطلق على شبه جزيرة عمان، بالمعنى الجغرافي، أي على سواحل الخليج الأسفل العربية من حدود قطر إلى رأس مسندم، وعلى سواحل خليج عمان من رأس مسندم إلى رأس الحد. وهذا يعني أن عمان خليجية بالنسبة إلى موضوع سلطنة هرمز، وبالنسبة إلى التاريخ.

ويقتضي هذا الازدواج في المدلول التاريخي والجغرافي البدء بإيضاح مفهوم ماغان/ مكّان، على أن يتخلله ويليه التعامل المستمر مع الخليج وسواحله[٢].

آ ـ مدلول ماغان / مكّـان ٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م:

مثلما أبنّا من قبل في استعراضنا اهتمام الآثاريين بمصادر النحاس في عمان، أكّد م.كموسكو صراحة منذ عام ١٩١٧، اعتباره ماغان القديمة، المعروفة في وثائق الألف الثالث المتأخر ق.م، أنها كانت تموّن بالنحاس بلاد ما بين النهرين الجنوبية وجزءاً من شبه جزيرة عمان. والواقع أن عدداً من العلماء فتّشوا قبله عن ماغان في مكان ما في

(١) دانيال ت. بوتز، تاريخ الخليج العربي في العصور القديمة، طبعة ١٩٩٢، المجلد ٢، الفصل ٤، ص ١١٧ - ١١٩.

(٢) المرجع ذاته، الفصل ٤، ص ١٣٣ ـ ١٥٠.

منطقة الخليج، ولو لم ترتكز حججهم على قضية النحاس. وقد استطاع و. روجرز أن يقول سنة ١٨٩٥، أن تحديد موقع ماغان «... كان وما يزال موضوع جدل كبير مستمر حتى الآن». وحتماً يكفي هذا الكلام لكي يوضح أن هذه القضية أقلقت العديد من العلماء طيلة قرن كامل. واقترح كثير من البارزين منهم الأولين، ومنهم ف. ديليتزش، وب. هوبت، وا. أونغناد، وف. البرايت، وا. هـ. سايس، وف. هومّل، تحديد مواضع متنوعة توالت من العراق الجنوبي إلى جزيرة العرب الجنوبية، فمصر.

ويكمن جانب من الصعوبة في أن مكّان في المصادر الآشورية الجديدة مرادفة بلا أدنى شك لمصر. لكن يبدو أن هذا الترادف لم يكن وارداً في الألف الثالث ق. م. ففي سنة ١٩٢٤، قبل ب. لندزبرج جعل كومسكو مكّان عمان ذاتها، واقترح أن ماغان الأصلية الواقعة شرقي سومر وأكّد، أعطت اسمها لمصر في وقت ما من الألف الثاني ق. م، لأن بعض المواد في ذلك الزمن كانت تستورد من عمان ومن منطقة نهر الهندوس (التي اعتبرها ملوخّة)، ثم صارت تجلب إلى بلاد ما بين النهرين من مصر والنوبة على التوالي. ويبدو أن المعنى الجغرافي في مثل هذا التبديل بالأسماء لم يقلق الكتبة البابليين، فاستمروا ببساطة يطلقون الأسماء التقليدية الخاصة بالأرجاء التي كانت تزوّدهم بالعديد من الكماليات في الألف الثالث ق. م، على المصادر الجديدة التي تورّدها لهم في الألف الثاني ق. م. ويستطيع الباحث أن يجد شبيهاً لهذه الحالة في التاريخ، بعد زمن طويل، عندما كانت المصادر اليونانية تستعمل تسمية ارثره تالسه، أي البحر الأحمر لتدلّ على الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر، دون أن تميّز في الغالب (لكن ليس دائماً) بين مدلول هذه المجامع المائية الثلاثة بالتسمية. ويرى لندزبرجر أن البابليين كانوا مثل الأفارقة، لا يبالون بصحة المواقع والأسماء الخاصة بشتى المناطق الواقعة على شواطىء «البحر الأسفل»، فكانوا يستعملون «ماغان» و «ملوخّه» ليدلوا، فيما يبدو لنا، على مناطق منفصلة جغرافياً.

ولن نكرر هنا توالي تاريخ حجة ماغان، إذ عندما نشر لندزبرجر مقاله، كانت معظم الاقتراحات الرصينة لتعيين موقع ماغان قد قدّمت. فأحرى بنا أن نلتفت الآن إلى البيّنة المسمارية التي تربط تسمية ماغان/ مكان بشبه جزيرة عمان وغيرها.

ب ـ العلاقات بين ملوك أكد وبين ماغان

خلافاً لدلمون، لم ترد ماغان في المصادر المسمارية العائدة إلى ما قبل عهد سرجون. مع ذلك تتضمن القرون الثلاثة الأخيرة من الألف الثالث جملة مواد هامة،

إن لم تكن واسعة أكثر مما يلزم، متعلقة بماغان. ونبدأ بتلك النقوش التي تخص أحد حكّام أكّد، قبل النظر في النصوص الاقتصادية المتوفرة. وفي النهاية سوف نناقش مضامينها.

وتتوفّر أولاً نسختان بابليتان قديمتان مكتوبتان باللغة السومرية والأكدية، وثيقتا الصلة بالموضوع، منقولتان عن أصل نقشين لسرجون الأكدي. فالنسخة الأولى منهما تروي فتوحات سرجون، ويرد فيها حرفياً أن الإله انليل أعطاه البحرين الأعلى والأسفل، Sum.a-ab-ba sig-sig; Akk.ti-a-am-tim. «فالبحر الأسفل» في الجغرافية البابلية لا يختلف عن «بحر ارثره» عند الجغرافيين الكلاسيكيين، ويعني الخليج العربي، وافتراضاً، خليج عمان والمحيط الهندي. وجاء في النص الثاني أن سفن دلمون وماغان وملوخّة كانت تربط برصيف أكد.

والمصدر التالي الوثيق الصلة بموضوعنا هو ما يسمى بـ«النقش القياسي» لمانوشتوشو، ويروي نصه أن مانوشتوشو قام بحملة ظافرة في فارس ضد أنشان وشرنون، ثم بنى سفناً ليعبر بها البحر الأسفل، الذي تجمّعت فيه قوة مجنّدة من ٣٢ مدينة لتدخل المعركة. وحاربها مانوشتوشو وانتصر عليها. واستعبد مدنها وملوكها. ويأتي هنا مقطع صعب، معناه العام، فيما يبدو، أن مانوشتوشو طوّق قوات العدو القادمة من مناجم المعدن البعيدة جداً. إضافة إلى ذلك، اقتلع مانوشتوشو حجارة سوداء من الجبال وحملها في سفن أرست بأكد، وصنع من هذا الحجر تمثالاً لنفسه كرّسه للآلهة انليل.

وفي أعقاب الثورات الواسعة، إن لم تكن المدبّرة، ضد حكم نرام سين، قام هذا الملك هو أيضاً بهجوم على ماغان، وأشارت أربعة مصادر إلى هذا الحدث. وأكملُ تقرير عنه واردٌ في نقش أصلي على تمثال أ A لنرام سين، حيث يقرأ النص التالي:

نرام سين القوي، ملك الجهات الأربع، الظافر في تسع حروب في غضون سنة واحدة. فبعد انتصاره في هذه المعارك، جلب أيضاً ملوكها الثلاثة مغللين بالقيود أمام الإله انليل. وأخضع ماغان، وأسر منيثين، ملك ماغان، واقتلع كتلاً من الديوريت من جبالهم ونقلها إلى مدينة أكد، وصنع منها تمثالاً لنفسه وكرّسه لـ . . .

وتعتبر عدة نصوص لاحقة أيضاً وثيقة الصلة بموضوعنا. فهنالك تقرير بابلي قديم يتحدث عن الثورة العامة ضد نرام سين، يتضمن قائمة، ظاهرياً عشوائية، فيها

أسماء زعماء الثورة، ومنهم اسم «منّو، ملك ماغان». وجاء في نسخة بابلية حديثة، محفوظة أيضاً، منقولة عن فأل كبد آشوري حديث، أن الذي سار تحت هذا الفأل (ضد «أرض ماغان»، فاستولى عليها، و [...] وقهر ملك أرض ماغان). أخيراً، روت «حوليات الملوك الأوائل» لبابل المتأخرة أن نرام سين «سار ضد ماغان، وأسر منّودنّو ملك ماغان».

إضافة إلى النقوش التي استعرضناها منذ قليل، تتوفر لنا إحالات مسمارية مختصرة، عائدة إلى التاريخ الأكدي القديم، تنبغي الإشارة إليها أيضاً. ويذكر نصّان اقتصاديان من تللو النحاس المجلوب إلى القصر من ماغان، ونحاس ماغان المنتزع من إحدى الدور. وينفرد نصّ آخر من مدينة ادب بتسمية شيء Za-hum مصنوع من البرونز، يقال إنه أتى من ماغان عوضاً عن كتل النحاس فقط. ويعتبر نص مأخوذ من مدينة أمّة، يذكر توزيع جعة على رسول من ماغان، نصّ اخبار هام، يشهد على وجود ماغانيين في بلاد ما بين النهرين الجنوبية خلال الفترة الأكدية القديمة. أخيراً هنالك نص مشكوك في منشئه محفوظ في المكتبة الحرة في فيلادلفية، يتضمن أقدم دليل على اسم العلم لو ـ ماغان.

وتبدو المصادر التي استعرضناها منذ قليل، بعيدة كل البعد عن العدد الذي يفي بالغرض، مع ذلك، تعتبر أقدم أدلة ذكرت ماغان، وبالتالي تستحقّ الاهتمام بها بعناية خاصة. ولا تحوي المصادر العائدة إلى عهد سرجون أو الخاصة بحكمه أي إشارة إلى الأحداث التي أدّت إلى امتداد نفوذه على البحر الأسفل، لكن لا أساس للظن بأنه قام بحملة عسكرية فيه. ولم تُصَغ بوضوح الإشارة إلى وصول السفن من ماغان إلى أكّد بلغة منمقة، توحي إلى القارىء بالتفكير بأن ماغان كانت تابعة لدولة أكد. ولا نعلم نوع العلاقات القائمة خلال حكم رموش، إلا أن الوضع في عهد مانشتوشو كان يشبه حالة الدولتين المتحاربتين. ويدل «النقش القياسي» دلالة واضحة على أن مانشتوشو عبر البحر الأسفل بعد فتوحاته في فارس. وبذا أمّن النزول على الساحل العربي من الخليج. ثم إن الإشارة إلى «مناجم المعدن» ذات مغزى عظيم، على ضوء مصادر النحاس العماني المناقشة من قبل. أما الحجر الأسود الذي اقتلعه مانشتوشو، وصنع منه في الحد الأدنى أربعة من تماثيله ومسلته المشهورة، فقد اعتبر عادة حجر ديوريت، لكن أبانت التحاليل الحديثة أن اثنين من تماثيل مانشتوشو المحفوظة في متحف اللوفر، مصنوعة من أوليفين ـ غبرو، وهو حجر يعثر عليه بكميات كبيرة في جميع أنحاء شبه جزيرة عمان.

وقد يلقى التحليق الخيالي قبولاً، قبل اختتام موضوع مانشتوشو. فعند التفكير ملياً في هزيمة تحالف ٣٢ مدينة، ينبغي أن نستذكر تاريخ الدفن الجماعي في أم النار، بالنسبة إلى القبر أ A في هيلي الشمالية. فقد استعيد ما يقرب من ٩٠ قحفاً كاملاً من القبر، شوهدت على العديد من أبدانها علامات أذى جسدي شديد وحرق. مع ذلك، لاحظ المنقّبون الاعتناء بترتيب الجثث على التوالي، أو ربما في وقت واحد بالذات، الواحدة فوق الأخرى، عوضاً عن أن «تدفع جانباً بلا احترام بعد تفسخها لتفريغ المحلات لدفن الجثث التالية». ويغري هذا الوضع باعتبار القبر ضريحاً جماعياً للقتلى من خصوم (مناوئي) مانشتوشو.

وتثار عدة نقاط هامة في نقوش نرام سين. فنرام سين يسمي خصمه في ماغان باللقب السومري «ان en» أو «السيد lord». وهذا في الواقع أقدم لقب ملكي سومري معروف، لكننا لا نعرف ما إذا كان له أي دلالة في النطاق الحالي. مع ذلك، يجدر بنا أن نذكر أن نص أور ٣ المناقش فيما يلي، يشير إلى حاكم ماغان بلفظ «لوغال lugal» بدلاً من ذلك. مهما يكن يثبت النص الأكدي القديم ونص أور ٣ وجود مكتب سلطة سياسية عالٍ في ماغان.

ونوقشت نقاشاً طويلاً قراءة تعبير «سيد ماغان». وعلى العموم قرىء السامي (Manium). وأُوِّلَ عادة اسم منّو دنّو في الحوليات على أنه «منّو أي القوي». مع ذلك، اقترح ر. زادوك حديثاً، أن الاسم كما حفظ في صيغة Ma-nilD[AN] في نص نرام سين الأصلي. وصيغة منّو دنّو في النسخة البابلية المتأخرة، يحتمل أن يكون اسماً عيلامياً محوّراً في اللغة الأكدية. وإذا صح ذلك القول، يصبح هذا التأويل دليلاً آخر على الصلات الوثيقة التي قامت بين فارس وبين شبه جزيرة عمان خلال الألف الثالث المتأخر ق.م.

ويهمنا فتح نرام سين ماغان بنوع خاص، لأنه معروف ليس فقط في التقليد الأدبي البابلي المتأخر وحده، إذ عثر خلال القرن الماضي على عدد محدود من الأواني الحجرية المنقوشة أو على كسر منها؛ لا شك أن بعضها من الغنائم الفعلية المستولى عليها خلال حملة ماغان. والآنية الأولى المكتشفة، التي قيل إنها صُنِعت من المرمر، فُقِدت سنة ١٨٥٥، عندما أغرقت هجمات رجال القبائل العربية المعادية المركب الذي كانت منقولة عليه في نهر دجلة. مع ذلك نجت كسرة من النقش يقول نصها: «نرام سين، ملك الجهات الأربع، آنية (منها) غنائم من ماغان». وعثر على

كسرتي آنية مرمر أو كالسيت، إحداهما من سوسة، أو بالأحرى اشتراها المتحف البريطاني، تحفظان النصف الأول من النص ذاته، إلا أن كلتيهما مكسورتان عند bur-nam-ra-ak-ma-ganki، يجب أن تظهر «آنية من غنائم ماغان». من جهة ثانية، تتضمن آنية حجر ليّن من «المجموعة الحديثة» من أور، النص الكامل ما عدا اسم البلاد التي أخذت منها الغنائم، لأنها مكسورة عند هذه النقطة. وقد اقترح ت.ف.بوتز أن هذه الآنية أيضاً ينبغي أن تصنّف مع قطع «غنائم ماغان»، لأنه اسم المكان الوحيد الذي يظهر في هذا النطاق في نقوش أواني نرام سين الأخرى.

أخيراً، يوجد إناءان كاملان يستدعيان التعليق عليهما. الإناء الأول منهما جرة طويلة، مقبضها عروة، وقاعدتها واسعة الأعلى ضيقة الأسفل، محفوظة الآن في مجموعة يـيل البابلية. ولهذه الجرة موازيات تشبهها كثيراً، ضمن مجموعتين معاصرتين من زهريات المرمر، الأولى من آشور الآشورية الوسطى والأخرى من «تشوفا زنبيل» العيلامية الوسطى. ويعتقد الآن على العموم أن النقش الموجود على هذه القطعة نصّ مزوّر يعتمد على نسخة القرن التاسع عشر للنص المأخوذ عن الإناء الذي فقد في نهر دجلة، حتى لو بدا أن الإناء ذاته كأنه قديم وأصلي. وهنالك إناء كالسيت أو مرمر ثانٍ، شكله مختلف كلياً، لكنه منقوش عليه النص ذاته بأكمله، يرجّح كثيراً أنه من أصل فارسي، ويدخل في فئة الجرار البسيطة الثابتة الوجود على نطاق واسع على طول الحدود الفارسية الهندية، في الألف الثالث المتأخر. وعلى الرغم من أن هذا الإناء قديم وغير مزوّر، فقد احتجّ حديثاً بأن نقش «غنائم ماغان» عليه مزوّر أيضاً ومنقول عن نسخة النقش المأخوذ عن الإناء الذي ضاع سنة ١٨٥٥.

وتتألف «غنائم ماغان»، على ما هي عليه الآن، من كسر آنية حجر ليّن ومرمر أو كالسيت. يبعث هذا الوضع تلقائياً على التفكير في سبب حملة نرام سين على ماغان. فبينما تبدو حالة منشتوشو لا لبس فيها بهذا الصدد، لا يرد في أي من المصادر المتوفرة عملياً أن نرام سين عبر البحر الأسفل ليصل إلى ماغان. على النقيض، يرد في مصدرين من المصادر المتأخرة لحملته، أنه «سار ضد ماغان». وكما رأينا من قبل، كانت أواني الحجر اللين القاعدة السائدة في شبه جزيرة عمان خلال فترة أم النار. ثم إن مثال الكسر الموجودة في أور، المذكورة سابقاً، يعدّ بلا جدل تقريباً مستورداً من المنطقة. من ناحية أخرى، تكاد أواني الكالسيت والمرمر تكون معدومة الوجود في جزيرة العرب الشرقية (الأمثلة الرئيسة تأتي من القصيص في دبي، العائد إلى العصر الحديث). ثم إن الكسر الموجودة، حتى لو أهملنا الإناء الكامل الثاني المذكور من

قبل، يحتمل أن يكون أصلها من الجانب الفارسي لمضيق هرمز، لا من جزيرة العرب. إضافة إلى ذلك، إذا كان سيد ماغان (لورد) هو الذي قاوم نرام سين، وحمل اسماً عيلامياً، فهذا الوضع يمكن تفسيره بسهولة بحمله إلى أرض فارس، وحتى لو أن إناء من «السلسلة الحديثة» جاءت به التجارة إلى المنطقة في وقت سابق، يحتمل أن يكون قد استولي عليه هنا وختم على أنه من غنائم ماغان. كذلك لا يسعنا إسقاط احتمال انتقال بعض آنية الكالسيت والمرمر العائدة إلى الألف الثالث المتأخر، الفارسية الأصل، إلى شبه جزيرة عمان مثلما فعلت في الواقع القارورات البلخية فيما يبدو، حيث استولى عليها جيش نرام سين. وتعد قضية حملة نرام سين واضحة التعقيد، ولن يكون من الحكمة عند هذا الحد، على الأرجح، أن نحاول حسمها نهائياً على أساس كسر منقوشة قليلة. بالأحرى يجدر بنا أن نأمل أن تلقي تنقيبات المستقبل مزيداً من الإيضاح عنها باستعادة مزيد من المواد المنقوشة.

وبينما ترينا النقوش الملكية السرجونية الملوك الأكديين يعملون ضد ماغان، تعطينا النصوص الاقتصادية المعاصرة لها منظوراً مختلفاً تماماً عن العلاقات بين المنطقتين، وتؤيد ما أوحت به التماثيل المعدنية للقى فجر السلالات في بلاد ما بين النهرين، وما يمكن استنتاجه من ظهور «نحاس دلمون»، وحتى من تاريخ أقدم أيضاً، نعني نحاس ماغان الذي وصل إلى مدن بلاد ما بين النهرين الجنوبية. أضف إلى ذلك أن نص مدينة أدب يبين أن السلع الخالصة البرونزية أيضاً وصلت من ماغان. ويحتمل أن يعكس وجود رسول من ماغان في مدينة أمّة، القيام برحلة رسمية باسم «سيد ماغان» لا برحلة تجارية.

ويصعب تأويل تعبير لو ـ ماغان. فيجوز أن يفهم أنه يعني نبيلاً: «رجلاً من ماغان»، ويجوز أن يكون اسم أحد الأشخاص المنحدرين من أحد أهالي ماغان، المقيم في بلاد بابل، أو يمكن أن يكون اسماً مستعاراً لأحد البابليين، ربما كان تاجراً، اتصالاته متواترة بماغان، وبالتالي سمي «رجل ماغان». ومثلما سوف نرى فيما يلي، يعثر على اسم لو ـ ماغان في عدد من النصوص العائدة إلى تاريخ أور ٣ أيضاً.

جـ ـ ماغان وسلالة لجش الثانية

وتعطي نقوش عديدة خاصة بجودية (٢١٤٤ ـ ٢١٢٤ ق.م) ـ وهو من أشهر حكام لجش ـ جميع الأدلة على ازدهار عهده خلال السنين التي أعقبت انهيار الامبراطورية الأكدية، وسبقت قيام سلالة أور الثالثة. وعندما نقرأ النصوص التي زيّن

بها تماثيله واسطواناته الطينية، نعجب بنوع خاص لتنوع المواد التي اكتسبتها من الأراضي الخارجية لتمجيد آلهته وإلاهاته مثل نينخور ساج، وننتو، وننداراء، وننجشزيدا، ونينا، ولا سيما نينجرسو. وعلى نحو ما، تذكّر هذه الآلهة بالمطالب اللاحقة لملوك الأخمينيين الذين فتّشوا عن أنفس مواد البناء المتوفرة آنذاك، وافتخروا بأن أمهر الحرفيين في العالم المتمدن جاؤوا ليعملوا في برسيبوليس. وعندما أنهى بناء معبد الإله ننجرسو قال: ننجرسو: «فتح الطريق» من البحر الأعلى أي من البحر المتوسط، إلى البحر الأسفل، فمكّن جوديه من جلب جميع أنواع الخشب النفيس، والحجارة والمعادن، إلى لجش لتجميل منشآته[1].

وسمّى جوديه ماغان مرتين، مع ملوخّة وجوبين ودلمون، كإحدى البلدان الأجنبية التي فرض نير عبوديته على أعناقها. ثم ذُكِرَتْ ماغان بين البلدان الأجنبية التي تجلب له الخشب بسفنها، وحجارة إيزي (تترجم عادة بديوريت) من جبالها. إضافة إلى ذلك، ورد في نص اقتصادي وحيد في الحد الأدنى، عائد إلى السنة ١٤ من ملك جوديه، أداء ثمن ٣٤١ كساءاً للتاجر لوغال - اينمد، ومرسلة إلى ماغان.

مع ذلك، لا تعتبر قضية التحقق من اسم ماغان في نقوش جوديه بسيطة إلى الدرجة الممكن أن نتصورها. فقد رأينا من قبل، عند مقابلتنا تقارير حملات مانشتوشو ونرام سين على ماغان، أن بعض الإبهام يكتنف معرفة ما إذا كانت واقعة على ساحل مضيق هرمز الكرماني أو في شبه جزيرة عمان. ويدفع نحت تماثيل مانشتوشو من حجر الأوليفين - غبرو، مثلما أكد ذلك و. هيمبل، إلى اعتبار منشأ الحجر عمان، وهذا أقرب إلى الصحة. من جهة ثانية، عندما فحصت تماثيل جوديه، بالطريقة ذاتها، تبيّن أنها نحتت من ديوريت حقيقية. وهذا النوع من الحجر، خلافاً لحجر الأوليفين - غبرو لا يعثر عليه في شبه جزيرة عمان بحجم مقبول. مع ذلك أشار هيمبل إلى وجود بروزات ديوريت رئيسة على بعد بضعة وخمسين ميلاً شمال شمال شرقي بندر عباس في جنوبي فارس. وهكذا قد يبدو تماماً، على غرار ما ظهر أن بعض «غنيمة ماغان» من المرمر لنرام سين، فارسية الأصل، أن الديوريت الذي استعمله جوديه لنحت تماثيله الشهيرة هو فارسي أيضاً.

مع ذلك، عندما نفكّر بطبيعة اسم ماغان المرنة ظاهرياً، يهمنا ألا نفرض بنيات

(١) انظر دانيال ت. بوتز، بالنسبة الى ما يلي، الخليج العربي في عصور ما قبل التاريخ، المجلد الأول، الفصل ٤، ص ١٤٢ وما يليها.

مفاهيمنا الجغرافية الخاصة على وضع حصل منذ أربعة آلاف سنة. وينبغي أن نتذكر أن كامل المنطقة الواقعة عند مدخل الخليج كانت بلا شك معروفة لدى سكان بلاد ما بين النهرين الجنوبية، لكن مشاراً إليها بأشدّ التعابير إبهاماً فقط، ويرجّح أنها كانت تبدو وكأنها طرف العالم. أما معرفة ما إذا كانت إحدى الإحالات الخاصة إلى ماغان في نص أكدي قديم أو سومري جديد، تدلّ على الجانب الفارسي من مضيق هرمز أو الجانب العماني، فأمر يمكن أحياناً أن يحدده المراقب في القرن العشرين اعتماداً على بعض المعلومات الآثارية أو اللغوية أو الجيولوجية كما يبين من حالات مانشتوشو ونرام سين وجوديه. لكن سواء كان معقولاً أم غير معقول، فسكان بلاد ما بين النهرين لم يكونوا يميزون تمييزاً كبيراً في أذهانهم ذاتها بين جانبي هرمز.

د ـ ماغان وسلالة أور الثالثة

في أعقاب طرد الكوتيين من بلاد بابل الجنوبية، وتأسيس سلالة أور الثالثة، بدأت عاصمة هذه السلالة وعدة مدن أخرى بإقامة علاقات مع ماغان، امتدت زمنياً على قرن كامل. ونفضّل دراسة المصادر المكتوبة لهذه الصلة حسب تسلسلها الزمني، قبل مناقشة مضامينها[1].

وتظهر أهمية إقامة صلات وثيقة بماغان بوضوح في نقوش أور ـ نمّو (٢١١٢ ـ ٢٠٩٥ ق.م)، مؤسس السلالة الجديدة. وقد جاء في أحد تلك النقوش المكرّر على أربعة مخاريط طين، عثر عليها في دقدقه ما يلي:

إلى ننّا، أكبر أبناء انليل، سيده، أور نمّو، الذكر القوي، ملك أور، ملك سومر وأكد، الملك الذي بنى معبد ننّا، جعل حالة الأعمال الأولى تظهر ـ على طرف البحر في مكان التسجيل (؟) كانت التجارة... [أور ـ نمّو] أعاد تجارة ماغان [سفينته، حرفياً] إلى يدي [ننّا].

كذلك، تعلن شريعة أور ـ نمّو: «بقوة ننّا، أعاد سيد مدينة [أور] سفينة ماغان الخاصة بننّا، إلى مكان تسجيل السفن[؟]».

ويعود تاريخ أقدم نص عائد إلى عهد شولكي (٢٠٩٤ ـ ٢٠٤٧ ق.م)، ذكرت فيه ماغان، إلى السنة ٢٦ (٢٠٦٩ ق.م) من ملكه، وقد أتى من أور. وفيه تسجّل وصول ذهب (غبار) من ملك ماغان [lugal-Ma-gan]. ويبدو أن نصّاً من جرسو، يعود

(١) دانيال ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، المجلد ١، ص ١٤٣ ـ ١٥٠.

إلى السنة ٣٤ من حكم شولكي الأشهر ٥ ـ ٨ (تقريباً تموز ـ تشرين الأول)، يسجّل «سبعين يوم عمل لنقل الجيوش ungim إلى ماغان». وتعتبر عدة نصوص وثيقة الصلة بموضوعنا، تاريخها يعود إلى عهد آمار ـ سين (٢٠٤٦ ـ ٢٠٣٨ ق.م). ويرجع أول نص منها إلى السنة الأولى من حكم أمار سين، وهو إيصال شعير دوّن فيه اسم لو ـ ماغان lu- d ma-gan ki. وفي متحف المتروبوليتين للفن نص غير منشور يعود إلى السنة الرابعة من حكم أمار سين، يتعلق بتسليم بضائع لمهرجان أكيتو خلال شهر البذار، يذكر أن «ويدوم رسول Na-du-be-li حاكم ensi ماغان» ويسجل نص رسول من جرسو تاريخه السنة الخامسة من حكم أمار سين توزيع الخبز على جماعة من بناء السفن الماغانيين.

وإذا انتقلنا إلى عهد شوسين (٢٠٣٧ ـ ٢٠٢٩ ق.م)، وجدنا نصاً من جرسو مؤرخاً في السنة الثامنة من حكم شوسين (٢٠٣٠ ق.م) يدوّن سبعين (أو ٦٠٠) غور (غور واحد = حوالي ٣٠٠ ليتر) من الشعير استلمها بودو من حاكم ensi جرسو ليسلمها إلى ماغان. ويبدو أن نقشاً غير مؤرخ من عهد شوسين، يعدد «المناطق المحيطة بامبراطورية أور الثالثة»، وينتهي بالقول: «بلاد سوبور على شواطىء البحر الأعلى، وماغان، مع كل مقاطعاتهما. . . على الجانب الآخر من البحر».

ويشاء حسن الحظ أن تتوفر لنا عدة نصوص من أور، يعود تاريخها إلى أول عهد أبّي سين وتتعلق بأنشطة أحد التجار المسمى لو ـ انليلا. ويبدو أن نصين تاريخهما السنة الثانية من حكم أبّي سين أي عام ٢٠٢٧ ق.م، وثيقا الصلة بالموضوع. ففي أحدهما استلم لو ـ انليلا أربع بالات سلع ينبغي استعمالها لشراء نحاس من ماغان لمعبد ننّا. وعلى وجه التخصيص، تلقى ٦٠ تالنت (التالنت = حوالي ٣٠ كغ) من الصوف (gi-wool)، و١٠ تالنت من بعض النبات الصالح للأكل أو المنتج النباتي (؟)، و٢٠ تالنت من السمك الصغير من المستودع، و٧٠ كساءاً usbar من أور ـ شولجيرا، و٦ أكوار (الكور الواحد = ٢٥٢,٦ ليتراً) من زيت السمسم الجيد من لوغال ـ غب، و١٨٠ جلداً حيوانياً من أور ـ شولبه. وصدّق على الصفقة رسول اسمه ليبور ـ بيلي. إضافة إلى ذلك، نخبر أن «لوح ليبور ـ بيلي في إضبارة (حرفياً في «حاوية») السلع»، «وضع في سفينة ذاهبة إلى ماغان».

ويرجّح أن النص الثاني العائد إلى السنة ذاتها، هو قائمة سلع تلقاها لو ـ انليلا من ماغان، تتضمن ٥ تالنت، و٨ مينا (١ مينا = ٠,٥ كغ) من النحاس، وعاجاً،

وحجارة نصف كريمة، ومغرة حمراء. ويحدد النص بدقة أيضاً أن لو ـ انليلا قدّم بان واحداً (= ١٠ ليترات) من بصل ماغان و٢ بان من أحد العقاقير لمعبد ننّا. واقترح و.ف.ليمنز أن هذه التقدمة تمثّل ضريبة عشر يتحتّم على لو انليلا أن يؤديها عند نجاحه في إتمام صفقته.

ويسجّل نص من السنة الرابعة لحكم أبّي سين أن إيصال لو ـ أنليلا حوى ١٥ أكسية guzza و٥ أكسية usbar جيدة النوع، و٥ أكسية usbar من أور ـ شولجيرا، ثم ثلثي تالنت من صوف جي gi-wool من دايا، أحد مدراء مستودع المعبد، لكي يشتري من نحاس ماغان لمعبد ننّا. أخيراً، تهمنا رسالتان غير مؤرختين من عهد أبّي سين، لأنهما تشيران إلى الخليج العربي، لا باسم البحر الأسفل، بل باسم «بحر ماغان» sea of Magan.

إضافة إلى النصوص التي استعرضناها منذ قليل، يتوفر عدد قليل من الوثائق غير المؤرخة من تللو، جديرة بالاهتمام لذكرها ماغان. ويعدد نص اداري كميات كبيرة من رافدات الخشب، والعشب، والجلود، وشعر الماعز، والزيت، والقصب، إلخ، وكلها في حوزة حاكم المدينة. ويختتم بذكر ٣١٧٠ كور (٨٠٠٧٤,٢ ليتر) من القار لتقيير سفن ماغان. ويسجل نصان إنفاق أكسية عادية لشحنها إلى ماغان. أخيراً، يسجل نص رسول أن ا ـ كالا A-kala في طريقه إلى ماغان، تلقّى ٣ ليتر جعة، وليترين طحين، وشيكلين من الزيت لرحلته.

ومهما كانت هذه الإحالات مختصرة، فهي تكشف نواحي كثيرة عن العلاقات بين المدينتين في امبراطورية أور ٣، نعني أور وجرسو، وبين ماغان. وعندما نمعن النظر في هذه المواد، تتبادر إلى ذهننا عدة ملاحظات. فيحتمل جداً أن يكون فتح الكوتيين لبلاد الرافدين الجنوبية، قد قطع مؤقتاً العلاقات مع ماغان. مع ذلك، لا يمكن أن تكون سلالة أور الثالثة قد تأخرت مدة طويلة قبل أن ينجح أورنمّو في إعادة تلك الاتصالات إلى ما كانت عليه. فأقوال أور ـ نمو تنطوي على أن أور، أو ربما سومر عامة، استمتعت في وقت ما بالاتجار مع ماغان ـ وقطعاً نعرف أن هذا الاستمتاع حصل عندما كان جوديه حاكم لجش ـ وأن الاتصال انقطع في وقت لاحق. إلا أن أور ـ نمّو بذل جهوداً أعادت سير خطوط المواصلات مع ماغان. ويصعب أن نفاجأ إذا حصلت أور على نصيب كبير جداً من التجارة مع البحر الأسفل، بعد أن أصبحت عاصمة أعظم كيان سياسي في بلاد ما بين النهرين الجنوبية خلال القرن

الحادي والعشرين ق.م.

وتبدو نتائج جهود أور ـ نمّو واضحة في النصوص. فقد قرأنا عن توزيع طعام لبناة السفن الماغانيين الذين نفترض أنهم رجال يحترفون بناء السفن التي تسافر إلى ماغان، ويجهزون القار لقلفطة سفن ماغان. وكان الشعير والنسيج يشحنان إلى ماغان، وكانت السلع المستلمة تسجل في حينها. وفي إحدى الحالات، بدا وكأن نسخة من قائمة السلع قد أرسلت إلى ماغان مع حمولة السفينة، ربما لإتاحة الفرصة لمقارنتها عند وصولها بالسلع المستلمة، لدفع ثمن النحاس. وكان كل هذا النشاط مسؤولاً عن إدخال ماغان في وصف امبراطورية أور ٣ في عهد شو ـ سين، وفي وصف البحر الأسفل كـ «بحر ماغان» في عهد أبّي سين.

مع ذلك، كانت تجارة ماغان تقتصر ظاهرياً على فرقاء قادرين على أداء نفقات الشحن، وعلى تحمل الخسائر الممكن أن تحصل. وهكذا لا نفاجأ عندما نجد أحد الحكام في جرسو مشتركاً شخصياً في إحدى الصفقات، لأن اشتراكه قد يشرح لنا لماذا كان رسل من جرسو يسافرون أحياناً إلى ماغان، ولماذا كان معبد ننّا في أور الذي يمثله لو ـ انليلا يبدو وكأنه المؤسسة الرئيسة التي تتعاطى التجارة مع ماغان في مدينة أور. ثم إن اشتراك لو ـ انليلا المسمى على ختمه ga-es-a-a-ba-a «تاجر بحر»، موثّق جداً بنوع خاص في بداية عهد أبّي ـ سين، إلا أن ماغان لم تعد تذكر في سجلات الصفقات بعد السنة الرابعة من حكم أبّي سين. ولا يتوفر دليل على وجود أي تجارة بين أور وماغان خلال أعوام الأزمة التي نشبت في السنة الثانية عشرة ق.م من حكم أبّي سين، فما بعدها، التي سبقت سقوط سلالة أور الثالثة.

وتستحق عدة تفاصيل من نصوص لو ـ انليلا بعض التعليل. فصنفا الصادرات في حالة أور وجرسو، شملا المنسوجات والصوف. بالفعل، لا يسع المدن الجنوبية الأخرى أن تتباهى بمثل تلك الصناعات النسيجية الضخمة في ذلك الوقت، ونادراً ما نفاجأ بالعثور على هذه المنتجات مستعملة لتمويل استيراد النحاس. مع ذلك إذا نظرنا ملياً إلى البضائع التي يرسلها لو ـ انليلا إلى ماغان، يهمنا أن نفحص بدقة أنواع المنسوجات والصوف المشحونة إلى ماغان. وكما أبرز هـ.وابتزولت، فإن الصوف (šig-gin) والأكسية tug-us-bar، tug sag-us-bar، tug guz-za-gin، المرسلة إلى ماغان كانت نوعيتها متدنية على الدوام. ولم تشحن أبداً إلى دلمون وماغان في عصر أور ٣، منسوجات ولا صوف خام من النوع الجيد. أخيراً يهمنا أن نشير إلى أن في النصين

المؤرخين بالسنة والشهر بدقة استلم لو ـ انليلا سلعة في شهر ادّارو، أي تقريباً في شباط ـ آذار. وقد يعني هذا أن السفينة تبحر إلى ماغان في وقت مبكر بعد استلامها السلع، ثم تتجه نحو الجنوب مستفيدة على الأرجح من الرياح الهابة من الشمال، مما يسهّل رحلتها كثيراً.

وكانت التجارة مع ماغان تتم على مستوى عال، بدلالة اشتراك حاكم جرسو شخصياً فيها، هو والمعهد الرئيس في أور. فلعل هذا الوضع يشرح سبب ذكر أحد ملوك (لوغال) ماغان في إحدى الحالات. مع ذلك، تثير الإحالة إلى نادو ـ بيلي، الحاكم (انسي ensi) قضايا أخرى. فمن المعروف جيداً أن لقب حاكم (انسي) ماغان خلال عصر أور ٣، يشير إلى الرئيس الرسمي للمدينة وللأراضي التابعة لها، سواء كان حاكماً تابعاً أو مستقلاً. ويصعب أن نتصور أن الإحالة إلى حاكم ماغان خلال عهد امار سين يمكن أن تعني أن ماغان كانت مؤقتاً جزءاً من امبراطورية أور ٣. من ناحية ثانية، ينبغي أن يدفع إرسال الجيوش إلى ماغان، المدوّن خلال حكم شولكي، إلى التساؤل ما إذا كان هذا الأجراء قد اتخذ لفترة زمنية قصيرة في الحد الأدنى، إضافة إلى النصوص المشار إليها منذ قليل، تتوفر نصوص أخرى ورد فيها اسم ماغان، وإن كان لا شأن لها بها مباشرة. وكما هي الحال في الفترة السرجونية، يتأكد ورود اسم العلم لو ـ ماغان، فالأشخاص الذين يحملون هذا الاسم، يعثر عليهم في عدد من المدن السومرية، ويمتهنون مهناً متنوعة، ويتسمى آباؤهم في الغالب بأسماء سومرية جيدة، وهذا ليس أكيداً أبداً أنه يجب اعتبارهم من أهل ماغان، وإن جاز في الأصل أن تكون جذورهم العائلية من ماغان. مع ذلك في حالة واحدة، ثبت وجود an e-duru5-lu-ma-gana ki في منطقة أور، اقترح ولكنشتاين أنه «قرية أهلها من ماغان».

ويشار إلى أصناف بالتسمية «ماغان اكس» ثابت وجودها جيداً أيضاً خلال عصر أور ٣. وقد ذكرنا من قبل بناة «سفن ماغان». ويمكن أن يدل تعبير «سفن ماغان» على مراكب شراعية معينة تستخدم في تجارة ماغان. ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى تتضمن «ماعز ماغان»، «كرسي ماغان»، خشب مش ـ ماغان»، و«قصب ماغان». ولا يدعو أي سبب إلى الافتراض بأن تلك الأشياء جاءت من ماغان ذاتها، وإن كان ذلك وارداً ومعقولاً أيضاً، وقريباً من عاداتنا ذاتها في تسمية الأشياء احتمال تفسير تسمية «ماغان اكس» أطلقت ببساطة لتدل على أسلوب خاص، أو نموذج، أو جنس، أو نوع من اكس. فمثلاً، لا تأتي جميع أبقار هولشتاين من هولشتاين، ولا يجيء كل الحبر الهندي من الهند عادة، ولا ملفوف بروسيل من بروسيل. وعلى غرار ذلك، يمكن أن

تكون بعض السلع المنسوبة إلى بلاد ما بين النهرين القديمة قد اكتسبت صفة «ماغانية»، ربما بسبب اقترانها فعلاً ببلاد ماغان في الماضي السحيق. لكن في الوقت الذي نسمع فيه بـ «قصب ماغان» أو «بصل دلمون» في نصوص تعود إلى الألف الثالث ق.م، يصعب علينا أن نميّز ما إذا كانت هذه السلع مجلوبة من هذه الأماكن، أو أن اسمها يدل فقط على صنف خاص بها.

* * *

أبان عقدان من التحريات الآثارية في شبه جزيرة عمان أن هذه المنطقة غنية بالبقايا، التي يرجع تاريخها إلى النصف الثاني من الألف الثالث. ففي هذا التاريخ، كان سكان هذه البقعة طوالاً، يزرعون الذرة والقمح والشعير ونخيل التمر. واغتنى اقتصادها من وجود حيوانات مدجّنة منها الجمل وماشية حمير الزرد والغنم والماعز وربما العير والحمار. وكان الغزال (المها) والمارية يصادان، هما وشتى أنواع الطيور. وكان صيد السمك يجري على طول السواحل، إلا أن الثدييات الأضخم مثل الأطوم والزواحف، ومثل السلحفاة، لعبت دوراً هاماً أيضاً في اقتصاد السواحل. وكانت موارد النحاس في الداخل تستثمر مثلما يثبت من لقى الخبث والمسابك والمنتجات النحاسية/البرونزية المجموعة من المستوطنات الرئيسة. وكانت السبائك، كالتي عثر عليها في ميسر، يمكن تصديرها، وتشهد النصوص الأكدية القديمة والسومرية الجديدة على استيراد النحاس من ماغان في ذلك الزمن. وكانت شبه جزيرة عمان تستورد من الشرق برونزات القصدير أو أيضاً القصدير ذاته.

إضافة إلى ذلك، تؤيد موازيات فخار أم النار من لقى الحدود الهندية الفارسية، أن اتصالاً تمّ على طول محور شمالي جنوبي يذهب من شبه جزيرة عمان إلى منطقة فارس الجنوبية الشرقية. ويشهد أيضاً عدد قليل من كسر الفخار المطبوعة بظفر الإبهام المأخوذة من هيلي وميسر، على وجود ارتباطات بعالم هارابا في الوقت ذاته. وتأيد بشكل قاطع في شهر شباط سنة ١٩٨٩ وجود علاقات بين مستوطنات أم النار ووادي نهر الهندوس، عندما استعيد وزنان حجريان هارابيان من موقد يعود تاريخه إلى الألف الثالث المتأخر، يحوي فخاريات أم النار في تل أبرق. وهكذا كانت شبه جزيرة عمان منفتحة على الاتصالات ببلاد ما بين النهرين وفارس ووادي نهر الهندوس، وتنعم بأساس اقتصادي متين مبني على الزراعة المشتركة، وتربية الحيوانات والقنص وصيد السمك. فازدهرت خلال الألف الثالث المتأخر، وبلا ريب إلى أقصى حد، شكلت

هذه المنطقة جزءاً من الأرض المعروفة في مصادر بلاد ما بين النهرين باسم ماغان، التي كان لها ملكها الخاص أو حاكمها، الذي هاجمه أكثر من مرة ملك أكد، ثم دعمتها في وقت لاحق سلالة لجش الثانية وسلالة أور ـ باعتبارها مصدر خشب وحجر ونحاس قبل كل شيء ـ.

ويفوتنا إدراك «آليات» هذه التجارة، ونادراً ما يصح القول بأن صادرات بلاد النهرين إلى شبه جزيرة عمان إنما هي «أصناف كمالية» عندما نعلم في الواقع أن أدنى الصوف والنسيج كانا يرسلان جنوباً إلى ماغان. مع ذلك يحتمل أن تكون النخبة المحلية تقدّر السلع الموردة من بلاد ما بين النهرين إلى ماغان، وأطرتها باعتبارها فقط أجنبية، وبالتالي غريبة نوعاً ما. مع ذلك، تتوازى التغييرات السياسية والاقتصادية التي أعقبت سقوط سلالة أور الثالثة، في شبه جزيرة عمان، مع زوال مركّب أم النار.



الفصل السابع

المراكز الخليجية الرئيسة المتعاملة مع العالم

قام الخليج العربي بثلاثة أدوار بين عالمين شهيرين: أولهما العالم الهندي أو معمورة بحر الهند، والثاني العالم المتوسطي أو معمورة البحر المتوسط. وتعبير العالم مستحدث في اللغة العربية، يقابله تعبير المعمورة أو المسكونة، ترجمة عن اللغة اليونانية. وهو حيّز أرضي حضاري أو متحضّر، ينعم باقتصاد متميز، توحّده ثقافة معيّنة، ويؤمن بمعتقدات خاصة به، ينزع إلى التعامل تجارياً مع أمثاله في أنحاء الدنيا، ويحمل إليهم حضارته الفكرية والتقنية، ويتلقى منهم ما عندهم مما ليس لديه ما يحاكيه.

أما الدور الأول الذي أخذه الخليج العربي على عاتقه فهو السماح، بلا قيد أو شرط باتصال عالم الهند وما وراءه، بوسائله الخاصة، بعالم المتوسط وما وراءه، إما مباشرة عبر مياهه الإقليمية وباحته، أو بصورة غير مباشرة عبر برّ سواحله، والعكس بالعكس. فهذا هو المرور من بحر الهند إلى البحر المتوسط، بالبحر فالبرّ، أو الانتقال من المتوسط إلى بحر الهند برّاً أولاً ثم بحراً بعده.

أما الدور الثاني، فهو ذهاب مراكب الخليج التجارية، الخاصة به، إلى بنادر الهند وما وراءها حتى الصين، ونقل السلع منه إلى بنادر الخليج ثم تسليمها إلى قوافل المتوسط أو البحر الأسود، أو نقل بضائع قوافل المتوسط إلى أسواق الهند أو ما وراءها.

ويمثل الدور الثالث والأخير ذروة الحركة التجارية: فسفن بحر الهند، والسفن الخليجية والقوافل المتوسطية، تفرّغ سلعها في مستودعات مراكز الخليج، فيشتريها

التجار، ويشحنونها إلى الجهات التي يشاؤون. وبذا تصبح بنادر الخليج مستودعات بضائع الشرق والغرب ومقرّ جاليات التجار وبوتقة حضارات المقيمين فيها. وما أكثر المراكز الخليجية التي قامت بهذه الأدوار، لكننا لن نتحدث عنها كلها، بل يقتصر كلامنا على أهمها: أي دلمون وسيراف وقيس وهرمز.

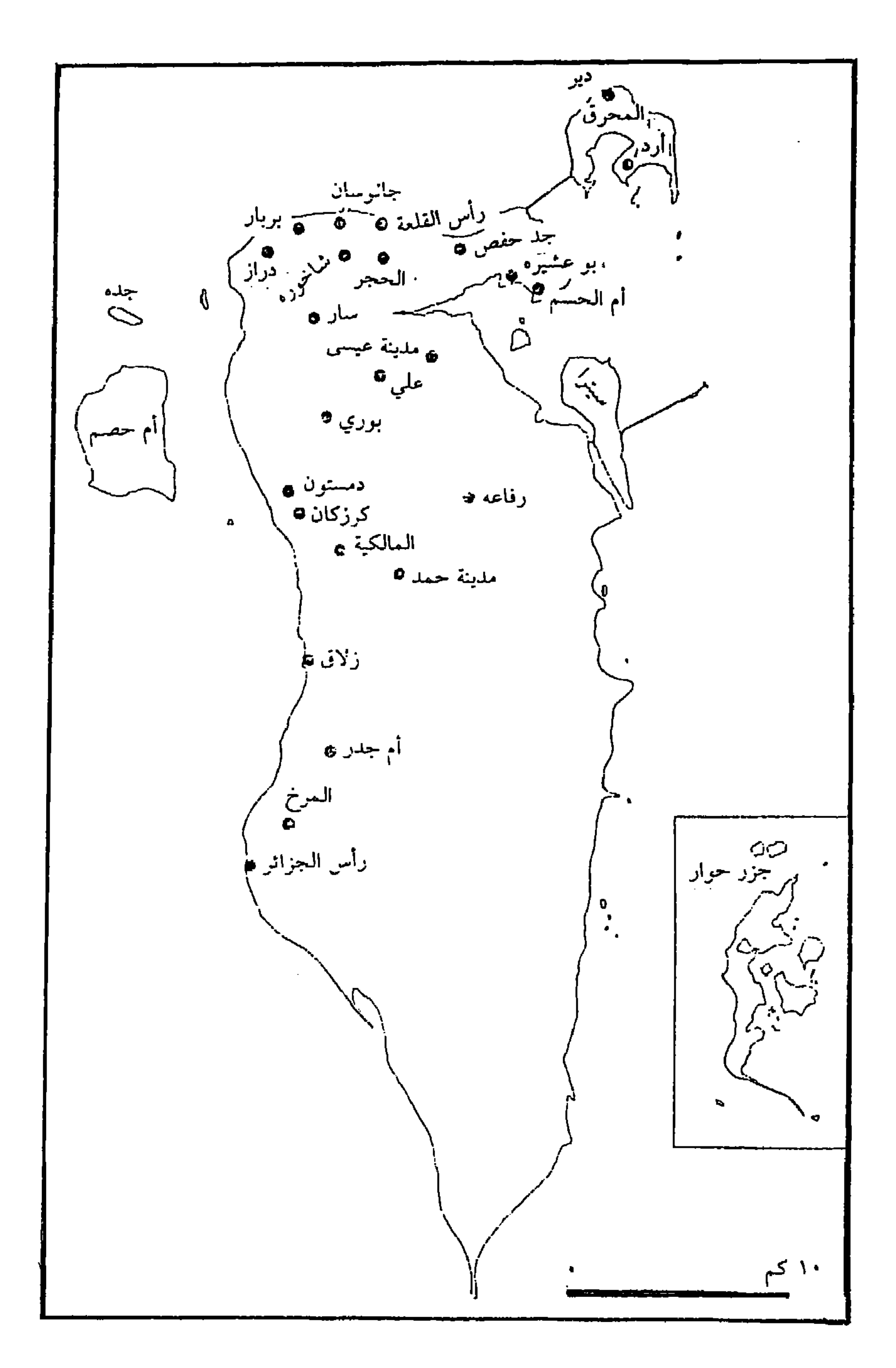
أولاً ـ علاقات دلمون الإقليمية والعالمية من الألف الرابع ق.م. إلى الفتح الإسلامي

فتلمون أقدمها، يرجع تاريخها المعروف حتى الآن إلى الألف الرابع ق.م.، وأعرقها في الحضارة، وأقدرها في التجارة. شكّلت في وقت مبكّر جداً مملكة واسعة، امتدت على ساحل الخليج العربي الغربي من حدود العراق إلى حدود قطر مع الإمارات العربية المتحدة، وتعاملت مع أقرب الأقطار منها، وأبعد الأصقاع عنها كالصين. وحملت ستة أسماء تضمنتها الوثائق التاريخية، هي دلمون وتلمون، وتيلس وتيرس، وأوال والبحرين.

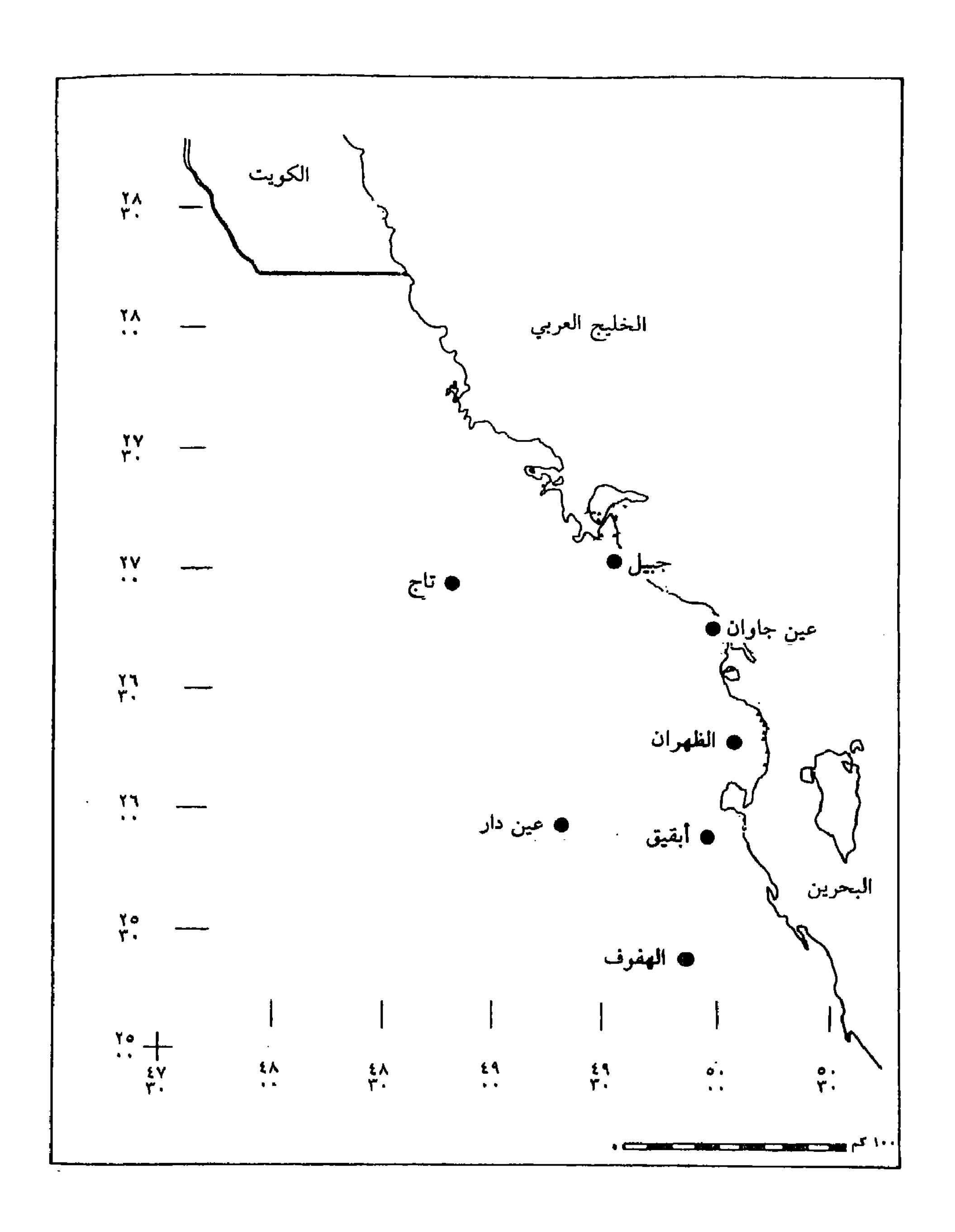
آ ـ ذكر دلمون في أواخر عصور ما قبل التاريخ

درست في السنوات الأخير بعناية كبيرة، أسماء الأماكن الواردة في أقدم نصوص الكتابة التصويرية، المكتشفة في دوري الوركاء المتأخرة وجمدة نصر في جنوبي بلاد ما بين النهرين والمذكورة في النصوص المسمارية العائدة إلى أور العتيقة المتأخرة قليلاً وإلى ما قبل عصر سرجون الأكدي، ففي هذه المجموعة من النصوص عثر على اسم مكان وحيد فقط، يبدو أنه يدل على إحدى مناطق الخليج العربي، وهو «دلمون» التي تسمى في النصوص المسمارية المتدرّج تاريخها من دور الوركاء (أرك) المتأخر إلى العهد السلوقي. وكان المستشرق الفرنسي الكبير ج. أوبرت أول من اعتبر أنها جزر أرخبيل البحرين في سنة ١٨٨٠. وقد بنى أوبرت اختياره على الشبه الكبير بين اللفظ الإغريقي «تيلوس» وهو اسم البحرين في المصادر اليونانية والرومانية، وبين اللفظ الأكدي «تلمون» في حوليات سرجون الثاني الآشوري. وأيّد رأيه سير هنري رولنسن. ورغم الشكوك الطارئة المعبّر عنها على مرّ السنين، سادت القناعة على العموم الآن بأن دلمون القديمة هي البحرين الحديثة ذاتها[١].

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ١٩٩٢، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٨٥ ـ ٨٩.



شكل ١٩ ـ دلمـــون (البحريـن)



شكل ٢٠ ـ دلمـــون المملكـــة (انظر الشكل ١٩ أيضاً)

مع ذلك، لا يستتبع آلياً القول بأن «تلمون» الآشورية الجديدة أو «تيلوس» الهلنستية هي البحرين، أنَّ هذه الجزيرة الأخيرة حملت اسم دلمون في الألف الرابع المتأخر والألف الثالث الباكر ق.م. وكما رأينا، وباستثناء قطعة أثرية وحيدة متعددة الألوان، لا شيء يوحي بأن البحرين كانت حوالي ٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ق.م مجتمعاً متطوراً، له اتصال بجنوبي بلاد ما بين النهرين. من جهة ثانية، توحي لقى كثيرة ذات شبه بلقى عصر فجر السلالات المجمعة من بر جزيرة العرب الشرقية، بأن اسم دلمون، في هذا التاريخ المبكّر، لا يشير إلى البحرين، بل بالأحرى إلى الرقعة التي تشمل اليوم المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية وفي وقت لاحق، أصبح اسم دلمون يعني قطعاً البحرين، تماماً مثل مايعني اسم البحرين ذاته، الذي كان يطلق بدقة في المصادر ما قبل الإسلامية والإسلامية الباكرة، على البرّ الرئيس، ثم صار يستعمل في القرون الوسطى على مجموعة الجزر المقابلة له. نؤكّد إذن أن جزيرة العرب الشرقية، بلقاها العديدة، العائد تاريخها إلى عصر فجر السلالات، هي المنطقة التي تسميها أقدم المصادر المكتوبة دلمون.

ويرد رمز دلمون مرة واحدة في الحد الأدنى في قائمة تعداد المهن (Archaic) العتيقة المتأخرة (الوركاء ٤)، المأخوذة من أرك ـ الوركاء، التي جاء فيها اسم «جابي ضرائب دلمون» (Dilmun-enku$_x$ (ZA))(؟). ويعثر على الاسم ذاته في إحدى نسخ هذه القائمة، العائدة إلى دور جمدة نصر (الوركاء ٣) اللاحقة. وتذكر «فأس دلمون» (؟) (Dilmun-tûn) في أربع نسخ في قائمة المعادن العتيقة العائدة إلى الوركاء ٣ أيضاً. وتكتمل هذه الإشارات إلى دلمون في القوائم السابقة، بورود اسمها أيضاً إحدى عشرة مرة في نصوص اقتصادية عائدة إلى عصر الوركاء الثالثة، حفظ العديد منها حفظاً رديئاً، لكن يتضح فيما يبدو أن ثلاثة من تلك النصوص في الحد الأدنى تتعلق بالمنسوجات، بينما يدوّن في نص واحد أداء أحد مشتقات الحليب (GARA$_2$)، لعله السمن أو القشدة، إلى ستة موظفين رسميين بمن فيهم NUN.E.DILMUN.

وإذا انتقلنا إلى عصر فجر السلالات الباكر، وجدنا أن رمز دلمون في النصوص العتيقة المأخوذة من أور، يظهر كعنصر في تركيب عدة أسماء شخصية. وبطريقة مماثلة، وفي عصر السلالة الثانية التالية الباكر، يعثر على رمز دلمون كجزء من أسماء الأشخاص المذكورة في عشر قوائم جراية، ونصوص تقارير حسابية. إضافة إلى ذلك، يرد رمزها في ثلاث قوائم مفردات مأخوذة من أبو سلابيخ. وإذا ابتعدنا عن تلك الأماكن، وجدنا أن اسم دلمون وارد في نصوص متنوعة من إبله ومذكورة في قوائم

مفردات ونصوص أدبية معاً. ويظهر اسم دلمون أيضاً كعنصر في تركيب أسماء بعض السلع، مثل «قيثارة دلمون» «DILMUN-BA LAG»، و«خبز جعة دلمون» «BAPPIR-DILMUN»، و«نخيل تمر دلمون» «GIS-DILMUN»، و«قصدير دلمون» «NAGGA-DILMUN»، و«نحاس دلمون» «URUDU-DILMUN». ويظهر رمز دلمون في خمسة أسماء مهن أيضاً في الحد الأدنى، مجهولة الدلالة أيضاً(DILMUN, GAL.DILMUN, DILMUN.ZA, DILMUN.KUR, DILMUN.KU_5). ولعل إحدى أهم النقاط في مواد إبله، هي أن وحدة الوزن القياسية، المستعملة عندها حوالي ٢٥٠٠ ق.م، تدعى «شاقل دلمون» «GIN-DILMUN»، ولو كان معنى هذا اللفظ محيّراً.

وآخر النصوص التي نستعرضها هنا، هي النقوش الملكية الخاصة بأور ـ نانشه (حوالى ٢٥٠٠ ق.م)، التي تحوي صيغاً متباينة لتفاخر متماثل.

ـ أور نانشه، ملك لجش، كان لديه سفن من دلمون تنقل له الخشب من الأراضي الأجنبية (إلى لجش): لجش (١ ـ٢).

ـ كان (لديه سفن) من دلمون تنقل الخشب (إلى لجش): لجش (١ـ٥).

ـ كان لديه سفن من دلمون تنقل له الخشب من الأراضي الأجنبية (إلى لجش): لجش (١/١٧، ١/٢٠)، ٢٠، ١/٢٢، ١/٢٣، ١/٢٥، ١).

ولهذه النصوص أهمية كبرى، لأنها تعلن بصراحة أن الخشب الذي يؤتى به من أراضٍ أجنبية نائية على الأرجح، كانت تجلبه سفن دلمون. وهكذا لم يكن الخشب ذاته دلمونياً، لأن التمييز يبدو هنا واضحاً بين دلمون وبين الأراضي الأجنبية غير المسماة. وبهذا الصدد، نذكّر بمراكب «الدو» العربية المستعملة في وقت لاحق متأخر، التي تبحر من بنادر خليجية مثل دبي والمنامة وبوشير، وبقيت حتى وقت قريب «تجلب الخشب من الأراضي الأجنبية»، عادة من الهند ومن إفريقية الشرقية، إلى البصرة والكويت. وفي أواخر عصر سرجون الآشوري، وفي زمن لوكالندا (حوالى ٢٣٧٠ ق.م) وأوروكاجينا (حوالى ٢٣٦٦ ق.م)، يسجل كل نص من النصوص الاقتصادية عقد صفقات تجارية مع دلمون، سوف نناقشها عند دراسة التطورات في الخليج العربي في أثناء النصف الثاني من القرن الثالث.

والآن يبدو أن النسّاخ في دور الوركاء المتأخر وجمدة نصر وفجر السلالات كانوا يجهلون قطر وشبه جزيرة عُمان. ولم يتعرّف الباحثون على ما يقابل أي من جميع أسماء الأماكن العائدة إلى تلك العصور في المصادر المسمارية. ويتعذر تحديد موقع

لأي منها في أرجاء الخليج الأسفل أو مدنه. وسيتبدّل هذا الوضع، مثلما سوف نرى، عندما نعالج العصر الأكدي القديم.

ب ـ دلمون والخليج العربي وبلاد ما بين النهرين الجنوبية حوالى ٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م[(١)]

لا تدع النصوص التي استعرضناها هنا منذ قليل مجالاً للشك بأن معرفة اسم دلمون تزايدت في بلاد ما بين النهرين من مطلع عصر الوركاء المتأخر حتى فجر السلالات الباكر. ونعتقد بأن هذا التصوّر ينعكس في التزايد التدريجي في عدد تحف بلاد الرافدين المكتشفة في جزيرة العرب الشمالية الشرقية، التي بدأت ضئيلة في عصر الوركاء المتأخر وعصر جمدة نصر، وكثرت جداً في عصر فجر السلالات الثاني. وتفرق نقوش أور نانشه بوضوح دلمون عن تلك الأراضي الأجنبية التي كان الخشب يجلب منها إلى لجش. ولا يحصل مثل هذا التمييز في تسميات «نحاس دلمون»، إذا أهملنا ذكر «قصدير دلمون». مع ذلك إذا صحّ اعتبار جزيرة العرب الشمالية الشرقية دلمون الباكرة بالذات، أو حتى لو اختار الأخباريُّ وضع دلمون في البحرين في ذلك التاريخ، فإن المعادن المحمولة من دلمون شأنها شأن الخشب المجلوب في سفن دلمون لأور نانشه، يجب أن يكون أصلها من بلدان أجنبية أبعد. فببساطة لا وجود لا للنحاس ولا للقصدير، لا في المنطقة الشرقية السعودية ولا في جزر البحرين. أما بلد منشأ القصدير فيُخَمَّن تخميناً فقط، وإن كان لا يستبعد أن يكون أصله من أفغانستان، ثم تم نقله على مراحل، عبر بلوشستان أو كرمان قبل وصوله إلى الخليج.

لكن يحتمل إلى أقصى حد أن تكون مكامن النحاس الغنية في عُمان، القريبة نسبياً من جزيرة العرب الشمالية الشرقية، مصدر شحن أول كمية نحاس وصلت من دلمون إلى بلاد ما بين النهرين الجنوبية وإبله. علاوة على ذلك، وكما رأينا من قبل، أعطى عدد من المواقع الأثرية في شبه جزيرة عُمان، مجموعة تحف أصلها من بلاد ما بين النهرين، تشتمل على جرار من نموذج جمدة نصر في قبور حفيت، وأوانٍ فخارية برتقالية اللون، جمعت من جزيرة أم النار ومن هيلي ٨، وخرز خزفي مأخوذ من طوي سليم، ويحتمل أيضاً أن يكون النحاس العُماني قد استعمل في أور وسوسة معاً في عصري السلالتين الثانية والثالثة الباكرين. ثم إن النقص الظاهري في ورود أي اسم مكان في المصادر المسمارية العائدة إلى ما قبل عهد سرجون الآشوري، الممكن اعتباره عُمان، واقترانه بذكر فأس دلمون في قائمة المعادن العتيقة،

---

(١) المرجع ذاته، ص ٨٥ ـ ٩٢.

العائد تاريخها إلى الوركاء ٣، وبذكر نحاس دلمون في إبله بعد عدة قرون، يجعلان معقولاً الاقتراح بأن عُمان كانت أبعد مصدر للنحاس، الذي سمي بعد وصوله في النهاية إلى بلاد الرافدين وإبله، «نحاس دلمون»، لأن دلمون وردّته مباشرة. عندئذ أصبح التصوّر كما يلي: يعثر على مخلّفات أصلها من بلاد ما بين النهرين، في جزيرة العرب الشمالية الشرقية، التي نعتبرها دلمون، ولا ذكر لاسم عُمان البتة، وبعد التمحيص، لا ترد معلومات حسية عن المنطقة في المصادر المسمارية العائدة إلى ما قبل عهد سرجون الآشوري. لكن يعثر في شبه جزيرة عُمان على مواد وافرة، أصلها من بلاد ما بين النهرين. ويوحي هذا الوضع بوجود علاقات مباشرة بين بلاد الرافدين وبين دلمون التي كانت واسطة في نقل السلع المشتراة من عُمان ـ النحاس بصورة رئيسة والخشب أيضاً تخميناً (القُرْم المحلي أو الأخشاب المشتراة تجارياً من بلدان أجنبية بعيدة)، والقصدير (المشترى تجارياً) ـ إلى بلاد ما بين النهرين الجنوبية، ووسيطاً في نقل تحف بلاد ما بين النهرين التي عثر عليها في مواقع أثرية في دولة الإمارات العربية المتحدة وعُمان. ويحتمل ألا يكون الاتصال المباشر مستحيلاً، ولو صح ذلك، علينا أن نتوقّع العثور على اسم ماغان، التي عرفت بها شبه جزيرة عُمان في دوري أكد والورقاء ٣، في النصوص العائدة إلى ما قبل عهد سرجون الآشوري. ولما كانت هذه الناحية ما تزال غير واضحة حتى الآن، نفضّل أن نفترض أن نقل السلع من بلاد ما بين النهرين إلى شبه جزيرة عُمان كان يمرّ بأيدي الدلمونيين.

ويجوز الاحتجاج بأن اتصالاً من نوع ما ظلّ قائماً بين بلاد ما بين النهرين والأراضي المتاخمة للخليج العربي، منذ دور العبيد فما بعده. وقد لا يتعدّى ذلك الاتصال قيام عدد محدود من مراكب السمك العائدة إلى بلاد ما بين النهرين، كانت تصطاد مقابل ساحل العربية السعودية وقطر والإمارات. ويمكن أن يجري الاتصال أحياناً على مستويات أخرى. أما النقص الظاهري في وجود مواد تثبت هذا الاتصال من دور العبيد المتأخر إلى دور جمدة نصر، فيحتمل أن يكون وهماً ناشئاً عن صدف الاكتشاف. رغم ذلك، يبدو فعلاً أن عصر فجر السلالات قد أعطى كمية أساسية من المواد أصلها من بلاد ما بين النهرين، ليس لها ما يقابلها في القرون المبكرة حتى دور العبيد. فإذا كانت هذه الناحية تمثل تزايداً حقيقياً في كثافة الاتصالات بين جنوبي ما بين النهرين وبين منطقة الخليج، يستطيع الآثاري أن يتساءل عن السبب الذي أدى إلى تنشيط مثل هذا التطور في مثل هذا الوقت.

وفي عام ١٩٦٥، أشار أ. بورادا إلى البدء بإلقاء نظرة دولية على دور

جمدة نصر. إلا أننا نعرف الآن، بعد إجراء عدد كبير من التنقيبات في فارس وبلاد الشام والأناضول والخليج العربي، مهما كانت النظرة الدولية الخاصة بدور جمدة نصر، إنها بدت على نطاق واسع جداً ظاهرة تجلى فيها أقوى تأثير لها في مناطق واقعة شرقي بلاد ما بين النهرين ذاتها وجنوبيها. وظنّ في البدء أن إشعاع حضارة بلاد الرافدين الجنوبية وصل إلى بلاد الشام والأناضول ومصر والمشرق في دور جمدة نصر، لكن أصبح الآن معروفاً أن ظهوره اقتصر على دور الوركاء الأخير. وتبدو بعض المواقع الأثرية في بلدة مثل تل حبوبة الكبيرة الجنوبية، وتل قنّاص، وجبل عروضة، أنها كانت مستعمرات حقيقية لمهاجرين جاؤوا من جنوبي بلاد بابل، واستقروا فيها في دور الوركاء الأخير، في حين بانت المواقع الأثرية الأناضولية الأبعد مثل أرسلان تيبه، وتيبة شيك، وحسك هويوك، وكأنها مستوطنات لأهل البلاد لها صلات بأبعد مستعمرات الوركاء إلى الجنوب، إن لم يكن ببلاد بابل ذاتها. وتعتبر هذه المجموعة من المواقع الأثرية على العموم وكأنها حدود «خط تموين» يزوّد بلاد بابل الداخلية بالمواد الخام التي تحتاجها.

ولعلّ لهذا الوضع الذي وصفناه منذ قليل أهمية بالنسبة إلى تاريخ الخليج العربي المبكر، لأن نظام المستعمرات في دور الوركاء الأخير وفي المواقع الأثرية التابعة لها في الشمال، يبدو لأسباب مجهولة حتى الآن، أنه وصل إلى نهاية حادة في دور الوركاء الأخير ذاته. ويخرج تقدير أسباب هذا التطور عن موضوع هذا الكتاب. فلعلها انطوت على صعوبات نشأت في الجنوب أو برزت عند نشوب الحروب في الشمال. مهما يكن، يحتمل أن يكون تدنّي ورود المواد الخام إلى بلاد بابل قد أسهم بتجدّد الاهتمام أو بتزايده في منطقة الخليج التي يمكن الحصول منها على العديد من السلع ذاتها، إن لم يكن عليها كلها. وتبيّن الإشارة الوحيدة إلى دلمون في نص الوركاء ٤، وانهيار الميزاب الوحيد في منطقة الظهران، أن هذه البقعة لم تكن مجهولة تماماً في بلاد بابل الجنوبية في دور الوركاء الأخير، أو أن ذكر دلمون في النصوص العتيقة تزايد في دور جمدة نصر. كذلك تُحَفُ بلاد ما بين النهرين في جزيرة العرب الشمالية الشرقية وفي شبه جزيرة عُمان. واستمرت هذه النزعة في الدور الثاني والثالث من ت د ED.[١] فعلى هذا الأساس، يبدو أن تطورات متباعدة في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام في دوري الوركاء ٣ وجمدة نصر، أثرت تأثيراً عميقاً في الخليج العربي، إذ

(١) ت د : تنقيبات دلمون.

حرّكت بعض النزعات المحتّم أن تتواصل في عصر فجر السلالات الباكر وبعدها. وإذا تفحّصنا موادنا وراء ستارة عريضة جغرافياً، أمكننا أن نتوصل إلى تقويم قُوى أشدّ تؤثر في شؤون الخليج الداخلية والخارجية في فترة مبكّرة من تاريخه.

جـ ـ دلمون في أواخر عصري السلالة الأكدية المبكّرة وسلالة أور الثالثة ٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م[١]

ناقشنا من قبل دلالة اسم دلمون حتى منتصف الألف الثالث ق.م في الحد الأدنى. فتبيّن لنا أنه لم يطلق أبداً على جزيرة البحرين الحديثة، بل أنه كان يعني البر الساحلي الرئيس في جزيرة العرب الشرقية. وبالتالي، لا مجال للشك بأن البحرين أخذت تلعب دوراً أهم من دورها السابق مع بدء الاستيطان في رأس القلعة وتأسيس المعبد الأول في بربار، على الأغلب في العصر الأكدي الباكر. ويُعَدُّ تل تاروت الموقع الأثري الوحيد في شرقي المملكة العربية السعودية، الذي يعود إلى الألف الثالث المتأخر، الممكن مقارنته برأس القلعة وبربار، إلا أن صغر حجم كيان تل تاروت لا يوحي بأن أهميته كانت تضاهي أهميتهما في ذلك الزمن.

مع ذلك، أثبتت المواد الأثرية، المأخوذة من سبر الحائط الشمالي الذي يتجه فعلاً من الشمال الغربي إلى الجنوب NWS، خاصة فخار أم النار، وخزف بلاد ما بين النهرين البرتقالي اللون، ونموذج موازين وادي نهر الهندوس، وأختام الخليج العربي، إثباتاً قاطعاً، ابتداء مرحلة جديدة من انفتاح دلمون وبلوغ اتساع علاقاتها المستوى الدولي حوالى القرن الرابع والعشرين ق.م. وقد تعتبر المواد المناقشة في هذا البحث انعكاساً لدلمون التاريخية، التي أصبحت أهميتها أوضح كثيراً، عندما وصلت إلى الألف الثاني الباكر ق.م. ولما كانت مرحلة دلمون الأولى تمركزت، لا على البر الرئيس، بل على جزيرة البحرين المقابلة للساحل، ولو كان توثيقها أضعف من توثيق خليفتها فترة ايسن لارسة، فقد تركت بعض التأثير في تدوينات البر الرئيس في بلاد الرافدين. والآن ننتقل إلى هذه المواد.

١ ـ ولا يقل ورود اسم دلمون في نصوص لجش الاقتصادية، العائد تاريخها إلى عهدي لوكالندا وأوروكاجينا في منتصف القرن الرابع والعشرين ق.م، فلنتفحص هذه المصادر حسب تسلسلها الزمني جهد المستطاع. نجد أن نصّين يعود تاريخهما إلى

(١) المرجع ذاته، ص ١٨١ ـ ١٩١.

السنة الأولى من عهد لوكالندا يدوّنان وصول النحاس من دلمون. ففي إحدى الحالتين، تلقّت دمتور، زوجة حاكم لجش انترزي ٢٣٤ مينا من النحاس من دلمون عن طريق التاجر أور ـ أنكي. وهذا يعادل تماماً أقل من ١٠٠ كغ من النحاس. وفي حالة أخرى، جلب أور ـ أنكي كمية مجهولة من النحاس للوكالندا. وكان يحتفل بإياب السفن سالمة من أمثال هذه الرحلات، بتقديم عدة نماذج برونزية لسفن دلمون للآلهة ننشي في السنة التالية. ويدوّن نصّ يعود تاريخه إلى السنة الخامسة من حكم لوكالندا، تموين مثل هذه الحملات التجارية. وقد تلقى التاجر أور ـ أنكي منتجات متنوعة من الحليب والحبوب مع الدهن والمرهم وصمغ الأرْز، من سابور مفتش لوكالندا لمقايضتها في دلمون بالنحاس، تقديراً. وبعد مضيّ عام سجّلت كمية من الصوف و٦ مينا من الفضة لكي تصدر إلى دلمون، بينما دوّن نص ثانٍ من السنة ذاتها وصول ٢١٤ مينا نحاس إلى لجش.

٢ ـ وننتقل إلى عهد أوروكاجينا، فنجد نصوصاً من السنة الأولى والثالثة لحكمه، تسجل تسليم أكسية منسوجة من كتان دلمون (gade-dilmun-u-la) لتزيين تماثيل العبادة في مناسبة الأعياد التي تكرّم الآلهة بابا. وكانت سكسك زوجة أوروكاجينا تقدم الأكسية. وفي السنة الثانية لحكم أوروكاجينا، أشير إلى نموذج سفينة دلمونية أخرى من البرونز قُدِّمَ وفاءاً لنذر، إلى الآلهة ننشي. وأثبتت عدة نصوص أخرى، يعود تاريخها إلى هذه الفترة، ولوع السومريين بـ (Sum-dilmun[ki])، المترجم «بصل دلمون» أو «ثوم دلمون». لكن يتضح من كثير من النصوص أن هذين الصنفين كانا يزرعان في لجش، ولا يستوردان. ولا ريب أن أقدم وأبكر إشارة سرجونية معروفة جيداً إلى دلمون واردة في نسخة بابلية قديمة عن نقوش تماثيل ملوك أكد، المأخوذة من نيبور. وقد ترجم المقطع الوثيق الصلة بالموضوع ترجمات عديدة متنوعة غيّرت تبايناتها الضئيلة لهجة الرواية تغييراً طفيفاً. ويمكن التعبير عن مضمونها الرئيس على الوجه التالي:

قاتل سرجون ملك كيش في ٣٤ معركة، وانتصر فيها. ودمّر أسوار المدن حتى سيف البحر. وكانت سفن ملوخة وماغان ودلمون تربط عند رصيف أكد.

وأجرى العلماء تعليقات جمّة على تأويل تلك الرواية. فبعضهم رأى فيها تعبيراً عن إخضاع أكد للأراضي المذكورة، واحترس آخرون، وأظنهم مصيبين، فرأوا في التأويل لا دليلاً على السيطرة السياسية، بل إشارة إلى أن خطوط المواصلات أصبحت

الآن متصلة بالأراضي التي تزوّدها بموارد «البحر الأسفل». أما اقتراح لارسن الجديد، القائل بأن فرضة أكدية استحدثت في البحرين، وسيطرت على تجارة ما وراء البحار، فلا أساس له البتة من الصحة.

وتندر النصوص الأكدية القديمة، التي تذكر مبادلة تجارية مع دلمون. وقد نشر منها أقل من اثني عشر نصّاً حتى الآن، تأتي من أُمّة أربعة نصوص منها في الحد الأدنى وثيقة الصلة بالموضوع. فالنص الأول يتحدث عن وديعة دقيق، محملة على مركب ذاهب إلى دلمون، مرسلة إلى وكيل ليبيعها بالأمانة. ويعود النص الثاني إلى عهد شار ـ كالي ـ شرّى، ويروي توزيع الخبز والشراب على دلمونيين. ويرد ذكر رجال من دلمون في نصين من أُمّة غير منشورين. وفيما عدا هذه النصوص، يشير نص وحيد من جرسو إلى عمال يعتنون بـ«عنبر» (؟) مركب دلموني، كما جاء في قسم من أحد النصوص النيبورية إعطاء موظف رسمي ٣٠٠ ليتر دقيق من أجل سفينة دلمونية. وفي نيبور، في عهد شار ـ كالي ـ شرّى أهديت مرتين أكياس بصل لعمال «قلفطوا سفينة دلمونية»، بينما شحنت في وقت آخر أربع حاويات بصل في مركب دلموني، وفي وقت آخر أيضاً، وهبّ ملاح سفينة دلمونية ٢٤٠ رزمة بصل. ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذه المجموعة الصغيرة من النصوص، أربعة نصوص أكدية قديمة في الحد الأدنى، تذكر نوعاً من النحاس يسمى آ ـ ان ـ دا (urudu-a-En-da or a-En-da urudu)، قيل بوضوح في عدة نصوص أخرى بأنه يأتي من دلمون، فاقترح هـ. ويتزولدت أن التسمية تشير بحد ذاتها إلى نحاس محمول من دلمون، حتى لو لم يرد صراحة أن دلمون مصدرها.

٣ـ وفي عهد جوديه (كوديه)، ورد صراحة في متن نقش تمثاله د D، أن دلمون تورّد الخشب للجش. ويعثر على إشارة ثانية غير مباشرة إلى شراء جوديه النحاس والخشب من دلمون على الاسطوانة آ A، التي جاء في نصها أن جوديه:

ناجى ننزاكا (الإله) الذي ينقل النحاس وشحنات الحبوب إلى جوديه. وناجى الإله ننسيكيلا الذي ينقل الحور الكثير والساج ـ خشب يأتي من وراء البحار ـ إلى الحاكم الذي يبني معبد اينونو.

ويعني هذا النص مثلما اقترح ا. فلوكنشتاين، أن تلك السلع تشترى من دلمون فقط، لأن ننزاكا وننسيكيلا صيغتان مختلفتان لاسمي ان/ان ـ زاك/زاغ In/En-zak/zag ومسكيلاك Meskilak اللذين ثبت في وقت لاحق أنهما أشهر إلهين في دلمون. أضف

أن الإشارة إلى ننزاكا وننسيكيلا توحي بأن تكوين مجموعة آلهة دلمون (بانثيون) قد اكتمل حوالى العصر السومري الجديد. مع ذلك، لما كانت معظم الأدلة المكتوبة الخاصة بهؤلاء الآلهة يعود تاريخها إلى عصر لاحق، فلن نناقشها الآن.

وفي عصر أور ٣، بدت ماغان أهم من دلمون في نظر سكان ما بين النهرين. مع ذلك، تلاحظ قلة ذكر دلمون في المصادر المسمارية العائد تاريخها إلى هذا العصر. فقد ورد في نص رسول غير مؤرخ مأخوذ من جرسو، توزيع جرايات دقيق على ساعٍ يسمى أور ـ دموزي، وعلى «ضباط الملك» المرضى القادمين من دلمون. وتتضمن قائمة ذبائح حيوانية مقدمة «لمختلف الآلهة وأشياء العبادة» من دريهم، وهو الاسم الشخصي لـ «لو ـ تلمون كي»، أي «رجل تلمون»، الذي يمكن أن تنطبق عليه الملاحظات ذاتها التي أبديت من قبل بشأن لو ـ ماغان كي. وهنالك نصا دريهم آخران يعود تاريخهما إلى السنة الثانية من حكم أمارسين (٢٠٤٥ ق.م)، يسجلان إعطاءكبش مسمّن وكبشين «لعموريين وعرّافين، آتين ؟؟ من دلمون». ولا يتضح تماماً ما إذا كان هذا الكلام يجب أن يفهم على أنهم «عموريون وعرافون دلمونيون»، دون وجود علاقة حتمية بين الفئتين، أو «عرافون عموريون من دلمون». مهما يكن تؤكد نصوص لاحقة وجود أشخاص يحملون أسماء عمورية في البحرين. لذلك لا يفاجىء وصول عموريين من دلمون.

ويسجّل نصّ غير مؤرخ من أمة، ونص آخر من مجموعة هيلبريخت من جينا استيراد مادة غير مسماة (شيم ـ تلمون). واقترح جونز وسنايدر أنها نوع من التوابل، وافترض بوتز حديثاً أنها الخزامى، وهي زهرة محلية تنمو في شبه جزيرة العرب، لا وجود لها الآن في جنوبي العراق. ولم تذكر كمية تلك المادة في نص جينا، لكنها خمس مينات (حوالى ١,٥ كغ) في نموذج مدينة أُمّة.

وتسجّلت حالة التصدير الوحيدة إلى دلمون خلال عصر أور الثالثة في نصّ، تاريخه سنة أبي ـ سين الأولى (٢٠٢٨ ق.م) عثر عليه في أور. ففيه ورد: «أن عشرة «جونات» (حوالى ٣٠٠ كغ) من الصوف المتنوع من الصنف الخامس. . . كانت محملة على سفينة ذاهبة إلى دلمون». وهذا النص نموذجي في الواقع في إثباته أن أسوأ أنواع الصوف والمنسوجات كانت بلاد الرافدين تصدرها إلى بلدان الخليج. بقي علينا أن نشير إلى نصٍّ أخير من أور، فيه إحالة إلى لوح «حجر دلمون $dub\text{-}na_4\text{-}tilmun\text{-}la$» ويبدو معنى هذا الكلام غير واضح، وإن كان يجوز فعلاً أن يقصد به، كما في حالة «حجر

مرخشي» نوع من الحجر المرتبط بدلمون.

نتنقل الآن إلى قضية نظام المقاييس والموازين في دلمون، إذ يعدّ وجود أنظمة موحّدة للأوزان والمقاييس إحدى ضرورات اقتصاد توزّع فيه سلطة مركزية جرايات مثل الدفع العيني لقاء تقديم خدمات، أو عند إجراء صفقات طبيعتها التجارية غالبة. ولا توجد إحالات أكدية قديمة أو سومرية جديدة، إلى وزن نموذجي دلموني، إلا أن أوزاناً حجرية يعثر عليها فعلاً في مستويات يعود تاريخها إلى هذه العصور وتظهر في سبر الحائط الشمالي المتجه فعلاً من الشمال الغربي إلى الجنوب NWS منذ المستوى ٢٣ (المدينة ١ المتأخرة). وعثر على أوزان حجرية مماثلة حتى المستوى ١٩، من تاريخ المدينة ٢ ـ أ ٨، وبالتالي في الألف الثاني الباكر. أما الأوزان السبعة، التي عثرت عليها الحملة الدانماركية، فعلى نوعين. فأربعة منها شبه كرات حجرية جانباها منبسطان، وثلاثة منها مكعّبات صغيرة من الصوان الخالص أو غير النقي. وقد أوجزت المعلومات المتوفرة عن أوزان البحرين في الجدول ٤ التالي:

جدول ٤ ـ أوزان البحرين في الألف الثالث المتأخر

رقم التسجيل	الوزن (غ)	الشكل	المادة
520 AOI.......	١,٨	مكعب	ستيياتيت
520 AMT.......	١٣,٥	نصف مكعب	ستيياتيت
520 ANA.......	١٣,٩	شبه كروي	ستيياتيت أسود
520 TH.......	٢٧	مكعب	صوان غير نقي
520 ALV.......	١٧١	شبه كروي	حجر كلس ناعم الحبيبات
520 ANG.......	٦٧٠	شبه كروي	رخام أصفر (؟)
520 ALM.......	١٣٧٠	شبه كروي	رخام أصفر (؟)

ويعطي نصّ بابلي قديم من أور مدوّن فيه وصول شحنة نحاس بالبحر من دلمون، الأوزان الوثيقة الصلة بالموضوع بوحدات مينا خاصة بدلمون وبأور، فيمكّن من تحديد القيمة المطلقة لمينا دلمون بحوالى ١٣٥٠ غراماً. وكان نظام الأوزان في دلمون متقلباً كثيراً وقابلاً للتحويل، ليتوافق مع العديد من النماذج القياسية الأخرى، بما فيه أنظمة هارابا ومصر وبحر إيجه والغرب السوري الحثي. ونسبة مينا دلمون إلى مينا أور التي تساوي ٥٠٠ غرام، كنسبة ٨ إلى ٣ تقريباً، لكن بينما كانت مينا أور مبنية على أساس النظام الستيني (٦٠ شيكل= ١ مينا، ٦٠ مينا= تالنت واحد)، كانت مينا

دلمون قابلة للقسمة على ١٠ (أو مائة) وعلى ٨ (أو ٨٠). وإذا قسمنا على ١٠٠ أو ٨٠، وجدنا أن الوحدة الأساسية لمينا دلمون كانت ١٣,٥ غ أو ١٧ غ. وتمثل الوحدة ١٧ غ ضعف شيكل بلاد الرافدين الذي يساوي ٨,٥ غ بينما وحدة ١٣,٥ غ هي الوحدة المبني عليها نظام هارابا. وهي أيضاً الوحدة الأساسية التي عثر عليها في مصر من السلالة الرابعة إلى السلالة ١٨.

واتخذ وجود الأوزان الحجرية في البحرين معنى إضافياً، بعد أن تبيّن أن الأوزان الملكية الصغيرة فيها كانت عملياً مشابهة لأمثلة من أوزان موهنجو ـ دارو وهارابا في المظهر والوزن. وافترض بيبي Bibby اشتقاق مينا دلمون من منطقة نهر الهندوس، واعتبرها أيضاً دليلاً آخر على أهمية العلاقات التجارية بين المنطقتين. وتتأيد وجهة النظر هذه بإثبات المصادر المسمارية، المعاصرة لأوزان البحرين الأولى، وجود جماعات من الملوخيين، يمثلون على الأرجح هنوداً اثنيين أو ذراريهم، في أراضي لجش. إضافة إلى ذلك، لا بدّ أن السفر البحري بين بلاد الرافدين الجنوبية وبين وادي نهر الهندوس، شمل البحرين في ذلك الوقت، كما يوحي به استعمال كتابة هارابا على أختام الخليج العربي، ووجودها في أور. مهما يكن، يظل اشتقاق مينا دلمون من وادي نهر الهندوس موضع جدل، ويستطيع الباحث أن يفترض أيضاً أن أصل نظام الأوزان من دلمون، ثم انتشر في وقت لاحق منها باتجاه الشرق. فتثار قضية الأولية، لا بأوزان البحرين، بل بالأحرى بنصوص إبله، التي كانت الأوزان فيها يعبّر عنها في الغالب بشكلات دلمونية منذ حوالى ٢٥٠٠ ق.م تقريباً. ورغم إبداء د.أ.ادزارد وج.كريشر شكوكاً بشأن وجود صلة بين شيكل دلمون (جن ـ دلمون) في إبله وبين أراضي دلمون، فإن ج.بيتيناتو أبان أن ضخامة عدد ورود اسم دلمون في أطر أخرى في مجموعة إبله، يدفع إلى الظن بصورة معقولة بأن اسم الشيكل ينبغي أن يفهم بأنه يعكس الاتصال بين إبله ودلمون. إضافة إلى ذلك، يصطدم اشتقاق الوزن القياسي (المعياري) في دلمون من وزن وادي نهر الهندوس بكون الأوزان لم يثبت وجودها في معظم وادي نهر الهندوس قبل فترة هارابا الناضجة، العائد تاريخها إلى الألف الثالث المتأخر والألف الثاني الباكر ق.م. وما لم يتسنَّ إثبات وجود الأوزان المبنية على أساس معيار ١٣٥٠ غ في وادي نهر الهندوس قبل حوالى ٢٥٠٠ ق.م، يتحتم على الباحث في الحد الأدنى أن يثير إمكانية إرجاع أصل الوزن القياسي إلى دلمون أثناء عصر ما قبل سرجون. ثم انتشر في وقت لاحق باتجاه الشرق حتى وادي الهندوس. وهكذا لا ريب أن الآلية ماثلت الآلية التي افترضها بيبي، أي المبادلات التجارية، لكن

يحتمل أن يكون الاتجاه معكوساً.

مع ذلك، تبقى قضية قائمة، نعني بها استعمال شيكل دلمون في إبله. وقد حسب آ. دي ميغري القيمة المطلقة لوزن إبله القياسي على أساس عينة مؤلفة من ١٩ وزناً حجرياً استعيدت من إبله، وعثر على شبه كرة هيماتيت ـ تامة تقريباً ـ تزن ٧,٩ كغ، واعتبرت شيكل إبله، بينما قدرت المينا التي تساوي ٦٠ شيكل، بحوالى ٤٧٠ غ، مما يوحي بأن نسبة مينا دلمون إلى مينا إبله كانت تقريباً ٣:١. ولا تخلو محاولات تحديد العلاقات المتبادلة بين النظامين من مشكلاتها، إلا أن س. زكّانييني أبدى حديثاً عدداً من الملاحظات أبانت أنه يحتمل أن تمثل عدة أوزان من إبله أجزاءاً من مينا دلمون ومضاعفات لها. وهذا ممكن.

* * *

وبذا تميزت نهاية الألف الثالث بحدوث تغيير هام في جميع شؤون الخليج العربي الأوسط. فجزيرة العرب الشرقية تبدو وكأنها تخلّت عن تفوقها لجزيرة البحرين، ولن تستعيده حتى العهد الهلنستي. إلا أن إطلاق اسم دلمون على البر الرئيس، ثم تسمية جزيرة البحرين به، ظاهرة تحتاج إلى بعض الشرح.

استعمل اسم دلمون منذ عصر أُرُك (الوركاء) المتأخر في بلاد بابل الجنوبية ليدل على منطقة هامة، لا لسبب السلع التي تنتجها، بل بسبب السلع التي كانت تشتريها من الشرق ثم تعيد بيعها. لكن في الألف الثالث المتأخر بدا أن هذه الجزيرة برزت كمكان أكثر ملاءمة من البر الرئيس لتقديم خدمات دلمون الأولية في البيع والشراء. ولا يصعب إيجاد تفسير لهذا الوضع عندما نفكر بأن نقل السلع من الشرق مسافة طويلة، سواء من شبه جزيرة عُمان أم من وادي نهر الهندوس، يسهل إنجازه في البحر أكثر من البر. وفي هذا المنظور، يحتمل أن تكون البحرين، بما لديها من عيون ماء عذبة تحت سطح البحر، شهيرة بلا شك منذ تلك الأيام، قد فضّلت كمركز وقوف (حطّ) للسفن الصاعدة في الخليج، دون أي مكان آخر على البر.

مع ذلك، قد يتساءل المرء ما إذا كان الاسم يمكن أن يُنْزَع بهذه السهولة من منطقة ويُطْلَق على أخرى، مثلما هو مقترح هنا. والواقع أن هذه الظاهرة ثابت حصولها في وقت لاحق تماماً في المنطقة ذاتها. ففي الجاهلية المتأخرة وفي العهد الإسلامي الباكر، كان اسم البحرين يطلق على كامل الشريط الساحلي من الكويت إلى عُمان. وكانت الجزيرة المعروفة بهذا الاسم (البحرين) الآن، تحمل آنذاك اسم أوال. ورغم

الإشارة إلى الجزيرة باسم البحرين لأول مرة في سفرنامه ناصر خسرو (١٠٣٥ ـ ١٠٤٢م)، فبعد ما يقرب من قرنين تقريباً فقط، وجدنا الجغرافي ابن المجاور (المتوفى ١٢٢٩م) يكرر هذا الاستعمال. ومع ذلك تؤكد مصادر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مثل نيبور، وريتر، وسبرنجر، أن استعمال اسم أوال أهمل، ولو ذكر منذ قرنين فقط. عندئذ في هذه الحالة، لدينا مثال واضح على نقل اسم البحرين من البر الرئيس وإطلاقه على الجزر التي تحمل الآن هذا الاسم. ونود أن نقترح أن وضعاً مماثلاً حصل في الألف الثالث المتأخر ق.م، عندما لم يعد اسم دلمون يطلق على البر الرئيس، بل عوضاً عن ذلك على الجزر المعروفة اليوم باسم البحرين.

وتميّزت القرون القليلة الأخيرة باختلاط بارز لشتى الجنسيات في منطقة الخليج عامة وفي البحرين ذاته خاصة، يحتمل أن ترجع أصوله إلى الانفتاح التجاري في الألف الثالث المتأخر ق.م. وقد علّق ل.لوغرين على نقش سرجون الشهير، فتصوّر أن فتح سرجون للجنوب هو الذي أوجد إمكانية قيام خط تجاري مريح إلى أقصى حد في العصر البابلي القديم.

فقد مهد اندفاعه (الضمير عائد إلى سرجون) إلى الجنوب عبر الأرض السومرية، السبيل لوصوله إلى البحر. فلم يهزم لوكال زاكيزي، ملك أُرُك (الوركاء) فحسب، ويأخذه أسيراً ويمرره في بوابة انليل (في نيبور)، بل خاض قتالاً قاسياً ومتجدداً، واضطر المدن الأخرى: أور، ولجش، وأمّة، وادب، أن تستسلم. وهدم أسوارها. ولم تعد حاجزاً أو تهديداً له. وأصبحت أكد رأس البندر، وربطت سفن ماغان وملوخة ودلمون على الأرصفة مقابل المدينة.

ولا ريب أننا نستطيع، في نطاق مثل هذا الانفتاح للخطوط البحرية، أن نجد تفسيراً للحاجة المفاجئة لظهور أداة ختم في الخليج، تميزت في البدء بفئة أختام الخليج العربي. وقطعاً أدى اختلاط القوميات واتجاهات التجارة الذي اتسمت به هذه الفترة، إلى انتقاء مجموعة فخار سبر الجدار الشمالي NWS، مع استيراداتها الواضحة من بلاد ما بين النهرين وعُمان وفارس، وإلى زخرفة بعض الأختام القديمة جداً في الخليج العربي بنقوش هارابية.

د ـ دلمون وبلاد بابل الجنوبية في عصري ايسن ـ لارسة والبابلي القديم:
٢٠٠٠ ـ ١٥٠٠ ق.م

على وجه العموم، تكشف، وبصورة رئيسة، مجموعة نصوص من أور، تاريخ

علاقات دلمون ببلاد بابل الجنوبية في القرون الأولى من الألف الثاني ق.م، ويمكن أن يضاف إليها عدة نصوص هامة مجهولة الأصل. مع ذلك، لا مثيل لهذه النصوص إطلاقاً، بأهميتها ومضامينها، ونادراً، بسعة شمولها في مجال المواضيع المعنونة، إلا أنها تستعمل استعمالاً واسعاً لايضاح الأطر التي جعلت سكان بلاد ما بين النهرين والدلمونيين يتصلون بعضهم ببعض[1].

وتأتي أقدم الإحالات إلى دلمون، العائدة إلى الألف الثاني ق.م، من عهدي الملكين الأولين من سلالة ايسن الأولى: أشبي ـ أيرا (٢٠١٧ ـ ١٩٨٥ق.م) وشو ـ ايليشو (١٩٨٤ ـ ١٩٧٥ق.م). وتتحدث أربعة نصوص مجهولة الأصل، يرجّح أنها كلها مأخوذة من محفوظات معبد واحد، عن توزيع سلع جلدية مصنوعة لدلمون، يرجع تاريخ اثنين منها إلى السنة ١٣ من حكم أشبي ـ أيرا، فتقع بدقة في آخر الألف الثالث ق.م (٢٠٠٤ق.م) بحسب التسلسل الزمني الوسيط. إلا أنها وضعت هنا، لأنها مسحوبة من محفوظات سلالة إيسن الأولى، وتتصل بحضارتها. والنصان متماثلان، دوّنت في كل منهما حاويات جلود غنم مشحونة إلى دلمون لبيعها بالأمانة. وهنالك نص آخر مشابه، يعود تاريخه إلى السنة ٢١ من حكم أشبي ـ أيرا (١٩٩٦ق.م). ويذكر نصّ آخر، يرجع إلى السنة ٢ من حكم شو ـ ايليشو (١٩٨٣ق.م)، يتحدث عن صنع السلع الجلدية لدلمون والأموريين. ويشير هذا النص مجدداً، هو والنصوص المذكورة سابقاً، إلى وجود علاقات بين دلمون والعموريين. مع الأسف، لا يتضح أبداً في أي نطاق يتمّ توزيع السلع الجلدية على الدلمونيين أو على المتعاملين معهم.

وتلقي النصوص التي نقّب عنها سير ليونارد وولي في أور، نظرة خاطفة إلى آليات التجارة بين أور ودلمون في عصري إيسن ـ لارسة والبابلي القديم. ويتراوح تاريخ نصوص عصر إيسن ـ لارسة الوثيقة الصلة بالموضوع بين السنة الـ ٢٥ من حكم كنكونم ملك لارسة (١٩٣٢ ـ ١٩٠٦ق.م) وبين السنة ١٣ (؟) من حكم سوموايل (١٨٩٤ ـ ١٨٦٦ق.م)، فتمتد على مدى ٢٧ سنة تقريباً يمكن ترتيب تسلسلها الزمني على الوجه التالي:

UET 5.546 [2]: كنكونم ٢٥ = ١٩٠٨ ق.م.

UET 5.286 : أبي سار ٤ = ١٩٠١ ق.م.

---

(١) المرجع ذاته، ص ٢٢١ ـ ٢٣١.

(٢) UET : نصوص تنقيب أور.

UET 5.526 : أبي سار ٥ = ١٩٠٠ ق.م.
UET 5.292 : سوموايل ٨ = ١٨٨٦ ق.م.
UET 5.549 : سوموايل ١١ = ١٨٨٣ ق.م.
UET 5.548 : سوموايل ١٣ = ١٨٨١ ق.م.
UET 5.548 : لا تاريخ، لكنه يدخل في هذه الفئة.
UET 5.678 : لا تاريخ، لكنه يدخل في هذه الفئة.

وتمثل جميع هذه النصوص قوائم بكميات صغيرة من السلع الكمالية تشمل العاج والحجارة نصف الكريمة، والذهب والنحاس، والأدوات الخشبية. وقد عنونت السلع ša kaškal tilmun^ki-na، أي من شحنة إلى تلمون، وذيّلت zag-10 ^dNin-gal-še. وترجمت هذه الجملة في الغالب «عشر الإلهة ننكال»، وهي إشارة ضمنية إلى أن معبد ننكال يحق له أخذ نصيب من الأرباح لقاء اشتراكه في تمويل الشحنة جزئياً. إلا أن ك. بوتز أشار إلى أن معبد ننّا كان في الواقع أغنى وأقوى كيان في أور، وكان يتدخل في تجارة دلمون. بالتالي اقترح بوتز أن عشر معبد ننكال يمثّل عملياً هبة يقدّمها معبد ننّا الذي يموّل شحنات دلمون، ويتلقى ٢٠٪ من الأرباح لقاء توظيفه أمواله فيها، ويحوّل ١٠٪ إلى معبد ننكال التابع له. ويتضمن عدد من النصوص الواردة من قبل ملاحظة تشير إلى أن العشر جاء «من أشخاص ذهبوا بأنفسهم إلى هنالك»، مما يدل على أن تجاراً من أور كانوا يسافرون إلى دلمون على أساس «قاعدة نظامية جيدة». ويوحي اسم أحد التجار ايدن ـ دنين ـ إنزاك، بأن ذلك التاجر كان دلمونياً، لأن إنزاك إله دلمون الأكبر.

وتغفل المصادر ذكر موضوع دلمون بعد حكم سوموايل واستمر تجاهلها إياه حتى عهد ورد ـ سين (١٨٣٤ ـ ١٨٢٣ق.م)، ولدينا نصّ من أور، تتوفر منه اثنتا عشرة نسخة في الحد الأدنى، يتسم بأهمية خاصة، لأنه يذكر «معبد دلمون في أور» é-tilmun-na الذي بناه ورد ـ سين لإينين.

وتتناول مجموعة من النصوص شؤون التاجر أيانصير، الذي يسميه نص منها «أحد تجار دلمون» alik Tilmun، وتوضح المرحلة الثانية من النشاط التجاري الذي ربط أور ودلمون، ولا يحمل أي منها أي تاريخ. لكن يمكن تحديد فترة نشاط أيانصير التجاري بطريقة أخرى: ففي متناول أيدينا وثيقتان مؤرختان، يرد فيهما اسمه، تعود الأولى منهما إلى السنة ١٩ (١٨٠٣ق.م) من حكم ريم ـ سين، والثانية إلى السنة ١١ من حكمه أيضاً (١٨١١ق.م)، وتتضمنان أموراً غير تجارة دلمون. ويشار إلى اشتراك أيانصير في مشاريع تجارية متنوعة شملت دلمون، في النصوص الآتية:

ن.ت.ا.[1] ٥ ـ ٥: أبّا إلى هـ. re نحاس ينبغي أن يعطى لـ نيجّا ـ نانّا.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٦: اربيتورم إلى هـ. re نحاس غير مسلم ينبغي إعطاؤه لـ نيجّا ـ نانّا.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٧: اربيتورم إلى هـ. re نحاس غير مسلم ينبغي إعطاؤه لـ نيجّا ـ نانّا.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٢٠: ايلي ـ ايدينّام إلى هـ. re نحاس لم يسلم يجب تسلميه لـ ايلي ـ ايدينّام.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٢٢: ايلشو ـ ايلاتسو إلى هـ. re نحاس ينبغي إعطاؤه إلى ايزيا وايلشو ـ رابي.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٢٣: ايمجور ـ سين إلى هـ. re نحاس غير مسلم ينبغي إعطاؤه لـ نيجّا ـ نانّا.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٢٩: مخدّم إلى هـ. re سبائك تسلّم لـ سنيكوم واوبياتم.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٥٤: شومي ـ ابم إلى هـ. re شخص متمرّن (؟).

ن.ت.ا. ٥ ـ ٦٦: نانّي (؟) إلى هـ. re نحاس يمتلكه نانّي واريبام ـ سين ينبغي تسليمه لـ إجميل ـ سين.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٧١: أيا ـ جميل إلى هـ. (؟) re شحنات نحاس «وهدايا للبيت».

ن.ت.ا. ٥ ـ ٨١: نانّي إلى هـ. re سوء معاملة هـ. مندوب نانّي، عرضه سبائك سيئة تهديد بالانتقام.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٤٧١: قائمة سلع مسلمَة بالأمانة لـ هـ. من أجل رحلة شراء.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٧٩٦: تقرير عن النحاس الواصل، بالكمية التي يمتلكها هـ. ونويروم ـ ايلي.

ن.ت.ا. ٥ ـ ٨٤٨: قائمة أكسية مرسلة بالأمانة إلى هـ. من أجل رحلة شراء.

بينما تذكر أقدم نصوص عهود الملوك من حكم كنكونم إلى حكم سوموايل حصراً، كميات صغيرة من السلع الكمالية الموهوبة إلى معبد ننكال، تختص مجموعة نصوص ايا ـ نصير بالدرجة الأولى باستيراد النحاس على نطاق واسع. وتشكل معظم هذه النصوص رسائل، تدوّن شكاوي من أيا ـ نصير، قدّمها فرقاء اقترح ليمنز اعتبارهم موظفي الأموال لديه. فإذا حكمنا على أساس عدد الحالات التي وجهت فيها شكاوي

(١) ن.ت.ا. = نصوص تنقيبات أور.

ضده، فإن أيا ـ نصير استحق الازدراء الموجّه إليه في ن.ت.ا. ٥/ ٨١، حيث يرجو نانّي بحرارة: «من هو التاجر الدلموني من بين التجار، الذي تصرّف ضدي بهذه الطريقة»؟. وقد اقترح ليمنز اقتراحاً وجيهاً، مآله أن أيا ـ نصير كان بعيداً عن أور مدة طويلة من حياته مشغولاً بشراء النحاس في دلمون، وأن الرسائل المحفوظة في داره بأور هي الرسائل التي أعادها معه من دلمون. ويحتوي النصان ن.ت.ا. ٥/ ٤٧١ و ٥/ ٨٤٨ كميات من السلع استلمها أيا ـ نصير لكي يشتري بها النحاس. ففي النص الأول ٥/ ٤٧١، فقدت أسماء السلع الحقيقة، وبقيت قيمتها وحدها مدوّنة، فهكذا: «شيكل واحد ثمن. . . ٤ شيكلات قيمة. . .» لكن تسجل في النص الأخير ٥٠ كساءاً، وزنها ٣/ ٢ ١ مينا، قيمتها ٣/ ١ ٧ شيكل، و١٥ شي فضة» بيد أيا ـ نصير. ويكشف نصان آخران، هما ن.ت.ا. ٥/ ٤٢٨ و ٥/ ٣٦٧، عن مزيد من التفاصيل، المتعلقة بآليات تمويل هذه الرحلات التجارية. فالأول منهما غير مؤرخ، رغم انه لوحة تمرين مدرسية يبيّن أن مقداراً محدداً من الفضة يمكن تقديمه كقرض «تدمُكتو» (نوع من القرض يمنح للتجار المسافرين من أجل شراء بضائع من دلمون، كان يجب تسديده «بتاريخ ينبغي تحديده فيما بعد؟» عندئذٍ، في هذه الحالة، يتعرض الشخص الذي يمنح القرض إلى بعض المجازفة، لأن تسديد القرض يتوقف فقط على إنجاز الرحلة بنجاح. أما النص ن.ت.ا. ٥/ ٣٦٧ (المؤرخ ريم ـ سين السنة ٢٨ من حكمه = ١٧٩٤ق.م) فيرينا مباشرة قرضاً من الفضة، وزيت السمسم والمنسوجات، مُنِحَ «من أجل شحنها إلى تلمون لشراء نحاس منها كرأس مال شراكة».

واختار بوتز مجموعة أخرى من النصوص يحتمل أيضاً أن تلحّ على قضية الشراكة والمجازفة في تجارة دلمون. فالنصوص ن.ت.ا. ٥/ ٥٥٤ (ريم سين سنة عاشرة = ١٨١٢ق.م) و ٦٤٣ (ريم ـ سين السنة العاشرة)، و ٥١٩ (ريم ـ سين السنة ١٦=١٨٠٦ق.م) و ٦٦١ (ريم ـ سين ١٩=١٨٠٣ق.م)، و ٥٢٠ (ريم ـ سين السنة ١٩)، و ٦٧٣ (ريم ـ سين السنة ١٩)، تمثّل قوائم أسماء يرد يها اسم أيا ـ نصير في ن.ت.ا. ٥/ ٥٥٤، ٦٦١، ٥٢٠، ٦٧٣. ويسمى في بعض الحالات نيج، وفي بعضها الآخر نام. واقترح بوتز احتمال أن تكون هذه النصوص لوائح شركاء داخلين في شحنات تجارية مرسلة إلى دلمون. وتتضمن لائحة نموذجية من هذا النوع عدداً من أسماء الأشخاص يتبعها اسم ملحق به نيج أو نام. ويظن أن الاسم الوارد بهذا الشكل، إنما هو اسم تاجر من آليك تلمون، أنيطت به مهمة توظيفات جميع الأشخاص المشار إليهم سابقاً. وفي مثل هذه الحالات، يحتمل أن يكون التاجر المسبوق اسمه ببادئة

إلى محاولة التحرّر من نير السيطرة الآشورية على بلاد بابل. وقوّاه تحالفه مع شمبنيكش، الزعيم العيلامي، وساعده تمرّد سوتانّي على آشور في الجهة الشمالية، فتمكّن من السيطرة على الجنوب مدة اثنتي عشرة سنة. وفي البدء لم يكن سرجون في وضع يسمح له بعمل أي شيء حيال مجريات الأحداث، إلا أنه تقوّى بما فيه الكفاية سنة ٧١٠ق.م، فسار على مردوخ بلادان، فهاجم عسكرياً دور ـ اثره، وهزم القبائل الآرامية في شرقي منطقة دجلة، وأجبر شوترك نختني، خليفة همبنيكش أن يهرب إلى جبال زغروس.

وعندما هرب مردوخ بلادان بطريقة مماثلة، وطلب اللجوء إلى عيلام، رفض ملكها طلبه. وهكذا قضي على «الحلف الكبير» في الجنوب. وانسحب مردوخ بلادان إلى أقبي ـ بل على الحدود البابلية العيلامية، ودخل سرجون بابل وبرسيبا ظافراً. ودمّرت معركة نهائية في قلعة مردوخ بلادان في المستنقعات، دور ـ أياكن، القوات الكلدانية، إلا أن مردوخ بلادان نجا من الهلاك ونهض من جديد بعد مضي ستة أعوام.

ووصفت حملة سرجون ثماني مرات في نقوشه الملكية. ولم تمس مسّاً مباشراً أراضي الخليج العربي، إنما زوّدت إعلانات انتصاراته بإطار لمفاخراته، حتى إن أوبيري، ملك دلمون، سمع ببأسه، فحمل إليه الضريبة. وفيما يلي أهم المقاطع بالنسبة إلى مرامينا:

(١) ـ الحوليات، خراساباد، الابهاء ٢، ٥، ٣١، السنة ١٣، الفقرة ٤١

بيت أياكين، الشمالية والجنوبية، حتى مدن سمونه، وباب دوري، ودور ـ تليت، وبوبي، وتل همبا، التي (أو اللواتي) تقع على حدود عيلام، وضعتُها كلها تحت سيطرتي. وأسرت سكان كومّوهو [أي كوماجين] في هتّي، بعون الآلهة الكبار، أسيادي، واستوطنت فيها، وأسكنتهم جميع قفارها. وعلى الحدود العيلامية، أمرت نبو ـ دمك ـ ايلاني أن يبني قلعة في مدينة سكبت، «لأمنع حركة العلاميين». وقسّمت جميع تلك الأراضي، ووضعتها تحت إمرة موظفي نائب الملك في بابل، وموظفي نائب الملك في كمبولو. أما أوبيري، ملك دلمون، الذي يعيش [حرفياً، الذي يقع معسكره] كالسمك، على بعد ثلاثين بيرو [ساعات مزدوجة] بعيداً في وسط بحر الشمس الشارقة، فقد وصلته أخبار بأسي سماعاً، فحمل إليّ هداياه.

(٢) ـ المرجع ذاته، الفقرة ٤٣

. . . تخريب أرضه، وجلاء سكانها، وإخضاع أوبيري، ملك دلمون، الذي يقع مقره

(١٧٨٦ق.م). وتضاءلت تجارة نحاس دلمون تضاؤلاً شديداً.

ولا بدّ أيضاً من ذكر نصين آخرين، يعود تاريخهما إلى أيام أيا ـ نصير، قبل اختتام هذه الفترة الزمنية، أحدهما وثيقة تركة من أور، يعود تاريخها إلى السنة ١٠ من حكم ريم ـ سين (١٨١٢ق.م)، تتضمن لائحتها آنية عاج من دلمون. وهذا النص هام جداً بسبب قلة عدد المواد العاجية، المحفوظة حفظاً سيئاً، التي استعيدت من عدة قبور نقّب عنها في البحرين، بنت، وبريدو وملك كاي وكورنوول. ويرجع تاريخ النص الثاني إلى السنة ١٢ من حكم ريم ـ سين (١٨٠٠ق.م)، ويأتي من لارسة. وفيه تذكر ٤ كور (حوالى ٤٨٠ ليتر) من أسفلت دلمون. وتعرف توضعات القار في العراق الجنوبي وفارس معرفة جيدة، واستعمالها في العصور القديمة ثابت تماماً. فيحتمل أن يكون أسفلت دلمون قد استخدم في بناء سفن دلمون، أو يجوز أن يكون قد جاء من دلمون.

وتحمل تميمة (تعويذة) حجرية اكتشفت في جزيرة سيثيرة اليونانية سنة ١٨٥٢، التكريس التالي الذي عمله الحاكم البابلي القديم الباكر نرام ـ سين أشنونا: «إلى أنزاك آله [دلمون]، نرام سين [بن ابق أدد] من أجل حياته [كرّس هذا]». ويعتبر نرام سين اشنونا بن ابق أدد الثاني، معاصراً لايل ـ سين البابلي (١٨٣٠ ـ ١٨١٣ق.م). ففي أيامه، تعاظم كثيراً نفوذ مملكة اشنونا. لكن يكتنف الغموض ظروف تكريسها لانزاك، والظروف التي حتّمت نقل التميمة ذاتها إلى الايجيين.

ونجهل مصدر النص الوحيد المتعلق بنحاس دلمون، الذي يعود تاريخه إلى ما بعد حكم ريم ـ سين، فهو يرجع إلى السنة الخامسة من حكم سمسو ايلونا (١٧٤٥ق.م). وهو هام جداً لأنه يسجّل في سطر واحد «١٢ مينا من النحاس المكرّر من ألشيا وتلمون». وهذا أقدم شاهد على ذكر النحاس القبرصي في بلاد بابل، وآخر ذكر لنحاس دلمون في عصر بابل القديم. وتجتمع في هذا النص أبعد نقطتين تزودان بلاد بابل بالنحاس، هما الخليج العربي (البحر الأسفل) وحوضة المتوسط الشرقية (البحر الأعلى). أخيراً، يتضمن نصّ من مدينة لجبة غير المحدد ما يقابلها، يعود تاريخه إلى السنة ٢١ من حكم سمسو ايلونا (١٧٢٨ق.م) جرايات شعير أعطيت إلى تلمونيين» lú-Ti-i[l-mu-ni-im] واستلم الشعير رجلان يحمل أحدهما الاسم الدلموني أن ـ سا ـ أك ـ ميل In-sa-ak-mil من دلمون وآخر يسمى شمش ـ نصير šamas-nasir.

١ ـ دلمــون وســوســة

حتى وقت قريب، لم يكتب إلا الشيء القليل عن علاقات دلمون بجارة لها أخرى هامة شمالية، هي سوسة، رغم أن عدة وثائق تتحدث عن الموضوع، عرفت منذ أمد بعيد. ففي عام ١٩٠٥، نشر ف. سغيل نصاً هاماً أخذه من التنقيبات الفرنسية في سوسة، يحيى ذكرى بناء معبد ودرب من آجر طيني لـ «أن ـ شوشيناك»، وأيا، وانزاك، أسيادهم من أجل حياة كوتير ـ ناهّونت، وتمتي ـ أكون». ويمكن تحديد تاريخ هذا النص بحوالي ١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ق.م بسبب التكريس لكوتير ـ ناهّونت الأول وتمتي ـ أكون. وفي عام ١٩٣٩، نشر سشيل نسخة عيلامية وسيطة عن النقش ذاته، يرجع تاريخها إلى عهد شيلهك ـ أنشوشينك (١١٥٠ ـ ١١٢٠ق.م). ومثلما أشار ف. فلاّت حديثاً، تذهل عبادة انزاك إله دلمون الأعظم، في سوسة، وتكريس معبد له. مع ذلك، يصبح مغزى هذه الوقائع هاماً، عندما يستذكر الباحث أن أي إله من آلهة عيلام المحلية لم يكرّم تكريماً مماثلاً في سوسة في ذلك الوقت.

ولم يتعرّف أبداً موضوعياً على معبد أنزاك في سوسة. ويصعب أن ينتقص هذا الوضع من أهمية هذه النصوص، لأنها لا تنفرد وحدها بالتحدث عن عبادة انزاك في سوسة. فالنصوص التالية، التي يمكن أرجاع تاريخها إلى العصر البابلي القديم، أي سوكال ماخ، تتضمن أسماء أشخاص يدخل في تركيبها العنصر الإلهي «انزاك»:

م.ب.ف.[١] ٢٢/١٤٦/٢٠: أن ـ زا ـ كي.

م.ب.ف. ٢٨/ ٤٢٣/ ٨: كو ـ اون ـ ان ـ زا ـ كي.

م.ب.ف. ٢٨/ ٤٣٤/ ٤: أي ـ دين ـ اين ـ زا ـ كي.

م.ب.ف. ٢٨/ ٥٥٠/ ٧: وا ـ تار ـ ان ـ زا ـ أك.

إضافة إلى ذلك، تسجّل لوحتا تمرين مدرسيتان اسم انزاك بصيغ متنوعة، مثل:

$En\text{-}sa_6\text{-}ag$ / An-zag and $Nin\text{-}sag_5$ / $Nin\text{-}sa_6$ / Nin-sag-[ga]

ويمكن مقارنة هذه الصيغ بتكريس أحد الأشخاص المدعو أبّي ـ أرّا، وهو صائغ (؟) إلى إلهة تدعى نين ـ زاك ولم تتأكد علاقة هذه الألهة الانثى بانزاك الذكر.

ويستحق نصان إضافيان من سوسة اهتماماً خاصاً. فالنص الأول جيء به من محفوظات محدودة، اكتشفت في موسم التنقيبات ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، ويعود تاريخه إلى

(١) م.ب.ف. = مذكرات البعثة في فارس.

عهد ملك كوتير ـ نهونتي الأول (حوالي ١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ق.م). وقد دوّن فيه وصول ١٧,٥ مينا من الفضة من «التلمونيين» في اليوم السابع عشر من شهر تمخيروم (كانون الأول / كانون الثاني). واقترح و.ف.ليمنز أن هذا النص يروي تسليم هدية أو دفع ضريبة، ويشير إلى أن غارات كوتير ـ نهونتي على بلاد بابل الجنوبية يمكن أن تكون قد جعلته «أميراً قوياً على رأس الخليج الفارسي»، ويمكن أن يتذرع التلمونيون بهذا الوضع ليحملوا هدية أو ضريبة لسوسة. وقد ذكرنا من قبل نصاً ثانياً من سوسة، يعود تاريخه إلى ايسن ـ لارسة أو إلى بابل القديمة، لأنه يحمل دمغة ختم دلمون. وهو يمثّل قائمة سلع تلقاها المسمى آ(؟) ـ كيبا، منها ١٠ مينا من النحاس من مكاتب ايلاماتوم، وآ ـ أبا، وملكي ـ ايل بن تيم ـ انزاك. ويعتبر ملكي ـ ايل الشخص المهم هنا، لأنه يحمل هو اسماً أمورياً، بينما يتضمن اسم والده عنصر «انزاك» الالهي الذي يمكن التعرّف عليه بوضوح. ويخطر للباحث أن يرى في تسمية ملكي ـ ايل أحد أفراد الفرقة الأمورية في دلمون.

وتوحي هذه النصوص، هي والأختام الدلمونية التي عثر عليها في سوسة، بأن صلة قوية، ولو لم يعترف بها حتى الآن، كانت تربط سوسة ودلمون خلال الثلث الأول من الألف الثاني ق.م. ولا يصعب على الباحث أن يتصور أن المصالح التجارية قد تكون قد جلبت عدداً من الدلمونيين إلى خوزستان في ذلك الوقت، كما يبين من بعض الأسماء الشخصية المشار إليها من قبل. إضافة إلى ذلك يحتمل أن يكون وجودهم هو الذي أدخل عبادة أنزاك إلى مدينة سوسة القديمة.

٢ ـ دلمـــون ومــاري

وارتبطت دلمون وماري أيضاً بعلاقات وثيقة في عهد حمورابي البابلي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ق.م) وشمسي أدد الأول الآشوري (١٨١٣ ـ ١٧٨١ق.م). وتعدّ ثلاث رسائل من رسائل ماري هامة على وجه التخصيص، لأنها تكشف عن جانب من الآلية التي حافظتا بها على دوام صلات بينهما، تتمثّل بالدرجة الأولى في العلاقة التجارية المبنية على أساس وجود تجارة قوافل بين ماري ودلمون.

وقد بعث شمسي أدد باثنتين من تلك الرسائل الهامة إلى نجله يسمح أدد، أعطاه في أحداهما إرشادات بشأن التعامل مع رسل دلمون، الذين يرافقون القافلة القادمة إلى ماري من عاصمته شوبات انليل. واختير النص بصورة رئيسة لأن فيه تعداد سلع يجب إعطاؤها إلى عشرة عمال وإلى «الدلمونيين الشباب»، مثل زوجي خفّ من الجلد لكل

منهم، وحقائب جلد، وزيت، وغنم. ويوبّخ شمس أدد نجله في الرسالة الثانية، لأنه لم يبعث له برسول دلموني من ماري إلى شوبان انليل فيما يظن. وكان يسمح أدد فيما يبدو قد كتب إلى والده في رسالة سابقة يشرح له أن الرسول «دخل بيت أحد التجار، وسرق منه صندوق من نخيل، فضربه أحد الناس». إلا أن شمسي أدد حنق لتأخر وصول الرسول، فقال لابنه: «كان ينبغي عليك أن تسيّره منذ عشرين يوماً. تماماً. هكذا ضربه أحدهم. ألا يستطيع ركوب حمار؟».

وتبين الرسالة الأخيرة الهامة أن يسمح أدد كتب إلى حمورابي بشأن قافلة قادمة من دلمون إلى ماري عن طريق بلاد بابل. ويشرح يسمح أدد لحمورابي أنّه سبق له أن أرسل هذه القافلة من ماري إلى دلمون، لكن عند إيابها، أوقفها المدعو ايلي ـ أبوخ، «بسبب مطالب تتعلق بإحدى الآبار». ويقول له انه بعث برسولين لمواكبة القافلة المتأخر وصولها إلى بابل، حيث يجب عليها أن تنتظر حتى تتلقى تعليمات جديدة.

ويستحق نص آخر من ماري أيضاً أن يذكر في هذا الصدد، ولو لم يكن رسالة. وهو لوح فخار يمثل إما نسخة قديمة من نص مسلة انتصار لزمري ـ ليم، أو أيضاً مسودة من ذلك النص. ويبقى هاماً، رغم حفظه السيء، لأن زمري ليم يصف انتصاره على يسمح أدد، ومطالبته بالغنائم، ويذكر عدة أسماء أماكن، من بينها دلمون (سطر ٢٠)، وإذا أخذنا بعين الاعتبار تجارة القوافل بين دلمون وماري في عهد يسمح أدد، جاز لنا الافتراض بأن هذه الإحالة، رغم غموض نطاقها، تروي مطالبة زمري ليم بنصيب من تجارة القوافل التي كانت سابقاً بيد يسمح أدد، أو ربما بضريبة من دلمون.

وأخذ من ماري نص أخير جدير بذكر خاص، وهو نبذة موجزة من المكتب الرسمي المختص بالزيت، تاريخها اليوم الحادي والعشرين من الشهر التاسع في لقب أدد بني. ويروي النص ببساطة: «زيت لملك (لوغال) دلمون». ونجهل ما إذا كان هذا الزيت يمثل هدية ينبغي إرسالها مع إحدى القوافل الذاهبة إلى دلمون، أو هدية تقديم مباشرة لأحد ملوك دلمون، الذي يقدّر وجوده في دلمون في مهمة دبلوماسية. إلا أن ذكر ملك دلمون وحده هام، لأنه يمثل أقدم دليل على وجود مؤسسة ملكية في دلمون، عثر عليه حتى الآن في تدوين مسماري.

ولا يوضح لنا أي نص من هذه النصوص أياً من الفريقين ـ دلمون أو ماري ـ كان يقوم بأعباء تجهيز تجارة القوافل، إلا أن لدينا رسالة أقدم من تلك النصوص، تعود

إلى تل الدير، يمكن تحديد تاريخها بعهد سومو ـ ابوم (١٨٩٤ ـ ١٨٨١ق.م) أو عهد سوموايل (١٨٨٠ ـ ١٨٤٥ق.م) تدلّ على أن نحاس دلمون كان يتاجر به في الشمال. ففي نص هذه الرسالة، نجد أن وسيط (سمسار) نحاس في ماري، اسمه نور ـ سين، يكتب إلى فريق في تل الدير، قرب سيبار، بشأن تسليم كميات مختلفة من نحاس دلمون، تزن الواحدة منها مينا واحداً هو ٢٥ شيكل، مع ١٢ شيكل من القصدير. وتكمن أهمية هذا النص في أنه المصدر الوحيد الذي يثبت استيراد ماري نحاس دلمون في العصر البابلي القديم. إضافة إلى ذلك، يهمنا أن نشير إلى أن النحاس المقصود كان يصل إلى ماري قبل أن يعاد إلى تلّ الدير.

ويثير هذا الوضع بصورة طبيعية قضية الطريق التي تتبعها القافلة المتنقلة بين دلمون وبلاد الشام. وقد أعاد و.و. هالّو رسم شبكة طرق بلاد الرافدين في العصر البابلي القديم، فيمكن على الأرجح أخذه كوصف دقيق للإمكانات. فأولاً، يعقل إلى أقصى حد أن ميناء أور استخدم مدخلاً لبلاد ما بين النهرين الجنوبية. ومنها، يحتمل أن تتبع الطريق المجرى القديم للفرات القديم (فوراتم) إلى لارسة، والوركاء، وشوررومباك، وإيسن، وكش وبابل. وقطعاً كانت قوافل دلمون ـ ماري تزور بابل، مثلما يتضح من م م م ت ٥/ ١٤[1]. وفوق بابل، تستمر الطريق حتى سيبار، لكن يحتمل هنا إتباع طريقين فرعيتين. فقد رأينا في م م م ت ١/ ١٧ أن رسل دلمون كانوا أحياناً يرسلون من شوبات انليل إلى ماري، وفي م م م ت ١/ ٢١ أن العكس صحيح أيضاً. وإذا ذهبت إحدى القوافل مباشرة من دلمون إلى شوبات ـ انليل، فأرجح طريق تتبعها بعد سيبار يحتمل أن تمرّ بـ منكيسوم، أياهبّيلا، أشور، وابكلاّتوم، بتعبير آخر، تساير مجرى دجلة العليا. وفي مكان ما فوق ايكلاّتوم، يحتمل أن تتفرع الطريق وتتجه إلى الغرب مباشرة نحو منطقة الخابور وشوبات ـ انليل عاصمة شمسي أدد. مع ذلك، إذا ذهبت القافلة رأساً إلى ماري أولاً، فيحتمل أن تلتصق بالفرات الأوسط، مارة برابيكوم حتى تصل إلى ماري ومنها يحتمل بلا شك أن يكون الرسول الذي انتظره شمسي أدد قد اتبع طريق الخابور مباشرة إلى شوبات ـ انليل.

لكن، من المهم بالقدر ذاته أن نتذكر أن تكون الطرق التي وصفناها منذ قليل، تشكل فقط جزءاً من شبكة أوسع كانت تستعمل في العصر البابلي القديم، لأن معظم السلع التي ترسلها دلمون إلى بلاد ما بين النهرين، أصلها أبعد منها إلى الشرق، من

---

(١) م م م ت : محفوظات ماري الملكية ترجمة.

البلدين المعروفين باسم ماغان وملوخة، إضافة إلى ذلك، كانت شبكة طرق غربية واسعة تربط فارس بالمشرق وبالأناضول. ولا نشك أن نحاس قبرص المذكور سابقاً، كان يصل إلى بلاد بابل، ويسلك إحدى الطرق في عهد سمسو ـ ايلونا. ويحتمل أيضاً أن تكون هذه الطريق هي التي تأسست بها الاتصالات بين حلى بلاد الشام والأناضول وبين حلى دلمون، فأصبح اسم دلمون معروفاً جيداً في إبلة في فترة ما قبل سرجون.

هـ ـ دلمون في المصادر المسمارية العائدة إلى الفترة الكيشية ١٥٠٠ ـ ٤٠٠ ق.م

غالباً ما أشير إلى أن الوثيقة المسمارية الأولى التي استعيدت من البحرين هي حجر منقوش حصل عليه النقيب دورند سنة ١٨٧٩ من مدرسة داود في قرية البلاد القديمة. لكن لم تتحدد طبيعة هذا الحجر ذاته أبداً. ووصفه دورند في الوجه التالي: «الحجر بازلت أسود يشبه شكله مقدمة سفينة، أو لسان حيوان، ويبلغ طوله قدمين وإنشين». من جهة أخرى، اقترح بوتز حديثاً أنه قد يكون قَدَمَ قطعة نذرية. بقي الحجر في حوزة أسرة دورند حتى الحرب العالمية الثانية، ثم فقد في معركة بريطانية، عندما أصيبت دار آل دورند بقنبلة. مع ذلك، يمكن تحديد تاريخ نقشه، من الناحية الجغرافية القديمة، وإرجاعه إلى الفترة الكشية.

وترجم هذا النقش الهام كما يلي:

قصر

ريموم

خادم انزاك

من أغاروم

وليس لدينا أي فكرة عن شخصية ريموم التاريخية، إلا أننا نستطيع أن نفترض أنه كان حاكماً محلياً، ما دام قصره قد ذكر. فلو كان ملكاً، لاضطررنا إلى اعتباره أول ملوك دلمون، المذكور منذ الفترة البابلية القديمة، عندما سجلت جراية زيت لملك دلمون في إحدى نصوص ماري. إضافة إلى ذلك، أشير إلى مَلَكِيَّةِ دلمون في فأل فلكي يعود إلى العصر الكشي تقريباً. وأتيحت لنا فرصة مناقشة هوية الإله انزاك بشيء من التفصيل، واستعراض شتى احتمالات معاني نسبته «إلى أغاروم». هنا أيضاً نجد التضرّع لـ «انزاك اغاروم». في الحقيقة، في الأصل، دفع ظهور انزاك، المعروف بنابو دلمون في نقش من البحرين، سير هـ.س. رولنسون إلى اقتراح تماثل دلمون القديمة

والبحرين الحديثة[1].

نتنقل الآن إلى النصوص التي اكتشفتها البعثة الدانماركية حديثاً، ونشرها ج. أيدم. فهي تشمل مجموعة كاملة من تسعة ألواح أو شظايا منها، وعروة تعليق غضارية، وطبعة ختم منقوش. وتأتي جميع هذه الوثائق من المبنى الكشي الرئيس، ما عدا عروة التعليق الغضارية. ونشر ب.ف. غلوب منذ ١٩٦٨ صورتي لوحين من القلعة، بلا ترجمة لهما، وروى أن إحدى الصورتين تضمّنت نصّاً اقتصادياً يحوي قائمة بتقدمات الغذاء لـ نين. ننذا، «سيدة الخبز» ولـ نين. ناج، «سيدة الشراب». ويرى ايدم أن هذه القراءات «لا يمكن تثبيتها»، إلا أن النص موضوع البحث يسجل فعلاً جرار من العسل (؟) والزيت، و «طاساً حجرياً تمزج فيه العطور» وُزِّعَتْ على معبدين كُرِسَا لإلهين يبدأ اسمهما بـ «نين».

إضافة إلى ذلك، سجلت في النصّ تمور لأحد الموظفين الرسميين، يحمل لقب ابدو النادر، ولبعض العمال (؟). وفحص ك. ناشف أحد النصوص التي وضّحها غلوب، والمعروض الآن في متحف البحرين، ولاحظ إمكانية قراءة صيغة تاريخ كشيّة، تحمل اسم كشتلياشو. إلا أن إيدم ينازع الآن في هذه الناحية.

وفي حين تبدو معظم النصوص الباقية التي عثرت عليها البعثة الدانماركية، تافهة، فإن عدة نصوص منها تحوي تفاصيل هامة. فأحدها مثلاً يذكر إلهاً يسمى موش، الذي يعتبر الألهة ـ الحية، إذا كان موش يماثل موش ـ نيرا، في جنوبي بلاد ما بين النهرين. وكما سوف نرى فيما يلي، عثر في البحرين على ما يدل على أن الحيّات لعبت دور عبادة خاصاً خلال الألف الأول ق.م، وعَدّ فان ديجك لوحاً صغيراً آخر نص مدرسة. فإذا صحّ تأويله، يصبح اللوح هاماً، لأنه يلمح ضمناً إلى وجود مدرسة كتبة في البحرين خلال الفترة الكشية.

وقبل أن نختم موضوع الوثائق المسمارية العائدة إلى الفترة الكشية. التي عثر عليها في البحرين ينبغي علينا أن نشير إلى اكتشاف عام ١٩٧٩، الذي أعطى جلموداً من حجر الكلس المستطيل، أعيد استعماله في حصن عائد إلى الفترة الفرثية، نقّبه م. كرفران شمالي رأس القلعة. ويمثل هذا الجلمود الذي تشاهد آثار كتابة على جانبيه، نقش مبنى، نسبه ب. اندريه ـ ليكنام إلى مُلْك بورنا بورياش الثاني، حوالى

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ١٩٩٢، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٣٠٥ ـ ٣١٤.

منتصف القرن الرابع عشر ق.م.

واستعادت التنقيبات الأمريكية في نيبور بين ١٩٨٩ و ١٩٠٠، حوالى ١٢٠٠٠ لوح منقوش ومواد عائدة إلى الفترة الكشية، لاثنين منها صلة خاصة بالموضوع هنا. وفي عام ١٩٢٩، ألمح أ. أونجر إلى أن اسم دلمون ورد في نصيّن من نصوص نيبور، ناقشهما بإيجاز ف. سخولماير عام ١٩٥٠. وفي النهاية، نشر ا. غوتزيه سنة ١٩٥٢ النصين (تي ٦١٥ و ٦٤١). وناقش ب.ب. كورنوول مطولاً معنى هاتين الرسالتين، المكتوبتين في دلمون والمرسلتين إلى نيبور، لكنه أساء فهم عدة نقاط. ونحن ننقل فيما يلي ترجمات هذه النصوص كاملة، منقولة عن غوتزيه، بسبب أهميتها الهائلة، ولاحتوائها على عناصر عديدة تسوّغ المناقشة.

١ ـ الرسالة ني ٦١٥[(١)]

[١][إلى إلـ] يليا اتحدث، [٢]هذا ما ايلي ـ إيبشرا، شقيقك، قاله: [٣][عساك] بخير. [٤]أتوسل إلى انزاك ومسكيلكُ، الهي دلمون، [٦]ان يحفظا حياتك.

[٧]التانو الذي سوف يصل [انا لقيـ]ت[٨]. أيضاً [الإمرأة السوتانية (؟)] عبرت [البحر]. و[٩][هي] سوف تصل. من وصول هذه [الإمرأة السوتانية (؟؟)] لست [إلى هذا الحد] متأكداً. الآن [١١]وجهتها إلى بابل. [١٢][قبل] أن يقترب شهر ايلولو من نهايته [هي] سوف تصل (إلى هناك). [١٤]حولي اخلمو نقل التمور، [١٥]هكذا بالنسبة لي، لا شيء استطيع عمله. [١٧]لكن مدينة وحيدة يجب ألا يسمح ببقائها مسلوبة (؟؟).

[١٨]في المدينة التي أنا [...]، عندما [سمعت أنا] من سن ـ نوري ـ [٢٠]والمعبد الذي أنا ـ [سمعت عنه] [٢١](هو) دار نيـ[ن...] ـ [٢٢]الدار كانت قديمة [وانهارت]. [٢٣]الآن لم يعمل [أي] شيـ[ىء] إطلاقاً (؟؟)، وهو [تركه] وصرف النظر عنه ومن هذا اليوم فبعده، [٣]يثابرون على رؤية الأحلام [٤]وتدمير القصر [٥]تمّت الإشارة إليه خمس مرات. [٦]إذاً الآن في [...] شيء، هو منعني من الإنجاز، ماذا ينبغي علي أن أفعل؟ [٩]هل يجب علي إرساله إلى الملك؟ [١٠]تكلم أنت مع [...]، [١١]لكي يتمكن من الذهاب إلى نوير ـ أوراش. [١٢] لعلّه يباشر العمل، ويرمّم هذه الدار. أو هل يستطيعون أن يكتبوا إلى أدين ـ نريكال ـ مدن [١٤]محتجزيـ[ـه] قائمة قرب [...] ـ [١٧] ولعلهم يشرعون بالعمل ويرمّمون هذه الدار. [١٩] (انتهى كلامي) باحترام. لم أتكلم [بطريقة

---

(١) ني = نيبور.

يحتمل أن تهينك].

٢ ـ الرسالة ني ٦٤١

[1]إلى اليلـ [يا][2] اتحدّث[3]. هذا ما قاله [5]ايلي ـ ابيشرا [4]شقيقك، [5]عساك [6]بخير[7]عسى انزاك [8]ومسكيلك، [9]إلهي تلمون [10]يحفظان [11]حياتك [12]اخلمو [13]تحدّث [14] بالتأكيد معي عن العنف والنهب فقط، [1]وعن التوافق [2]لم يحدّثوني [3] [4]الهمني الرب [5]ان أسألهم، [6]لكنهم لم يستجيبوا.

تبدأ الرسالتان بتحية واحدة وبالتضرّع إلى «انزاك ومسكيلك، الهي تلمون». «والمحلّ المشار إليه في ابتهال المتضرّع هو المكان (المدينة) الموجود هو فيه على حد ما أبرزه الناشف حديثاً. وهكذا، نستنتج أن ايلي ـ ابيشرا يكتب من دلمون.. علاوة على ذلك، ويوحي استعمال لفظ «شقيق» في صيغة التحية بأن اليليا وايلي ـ ابيشرا من طبقة اجتماعية واحدة. ويحتمل ألا تتعين هوية المرسل إليه أبداً بثقة تامة، لكن سلّم كورنوول وآخرون بعده بان اسم اليليا تعبير تحببي عوضاً عن «انليل ـ كيدنّي»، وأنه كان حاكم نيبور، كما هو ثابت من مصادر أخرى في عهد بورنابورياش الثاني (١٣٥٩ ـ ١٣٣٣ق.م) وكوريكالزو الثاني (١٣٣٢ ـ ١٣٠٨ق.م). ويسوقنا هذاالنمط من التفكير إلى الاستنتاج بأن ايلي ـ ابيشرا نفسه كان حاكم دلمون، وليس موظفاً بسيطاً يكتب إلى رئيسه في نيبور مثلما شعر كورنوول.

وتضم نصوص نيبور (نفر) نصين هامين أولهما BE ١٧/ ١ ـ ٣١، والثاني PBS ٢/١ ـ ٧١[(1)] اللذين يرجع تاريخهما إلى زمن بورنابورياش الثاني، ويوضحان توضيحاً غير متوقع البطلين أنليل كدنّي اليليا وايلي ـ ابيشرا، فيستحقان استطراداً قصيراً في هذا السياق. وهما مأخوذان من مجموعة نصوص كتب عنها أ.ك. ريتر ما يلي: «يرفع مكلّم، المشرف على إحدى مدارس الأمراء والأميرات (na'ri, na'räti) من بين حاشية البلاط، في مكان ما من ضواحي نيبور فيما يظهر، تقريراً إلى انليل كيدنّي، حاكم نيبور، عن مداواة وتحسّن ثمانية شباب، مصابين ببثور حادة، مصحوبة بحمّى وألم تنفس علوي». ويسترعي الانتباه في الرسالتين المشار إليهما، وجود كريمة ايلي ـ ابيشرا بين الأولاد الخاضعين لعناية مكلّم. وقد ترجم أ.ل.أوبنهايم الأسطر ١٥ ـ ١٨ من BE[(2)] ١٧/ ١ ـ ٣١ على الوجه التالي: «بقي خرّاج كريمة ايلي ـ ابيشرا حتى تشكلت

---

(١) PBS = منشورات القسم البابلي، جامعة بنسلفانية.

(٢) BE = البعثة البابلية.

قشرة عليه الآن، وتحسّن منخرها (المتقرح)». ويرجّح في جميع الأحوال أن ايلي ـ ابيشرا كان مواطناً عالي المنزلة في نيبور، تمّ تعيينه في وظيفة ليخدم في دلمون، فأبقى ابنته في مدرسة نيبور، ليعتني بها رجل مسؤول مباشرة أمام اليليا، حاكم نيبور مراسل (لعله صديق له) والدها.

وقد نازع أوبنهايم، ثم ك. كسلر بعده افتراض كورووول ان ايلي ـ ابيشرا كان نفسه حاكم دلمون. وفي الواقع، عثر الآن على دليل قاطع على حكم الكشيين دلمون. ففي المتحف البريطاني ختم اسطواني، نشره ج. أ. ريد، يحمل النقش التالي: «أوباليسو ـ مردوخ، نجل أراد ـ أيا، حفيد أوشورانا . . . وابن حفيد أوسيا نوري . . . شكّنكّو SAKKANAKKU دلمون». ويزوّدنا لقب شكّنكّو، الذي يترجم عادة بـ «حاكم»، بدليل واضح على حكم الكشيين دلمون مباشرة. ويظل تاريخ هذه الوثيقة الهامة موضوع جدل، إلا أن المعالم التي لخصها ريد مقنعة.

وكان أوباليسو ـ مردوخ، نجل أراد ـ ايا، وكيل أحد الملكين الكشيين اللذين يحملان اسم كوريغالزو. وما يزال اثنان من أختامه الاسطوانية المنقوشة باقيين. وقد لقب في أحدهما بـ «خادم» كوريغالزو. واقترح ك. جربتز انه كان وكيل كوريغالزو الأول المشكوك بتاريخ حكمه، لكن يرجّح وقوعه في القرن الرابع عشر الباكر. مع ذلك، وكما أشار ريد، لو قدرنا عشرين سنة لكل جيل، لبان لنا أن أبا جدّ أوباليسو ـ مردوخ كان حاكم دلمون في القرن الخامس عشر الباكر ق.م. وهذا بعيد الاحتمال لأن الكشيين لم يكونوا بعد مسيطرين على بلاد بابل الجنوبية في ذلك التاريخ المبكّر.

لكن إذا افترضنا أن أوباليسو ـ مرودخ خدم كوريغالزو الثاني (١٣٣٢ ـ ١٣٠٨ق.م)، عندئذٍ يحتمل تحديد تاريخ حاكمية اوسيانوري بين ١٤٢٠ و ١٤١٠ق.م تقريباً، وهذا يضعها في فترة التوسع الكشي الكبير، الذي كان فيها الكشيون نشيطين في البناء في أرك وأور (تل المقيّر)، وفي تأسيس علاقاتهم الأولى بعمارنة مصر. إذن اختار ريد هذا التاريخ واتفق به مع ف. الوالي، الذي انفرد بتحديد تاريخ أحد ختمي اوباليسو ـ مردوخ، وربطه بحكم كوريغالزو الثاني.

ونودّ الآن أن ننتقل إلى مضمون رسالتي نيبور، بعد أن اثبتنا أن الكشيين حكموا نيبور في الألف الثاني المتأخر، وبعد أن برهنا أن ايلي ـ ابيشرا كان يكتب بصفته حاكم دلمون. ففي رسالة ني ٦١٥، يبدأ ايلي ـ ابيشرا، بالقول انه التقى من قبل بالمدعو

التانو، المتوقع وصوله إلى دلمون. ويفترض أن قدوم التانو أعلن عنه في رسالة سابقة من الليليا إلى ايلي ـ ابيشرا ان امرأة سوتينية في طريقها من دلمون إلى بلاد بابل. ولهذا الخبر أهمية بالغة، لأن السوتيين على العموم، يشعرون فيما يظن، بأنهم في بلدهم في المنطقة السورية الفلسطينية أكثر من جزيرة العرب الشرقية أو منطقة الخليج.

وتشير الرسالتان إلى أخلمو، وهم فئة قبلية سامية غربية تنزل عادة بالسهب السوري، لكنها، مثلما تبيّن هذه المصادر، موجودة بوضوح في المنطقة العربية أيضاً. ويقال إن أخلمو «حملوا التمور» (رسالة ني ٦١٥) «ويتحدثون... فقط عن العنف والسلب (رسالة ني ٦٤١)». وتتضمن مناقشة كورنوول هذا الوضع، الاعتقاد بأن أخلمو يبدون «نهّابين»، ويسكنون البر العربي الرئيس، لا جزر البحرين، وبأن هذا البر كان منطقة انتاج التمر الرئيسة في دلمون. وهكذا كان كورنوول يعتقد أن ايلي ـ ابيشرا كان في الواقع يكتب من البر العربي الرئيس. إضافة إلى ذلك، طرح افتراضاً لا أساس له البتة، يقول إن التمور المسروقة «التقطت من قبل، وجلبت، وأعدّت للشحن بحراً» إلى بلاد بابل. لكن لا يمكن دعم أي من هذه الاستدلالات.

ويستبعد لأول وهلة، فيما يبدو، العثور على سكان متبدّين كثر في جزيرة مثل جزيرة البحرين، التي نفترض أنها كانت جزءاً من دلمون آنذاك، لكن أشرنا من قبل إلى دليل على وجود أفخاذ من قبيلة نعيم هناك في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الباكر. بالفعل طلب النعيم الكلاء خلافاً للقانون حوالى ١٩٠٥ بألفاظ تذكّر بتصرف أخلمو قبلهم، بثلاثة آلاف سنة. وكتب يقول: «يعدّ البدو، خاصة النعيم، الذين لا تخلو الجزر منهم أبداً، ويبلغ عددهم حدّه الأعظم في الطقس الحار، سبباً لاضطراب وازعاج الحضر». وعلاوة على ذلك، «كثيراً ما يسرق البدو الذين يتجولون في الجزيرة، محاصيل البحارنة (=الزراع المستقرين)، أو تلحق مواشيهم الضرر بها».

ويرجّح أن التمور التي سرقها الأخلمو لم تكن قد قطفت، وأعدّت للتصدير، وهذا ما يمكن استخلاصه من وقت كتابة الرسالة ني ٦١٥ خلال العام. ومع أن هذه الرسالة غير مؤرخة بوضوح، فإنها تتضمن تلميحاً صريحاً يمكن أن يوحي بالموسم. ويقول ايلي ـ ابيشرا عند كتابته عن رحلة المرأة السوتينية إلى بلاد بابل إنها سوف تصل قبل نهاية شهر ايلولو. وايلولو هو الشهر السادس في التقويم البابلي، ويشمل تقريباً فترة آب وايلول. وفي أرك يُسَمَّد نخيل التمر في شهر نيسان، أي آذار ـ نيسان، ويُجْنىَ فقط في تشرين، أي أيلول ـ تشرين الأول. وتُجَهَّز التمور عادة كي تسّلم للتجار في

تشرين الأول أرخشمنو، أي تشرين الأول وتشرين الثاني. فلو طبقنا هذا الجدول من الأعمال على التمور المشار إليها في رسالتي نيبور، عندئذٍ لا يمكن أن يكون جنيهم قد تمّ، إلا إذا كانوا من قطاف سنة سابقة.

مع ذلك، ينبغي أن يشار إلى أن زمن جني التمور في الشرق الأدنى يختلف حسب درجة العرض والرطوبة، وما دام القطاف من حول البصرة (منتصف آب) يسبق شهر القطاف حول بغداد (منتصف أيلول)، فإن قطاف البحرين يحصل حتماً قبلهما. وهكذا لدينا ثلاثة احتمالات في الحد الأدنى. فأولاً، جنيت التمور، وجففت في الشمس، وعندئذٍ يمكن أن تتعرض لسلب أخلمو. ثانياً، تتسبب الرطوبة القصوى في المنطقة بتساقط كميات كبيرة من التمور اللينة عن الأشجار خلال زمن النضوج، فتجمع وتنقل. ثالثاً، يدفع الجفاف (القحط) والفاقة أخلمو في الواقع إلى قطف التمر فجّاً عن نخيله، كما عرف أنه حدث في الماضي القريب بين أفقر الجماعات في مكران. ومهما كانت الظروف التي يلمح إليها ايلي ـ ابيشرا، فإن الوضع الذي يصفه لوريمر يثبت أن بدو البحرين اشتهروا بالفعل بنهب (تخريب) نخيل التمر في الماضي، عندما كانت الأقراط ما زالت على الأشجار، ويحتمل أن تكون مثل هذه الحال قد حصلت في زمن ايلي ـ ابيشرا أيضاً.

لكن لسوء الحظ، تبدو الفقرة الثانية من الرسالة ني ٦١٥ غير مفهومة على نطاق واسع. وهذه الإحالة إلى «تدمير القصر» المتنبأ به خمس مرات في المنام، تنطبق على قصر دلمون. ولا تتضح البتة الظروف المحيطة بانهيار المعبد، ربما بمعبد ننخرساج.

ننتقل الآن إلى سلسلة تنبؤات فأل فلكية هامة، ENUMA ANU ENLIL، تحوي مقطعاً هاماً جداً يذكر دلمون. ومع أن تاريخ هذه السلسلة غير أكيد، فإن ويدنر اقترح إرجاعها إلى الألف الثاني المتأخر ق.م، أو إلى الألف الأول الباكر ق.م. ونقتبس من لوح السلسلة الحادي والعشرين، المكرّس لشهر شيفان (أي أيار ـ حزيران) ما يلي:

[١٠] عندما تغشى الظلمة اليوم الرابع عشر من شهر شيفان، ويصبح القمر مظلماً في الشرق، ويصير صافياً في الغرب، [١١]، ومظلماً في هزيع منتصف الليل، ويصبح صافياً في هزيع الليل الثالث، عندئذٍ خذ الغرب بيديك، [١٢] ولاحظ ظلمته: فسوف يعطي قراراً لملك دلمون.

سوف يقتل ملك دلمون في تمرّد. وسوف يعتلي العرش أحد الأشخاص [١٣] عندما تغشى الظلمة اليوم الخامس عشر، سوف يقتل ملك دلمون في تمرّد، ويعتلي

عرش أحد الأشخاص. [١٤] وعندما تغشى الظلمة اليوم السادس عشر، سوف يقتل ملك دلمون، وهو سائر في الخارج. وتفتح بوابة في العرش. [١٥] وعندما تغشى الظلمة اليوم العشرين سوف يتوقف انهمار المطر في السماء والمياه العالية (المد) في المحيط [١٦]. وعندما تغشى الظلمة في اليوم الحادي والعشرين، عندئذٍ يسود النواح والشك [١٧] على الأرض والموتى على الأرض.

وذكرت أنثى اسمها TIL-MU-NA-A-A-I-TUM، حرفياً «من تلمون» في قائمتي جرايات عائدتين إلى شهرين مختلفين من قوائم نيبور الكشية غير المؤرخة. ويذكر نص ثالث من نيبور يرجع تاريخه إلى عهد بورنابورياش كشيّا (١٢/١) في دلمون.

وآخر نصّ نودّ ذكره هنا هو نقش ملكي خاص بالملك الآشوري توكلتي ـ ننورتا الأول (١٢٤٣ ـ ١٢٠٧ق.م) عثر عليه في طلول عقير، أي كار ـ توكلتي ـ ننورتا القديمة. ويروي هذا النص، مآثر الملك، بما فيه هزيمة وأسر الحاكم الكشي كشتلياشو الرابع (١٢٣٢ ـ ١٢٢٥ق.م) ويحتمل أن تكون السيطرة الكشية على دلمون قد انتهت بهذا الفتح، لأن النص يقول إن توكلتي ننورتا الأول اتخذ لقب «ملك دلمون» وملوخة للمرة الأولى. وهكذا يبدو أن هزيمة الكشيين أدت إلى اعتبار توكلتي ننورتا تلقائياً ملك دلمون. مع ذلك، لا نسمع شيئاً عن تدخل آشوري فعلي في شؤون دلمون من أي مصدر آخر. ولا نعرف إذا كان منصب الحاكم الكشي في دلمون قد شغله آشوري من الآن فصاعداً.

و ـ دلمون في المصادر المسمارية الآشورية الجديدة والبابلية الجديدة (٩١١ ـ ٦١٢ ق.م)

١ ـ سرجون الثاني[1] (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م)

لم يرد ذكر دلمون في مصادر بلاد ما بين النهرين المسمارية في المدة الواقعة بين تاريخ نص توكلتي ـ ننورتا، وبين حكم سرجون الثاني الآشوري. لكن عاد ذكرها إلى الظهور من جديد في نطاق محاولة سرجون مطاردة مردوخ بلادان، الثائر الكلداني والملك البابلي، بين عام ٧١٠ ـ ٧٠٩ق.م. وقد نوقش تاريخ هذه الحملة كثيراً، وجرت محاولة لدراسة شخصية مردوخ بلادان «الشرير» وإنجازاته، رغم أن كل مصادرها آشورية حصراً. وحثّت وفاة شيلمنصر الخامس مردوخ بلادان على المبادرة

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ١٩٩٢، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٨.

إلى محاولة التحرّر من نير السيطرة الآشورية على بلاد بابل. وقوّاه تحالفه مع شمبنيكش، الزعيم العيلامي، وساعده تمرّد سوتانّي على آشور في الجهة الشمالية، فتمكّن من السيطرة على الجنوب مدة اثنتي عشرة سنة. وفي البدء لم يكن سرجون في وضع يسمح له بعمل أي شيء حيال مجريات الأحداث، إلا أنه تقوّى بما فيه الكفاية سنة ٧١٠ق.م، فسار على مردوخ بلادان، فهاجم عسكرياً دور ـ اثره، وهزم القبائل الآرامية في شرقي منطقة دجلة، وأجبر شوترك نختني، خليفة همبنيكش أن يهرب إلى جبال زغروس.

وعندما هرب مردوخ بلادانْ بطريقة مماثلة، وطلب اللجوء إلى عيلام، رفض ملكها طلبه. وهكذا قضي على «الحلف الكبير» في الجنوب. وانسحب مردوخ بلادان إلى أقبي ـ بل على الحدود البابلية العيلامية، ودخل سرجون بابل وبرسيبا ظافراً. ودمّرت معركة نهائية في قلعة مردوخ بلادان في المستنقعات، دور ـ أياكن، القوات الكلدانية، إلا أن مردوخ بلادان نجا من الهلاك ونهض من جديد بعد مضي ستة أعوام.

ووصفت حملة سرجون ثماني مرات في نقوشه الملكية. ولم تمس مسّاً مباشراً أراضي الخليج العربي، إنما زوّدت إعلانات انتصاراته بإطار لمفاخراته، حتى إن أوبيري، ملك دلمون، سمع ببأسه، فحمل إليه الضريبة. وفيما يلي أهم المقاطع بالنسبة إلى مرامينا:

(١) ـ الحوليات، خراساباد، الابهاء ٢، ٥، ٣١، السنة ١٣، الفقرة ٤١

بيت أياكين، الشمالية والجنوبية، حتى مدن سمونه، وباب دوري، ودور ـ تليت، وبوبي، وتل همبا، التي (أو اللواتي) تقع على حدود عيلام، وضعتُها كلها تحت سيطرتي. وأسرت سكان كومّوهو [أي كوماجين] في هتّي، بعون الآلهة الكبار، أسيادي، واستوطنت فيها، وأسكنتهم جميع قفارها. وعلى الحدود العيلامية، أمرت نبو ـ دمك ـ ايلاني أن يبني قلعة في مدينة سكبت، «لأمنع حركة العلاميين». وقسّمت جميع تلك الأراضي، ووضعتها تحت إمرة موظفي نائب الملك في بابل، وموظفي نائب الملك في كمبولو. أما أوبيري، ملك دلمون، الذي يعيش [حرفياً، الذي يقع معسكره] كالسمك، على بعد ثلاثين بيرو [ساعات مزدوجة] بعيداً في وسط بحر الشمس الشارقة، فقد وصلته أخبار بأسي سماعاً، فحمل إليّ هداياه.

(٢) ـ المرجع ذاته، الفقرة ٤٣

. . . تخريب أرضه، وجلاء سكانها، وإخضاع أوبيري، ملك دلمون، الذي يقع مقره

في وسط البحر... في قلب أرضه، ضيق... بعث لي إلى بحر [الشرق] بسفيره، عارضاً الخضوع [حرفياً: «العبودية»]، وحاملاً الضريبة (و) الهدايا.

(٣) ـ النقش المعروض، خرساباد الابهاء ٦، ٧، ٨، ١٠، الفقرة ٧٠

دخلت بابل، مدينة إله الآلهة، مبتهجاً، فرح القلب وبرزانة مشرقة، وأمسكت بيدي الإله العظيم مردوخ، وحججت [حرفياً: «انجزت مسيري»] «معبد عيد السنة الجديدة». وشملت هداياي: ١٥٤ تالنت، ٢٦ مينا، ١٠ شيكلات من الذهب اللماع، ١٦٠٤ تالنت، ٢٠ مينا من الفضة البراقة، برونزاً، (و) حديداً ـ لم تحص ـ ومن الحجارة الكريمة حجر كا، واللازورد، وحجارة أود ـ اش، وحجارة موهو ـ ديجيلي، حجارة أود ـ اش، حجارة موشكارو، بكميات كبيرة (وسلعاً) بنفسجية، وأرجوانية، وثياباً زاهية الألوان (صوفية)، وثياباً كتانية، وخشب بقس، وأرزاً، وسرواً، وجميع أنواع الجنبات (الدائمة الخضرة) من انتاج جبال أمانوس الزكية الرائحة. كلها قدّمتها هدايا لبل، وسربنيت ونابو، وتشمت، والآلهة التي تقيم في حاضرتي سومر وأكد، من سنة اعتلائي العرش إلى سنة (ملكي) الثالثة. أوبيري، ملك دلمون، الذي يعيش [حرفياً: «الذي يقع معسكره في»]، مثل السمك، على بعد ٣٠ بيرو في وسط بحر شروق الشمس، بلغت مسامعه أخبار بأس آشور ونابو (و) مردوخ، فأرسل هداياه.

(٤) ـ نقش العرض، خرساباد البهو ١٤، الفقرتان ٨٠ ـ ٨١

ومردوخ بلادان، ملك بلاد الكلدانيين، الذي أقام على ساحل البحر المالح، وفرض سلطته الملكية على بابل خلافاً لإرادة الآلهة، فتحت بيديّ القويتين مملكته، وقسّمت جميع أراضيها الواسعة من أولّها إلى آخرها، ووضعتها بإمرة موظفيّ، حاكم بابل وحاكم أرض كمبولو. وفرضت عليها نير آشور.

أوبيري، ملك دلمون، الذي يقع معسكره على مرحلة (مسافة) ثلاثين بيرو في وسط البحر، مثل السمك، سمع أخبار بأس آشور، فحمل هداياه.

(٥) ـ نقش الثور، الفقرة ٩٢

قصر سرجون، الملك العظيم، الملك القوي، ملك الدنيا، ملك بلاد آشور، نائب ملك بابل، ملك سومر واكد، المفضّل لدى الآلهة العظام، الحاكم العادل، الذي عهد إليه الآلهة آشور ونابو ومردوخ بمملكة لا نظير لها، وجعلوا اسمه يبلغ أعلى درجات الشهرة... الذي هزم مردوخ بلادان، ملك بلاد الكلدانيين، الملك الشرير،

المسيطر على بابل خلافاً لإرداة الآلهة، ثم أسر(ه) بذراعه القوية [أي «بيده»]، ودمّر دور ـ أياكيني، مدينة حاميته الكبيرة، وكدّس جثث جنوده أكداساً في قعر البحر: أوبيري، ملك دلمون، الذي يبعد مقره مسيرة ثلاثين بيرو في وسط **بحر شروق الشمس**، مثل السمك، سمع (الخبر)، فأرسل هداياه.

(٦) ـ نقش الأرضية المرصوفة ٣، خرساباد، فقرة ٩٨

قصر سرجون، ملك الدنيا، ملك بلاد آشور، نائب ملك بابل، ملك سومر واكد، الملك الذي أعانته الآلهة آشور، ونابو، ومردوخ، [فسيطر على أراضي واسعة]، تبدأ باياتنانا، الواقعة في وسط بحر غروب الشمس حتى تخوم مصر، وأرض مسكي، وأرض آمورو الواسعة، وهتّي بكاملها، وكلّ جوتيوم، وأرض الميديين البعيدة، على طرف جبال بكني، وأراضي إلّيبي وراشي الواقعة على حدود العيلاميين، وجميع الآراميين الذين يعيشون على ضفاف أنهار دجلة وسورابي، وأوكنو حتى دونّي ـ شمش، ومدن بوبي وتل ـ هومبا الداخلة في أرض العيلاميين، وكردونياش [بلاد بابل]، الشمالية والجنوبية، وجميع بلاد الكلدانيين، مهما كانت، وبيت ـ أياكين على ساحل (البحر) المالح حتى حدود دلمون ـ جميع هذه الأراضي أخضعتها إلى سلطة واحدة (حرفياً: «قانون واحد»).

(٧) ـ مسلة قبرص (حوالى ٧٠٧ ق.م)، فقرة ١٨٥

[أوبيري] ملك دلمون، الذي يعيش [حرفياً: «الذي يقع معسكره في»]، [مثل السمك] على بعد ثلاثين بيرو [في منتصف] **بحر شروق الشمس**، سمع [بقوة] آشور، ونابو، (و) مردوخ، فأرسل هداياه.

(٨) ـ موشـــور نمرود، سطر ٢٠ ـ ٢٤

أخوندرا، ملك [دلمون الذي يقع عرينه على مسيرة ثلاثين بيرو]، بعيداً في وسط **البحر [الشرقي]** مثل السمك، [سمع بـ] قوة الآلهة آشور، ونابو، ومردوخ]، فجلب ضريبته.

تسترعي عدة نقاط الانتباه هنا. فأولاً جميع النصوص، ما عدا موشور نمرود، تذكر أن أوبيري اسم ملك دلمون في زمن سرجون: إلا أن موشور نمرود يسمي ملك دلمون (أخوندرا). ورجّح س.ج. جاد أن أخوندرا صيغة أخرى لاسم «هندارو»، وهو اسم حَمَلَه ملك متأخر من ملوك دلمون، في منتصف حكم آشور بانيبال. ولا يعقل أن

يدل الاسمان على ملك واحد وحيد، لأن ما يقرب من سبعين سنة تفصل عهدي الحاكمين. وهكذا عرض جاد عوضاً عن ذلك أن أخوندرا خلف أوبيري على عرش دلمون، وأن موشور نمرود الذي يسجل اسم الملك الأخير، كتب في وقت متأخر جداً في حياة سرجون. إضافة إلى ذلك، ونظراً لأن هوندارو جاء بعد مرور جيلين، اقترح جاد ان «بالإمكان التفكير بتعاقب نظامّي في دلمون يذكر اسمي الجدين أوبيري (آ)، أهونداراه [أوبيري (ب)]، هوندارو».

ذكر إخضاع أوبيري مرة واحدة في الحوليات (النص ٢ السابق). فيما عدا ذلك، لا يتضمن نصّ من النصوص الأخرى أي إشارة إلى أن دلمون ذاتها اشتركت في الأعمال العدائية، ولا يعقل اشتراكها فيها، والأصح أن سائر المصادر أجمعت على أن أوبيري سمع بقدرة سرجون وقوته، فبادر إلى تقديم الضريبة للملك الآشوري. ويسمى نقش الأرضية المرصوفة (النص ٦ السابق) أيضاً صراحة بيت أياكين، وبجعلها أقصى أرض مملكة سرجون في الجنوب. فيبدو أن «تخوم دلمون» تعيّن حدود السيطرة الآشورية. مع ذلك، تنسب الأخبار الأدبية المعاصرة افتتاح دلمون إلى سرجون. فما يسمى بـ «جغرافية سرجون» ـ وهي سرد بأسلوب نشيد نصر يشيد بسرجون الآكدي، غامض ومحدود، لمآثر سرجون الثاني، ما أنجزه منها وما تاق إلى إنجازه، معروضة في قوائم (سطر ٤١ ـ ٤٤) شملت «أناكو (قبرص)، (و) كبتارا (كريت)، وأراضي البحر الأعلى، ودلمون، (و) مغانّا، وأراضي البحر الأسفل، والأراضي الممتدة من الشرق إلى الغرب التي افتتحها سرجون، ملك الدنيا ثلاث مرات». وقد تأكد أن هذا التأليف كتب في عهد سرجون. وفي النهاية، ورد الخبر التالي في ما يسمى بـ «أسطورة سرجون» ـ وهي قصة يرجّح أنها كتبت بين ٧٢١ و ٧٠٥ق.م (عمود ٢، س ١٩): «افتتحت دلمون». ورغم أن هذه القصة أتت بصيغة تقرير عن مآثر سرجون الأكادي، فإنها توحي بقوة بالغة بأن المقصود سميّه الآشوري الحديث (أو سرجون الآشوري).

ويجوز لنا أن نتساءل، مفترضين أن إشارة سرجون إلى أوبيري ليست مبالغة صرفة: لماذا أحسّ أوبيري بأنه مضطر إلى تقديم ضريبة إلى سرجون؟ يحتمل أن تكون عدة عوامل قد دفعته إلى هذا التصرف. فأولاً، يمكن اعتبار خضوعه ببساطة جزءاً من ترتيب الترحيب ذاته الذي استقبله به موظفو معبد أي ـ ساكلا في بابل، وأزيده في بورسيبا. وقد يفترض هذا التصرف سلفاً أن حكم مردوخ بلادان في بلاد بابل لم يقدم شيئاً لدلمون، بل ربما ألحق الضرر بمصالحها. فيحتمل أن يكون أوبيري قد توقع الحصول على بعض الفائدة من تحالفه مع آشور أو من رعايتها له. من جهة ثانية، رأى

أوبنهايم أن مبادرة أوبيري «خطوة دبلوماسية، قصد بها تهدئة خواطر السلطة الجديدة في بلاد ما بين النهرين الجنوبية».

وهنالك نقطة أخرى يجب أن تخطر بالبال، هي العلاقة العيلامية. فمثلما رأينا، برزت إلى الوجود في عهد همبنيكش، وانحلّت باعتلاء شتروك تتهنتي العرش. وورد في معجم الأعلام العيلامية لزادك أن أوبيري وأخوندرا/هوندارو اسمان عيلاميان. فيجوز أن تكون دلمون القرن الثامن المتأخر ق.م قد ارتبطت، عن طريق بيتها الحاكم بصلات بعيلام، لم تكن صلات تبعية بالضرورة. في هذه الحالة، يجوز أن يكون قيام أوبيري وأخوندرا بتقديم الضريبة إلى سرجون في أعقاب هزيمة مردوخ بلادان، ردّ فعل لرفض شتروك ـ نهنتي إسداء العون لمردوخ بلادان.

وظلّ الباحثون مدة طويلة يحتجّون بتشبيه عيش أوبيري في وسط البحر بحياة السمك، ليعتبروا دلمون في العصر الآشوري الحديث، إحدى جزر الخليج الرئيسة، عادة البحرين أو فيلكه. أما حساب المسافة المذكورة في الوثائق أي ثلاثين بيرو، فيثير الجدل، إن لم يكن مستحيلاً. وعلى غرار ما أشار إليه ك. كسلر، يجب أن يدفعنا إعطاء كسر صحيح من الستين إلى الشك، بسبب نزعة النظام الستيني إلى الأرقام الغريبة في المصادر البابلية. إضافة إلى ذلك، حتى لو استطعنا قبول ثلاثين ساعة مزدوجة (مضاعفة) حساباً منطقياً لبعد دلمون، نظل نجهل تماماً المكان الذي بدأ منه القياس.

٢ ـ سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م)

لم تقلّ الصعوبات التي لقيها سنحاريب في بلاد بابل عن التي لقيها والده. وقد نوقشت حملاته الجنوبية على نطاق واسع في السنين الأخيرة، فأصبحت مجرياتها ومعانيها معروفة جيداً في الوقت الحاضر. فثورات عام ٧٠٣ق.م أنجت بلاد بابل من سيطرته، تاركة مردوخ بلادان مرة آخرى يهيمن على الجنوب. واستهدفت حملة سنحاريب الأولى أخذ الثأر، ونجحت، وهزمت مردوخ بلادان وحلفاءه، ودفعته إلى اللجوء إلى عيلام. إلا أن السنوات التالية شاهدت سلسلة من الترتيبات غير المرضية من وجهة النظر الآشورية، توخّت استبقاء بلاد بابل، مما كلّف سنحاريب فقدان حياة نجله البكر فضلاً عن خسارة الطاقة البشرية، وإضاعة الوقت، وتبديد الأموال اللازمة لمزيد من الحملات على الكلدانيين والعيلاميين، وجماعات أخرى متورطة في الثورات على بلاد آشور، التي توالت على مدى زمني امتد حتى سنة ٦٥٩ق.م. فبعد حصار

دام ما يقرب من عامين سقطت بابل في النهاية في هذه السنة بيد سنحاريب «الذي عيل صبره بمحاولاته الفاشلة حكم الأرض، ونشوب الثورات المتكررة، وفقدان بكره، والآن بهجومه الطويل الذي استمر سنتين».

لذلك أمر سنحاريب بتدمير المدينة تدميراً تاماً. فنقرأ في النقش البافيان (ت ا ب ق ٢، فقرة ٣٤١)[1]. المدينة ودور(ها)، من أساساتها إلى أعلاها دمرتها، وخرّبتها، وحرقتها بالنار. فالسور والسور الخارجي، والمعابد والآلهة، وأبراج المعابد المبنية بالآجر والطين، مهما بلغ عددها، محوتها، وأغرقتها في قناة أرهتو. وشققت الأقنية في وسط هذه المدينة. وغمرت موقعها (حرفياً: «أرضها») بالمياه، ودمّرت أساساتها ذاتها (حرفياً: «بنية أساساتها»). وجعلت تدميرها أعظم من تدمير الفيضان. ولكي لا يتسنى تذكّر هذه المدينة ومعابد(ها) وآلهتها، أخفيتها بفيضان المياه، وجعلتها كالمرج.

ويوضح نقش آخر من بيت أكينتو، أو معبد عيد السنة الجديدة في آشور مدى هذا التدمير وفيه نقرأ (ت ا ب ق ٢، فقرة ٤٣٨)[2]:

بعد تدميري بابل، وتحطيمي الآلهة فيها، قضيت بالسيف على أهلها. وبما أن أرض هذه المدينة يمكن أن تجرف، نزعت تربتها، وأمرت بنقلها إلى الفرات (ومنه) إلى البحر، وتربتها (حرفياً: «غبارها») وصلت (أي «حملت») إلى دلمون. وشاهدها الدلمونيون، وصعقهم مظهر أبّهة آشور الرهيب، فجلبوا هبة مقابلتهم، وأرسلوا معها عمالاً جمعوهم من أرضهم، حاملين رأس دسار، مجارف برونز، وأسافين برونز، وأدوات (يستعملونها في) العمل في بلادهم لكي (يساعدوا) في تدمير بابل.

يصعب تأويل هذا المقطع، مع أن ترجمته خالية من التعقيد. وقد قرأه كمبل تومبسن واعتبره برهاناً على أن دلمون ليست البحرين، بل موقعاً محلياً قرب مصبّ الفرات. فكتب يقول: «الآن يتضح بجلاء أن الغبار أو النقاوة، أو حطام بابل لا يمكن أن ينقل حتى البحرين». كذلك سمّى ج.ف. سال حديثاً هذا المقطع نصاً يصف بدقة المياه الموحلة المحيطة بفيلكة. إلا أن مثل هذه القراءة الحرفية فاتها على الأرجح فهم الموضوع. فمثلما كتب أوبنهايم، «يمكن تأويل إرسال كتيبة جنود تحمل الأدوات اللازمة لها، لمساعدة سنحاريب في محو مدينة بابل المفتوحة... بالأحرى تعبيراً غير

---

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

(٢) ت ا ب ق : تسجيلات آشورية وبابلية قديمة.

عادي عن «الصداقة» الدبلوماسية، خالياً من أي تلميح إلى سيطرة آشورية على دلمون. وبالتأكيد هذه أهم نقطة هنا. فيجب أن يمنح سنحاريب بعض الحرية الأدبية، حتى لو أن صورة غبار بابل المستحضرة، المالئة السماء تذكّر برماد كراكاتوا الذي يحجب الشمس.

وسارع أوبنهايم أيضاً، فرأى في قائمة الأدوات المعدنية في دلمون دليلاً على استئناف العلاقات التجارية بين دلمون وماغان في العصر الآشوري الحديث، وهي صلات انقطعت منذ العصر البابلي الحديث. ومثلما سوف نرى، فأن صناعة المعادن في شبه جزيرة عُمان ازدهرت مثلاً في الألف الأول الباكر والأوسط ق.م، ولا يستبعد أن آلات النحاس التي يذكر سنحاريب أنها جاءت من دلمون، أن يكون اصلها من هذه المنطقة. ويعدّ مهماً أيضاً ما قيل بدقة عن الأدوات انها صنعت من البرونز لا من الحديد. فالنحاس والبرونز استعملا حصراً في منطقة الخليج خلال ما يسمى بعصر الحديد، ولم يثبت استعمال الحديد ذاته حتى العصر السلوقي في أبكر وقت.

٣ ـ أسرحدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق.م)[١]

دُرست حملات أسرحدون دراسة وافية، ومع ذلك لا يعرف شيء عن الظروف المحيطة بالأحداث الموصوفة في النص المجزأ كثيراً (ت ا ب ق ٢، فقرة ٥٧٢)[٢]:

والعظيم جداً (؟) من أجدادي... الذي (جلب) ضريبته السنوية... موثوق. على غرار (عش) النسر، كان مقرّهم (أي «مقره») على سفح الجبل... مدنه جيشه كان منظماً (؟)، قواته... نابو، سين،عشتار، نركال الذين يقفون إلى جانبي... هجوم الجيش (؟) عند الدعوة إلى القتال... أخذوا (؟)، رسومهم (؟) بسبب انعدام حسهم، نسوا (حرفياً: «أهملوا»)... الضريبة، مع جميع جيوشه الواسعة الانتشار... ليخوضوا معركته مع الخيول، والبغال، المكسورة حتى النير (المقرن)... امسكوا (برجلي) الملكية، وتوسّلوا جلالتي... أراضي في... مش ودلمون، التي يبعد مكانها كثيراً، ولا...

رغم وضع هذا النص السقيم، يبدو أنه يتعلق بفتح دلمون، وربما بتحصيل ضريبة، كما يقتضي ضمناً استعمال جملة «التي يبعد مكانها كثيراً». وسوف نرى أن

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢.
(٢) ت ا ب ق: تسجيلات آشورية وبابلية قديمة.

هذا التعبير يستخدم في مكان آخر لوصف الغنيمة المجلوبة إلى بلاد آشور من مسافات بعيدة. وقد اعترف هـ. ونكلير أن الإطار التاريخي الواضح ناقص في هذا النص، لكنه اعتبر أن نسبته إلى أسرحدون أفضل، وقبل د.د. لوكنبيل هذا الرأي، لكن جاء بعده ر. بورجر، ونازع به ولم يجد أساساً لهذه النسبة إلى أسرحدون.

ويعتبر نقش المبنى هـ (E) من آشور نصاً آخر تنازع الآثاريون بشأن قراءته، فتعدّدت. ويرى أ. ويدنر أن نسخة هذا النص الأصلية، التي نقلت عن الصور، ونشرها ل. مسر شميدت سنة ١٩١١، مليئة بالأخطاء، التي يصعب معها فهم أجزائه. وهذا ينطبق خاصة على السطر الخامس، الذي يرى بعض الثقات أن دلمون مذكورة فيه. فإذا اعتمدنا نص ر. بورجر المحقق، عندئذٍ نحصل على ما يلي: «افتتحت بازو، وهي منطقة بعيدة، وعلى قنا، ملك دلمون، فرضت الضريبة المتوجبة لي عليه باعتباري سيّد[ه]». وقام س. بيزولد بدراسة هذا النص، ونقده نقداً أدبياً دقيقاً، فحوّل اسم الملك قنا إلى «قا.. اماني»، مهملاً الاسم الجغرافي أيضاً. كذلك احترس أ.ل.أوبنهايم، فأعطى «قا[...] أ» ملك في...» في ترجمته.

وقد نشر بورجر هذا النص محققاً، إلا أن أ. إيفال ناقش حديثاً قراءة اسم دلمون في السطر ٥. رغم ذلك، ارتأى كسلر في نقاشه وجوب التمسك بقراءة بورجر ما دام إيفال لم يقم نفسه بمقارنة الوثيقة. أما فيما يختصّ بموقع بازو، فيظن أن الأفضل التفتيش عنه في جزيرة العرب الشمالية الغربية. ولا صلة لوضعها مباشرة قبل دلمون في نصنا، بموقعها، لأن السياق لا يقتضي قرب المكانين جغرافياً. ولا يمكن القول إلا النزر القليل بشأن قنا، ملك دلمون، ما عدا ان اسمه سامي غربي صرف. ولا يتضح ما تحتمله هذه التسمية من دلالة، لا سيما أن أوبيري وهوندارو اسمان عيلاميان.

في النهاية، يجب أن نفحص هاتين الإحالتين المحتملتين إلى دلمون على ضوء مصدر ثالث، هو نقش مبنى أسرحدون آ (A) المأخوذ من آشور، ويروي هذا النص إنجازات (مآثر) الملك الآشوري، ويتضمن من ناحية أخرى اللقب الوحيد «ملك ملوك دلمون ومكّان وملوخة». ويحتمل أن يكون أسرحدون قد جمعهم في هذا اللقب، وهو واحد من أكثر من اثني عشر لقباً يتخذها في النص ليعزز احترامه بمضمون اللقب القديم «ملك دلمون ومكّان وملوخة». من جهة أخرى لا يستبعد إشكال النصوص المناقشة من قبل، احتمال وجود بعض الأساس التاريخي لحمل أسرحدون هذا اللقب.

٤ ـ آشـوربـانيـبـال (٦٦٨ ـ ٦٢٧ ق.م)[1]

في عام ٦٦٨ق.م، خلف نجلا أسرحدون أباهما، الأول آشوربانيبال على عرش آشور، والثاني شمش ـ شم ـ أوكن، على عرش بلاد بابل، ففي القائمة المسماة قائمة الولايات، K ٤٣٨٤، وهي لائحة أسماء جغرافية، تألفت في الظاهر لأغراض جمع الضرائب وردت أسماء الأماكن الآشورية والبابلية منفصلة، الأسماء الآشورية على عامودين على الوجه، والأسماء البابلية على عامودين على الظهر. لهذا السبب، افترض ل. فورير وآخرون أن نصها يعود إلى تاريخ عهد الشقيقين، ويتضمن فعلاً الوحدات الإدارية التابعة لسلطة كل من الملكين. وهذه القائمة هامة بالنسبة لنا أولاً، بسبب ذكر اسم دلمون في السطر ١١ منها بين أريدو وكيسيك. وواضح أن هذا التسلسل لا يدلّ على الموقع، لكنه يمكن أن يشير ضمناً إلى نوع من السيطرة الآشورية الاسمية، بشكل جمع رسم أو أخذ ضريبة، على دلمون في ذلك الوقت.

وفي سنة ٦٥٢ق.م، كان النزاع المعروف جيداً بين الأخوين قد بدأ. ويظن أن استياء شمش ـ شم ـ أوكن من تبعيته لشقيقه في الشؤون العسكرية، قد أثاره. إضافة إلى المجابهات العسكرية المباشرة بين جيشي الحاكمين، يحتمل أيضاً أن تفسّر حملات آشوربانيبال على العرب في إطار هذا الصراع. واقترح م. ويبرت انها تمّت على الأرجح بسبب التحالف الذي بدا وكأنه نشأ بين الزعيمين العربيين أويتع بن حزقيال؟ وأبي عاطي وبين شمش ـ شم ـ أوكن. مع ذلك يرجّح أن هزيمة شمش ـ شم ـ أوكن وانتحاره حصلا في شهر تموز ٦٤٨ق.م، وفي غضون بضع سنين، قاد آشوربانيبال حملات تأديبية على أويتع؟ وأبي عاطي، وساقهما إلى نينوى أسيرين معاً.

ولكي نفهم دور دلمون في هذه الأحداث في هذه الفترة، ينبغي أن نفكّر بزعيمين آخرين هما نبوبل ـ شومت وبل ابني. وقد ثبت أن نبو ـ بل ـ شومت حفيد مردوخ بلادان كان سنة ٦٧٥ق.م حاكماً على أرض البحر الشمالي، أي منطقة شرقي دجلة على حدود عيلام. ولما نشبت الحرب بين شمش ـ شم ـ أوكن وآشوربانيبال، انضمّ نبو ـ بل ـ شومت بثبات إلى جانب الملك البابلي. وفي عام ٦٥٠ق.م عيّن آشوربانيبال بل ابني، اخبر قواده حاكماً على أرض البحر، وأناط به تحرير هذه المنطقة من سيطرة نبو ـ بل ـ شومت وشمش ـ شم ـ أوكن. ويصفه م. ديترخ بالقائد الذي يأمر وحده نخبة

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٨.

متحركة عسكرية، مكلفة بحماية مدن الجنوب وبلدانه، وبالقضاء على وحدات نبو ـ بل ـ شومت وشمش ـ شم ـ أوكن المتمرّدة. مع ذلك، لم تؤدِّ وفاة شمش ـ شم ـ أوكن تلقائياً إلى تهدئة أقصى بلاد بابل الجنوبية. وطلب نبو ـ بل ـ شومت اللجوء إلى عيلام، وحصل عليه، واستمر يثير الاضطراب في بلاد آشور، وبذا ظل الهدف الأول لبل ابني حتى وفاته، وحفظت جثته بالملح بعد وفاته إلى أن سلّمتها عيلام إلى بلاد آشور في صيف ٦٤٦ق.م.

ولدينا ثلاث رسائل من رسائل بل ابني إلى آشوربانيبال من هذه الفترة، تذكر دلمون مع أن رسالة واحدة منها مؤرخة (٦٤٦ق.م)، وهي راب ٧٩١[1]، فينبغي أن تعود الرسالتان الأخريان إلى فترة الخمس ذاتها. نظراً لأهميتها نذكرها كاملة.

(١) ـ راب ٤٥٨ (في الأرجح الغالب من بل ـ ابني إلى آشوربانيبال)

أدعو الآلهة آشور، وشمش، ومردوخ أن ينعموا بطول الأيام (و) صحة العقل والجسم، على ملك الملوك وسيدي.

الآن أرسلت إلى القصر عدرو رسول هوندارو، الذي يحمل ضريبة بيده. فإذا شاء الملك سيدي فليطلب منهم التحدث مع تجار بيت نآلو المتعاملين بسلع العطور والبرونز والخشب التي أعطاهم إياها الملك سيدي و . . .

(٢) ـ راب ٧٩١ (من بل ـ ابني إلى آشوربانيبال)

إلى ملك الملوك سيدي، خادمك بل ـ ابني. أدعو الآلهة آشور، وشمش، (و) مردوخ أن ينعموا على ملك الملوك سيدي، ببهجة الذهن وطول الأيام.

بشأن أملاك نبو ـ بل ـ شومات، الذي لعنه بيل، أدعو مردوخ أن يدمّر رأسه، التي أخذوها من دلمون ١٧٦ تالنت مقل، ٢٦ تالنت برونز، ٤ أينيانو برونز، [قرون] أكباش متوحشة، ساق (كاملة) طرفاء عملاقة، ١٠ أذرع (عشرة طويلة) سميكة. . . . ٥ عواميد طرفاء عملاقة، ١٠ أذرع (١٠ طويلة) سميكة. . . أرسلت الناسخ نيشخور ـ بيل إلى الملك سيدي. . . الذي هوندارو إلى. . . إلى أرض عيلام، إلى مدينة. . . رأى. فليتكرم الملك سيدي بسؤاله، ويجبره على التصريح به. إذا رغب الملك أن يجازي هوندارو على خطيئته، فليجاز ابنه. وإذا لم يرغب الملك سيدي

---

(١) راب = رسائل آشور وبابل.

بمعاقبته على خطيئته فليؤيد نرغالوبلّيط بحضور الملك سيدي. أما فيما يخص التقرير المتعلق بنشخور - بيل، أدعو نابو أن يأخذ منه فهمه.. (و) فيما يتعلق بنبو - بل - شومات، أرجو الملك سيدي أن يستعلم بالتفصيل عن نرغالوبلّيط.

(٣) - ح آ أ ٢٠/ج (آشوربانيبال إلى هوندارو)[١]

كلمة الملك إلى هوندا(رو). أنا بحالة جيدة: [لعلك] سعيد.

فيما يتعلق بما سمعته في متناول (بعض) رجال الصحراء هكذا: نبو - بيل - شومات... لم يرسل في... إلى ملك(هم)...

[س ٢٢]. أنا سمعت أن... من عيلام... خبراً أن... (بضعة أسطر ساقطة).

نينورتا - اليك - باني، الـ أ... ناقش... سمع أن كلماتي التي أرسلتها... ورسالة... مبعوثة: سوف انظر في ... هم[؟] لن يعوّضوا... عن وجودك، لا... (حوالى ٧ أسطر ساقطة).

سوف أسكن في الأرض [الجافة]: دع [الجاف] من الأرض لي. سوف تكون في [تلمو]ن: أنت، فسأكرمك [؟] [أنت]: كل هـ[ذا]... وقلبك [سوف يكون؟] معـ[ـاي]. يدي... أعطيك هذه الكلمة: ألا تعرف [انك] بحماية الإله [آشور]... آبائي [وضعوك على] عرشك؟ [ينبغي أن تتوفر] مكافأة أرباح... ضد أحد الأعداء... هم[؟] مّددوا... لأنك [أنت] لا تخاف [على؟] هذه المدينة، لم أنا[قش] زعيمها [و] بالتالي هو الذي سوف أسكنه فيها، أما فيما يتعلق بك أنت، أفلا تعلم فيما يخصني أنني أعطيك مملكة دلمون، التي سوف تقيم فيها، وتكون [تحت] حمايتي؟ وهكذا، بهذه الطريقة سوف تكون مصالحي محفوظة، ايلول، اليوم الثالث عشر نبو - أيدّين واهب اسمه.

تثبت الرسائل الثلاث بجلاء أن دلمون تابعة لآشور، على الأقل في نظر الآشوريين، فالرسالة راب[٢] ٤٥٨ تبيّن أن هوندارو، ملك دلمون في عهد آشوربانيبال كان يرسل الضريبة إلى البلاط الآشوري مع رسوله عيدرو. ويهمنا أن نشير إلى أن عيدرو اسم آرامي، بينما هوندارو اسم عيلامي. إضافة إلى ذلك، أبانت الرسالة التي

---

(١) ح آ أ = حوليات الآثار الانتروبولوجية.
(٢) رسائل آشور وبابل.

نشرها ر. كمبل تومبسون أن آشوربانيبال اسم عيلامي بألفاظ لا لبس فيها وانه مدين له بحكمه دلمون. وهكذا يحصل لدينا انطباع بوجود مملكة شبه مستقلة تدفع الضريبة لبلاد آشور. وهذا وضع يمكن أيضاً أن تعكسه قائمة ولايات أقدم قليلاً نوقشت من قبل. لكن يشكّ في إخلاص هوندارو في الرسالة راب ٧٩١ التي يلمح فيها بل ابني إلى مؤامرات تورّط فيها هوندارو وعيلام حليفة نبو ـ بل ـ شومات، وعدوة بلاد آشور. وكانت الظروف كافية بوضوح لإساءة الظن في تبرير شكّ بل ابني في نوعية التعامل الذي يرغب آشوربانيبال أن يعامل به هوندارو.

ونجد أيضاً تصريحاً عن تبعية هندارو لبلاد آشور في أحد نقوش آشوربانيبال الملكية، المسمى لوح عشتار، وهو مسلّة حجر كلس نصبها الملك في معبد عشتار في نينوى حوالى ٦٤٠ق.م. ففيه نقرأ ما يلي (سطر ١٢٩ ـ ١٣١):

. . . هوندارو، ملك د[لمون مخيف آشور و] نيـ ليل ا الـ. . . الآلهة، أعواني سحقته، و[ضريبته الغنية. . .] لنينوى ا السنوية بلا توقف، جاء ورجا سيادتي.

ويفتخر آشوربانيبال أيضاً بتلقّيه ضريبة من. . . ـ ر ـ أ ـ ميت ـ ت ملك كوبّي، بادي، ملك قادي، وشيخون، ملك خزماني فيما نقدّر. ونجهل موقعي خرماني وكوبي، أما قادي، فتعتبر عُمان.

وفي راب ٧٩١ نسمع عن سلع مستوردة من دلمون، يمتلكها فيما يظهر، نبو ـ بل ـ شومت. صادرها بل ـ ابني. نجهل كيف حصل نبو ـ بل ـ شومت على هذه السلع، أمن التجارة أم من الضريبة. مع ذلك، يثير الدهشة تدوين ١٢٦ تالنت من مادة NA_4-ŠIM.BIZIDA في القائمة، أي ما يعادل أكثر من خمسة أطنان منها لسوء الحظ، تباينت الترجمات تبايناً هائلاً. فبينما اقترح كمبل تومسون كحل (تلوين العيون بالأسود)، اقترح لندزبرجر المقل، المادة العطرية التي لا تختلف عن المرّ. من جهة أخرى عرض معجم م ش ا[1] «الإثمد» الذي يستعمل مستحضراً لتجميل العين حسب ترجمته هذا اللفظ. لكن نؤكد أن عطراً، أعطي خاصة دور اللبان والمرّ في هذه المنطقة بعد مضي بضع مئات من السنين في وقت لاحق، يلائم ملاءمة أفضل تصوّرنا السلع الممكن أن نفهمها في مثل تلك الظروف، خلافاً لمستحضر تجميل العين.

وتتضمن نصوص المفرداتية التي عثر عليها في نينوى في مكتبة آشوربانيبال،

(١) م ش ا: المعجم الآشوري للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو.

قائمة المترادفات: ملكو = شارّو. وفي هذه القائمة يعطى نوع من الحجارة (سومر: gug-gi-min-na) مقابله الأكدي تلمون. من جهة أخرى، يحوي نص ديني يشيد ببابل الصيغة الشعرية «بابل نخيل دلموني ثمره حلو المذاق». في النهاية، في نشيد فخر مكتوب باللغتين السومرية والأكدية، عرفت نسخة منه منذ مدة طويلة في نينوى، تقول اينانا: «في بئر جبل أرض دلمون، غسلت رأسي».

وقبل ترك هذه الفترة، ننتقل إلى رسالة آرامية، مناقشة كثيراً، عثر عليها في آشور، كتبت على الأرجح في زمن ما بين ٦٦٨ و ٦٤٨ق.م. وقد بعث بالرسالة الموظف الآشوري بل ـ اتير من بيت أموكّاني الواقعة في بلاد بابل الجنوبية، إلى شقيقه بيري أموريّ. وهذه الرسالة محفوظة حفظاً سيئاً، وقد سجّل فيها فيما سجّل، أسر أربعة أشخاص يحملون رسالة من ملك بابل «في حفيرو في الصحراء». وقد اقترح المستشرق الكبير م. ليدزبرسكي أن حفيرو كانت المدينة التي ذكرها ياقوت باسم حفير أو حُفَير، أول منزل من البصرة لمن يريد مكة، وقد قبل هذا الرأي بعده، لكن هنالك إمكانية أخرى أهملت، فحفر هي المنزل الخامس على طريق البصرة مكة ذاتها الذي يماثل مدينة حفر الباطن الحديثة المسماة على هذا النحو لأنها تقع في وادي الباطن، ميناء الدخول الهام في جنوبي جزيرة العرب. بالفعل يوصف حفر الباطن بمزيد من الدقة بأنه في الصحراء أكثر من حفير/حُفَير، الذي يبعد فقط ١٨ ميلاً عربياً أو ٣٦ كم عن البصرة، وهكذا بقي في أقصى بلاد بابل الجنوبية ويهرب إليها الخارجون على القانون من الموظفين الآشوريين، ويحتمل بلا ريب أنهم يستطيعون أن يختفوا في سعة جزيرة العرب، متى بلغوا الحفر. إلا أن الأشخاص الأربعة المأسورين، على نحو ما جاء في الرسالة، دوهموا قبل أن يتمكنوا من الهرب.

٥ ـ نبوخذ نصر[1] (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م)

لا تذكر نقوش نبوخذ نصر الملكية تورطه في منطقة الخليج، إلا أن عدة نصوص اكتشفت حديثاً في فيلكه توحي بأنه كان نشيطاً في رأس الخليج. ففي عام ١٩٥٣ عثر قرب تل سعد على «لوح من الحجر المنحوت عليه سطر نقش»، أبعاده ٥٤سم × ٥٤سم × ١٢سم، يقرأ كالآتي: «قصر نبوخذ نصر ملك بابل». ورغم أن أ.ج. فرّارا اقترح أن هذا الحجر المنقوش كان في طريقه إلى بابل من منطقة منشئه البعيدة جنوباً، مثل عُمان، عثر في فيلكه حديثاً على نقش ثاني يسمى «الملك البابلي»

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ١، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

مما يرجّح أن نقش المبنى ينتمي فعلاً إلى فيلكه. وتحمل كسرة طاسة برونز أخذت من فيلكة، محفوظة في متحف الكويت تكريساً بالأكدية نصه كما يلي:

[إلى شمش، ملـ]ك لارسة الذي يقيم في أي ـ كارا، سيد[ه]، [نبو ـ كودورّي] ـ أو صور، ملك الجميع [؟] من أجل حياته [نذر].

يوحي هذا النص بجلاء أن معبد أي ـ كارا، المعروف من قائمة مجزأة آشورية حديثة، أخذت من معابد دلمون في فيلكة. إضافة إلى ذلك، يحوي لوح حجر عليه نقش آرامي مأخوذ من تل خزنة تكريساً ثانياً لأي ـ كارا. وقد حدّد م. ستزنيسر تاريخ نصه بالطريقة الجغرافية القديمة فأعاده إلى القرن الخامس أو الرابع ق.م. إذن، خلاصة القول إن هذه النصوص الجديدة توحي بأن أي كارا فعلاً في فيلكة، وإن فيلكة ينبغي بالتالي أن تكون قد اعتبرت جزءاً من دلمون في العصر البابلي الحديث، وإن نبوخذ نصر تورّط خاصة في الجزيرة في ذلك الوقت. فنظراً لهذه الملاحظات، يهمنا أن نذكّر بتعليق حفظه أوزيبيوس، نقلاً عن أبيدينوس، يتضمن أن نبوخذ نصر أسس مدينة بابل الجنوبية، التي تسمّى تيريدون «ليصدّ غزوات العرب». وقد لاحظ نيارخس في تيريدون أن «التجار يجمعون البخور (اللبان) من البلاد المجاورة، وجميع الطيوب الأخرى الزكية الرائحة التي تنتجها جزيرة العرب». ويحتمل أيضاً أن يكون نبوخذ نصر قد أسس مخفراً أمامياً في فيلكة، أو أنه كان يجلّ إجلالاً خاصاً إي ـ كارا هناك.

٦ ـ نبونيدس[1] (٥٥٩ ـ ٥٣٨ ق.م)

لم تذكر مصادر بلاد ما بين النهرين دلمون طيلة ما يقرب من قرن بعد تأليف نص لوح عشتار حوالي ٦٤٠ق.م. إلا أن نصاً يعود تاريخه إلى السنة الحادية عشرة من ملك نبونيدس، أي ٥٤٤ق.م يذكر شقيق «حاكم» دلمون (lú-bél-pihäti Dilmun^{ki}). فالاسم الأكدي بيخاتو كان يستعمل ليدل عل منطقة إدارية معينة، وبالتالي يمكن أن تعني وظيفة بيل بيخاتو «حاكم المنطقة الإداري» بما ينطوي عليه هذا التعبير من عدم الدقة التامة. ولا ريب أن مهامّه تنوّعت من حال إلى حال، فاقتضت منه أحياناً أن يلعب دوراً عسكرياً إلى جانب دور الحاكم المدني. واقترح ك. كسلر في حالة دلمون، أن دور بيل بيخاتو أقرب إلى الدور التجاري منه إلى العمل السياسي، وأنه أحدث لينشّط أو يحمي التجارة بين دلمون وبلاد بابل. مع ذلك، كما اقترح هو أيضاً، لم

---

(١) المرجع ذاته، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

يتأكد بعد ما إذا كان إحداث هذه الوظيفة يجب أن ينظر إليه في إطار تورّط نبونيدس الواسع في شمالي غربي جزيرة العرب.

(١) ـ مصدر تنجيم بابلي حديث[١]

قبل اختتام العصر البابلي الحديث، يهمنا أن نشير إلى وجود نص تنجيمي جغرافي في متحف اللوفر، فيه صور الكواكب مقابلة للبلدان. فحسب النصّ تقابل صورة العقرب (mul-giz-tal) أرض البحر (أقصى العراق الجنوبي) ودلمون. وبالتناوب كانت صورة «الحوت الجنوبي» من مملكة الحيوان (mul-sim-maḫ) تستعمل بديلاً عن دلمون. مع ذلك، كما أكّد أ. ويدنر يفوتنا اليوم تماماً إدراك منطق ممارسة جميع أسماء الأماكن وأسماء صور الكواكب، وفهم هذه الممارسة.

(٢) ـ المصادر الأخمينية[٢]

لم يرد ذكر مصير دلمون في المصادر الأخمينية، بعد افتتاح الأخمينيين بلاد بابل، رغم أن د. أواتز عرض، أن نهاية المدينة ٥ سقطت بأيدي الفاتحين الأخمينيين. وعندما أعلن كورش أن الملوك العرب «النازلين في الخيم» أصبحوا تابعين له، يجب قطعاً علينا أن نفهم أن المقصود الصحراء الشمالية الغربية التي قام بحملات عليها الملوك الآشوريون والكلدانيون من تجلات بليزر الثالث (٧٤٤ ـ ٧٢٧ق.م) إلى نبونيدس (٥٥٥ ـ ٥٣٩ق.م). وفي هذه المنطقة أيضاً، تقع بلا ريب المرزبانة المعروفة باسم «العربية» في نقوش دارا (داريوس) وكسرى الملكية. ولا دليل لدينا أيضاً بأن لهذا التعبير صلة بمنطقة الخليج العربي أياً كانت. مهما يكن، تستحق استرعاء انتباهنا الإمكانات المتوفرة في المصادر، التي تقل قليلاً معرفتنا الجيدة بها.

فرواية هيرودوتس عن إصلاح الضريبة في الامبراطورية الفارسية في عهد دارا (٥٢١ ـ ٤٨٦ق.م)، نوقشت كثيراً على مرّ السنين. ويهمنا أن نلاحظ أن الولاية الرابعة عشرة لجباة الضريبة تضمنت سغرتيان، سرنجيان، ثمنيان، أوتيان، ميسي، مع سكان جزر البحر الارثري. ورغم أن سكان الخليج أهملوا تماماً تقريباً في مناقشات هذا المقطع، يجوز الاقتراح بأن البحرين و/أو فيلكة كانتا في عداد الجزر التي أشار إليها هيرودوتس.

---

(١) المرجع ذاته، ص ٣٥٠.
(٢) المرجع ذاته، ص ٣٥١.

ونجد أيضاً صيغ اسم متباينة في خمسة من نصوص تحصينات برسيبوليس (اصطخر)، مكتوبة باللغة العيلامية، التي تذكّرنا بـ «تلمون» الأكدية، مثلما أبرز ذلك حديثاً ك. بوتز. ويمكن تلخيص هذه النصوص فيما يلي:

ت ب ١٩: ألف كوارت (ربع غالون) من الحبوب من Ti-ul-ma-in إلى (المحل) زكزكو (غير مؤرخ)[١].

ت ب ٢٠٢: ٣٥٠ كوارت من التين أودعت في «Ti-li-man» (داريوس ٢٢).

ت ب ٣٨٩: ٧٥٠ كوارت من الخمر أخذت من Ti-li-min إلى (المحل) ليدوما (داريوس ٢١)، استعملت من أجل تموين الغذاء الملكي. استلمها ب. ن. (PN).

ت ب ١٨٨٢: حبوب في Ti-ri-ma-an-na وزّعت (داريوس ٢٣).

ت ب ١٩٨٥: إيداعات، تسليمات، مسحوبات تين من موظفين رسميين (؟) في Ti-la-man من أجل (الموظفين الرسميين) (؟) ارتوبيا للتوزيع، وتين معطى لمنّوزا وهشينا رجل التسليم في Til-la-man (غير مؤرخ).

يصعب علينا أن نعرف ما إذا كان اسم المكان، الذي ترد صيغه المتباينة في النصوص الخمسة، يدلّ على مكان واحد، مثل «تلمون الأكدية». فجميع النصوص مختصرة إلى حد يجعل أي تحليل سياق مستحيلاً. والتلميح الوحيد إلى أن المكان المشار إليه يحتمل ألا يكون جزيرة البحرين، هو الفحوى العامة لتحصينات برسيبوليس، التي تعطي الانطباع بأن التعامل يتمّ مع إدارة محلية في برسيبوليس وحولها. مع ذلك، لما كانت جميع أسماء الأماكن في هذه النصوص لا يمكن تحديد مواقعها، نجازف إذا افترضنا أن وصول السلع وخروجها تمّا حتماً ضمن فارس فقط أو ضمن نصف قطر وأوسع قليلاً. وقطعاً، يستحق إملاء اسم المكان دراسة أعمق، لا سيما أن مصادر هذه الفترة لا تذكر البحرين عموماً.

* * *

لا تكثر لدينا، لا المصادر الأثرية ولا المصادر التاريخية، التي تتناول جزيرة العرب الشرقية أو دلمون، من العصر الكشي إلى العصر الأخميني. رغم ذلك، تمكنا من تقديم خطوط التطور الرئيسة التي نأمل أنها لم تخالف المواد الموجودة بين أيدينا. ويرجّح أن إلحاق دلمون بالدولة الكشية قد جرى في القرن الرابع عشر الباكر ق.م،

---

(١) ت ب: تحصينات برسيبوليس.

الذي نستطيع أيضاً أن نعتبره تاريخ مبنى رأس القلعة في العصر الكشي الرئيس. وبعد ذلك، تصبح معلوماتنا نادرة إلى أن نصل إلى الإعمار الذي يتميز بوجود منشأة إقامة ضخمة تتقيد ببعض أعراف بلاد ما بين النهرين في تنظيم المساحات. ورغم أن ملك دلمون أوبيري ثبّت وجوده في زمن سرجون الثاني، يبدو أن أياً من المواد المأخوذة من المدينة، لا يرجع إلى تاريخ أبكر من منتصف القرن السابع ق.م.

ولا يبدو وضع دلمون السياسي واضحاً تماماً مع آشور. وتعطينا المصادر نبذاً متناقضة دوماً حسب المنظور الآشوري، الذي يوحي بأن الفتح وأداء الضريبة، والتحالف والمؤامرات، قد ظهروا جميعاً. بيد أن الخلفية الدائمة هي معركة آشورية لقمع الاضطرابات التي يشجعها في بلاد بابل الجنوبية، زعيمان كلدانيان هما مردوخ بلادان ونبو ـ بل ـ شومات. لكن يظهر أن دلمون بقيت على هامش هذه النزاعات، ولم تتورط بها مباشرة. ولا ريب أن ملوك آشور كانوا مهتمين كثيراً بممارسة قدر كبير جداً من التأثير في شؤون دلمون. إلا أن تحذيرات آشوربانيبال لهندورو ملك دلمون، واحتجاجاته لديه، تدلّ على أنه لم يكن غير معني بموقف دلمون، خاصة تجاه عدوّته عيلام. ونقّب عدد ضئيل من القبور في البحرين سلّط الأضواء على سكانها في ذلك الزمن، مثلما يفعل اسما ملكين دلمونيين، يوحيان بوجود صلة وثيقة (ارتباط) بجنوبي غربي فارس. ويبدو وضع دلمون كولاية بابلية واضحاً ـ كيفما اختار الباحث تعريفه ـ في عهد نبونيدس، ولا يستبعد أن إعادة تنظيم الخليج الأوسط الرئيسة التالية، أعقبت فتح الأخمينيين بلاد بابل، أو في الحد الأدنى في وقت إصلاح داريوس (دارا) نظام الضرائب.

مع ذلك، كان وضع الخليج الأسفل مختلفاً.

ز ـ الاسكندر والسلوقيون والخليج العربي: ٣٢٥ ـ ٦٥ ق.م

ألحقت جيوش الاسكندر الكبير سلسلة هزائم متتابعة بقوات الامبراطورية الأخمينية، فوقعت معظم آسية الغربية، وبعض أجزاء آسية الوسطى والجنوبية تحت السيطرة المقدونية. إلا أن العديد من الدول والامبراطوريات هيمنت على ممتلكات الاسكندر في أثناء القرون القليلة التي أعقبت وفاته مباشرة، يهمنا منها إلى أقصى حدّ الامبراطوريات السلوقية والفرثية والساسانية في الشرق، والامبراطوريتان الرومانية والبيزنطية في الغرب، والدولتان الحميرية والأكسومية في الجنوب، والدول العربية التابعة لغيرها ـ مثل كندة، وغسان، ولخم ـ الواقعة في المناطق الصحراوية الفاصلة بين

تلك الامبراطوريات. ويسهل جداً أن يُفتَنَ القارىء بالتاريخ العسكري والسياسي الخاص بفترة ما بعد الاسكندر، وأن يتغافل بالتالي عن ذكر شعوب المنطقة. لذلك ينبغي علينا أن نوازن بين ما نعرضه على المستوى الامبراطوري، وما نحكيه عن التطورات المحلية، حتى لو شكّلت هاتان الناحيتان تشابكاً معقداً، مثلما يحدث في أغلب الأحيان.

وقد عبّر مفهوم المعمورة اليوناني عن العالم المسكون بأجمعه، وشجعت الرغبة بتحديد موقع أراضيه وشعوبه ووصفها كلها، جمع المعلومات الجغرافية عنها وفي وقت مبكر.

ويغلب الظن أن الأغارقة كانوا لا يعرفون إلا النزر القليل عن الخليج العربي قبل حملة الاسكندر الآسيوية، لكنهم قطعاً كانوا على علم بوجوده. بالفعل، يرجّح ذكر «الخليج الفارسي» (باليونانية: برسيكوس كولبوس)، في عمل مفقود لهيكاتايوس HECATAEUS، يعود تاريخه إلى حوالي ٥٠٠ق.م، حفظ لنا مقطعاً منه الكاتب القديم المتأخر ستيفانوس البيزنطي STEPHEN OF BYZANTIUM. ولا ريب أن الخليج العربي كان في ذلك الوقت واقعاً في منطقة نفوذ الأخمينيين. بالفعل، يبدو أن معرفة الأغارقة بالامبراطورية الأخمينية كانت أوسع إلى حدّ هائل مما كان يفترض في غالب الأحيان. فقد كانوا، رغم كل شيء، متواجدين في بلاطات الملوك الأخمينيين منذ عام ٥٤٧ق.م، وفي القرن الرابع قبل الميلاد، قدّر عدد الجنود الأغارقة العاملين في جيش الملك الأخميني بحوالي ٢٠٠٠٠ جندي. مع ذلك، بصرف النظر عن هذه الصلة، يظهر أن المعلومات الجوهرية الأولى عن منطقة الخليج العربي التي وصلت إلى الغرب، هي المعلومات التي حصل عليها أمراء بحر الاسكندر في أثناء عودتهم من الهند.

١ ـ رحلة نيارخس وأسطول الاسكندر[١]

(١) ـ رحلة نيارخس

وحفظ لنا آريان ARRIAN في النصّ التالي (الحملة العسكرية ANABASIS، ٥،٢٦،١ ـ ٢) تصوّر الاسكندر للعالم عند انتهاء حملته على الهند، قال:

«لم أضع حدّاً لأنشطة رجل الفكر، إلا أنشطته نفسها، التي تقود إلى المشاريع

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، ١٩٩٢، ترجمة ابراهيم خوري، المجلد ٢، ص ١ ـ ٤.

الجزيرة النبيلة. مع ذلك، إذا أحبّ أحد أن يعرف نهاية صراعنا الحالي، استطيع أن أقول له: لم يبق أمامنا حيّز كبير من الأرض، يفصلنا عن نهر الغانج وعن البحر الشرقي. وأؤكد لكم أنكم ستجدون أن بحر هركانية يتصل به، لأن البحر المحيط الكبير يدور حول الأرض كلها. أجل، وسوف أوضح للمقدونيين وحلفائهم على حد سواء، أن الخليج الهندي يؤلف مجمعاً مائياً واحداً هو والخليج الفارسي، وكذلك بحر هركانية والخليج الهندي. وسوف يبحر أسطولنا من الخليج الفارسي، ويدور حول ليبية (= افريقية)، حتى يصل إلى أعمدة هرقليس ومن أعمدة هرقليس، سوف تصبح لنا جميع ليبية الواقعة ضمنه. كذلك جميع آسية، وحدود الامبراطورية فيها، التي عيّنها الله لجميع الأرض».

وفي سنة ٣٢٥ق.م، أمر الاسكندر نيارخس أن يبحر في أسطول من مصب نهر الهندوس، مجارياً ساحل مكران حتى الخليج العربي. وكما قال آريان (الرحلة العسكرية، ٢٧، ٢٠، ٩ ـ ٢٠): «لم يرسل نيارخس ليبحر في المحيط، بل ليستكشف ساحله وسكان ساحله، ومراسيه، وأماكن الاستعذاب فيه، وعادات سكانه وتقاليدهم، وأراضيه الصالحة للزراعة وأراضيه القاحلة». وكان البحارة في أسطول الاسكندر فينقيين، وقبارصة، ومصريين (٨، ١٨، ١). أما نيارخس، أمير بحره فكريتي المولد (٨، ١٨، ١٠). وأعطى آريان أسماء (٨، ١٨) عدة ربابنة من ربابنة السفن المتنوعة في الأسطول، ممّن قاموا بكتابة تقارير عن الرحلة التي اشتهرت في العالم القديم. ولم يصلنا أي منها، لكننا أطلعنا على تقارير نيارخس NEARCHUS، وأونيسيكريتس ONESICRITUS، وأورثاغوراس ORTHAGORAS، نقلاً عن أعمال مؤلفين متأخرين.

وجارى نيارخس ساحل فارس. مع ذلك، يخبرنا آريان أن الاسكندر أمضى ردحاً من آخر عام في حياته يعدّ خططه لجزيرة العرب، التي يمكن تلخيصها فيما يلي: (١) إعداد الأسطول لجمع الأخبار عن جزيرة العرب ولنقل رجال اجتياحها في حال حصوله، (٢) تسيير ثلاث بعثان استخبارات بحرية، (٣) تأسيس مستوطنات على الساحل العربي. ولنبحث الآن هذه الأمور على التوالي:

(٢) - أسطول الاسكندر

وصف سترابو بشيء من التفصيل قيام الاسكندر ببناء أسطول بحري معتمداً على أرستوبولس ARISTOBULUS قال:

«أما الاسكندر... فقد عزم على امتلاك تلك البلاد (المقصود جزيرة العرب).

فأعدّ الأساطيل وقواعد العمليات. وبنى بعض سفنه في فينيقية وقبرص من أخشاب مفصّلة، نقلها منفصلة، برّاً في البدء إلى ثبساكوس THAPSACUS في رحلة تدوم سبعة أيام، ثم في نهر الفرات إلى بابل. وبنى مراكب أخرى في بلاد بابل بخشب السرو النامي في الغياض والحدائق (جغرافية ١٦، ١، ١١).

ويروي آريان أيضاً أن الاسكندر، عندما وصل إلى بابل، وجد فيها ليس أسطول نيارخس الذي بلغها حديثاً فحسب، بل «الباقي» الذي «جلب من فينيقية» (الرحلة العسكرية ٧، ١٩، ٣)، وضمّ خمسين سفينة، نقلت براً عن طريق ثبساكوس، على حد قوله، معتمداً أيضاً على أرستوبولس كمصدر لأخباره. ولا ريب أن كينتس كورتيوس QUINTUS CURTIUS بالغ عندما جعل عدد السفن المنقولة براً ٧٠٠ سفينة (تاريخ الاسكندر، ١٠، ١، ١٩). ويتحدث آريان أيضاً عن بناء السفن المتواصل في بابل، ويقول إن «الاسكندر أعدّ مكّـلاً واسعاً في بابل، ترفأ إليه ألف سفينة حربية، ويحوي حوض إنشاءات بحرية» (الرحلة العسكرية، ٧، ١٩، ٤). أخيراً يذكر آريان في مناقشته خطط الاسكندر بالنسبة إلى جزيرة العرب، أنه كان يعتقد بوجود «بنادر كبيرة في جميع أماكن الساحل، تكفي لرسو أسطوله» (٧، ٢٠، ٢).

ويتضح اهتمام الاسكندر بالاستكشافات البحرية على نطاق واسع، من إرساله هيراكليدس HERACLEIDES إلى هركانية، وإعطائه تعليمات ببناء أسطول واستطلاع بحر الخزر (٧، ١٦، ١ ـ ٢). وقد دفع هذا المقطع والنصوص المناقشة من قبل، كورنيمن إلى القول بأن الاسكندر شعر حتماً أن امبراطوريته الشرقية، المفتتحة حديثاً، لا يمكنه الاحتفاظ بها إلا إذا سيطر على البحار المحيطة بها.

ولما أصبحت الاستعدادات البحرية الضرورية كافية، أرسل الاسكندر في عام ٣٢٤ق.م ثلاث حملات لاستكشاف الساحل العربي والجزر المقابلة له، لأنه «خطر له أن يستعمر سواحل الخليج الفارسية والجزر المقابلة لها، ظنّاً منه انها مزدهرة مثل فينيقية» (الرحلة العسكرية، ٧، ١٩، ٥ ـ ٦). إضافة إلى ذلك، ألحّ كورنيمن على أن الاسكندر أراد أيضاً أن يدور أسطوله حول شبه جزيرة العرب، وهذه مأثرة لم يقم أحد بها قبله (الحملة العسكرية، ٧، ٢٠، ٧ ـ ٩).

٢ ـ برنامج استكشاف الاســكندر[١]

قاد أرخياس البلاي ARCHIAS OF PELLA الرحلة الأولى. وهو ربان سابق لسفينة ثلاثية صفوف المجاذيف في أسطول نيارخس (الرحلة العسكرية، ٨، ١٨، ٣). ويروي آريان أن أرخياس وصل إلى تيروس بسفينته (٧، ٢٠، ٧). وتيروس صيغة أخرى لاسم تيلوس. ويمكن اعتبارها أكبر جزر أرخبيل البحرين. وقاد أندروسثينس التاسي ANDROSTHENES OF THASOS الرحلة الثانية. وهو أيضاً ربان سابق لسفينة ثلاثية صفوف المجاذيف في أسطول نيارخس. ويقال إنه دار جزئياً حول شبه جزيرة العرب، وزار تيلوس وأرادوس. وصنّف كتاب طواف بحري ـ أي تقريراً عن الرحلة البحرية للملاحين بصورة رئيسة ـ شاعت قراءته على نطاق واسع في العصور القديمة بين مؤلفين من أمثال أيراتوسثينس (حوالى ٢٨٤ ـ ٢٠٢ق.م) ERATOSTHENES، وارتيميدورس (قبل عام ١٠٠ق.م تقريباً) ARTEMIDORUS، واستشهد به اثيناوس (حوالى ٢٠٠م) ATHENAEUS وتيوفراستوس THEOPHRASTUS وسترابو. وثالثاً وأخيراً يروى أن هييرون السولي HIERON OF SOLI، انطلق من بلاد بابل الجنوبية، ووصل إلى هيرووبولس HEROOPOLIS في مصر، ثم كرّ راجعاً، وعاد ليقدّم للاسكندر تقريراً عن ساحل جزيرة العرب ويذكر آريان (الرحلة العسكرية، ٧، ٢٠، ٨) أن هييرون تحدّث عن «بروز» في برّ جزيرة العرب، يمتدّ بعيداً في المحيط، هو قطعاً شبه جزيرة مسندم، التي يعرف نيارخس انه رأس جبلي عربي يسمى ماكيتا (٨، ٣٢، ٧) MAKETA.

وفي الوقت ذاته، عندما كان أرخياس وأندروسثينس وهييرون يحاولان الدوران في البحر حول شبه جزيرة العرب، منطلقين من بلاد بابل، كان اناكسيكراتس ANAXICRATES يجهد نفسه ليقوم بالرحلة ذاتها لكن بالاتجاه المعاكس. ويذكر أريان (الرحلة، ٨، ٤٣، ٧)، وتيوفراستس (تاريخ، ٩، ٤، ٢ ـ ٤) وسترابو (١٦، ٤، ٤) ان الاسكندر أرسل أناكسيكراتس من هيرووبولس في مصر ليدور في البحر حول جزيرة العرب. ومع أن أناكسيكراتس لم يتجاوز باب المندب في جنوبي البحر الأحمر، فإنه جمع معلومات قيمة عن جزيرة العرب، حفظها تيوفراستس.

وهكذا يمكن تصنيف الاستكشافات التي طلب الاسكندر إنجازها في ثلاث فئات، تشمل الفئة الأولى منها، رحلة نيارخس التي نعرف أن ثلاثة تقارير كتبت عنها، ووجدت، وحررها نيارخس وأورثاغوراس وأونيزيكريتس. وتضمّ الفئة الثانية رحلات

---

(١) المرجع ذاته، ص ٥.

أرخياس وأندروسثينس وهييرون في الخليج العربي. أخيراً لدينا رحلة أناكسيكريتس في البحر الأحمر. وتمثّل التقارير المكتوبة عن هذه الرحلات أساس معظم المعرفة الجغرافية الخاصة بالخليج العربي وشبه جزيرة العرب، المتوفرة في عهد السلوقيين.

٣ ـ سياسة الاسكندر الاستيطانية(١)

نسب ف. تشيريكوير V. TSCHERIKOWER إلى الاسكندر تأسيس أربع وثلاثين مدينة أو البدء بتأسيسها، أي أقلّ من نصف الحاضرات السبعين التي عزا بلوتارك إنشاءها إليه (DE ALEX. FORT 1.5) وقطعاً، أوقفت وفاته سنة ٣٢٣ق.م مخططاته الموضوعة لاستعمار سواحل الخليج العربي، وإن كانت لدينا بيّنة على إقامته مدينة واحدة في الصحراء الشمالية من جزيرة العرب، على تخوم بلاد ما بين النهرين، ويروي آريان وكوينتوس كورتيوس أن الاسكندر دخل «جزيرة العرب، وأشاد فيها مدينة محصنة أسكن فيها الجنود الأغارقة المعاقين». ويقول آريان:

«لهذه الأسباب أبحر (أي الاسكندر) إلى بلآكوباس PALLACOPAS، واتجه منها صبباً إلى البحيرات نحو جزيرة العرب. وشاهد هناك موقعاً جيداً، وبنى فيه مدينة وحصّنها، وأسكن فيها بعض المرتزقة الأغارقة والمتطوعين، والمسنين، والجرحى الذين لا يصلحون للخدمة العسكرية (الحملة العسكرية، ٧، ٢١، ٧).

ويقول كوينتوس كورتيوس: «بعد ذلك، تاق الملك إلى الإبحار في نهر بلاكوباس، من أجل الذهاب إلى أراضي العرب. ولما وصل إليها، وعثر على موقع ملائم لتأسيس مدينة، استقرّ فيه، وأسكن الأغارقة المعاقين لطعنهم بالسنّ أو ثخونة جراحهم، وكل من تخلّف في المؤخرة بمحض إرداته (تاريخ ١٠، ٤، ٣)».

ونجهل اسم هذا الموقع ومكانه بدقة. وكان يسمى الاسكندرية في أفضل ظنّ منطقي ولما كانت قناة بلاكوباس توازي الفرات، وتقع غربيه بين بابل وتيريدون، اقترح ريتر تحديد موضعها قرب الكوفة الحديثة. خلافاً لذلك، يرى تشيريكوير أنها قائمة في موقع واحد هي وفولوجيزياس الفرثية (ولغاش) أو الحيرة، عاصمة اللخميين.

ويروي بليني (تاريخ طبيعي، ٦، ١٣٨ ـ ١٤٦) باختصار قصة اسكندرية أهمّ منها، واقعة في أقصى جنوبي بلاد بابل، معروفة عادة باسم اسكندرية دجلة. وسار الاسكندر على خطى نبوخذ نصّر الذي أسس مدينة تيريدون/ ديريدوتس في المنطقة

---

(١) المرجع ذاته، ص ٦.

ذاتها. ويحتمل أن يكون قد استهدف تحقيق ثلاثة أغراض في الحدّ الأدنى من تأسيسه هذه الاسكندرية. فأولاً يجوز أن يكون سعى لإقامة قاعدة عسكرية أمامية ضد احتمال حدوث غارات عربية. ويرجّح ثانياً أنه أراد أن يكون لديه بندر جديد يسعه أن يستخدمه مركز هجوم لأسطوله الكبير الذي بناه في بابل. وربما قصد ثالثاً أن تستعمل هذه المنشأة مركزاً تجارياً جديداً في رأس الخليج العربي، وبندراً يستقبل السفن التي تنقل السلع الكمالية المحمولة من الشرق، ويحلّ محلّ تيريدون. إضافة إلى ذلك، لعلّ منشأة الاسكندر في أقصى جنوبي العراق وضعت أساس المرزبانة السلوقية الأولى في البحر الارثري. وقد تبيّن انه أصاب في اختيار هذا الموقع الذي يعتبر بداية إنشاء مدينة ستشتهر في وقت لاحق باسم سبازينوخاراكس SPASINOU CHARAX، عاصمة مملكة خاراسين CHARACENE.

وفي عام ١٨٥٧م، حدّد هـ.س. رولنسن موقع الاسكندرية ـ خاركس المحتمل على الوجه التالي: «ينبغي عليّ أن أبحث عن الموقع على حوالي عشرة أميال فوق جون المحمرة، وأثق أن بعض ضباطنا الشباب النشيطين سوف يقومون بتحريات في هذا المكان في أثناء الحملة الحالية (أي مسح شسني CHESNEY لدجلة والفرات). وشعر تشيريكوير، بعد رفض رولنسن قبله بنصف قرن «ما قبله كتحديد جغرافي»، أن المدينة كانت قطعاً واقعة عند التقاء أولايس / كرخة ودجلة. ثم عيّن ج. هنزمن رابية كبيرة في هذه المنطقة، معروفة باسم جبل خويبر أو نيسان (انظر ميشان / ميسان)، واعتبرها خاراكس القديمة.

ولا بدّ لنا قبل اختتام بحث الاسكندر أن نتطرّق إلى «فتحه» المزعوم لجزيرة العرب: فقد أوضح آريان أن مخطط الاسكندر لاجتياح جزيرة العرب لم ينفّذ بتاتاً. مع ذلك، ورد إخضاعه لها في عدة مصادر. فبليني (ت ط، ١٢، ٣٢، ٦٢) وكوينتس كورتس (ت. الاسكندر، ١، م١) وبلوتارك (الاسكندر، ٢٥، ٤، و)، يروون كلهم قصة ورد فيها أن الاسكندر أرسل هدية لبان لأستاذه ليونيذاس، بعد افتتاحه جزيرة العرب. فكوينتوس يقول:

«كان (الاسكندر) يعبد الآلهة عبادة رائعة منذ حداثته الأولى ويسرف كثيراً في حرق البخور، حتى أن ليونيذاس، الذي كان متقشّفاً ومقتصداً صرخ في وجهه بشدة: إعمل مثل هذه القرابين عندما تحتل المنطقة التي تنمو فيها هذه الأشياء. وتذكر الاسكندر هذه الكلمات، عندما أخضع جزيرة العرب، منتجة البخور، فبعث لليونيذاس

ببخور وزنه عدة طالنتات وأمره ألا يتباخل كثيراً في تكريم الآلهة، ما دام يعلم أنها تعوّض بسخاء عظيم عن الهبات المقدمة لها ببهجة (تاريخ الاسكندر، ١ م٧)».

ويقول بليني: «عندما كان الاسكندر الكبير يلقي البخور بإسراف على المذابح، أسرّ إليه أستاذه ليونيذاس في إحدى المرات بأن عليه أن يقدم هذه القرابين على هذا النحو بعد افتتاحه بلدان الشعوب التي تموّن العالم بها. ومع ذلك بعد ما افتتح الاسكندر جزيرة العرب، بعث له بحمولة سفينة من البخور، وطلب منه أن يقدّم منه ما يشاء إلى الآلهة (ت ط، ١٢، ٣٢، ٦٢).

فلو فرضنا أن قصة افتتاح الاسكندر لجزيرة العرب عارية عن الصحة. يظلّ قائماً أنها ترتبط بغارة قصيرة على شمالي غربي جزيرة العرب، وصفها كوينتوس كورتيس، وحصلت في وقت مبكّر من حملة الاسكندر الآسيوية، في أثناء حصار صور. وجاء نص كوينتوس كورتيس كما يلي: «خشي الاسكندر أن يبدو متباطئاً في حصار مدينة واحدة، فأناط هذا العمل ببرديكاس PERDICCAS وكراتيروس CRATERUS، وذهب هو إلى جزيرة العرب تصحبه جماعة مسلّحة تسليحاً خفيفاً (تاريخ الاسكندر ٤، ٣، ١ ـ ٢)». ولم يصلنا خبر آخر عن هذا العمل، بل يقال بعد عدة فقرات إن الاسكندر عاد من جزيرة العرب (٤، ٣، ٧). ولا بدّ من الإشارة إلى أن ليس لدى آريان أي تدوين عن مثل هذه الحملة.

ولعلّ هذه الغارة والاستيلاء على كميات كبيرة من اللبان سرّعا رغبة الاسكندر باجتياح جزيرة العرب قبل وفاته. ويقول آريان: «حثّ ازدهار البلاد (أي جزيرة العرب) الاسكندر على فتحها، لما بلغه أن الكاسيا (السنا) تنمو في واحاتها، وأن المرّ واللبان يؤخذان من أشجارها، وأن القرفة تجمع من أدغالها، وأن سنبل الطيب ينمو برياً في مروجها (الرحلة العسكرية، ٧، ٢٠، ٢)». وقطعاً يحتفظ هيرودوتس بتفاصيل هائلة عن طيوب جزيرة العرب (٣، ٨٩، ٩٥، ١٠٨ ـ ١٠٩)، انظر بليني (ت ط، ١٢، ٤٠، ٨٠) بما فيه قوله بأن العرب يرسلون سنوياً هدية من البخور، وزنها ألف تالنت إلى الملك الأخميني. ولا ريب أن الاسكندر توقّع أن يأخذ من جزيرة العرب مثل تلك الثروة التي كانت تذهب إلى الأخمينيين.

٤ ـ السياسة السلوقية في الخليج العربي، وقضية الأسطول البحري السلوقي،[(١)]

ننتقل الآن إلى بحث بعض أهداف سياسة السلوقيين في الخليج العربي بعد الاسكندر. ففي عام ١٩٢٩، كتب و.و. تارن، المتضلّع الكبير من الآداب الكلاسيكية الاغريقية والروماني، وقال: «كلّ ما فعله السلوقيون في جزيرة العرب، انحصر في الخليج العربي، ولو لم يلقَ نشاطهم فيه، ما يستحقه من الاهتمام الخاص». مع ذلك، منذ أعلن عن هذا الرأي، حاول عدد هائل من العلماء أن يجمعوا ما يشبه الصورة عن النشاط السلوقي في هذه المنطقة.

ومثّلت سياسة السلوقيين البحرية في الخليج العربي، في معظمها، استمراراً للسياسة التي بدأ الاسكندر بتطبيقها فيه. إلا أن إثباتنا لها ضعيف في جميع الحالات. ونحن نعرف الكثير عن سفنهم البحرية العسكرية فقط. لكن تتحدث أخبارنا عن أنشطتهم البحرية في حوضة البحر المتوسط الشرقية. وعلى الرغم من ذلك، لا يجوز أن ننسى أن الامبراطورية التي أسسها سلوقس الأول كانت قبيل وفاته عام ٢٨١ق.م، تمتد شرقاً إلى نهر الهندوس عملياً. وحتى بعد خسارة جدروزية الشرقية، وأراشوزية، وباروباميسادا، وافتتاح امبراطور الموريا، شندراغوبتا لها، حوالى العام ٣٠٣ق.م، بقيت الحاجة ماسة للاحتفاظ بأسطول في الخليج العربي، لأغراض عسكرية. ويوحي مقطع موجز ورد عند بليني (ت ط،٢،٦٧،١٦٧) بوجود حضور بحري في الشرق في عهدي سلوقس الأول نيكاتور ونجله انطيوخس الأول سوتر. وينصّ هذا المقطع على ما يلي: «كذلك في الشرق، كان الجنود المقدونيون يبحرون من المحيط الهندي، ويسلكون كامل البحر الواقع بناحية قزوين، مستهدين بمجموعة نجوم واحدة، وذلك في عهدي سلوقس وانطيوخس، اللذين كانا يريدان تسمية ذلك البحر «سلوقس» و«أنطيوخس» باسميهما». وما دام هذا المقطع يقارن بتعبير يقصد به التصريح بأن البحارة الأغارقة في زمن بليني كانوا يعرفون حوضة البحر المتوسط الغربية بأجمعها، بما فيها ساحل بلاد الغول وإسبانية، فيظهر، فيما يبدو، أن بليني يقول ببساطة إن الوضع ذاته ينطبق على أطراف المعمورة الشرقية منذ أيام السلوقيين الأوائل.

وفي عام ٢٢٠ق.م، في أعقاب ثورة مولون، عيّن انطيوخس الثالث تيخون «أمير سرّ الجيش»، لكي يستلم قيادة ولاية الخليج العربي، «أو مرزبانة البحر الارثري» (بوليب ٥،٥٤،١٢). وسوف نناقش هذا الحدث بتفصيل أوفى، عندما نصل إلى قضية مرزبانة البحر الارثري. مع ذلك، نشير إليه هنا، لأنه أوحى لنا بأن انطيوخوس الثالث نقل تيخون المجرّب إلى ولاية الخليج، لكي يبنى أسطولاً يراقب به الخليج العربي

(١) المرجع ذاته، ص ١٠.

عامة، ولكي يسيطر على وجه التخصيص على التجارة البحرية مع الهند.

في جميع الأحوال، كان الأسطول السلوقي حتماً موجوداً في الخليج حوالي عام ٢٠٥ق.م، وهي السنة التي وصل فيها انطيوخس الثالث إلى متجر الجرعاء، على ساحل جزيرة العرب الشرقي (بوليب، ١٣،٩). مع ذلك، من المهمّ ألا ننسى أن انطيوخس عاد من حملته إلى المرزبانات العليا ومن الهند، بطريق البر، تماماً مثلما فعل الاسكندر قبله (بوليب، ١١،٣٩،١٢ ـ ١٣). وتتضح ضرورة العودة براً، عندما نتذكر أن انطيوخس جلب معه ١٥٠ فيلاً. وأرسل انطيوخس الرابع ابيفانوس حملة لاستكشاف ساحل جزيرة العرب، كما ورد عند بليني (ت ط، ٦،٣٢،١٤٧). ومع أن هذا القول اعتبر احياناً إحالة خاطئة إلى حملة انطيوخس الثالث، فإن أو. موركهولم O.Morkholm درس انطيوخس الرابع، ودافع بحماس عن صحة نسبة الحملة إليه، حسب بليني. وانتقده بالمقابل، لتفكيره بأن هذا العمل ينجز لأول مرة.

ويحتفظ بليني (ت ط، ٦،١٥٢) بالوثيقة الأخيرة، التي تعدّ اثباتاً مباشراً لنشاط أسطول السلوقيين في البحر الارثري. ويصف ساحل جزيرة العرب الجنوبية، ثم ينتقل فجأة إلى الكلام عن خليج عُمان، الذي نطالع فيه ما يلي:

«يبعد رأس نوماخي NAUMACHAEI (NAUMACHORUM PROMONTORIUM) خمسين ميلاً عن كرمانية. ويقال إن حالة عجيبة حدثت هنا. فقد عيّن الملك انطيوخس نومينيوس NUMENIUS حاكم ميسين MESENE، وكان يحارب الفرس، فهزمهم في البحر، وفي البر عند انخفاض مستوى الماء، بجيش من الفرسان في اليوم ذاته. وإحياءاً لهذه الذكرى، أشاد نصباً مزدوجاً في الموضع نفسه، تكريماً لجوبيتر ونبتون.

ويزيل هذا المقطع كل شكّ لدينا بوجود قوة بحرية سلوقية في الخليج. مع ذلك، ينبغي الإجابة عن ثلاثة أسئلة: متى وأين ولماذا نشبت المعركة البحرية؟.

أما قضية تاريخ وقوع الحدث، فتثار، رغم تسمية بليني لانطيوخس، لأن بليني لا يوضح أي انطيوخس يعني. وقد بدأ النقاش حول هذه النقطة في وقت مبكر من نشوء «العلم الهلنستي»، ودار حول أربعة ملوك: هم انطيوخس الأول والثالث والرابع والسابع. وقدّمت حجج تدعم كلاً من تلك الاتجاهات. واستعرضت حتماً سبب حصول هذا الحدث وفي أي الظروف؟.

ويشعر س. شروين ـ هوايت SHERWIN-WHITE أن تلميح بليني يمكن أن يشير

إلى «أي ملك سلوقي، اسمه انطيوخس»، لكنه أبان أن انطيوخس الأول «واجه عند اعتلائه العرش اضطراباً في فارس، حيث يعود مستوى التهديم في القلعة الأخمينية في بسرغاده إلى حوالى ٢٨٠ق.م، ورافقته اضطرابات أعقبت وفاة سلوقس الأول عام ٢٨١ق.م». مع ذلك، أوّل وادنغتون استعمال بليني لفظ «الفرس» على أنه إحالة حرفية إلى سكان اقليم فارس، المختلفين عن الفرثيين، واعتبرها إشارة إلى حملة انطيوخس الثالث ضدّ المدعو اسكندر، مرزبان فارس المتمرد. إلا أن المصادر الايبيغرافية (النقوش) الاغريقية والرومانية، ثابرت مدة طويلة على استعمال «الفرس» في حديثها عن الفرثيين. إضافة إلى ذلك، ألحّ الثيم ALTHEIM على عدم توفر بيّنة تثبت وجود مزربانة اسمها ميسان في زمن انطيوخس الثالث وعلى أن سترابو أول من أعلن عن وجودها. وأكدّ ويلّ أيضاً ان بوليبيوس لم ينسب إلى انطيوخس الثالث القيام بأعمال عدائية ضد فارس. وعثر على ثلاثة نصوص فيها بينات مادية لصالح انطيوخس الرابع. أولها، مثلما أبان ر. ستيهل R.STIEHL، إعادته تأسيس اسكندرية ـ دجلة، وتسميتها انطاكية، مما خلق الظروف التي أتاحت فرصة تعيين نومينيوس والي ولاية ميسان. وأبرز لو ريدر أن بليني تحدّث عن انطيوخس الرابع من قبل في الفصل ذاته، وأشار إلى العثور على مجموعة صغيرة من النقود مؤلفة من قطع برونزية، سكها انطيوخس الرابع في سوسة، يشاهد على ظهرها جؤجؤ قادس، زيّن قائمها الكوثلي بالعصائب. فيحتمل، في رأيه، أن يكون هذا النقش إحياءاً لذكرى انتصار بحري في الخليج العربي. واشترك العالم الفرنسي أ.ح. سان مرتين في النقاش، فطرح اسم انطيوخس السابع سيد يتس (١٣٧ ـ ١٢٩ق.م) وأرتأى عام ١٨١٧ أن سبب النزاع الذي وصفه بليني، يرتبط بالمكاسب التي أحرزها في فارس الملك الفرثي ميتريدات.

أما بشأن الظروف التي يحتمل أن تكون تسبّبت بنشوب الحرب، فقد رأينا أن شروين ـ هوايت اقترح بتردّد وجود صلة باضطرابات فارس التي واجهها انطيوخس الأول. وتصوّر أو. بلو O.BLAU ان نومينيوس ذهب ليحارب القوات الفرثية، التي احتلت موطىء قدم لها في شبه جزيرة مسندم. كذلك، ارتأى الثيم ALTHEIM أن حملة نومينيوس استهدفت استعادة مضيق هرمز، المقدّر أن الفرثيين سيطروا عليه، لحماية التجارة البحرية مع الهند. وينادي نودلمن NODELMAN بهذا الرأي أيضاً، فيما يبدو. أما ويلّ WELL، فلم ينحز إلى انطيوخس الثالث أو الرابع وسمّى الحملة «تدبيراً أمنياً ضد القراصنة».

أخيراً أبديت آراء عديدة عن موقع المعركة. ونظّمت قائمة مناطق لها هي «منطقة

أميثوسكتّا، ودامنيا، وميزي الكبرى والصغرى، ودريماتي»، REGIO AMITHOSCATTA, DAMNIA, MIZI MAIORES ET MINORED, DRIMATI, [THE REGION OF AMITHOSCUTHA, DAMNIA, THE GREA TER AND THE LESSER MIZI AND THE D RIMATI] ويـليـها تـعبيـر . «NAUMACHAEORUM / NAUMACHE, HORUM PROMUNTORIUM, CONTRA CARMANIAM». واقترح فون غوتشميد VON GUSTSCHMID تعديل التعبير اللاحق، فأسقط منه «NAU» ليصبح «DRIMATI, MACAE:HORUM...». واقترح سبرنجر تعديلاً مختلفاً، أعطى نتيجة مماثلة، فافترض أن «NAU» تابعة للقائمة السابقة، وتعني في رأيه مكاناً في خليج خوريا موريا، معروفاً باسم رأس نوس، وقرأ القراءة التالية MACHAEORUM PROMONTORIUM، وظُنّ أنه يدلّ على شبه جزيرة رأس مسندم، التي عرفها نيارخس باسم ماكيتا، والتي صارت بعد تعديل فون غوتشميد «ماكه». وحديثاً، حاول هـ. فون ويسمن H.VON WISSMANN أن يبرهن بنقاش طويل أن NAUMACHAEORUM PROMUNTORIUM قراءة صحيحة، وأن المواقع الجغرافية قبلها تدخل في لائحة أماكن أقحمت في النص مع أنها واقعة في شمالي جزيرة مدغشقر («REGIO AMITHOSCATTA») وساحل افريقية الشرقية. وقارن فون ويسمن «NAUMACHAEORUM» بـ «NABAHINA»، وهو اسم قبيلة كانت نازلة في أوائل القرن العشرين جنوبي مسقط، فاستنتج أن «NAUMACHAEORUM PROMUNTORIUM» رأس الحمراء أو رأس الحد بالذات. أخيراً، لا يجوز إهمال التشابه الداعي إلى الشك، بين نوماشية NAUMACHIA، وهي كلمة لاتينية تعني معركة زائفة، وبين نوماشايوروم NAUMACHAEORUM التي يحتمل أن تكون تلاعباً بالألفاظ.

٥ ـ سياسة الاستيطان السلوقية في الخليج العربي(١)

واتضح بجلاء القيام بمحاولات لتأسيس مستوطنات اغريقية في الخليج العربي وفي أماكن أخرى من الامبراطورية السلوقية أيضاً. مع ذلك ينبغي التأكيد على أن الوقائع لا توحي بأن الاستيطان بلغ الحجم الكبير الذي تصورّه بعض العلماء. فتارن مثلاً، زعم أن ولع الاغريق بالبحر دفع السلوقيين إلى تجشّم عناء الاستيطان في الخليج العربي الداخلي، رغم شدة الحرارة. وكتب ج.م. كوهين، حديثاً، وقال: «ان السلوقيين بذلوا نشاطاً كبيراً لكي يستوطنوا في الخليج العربي». لكن شاء سوء الحظ أن تستند هذه المزاعم إلى بيّنات متناثرة إلى أقصى حد. وقد أحصى تارن تسع

(١) المرجع ذاته، ص ١٥.

مستوطنات سلوقية، أقيمت على سواحل الخليج في فارس وما بين النهرين وجزيرة العرب هي سلوقية البحر الارثري، وانطاكية فارس، وانطاكية خاركس، واريتوزه، ولاريسا، وخلكيس، وارتميتا، والجرعاء وترابيزوس. ونعرض فيما يلي القليل الممكن قوله عن هذه المدن.

(١) ـ فسلوقية البحر الارثري، معروفة فقط من PSEPHISMA انطاكية فارس. ويعتقد انها كانت موطن الفلكي سلوقس، الذي اشتهر بدراسة المدّ والجزر في الخليج العربي. واقترح فوربيجر FORBIGER تحديد موقعها في عيلام، وأقرّه تشيريكوير TSCHERIKOWER بتردّد في هذا التعيين بعد ما يقرب من قرن. وظنّ تارن أنها حتماً «تقع على ساحل الخليج الشمالي الشرقي في مكان بين سبازينو ـ خاراكس، عند مصبّ دجلة، وبين انطاكية فارس. وناقش لوريدر موقعها، لكنه لم يجازف بتحديد موضع لها. وعلى الرغم من اسمها، لم يتضح من أسسها، هل هو سلوقس الأول نيكاتر أم نجله وخلفه المباشر انطيوخس الأول.

(٢) ـ وأسس انطيوخس الأول انطاكية فارس. وأصل سكانها أغارقة من مدينة مغنيزية نهر مياندروم MAGNESIA MAEANDRUM في آسية الصغرى، كما علمنا من نقش اكتشف في مغنيزية ذاتها، تاريخه حوالي ٢٠٥ق.م، يطلب فيه أهلها من موطنهم الأصلي إرسال مزيد من المستوطنين. ويكتفي تشيريكوير بالتسليم بأن موقعها في فارس. ويرى تارن أن موضعها في بوشير، وهذا ما قبل به جميع العلماء منذ ذلك الحين.

(٣) ـ وقد تحدثنا من قبل عن اسكندرية دجلة، التي يرجّح أنها حملت اسم مؤسسها، إلى أن أصيبت بأضرار بليغة من جراء الفيضان (بليني ت ط، ٦، ٣١، ١٣٨ ـ ١٣٩). وأعاد انطيوخس الرابع ابيفانس تأسيسها سنة ١٦٦ أو ١٦٥ ق.م، وسماها انطاكية ـ خاركس.

(٤) ـ (٥) ـ (٦) ـ وورد ذكر اريتوزا، ولاريسا، وخلكيس عند بليني فقط (ت ط ٦، ٣٢، ١٥٩)، الذي يروي انها «تخربت في عدة حروب». ورأى غلازر GLAZER ان هذه النبذة تعود إلى ما قبله بعدة قرون، وربما رجعت إلى ما بعد وفاة الاسكندر مباشرة. ولم يعلّق تشيريكوير إلا تعليقاً محدوداً على مقطع بليني، فقال فقط إن الأسماء تشير إلى تأسيس سلوقي، فيما يبدو. من جهة أخرى، ظنّ تارن أن «الأسماء تنسب إلى أحد السلوقيين الأوائل، ولا يجوز أن تنسب إلى أحد آخر».

وحدّد موقعها على الساحل العربي، في مكان ما بين مصبّ الفرات وبين متجر الجرعاء العربي. مع ذلك، قال فون ويسمان، حديثاً، إن موقع جميع المدن الثلاث محصور في منطقة دجلة السفلى.

(٧) ـ واعتبر تارن ان ارتميتا الواقعة في جزيرة العرب، المذكورة عند كلوديوس بطلميوس (جغرافية، ٥، ١٩، ٧) مستوطنة بشرية سلوقية على ساحل الخليج العربي، علاوة على ذلك، ارتأى أن اسمها يدلّ على أن الذين استوطنوها هم مهاجرون من مدينة ارتميتا المعروفة جيداً، والمسماة عند ايزيدورس الخاركسي (مخطوط فرثي، ٢)، وسترابو (١٦، ١، ١٧)، وبليني (ت ط ٦، ٢٦، ١١٧)، وكلوديوس بطلميوس (جغرافية، ٥، ١)، وهي المرحلة الأولى على الطريق الذاهبة إلى اكبتانية (همذان) خلف سلوقية دجلة.

(٨) ـ كذلك ارتأى تارن أن الجرعاء، الواردة في اثنكا ETHNIKA ستيفن البيزنطي، تجمّع بشري من المستوطنين الذين قدموا إليها من كارهاي / حران، الواقعة في بلاد ما بين النهرين الشمالية. على صعيد آخر، اعتقد سبرنجر أن لفظ «كارهاي»، وهو اسم مدينة موصوفة عند بليني (ت ط، ١٢، ٤٠، ٧٩)، تصحيف لاسم «الجرعاء». وفي الواقع، يرجّح أن وصف الجرعاء بأنها السوق العربية الرئيسة للطيوب يدفع إلى اعتبار كارهاي والجرعاء مدينة واحدة وحيدة.

(٩) ـ وأخيراً نصل إلى ترابيزوس، وهي أيضاً مدينة واردة في كتاب اثنكا لستيفن البيزنطي ولا نعلم إن كانت هذه المستوطنة، إذا صحّ انها واقعة في منطقة الخليج، قد أسسها مهاجرون جاؤوا إليها من ترابيزوس البونتية المعروفة جيداً (طرابزون حالياً).

في الختام، يربك تارن وكوهن الإنسان كثيراً بتأكيدهما على «النشاط» الذي بذله السلوقيون، وعلى «العناء» الذي تكبدوه، في سبيل الاستيطان في الخليج العربي. وإذا صرفنا النظر عن المواقع المشكوك في مواضعها، بقي لدينا ما يلي:

سلوقية بحر ارثره	سلوقس الأول أو انطيوخس الأول
أريتوزا، خالكيس، لاريسا	سلوقس الأول أو انطيوخس الأول
انطاكية فارس	انطيوخس الأول
انطاكية ـ خاركس	انطيوخس الرابع

وهذا يدل دلالة قوية على وجود برنامج مركّز لتنفيذ الاستيطان حول الخليج العربي.

٦ ـ تعديل التنظيم الإداري في رأس الخليج العربي[1]

أشرنا من قبل إلى أن تأسيس الاسكندر خاركس وتجديد انطيوخس الرابع لها يعكسان رغبة الاغريق بإقامة مركز بحري جديد عند رأس الخليج العربي، يحتمل أن تكون مهمته تقديم خدمات لعاصمة امبراطوريتهما ولسفن التجارة البعيدة المدى، واستخدامه قاعدة للأسطول السلوقي. مع ذلك، لا شيء يوحي بأن تأسيس الاسكندرية ارتبط بمخططات أوسع خاصة ببلاد بابل الجنوبية.

وحتماً، ورث الاسكندر عن الأخمينيين تقسيمهم امبراطوريتهم إدارياً إلى مرزبانات. ففي أيام داريوس، على حد قول هيرودوتس، كانت بلاد ما بين النهرين تضم صقعين، عرفا تقليدياً باسم بلاد بابل وبلاد آشور، وتعدّ المرزبانة التاسعة، التي كانت بابل حاضرتها. وفي وقت لاحق ربما في عهد كسرى أنوشروان، أصبحت بلاد بابل مرزبانة مستقلة، وألحقت بلاد آشور إدارياً ببلاد الشام. وهكذا، كانت مرزبانتا بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل تشكلان كيانين منفصلين عند وفاة الاسكندر.

مع ذلك، أعيد تنظيم المرزبانتين إدارياً، في وقت ما، قبل اعتلاء انطيوخس الثالث العرش. فتمّ فصل باروبوتاميا PAROPOTAMIA، وهي مقاطعة واقعة على طول نهر الفرات الأوسط، مفصولة عن باقي بلاد ما بين النهرين، وأهم من ذلك بالنسبة لنا، أن بلاد بابل في أقصى الجنوب، بأجمعها، تحوّلت، فيما يبدو إلى منطقة إدارية جديدة، عرفت باسم «مرزبانة البحر الارثري»، وكان الآشوريون والبابليون يطلقون عليها اسم أرض البحر «THE SEALAND»، ثم سميت في وقت لاحق خاراسين أو ميسين.

مع الأسف، مصادرنا عن هذه المرزبانة ضئيلة إلى أقصى حد. فهي مذكورة ثلاث مرات عند بوليبيوس، في سياق الكلام عن ثورة مولون، مرزبان ميدية، التي بدأت سنة ٢٢٢ق.م. وفي عام ٢٢١ق.م، بادر فيثياداياس PYTHIDIAS، المسمى «مرزبان» ـ محافظ ـ البحر الارثري، إلى نجدة كسينويتس XENOETAS الذي كان يحاول سحق ثورة مولون (بوليبيوس ٥، ٤٦، ٧). إلا أن مولون خدع كسينويتس خدعة بارعة حين أوحى له أن الجيش المتمرد خاف، فغادر معسكره. فأحيى كسينويتس ليلة شراب واحتفال في ثكنته. ووصف بوليبيوس بالتفصيل كيف عاد مولون وجيشه عند

---

(١) المرجع ذاته، ص ١٧.

الفجر، فوجدوا أعداءهم عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم بسبب ليلة المرح الصاخب. فقتلوا جنود كسينويتس، بعضهم وهم في أسرّتهم، وبعضهم وهم يحاولون النجاة بالغطس في نهر دجلة.

ويجوز لنا أن نفترض ـ ونحن على صواب ـ ان فيثيادس لم ينج بحياته من هذه الكارثة.

ونسمع بعد ذلك أن مولون اتجه إلى سوسة، «بعد استيلائه على بلاد بابل وعلى سواحل الخليج العربي (٥، ٤٨، ١٣ ـ ١٤). ولا نستغرب أن يتخذ انطيوخس الثالث الخطوات الضرورية لإعادة النظام إلى المنطقة سنة ٢٢٠ق.م، في أعقاب سحقه ثورة مولون، الذي استولى على مرزبانة البحر الارثري. فأولاً سيّر انطيوخس تيخون، ضابطه الموثوق وبطل حملاته الملكية «ليستلم القيادة في مرزبانة البحر الارثري» (٥، ٥٤، ٨). ويتضح، فيما يبدو، أن انطيوخس عيّن إدارياً عسكرياً مجرّباً، ليعيد النظام إلى مقاطعة احتلّها مؤقتاً عدو اغتال مرزبانها. مع ذلك، نشب جدل هائل حول الدور المطلوب من تيخون لعبه.

واعتقد بوشيه لوكلير BOUCHE LECLERCQ ان تيخون أرسل لاحتلال ساحل البحر الارثري عسكرياً. ويعبّر رأيه بلا ريب عن هدف واحد من أهداف عديدة مطروحة أمامه. ولا يعطي بار كوشفا BAR-KOCHVA معنى كبيراً لهذه المبادرة، لأنه يظنّ ان تيخون إداري عام، مكلّف بالمالية، يهتم قبل كل شيء بدفع الرواتب، قبل أن يُرَقّى إلى منصب مرزبان البحر الأحمر، (الارثري) وارتأى شميت SCHMITT، كما ذكرنا من قبل، أن دور تيخون انحصر في الإشراف على إنشاء بحرية سلوقية. ويحتمل أن يكون انطيوخس قد شعر بالحاجة إلى بناء أسطول، كوسيلة حماية احتياطية أخرى ضد تمردات مستقبلية في الجنوب. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الاضطراب الأكيد الذي سبّبته حتماً أحداث العامين السابقين، وبدا لنا أن رسم أي مخططات لإحداث بندر تجارة مع الهند ثانوي بالنسبة إلى إعادة النظام، وهي المهمة الأساسية العظمى.

٧ ـ سياسات السلوقيين الضريبية في الخليج العربي[١]

لا نمتلك بيّنة مباشرة على فرض نوع من الضرائب في منطقة الخليج العربي. لكن يرجّح جداً أن بعض التعرفات كانت تجبى في بلاد بابل على جميع الواردات

(١) المرجع ذاته، ص ١٩.

القادمة إليها من المناطق المجاورة لها. وإذا حكمنا على أساس ممارسات السلوقيين المطبّقة في أنحاء أخرى من امبراطوريتهم، يحتمل أن يكونوا قد فرضوا في الخليج العربي أي ضريبة من الضرائب المجباة في تلك الأرجاء. فيجوز أن تشمل تلك الضرائب رسماً مستوفى على جمال القوافل، أو رسماً مفروضاً على الخفارة في الصحرا، أو رسوم الميناء المستوفاة في سلوقية ـ دجلة، أو رسماً مفروضاً على الملاحة في الفرات، أو الرسوم على الرقيق، أو الرسم على الملح، أو عشرة بالمائة من قيمة السلع المستوردة. لذلك تخدم التسهيلات المقدمة للتجارة الخارجية مصلحتهم خدمة كبرى. وكان التجار الغرباء يعتبرون بلاد بابل سوقاً ونقطة مرور لجميع أنواع السلع، لكن نلحّ أيضاً على أن السلوقيين قطعاً استغلوا هذا الوضع، وجبوا الرسوم من التجار الراغبين بالتصدير. على هذا الصعيد كانت مصلحتهم تقضي ألا يراقبوا التجارة البتة، بل أن يضمنوا أن تنشط دون أن تعيقها الاضطرابات الخارجية. وينبغي أن يعتبروا أي تهديد للنظام تهديداً لوجود الملكية السلوقية. ونحن نعلم ما يكفي عن حروب السلوقيين المكلفة، لكي ندرك أن واردات الضرائب هامة جداً، إذ كان عليهم أن يموّلوها. وفي هذا المنظور، تتخذ التجارة الخارجية في بلاد بابل في عهد السلوقيين بعداً إضافياً. وسوف يصبح هذا التفكير هاماً، عندما نبحث علاقات السلوقيين الخارجية بالكيانات السياسية الخليجية إفرادياً في الفصول التالية.

٨ ـ الخليج العربي في المخيّلة الهلنستية[(١)]

في نهاية هذا البحث، يجب علينا أن نقول بضع كلمات عن تراكم المعارف الخاصة بمنطقة الخليج العربي في عهد السلوقيين، علماً أن هذا التجميع ترافق مع الملاحة والاستيطان والحملات العسكرية. ونتساءل أولاً: ما هو الاسم الذي كان يطلق على الخليج العربي آنذاك؟ فثيوفراستس (٣٧٢/١ أو ٣٧١/٠ ـ ٢٨٨/٧ أو ٢٨٧/٦ق.م) اعتمد على عمل انذروسثينس المفقود، كما قلنا من قبل، وبقي حياً حتى منتصف ملك سلوقس الأول. وقد استعمل في كتابه DE CAUSIS PLANT، (٢،٥،٥)، اللفظ العام «**البحر الأحمر**» (**أرثره ثالسه**) ليدلّ على الخليج العربي. إضافة إلى ذلك، استخدم تعبير «**الخليج العربي**» النادر (**ارابيكس كولبوس**) الذي كان يدل في العصور القديمة على البحر الأحمر الحالي، وقصد به الخليج العربي الحالي (تاريخ ٤،٧،٧). وينبغي أن نشير إلى أن التسمية اللاتينية المتأخرة، أرابيكس

(١) المرجع ذاته، ص ٢١.

سينوس، كانت تعني البحر الأحمر الحالي. وهذا التمييز صريح عند سترابو، الذي كتب يقول: «يتألف الجانب الشمالي من العربية السعيدة من الصحراء المشار إليها أعلاه، والجانب الشرقي من **الخليج الفارسي**، والجانب الغربي من **الخليج العربي**» (١٦، ٣، ١). واعتمد سترابو اعتماداً واسعاً (حوالى ٦٤/ ٣ق. م - +٢٤م) على الجغرافي الهلنستي ايراتوسثينس (٢٨٤ - ٢٠٢ق. م)، الذي استعمل لفظ «**الخليج الفارسي**» (**برسيكوس كولبس**: ١٥، ٢، ١٤، ١٦، ٣، ٢)، مثلما فعل أربان (متوفى حوالى ١٧٠م) عندما يشير إلى توجيه الاسكندر الكلام إلى رجاله (حملة الاسكندر، ٥، ٢٦، ٢).

وأثير نقاش كبير بشأن الشكل الفعلي للخليج العربي. فظنّ سترابو (١٦، ٣، ٢) أن حجم الخليج يساوي تقريباً حجم البحر الأسود (بونتس أوكسينس)، وأنه يقع مباشرة جنوبي بحر قزوين. وارتكز على نيارخس فذكر أن طول ساحلي الخليج الغربي والشرقي معاً ٢٠٠٠٠ ستاديون، أي حوالي ٢٢٠٠ ميل، مثلما فعل اغاثيميروس، وبطلميوس، وأميانوس مرسيلينس بعده. واعتمد بليني (ت ط ٦، ٢٤، ٢٨) على إيراتوسثينس، فجعل طول الساحلين السابقين ٢٥٠٠ ميل روماني (٢٣١٢,٥ ميل)، واعتبر المسافة المستقيمة من مصب دجلة إلى مضيق هرمز ١١٢٥ ميلاً رومانياً (١٠٤٠,٦٢٥ ميل). وقدّر عرض مضيق هرمز بـ ٤ - ٥ أميال رومانية (٣,٧ - ٤,٦٢٥ أميال)، بينما أعطى أغاثيميروس (جغرافية ٣,١) ٤٠٠ ستاديوم أي تقريباً ٥٠ ميلاً رومانياً (٤٦,٢٥ ميل). وهذا يزيد عن قول سترابو إن بالإمكان قطع المضيق بيوم ملاحة واحد، ويشاهد الناظر كلاً من الساحلين من الساحل الآخر، والواقع أن عرض المضيق هو مائة أو ٦٠ ميلاً.

لم يفتتح لا الاسكندر ولا خلفاؤه السلوقيون شبه جزيرة العرب، مثلما افتتحوا آسية الغربية. وهذا ما مرّ معنا. وعلى الرغم من تصميم الاسكندر المعروف جيداً، على تجهيز حملة ضدّ جزيرة العرب، وعلى استعمار ساحلها، فإن «مخططاته الأخيرة» الشهيرة لم تتعدّ مرحلة الاستطلاع. ولا يجوز لنا أن نعتقد أن غزو انطيوخس الثالث أو حملة انطيوخس الرابع، قد وسعتا انتشار النفوذ السلوقي، أو الهلنستي على الوجه الأعمّ، بين شعوب جزيرة العرب الشرقية وكياناتها السياسية. بالفعل، لم تجمع أخبار أدقّ عن هذه المنطقة إلا في عهد أغسطس، عندما أورد جوبا الموريتاني في «الحملة العربية» وقائع حملة غايس قيصر Gaius Caesar التي خطط لها ولم تتم. وتعلّل ندرة المصادر المكتوبة التي تتحدث عن شرقي جزيرة العرب، جزئياً، بوقوع هذه المنطقة

خارج حدود الامبراطورية السلوقية، رغم الصلات القائمة بينها وبين العالم الاغريقي والسلوقي. بالتالي، لن تتأثر كثيراً بالهلنستية مثل المناطق الأبعد منها باتجاه الشمال والغرب. وكانت حضارتها المادية والفكرية عربية بالدرجة الأولى، مع أنها كانت قطعاً منفتحة على التأثير الخارجي من بلدان نطاق الخليج العربي ـ بحر الهند ـ البحر الأحمر. وسوف نتفحّص في الفصول الآتية مناطق الخليج العربي منطقة منطقة في زمن الامبراطوريات الكبرى، ونتأمل في بيّناتها الأثرية والنقشية (الابيغرافية) والأدبية التي حفظت في حضارات الخليج العربي المحلية، ونتبصّر في علاقاتها بجيرانها المعروفين أفضل منها.

٩ ـ تيلس وتيرس وأرادس في العصور الهلنستية[١]

كانت الأيدي تتداول عدة تقارير عن جزر معمورة، واقعة مقابل ساحل جزيرة العرب، عند وفاة الاسكندر. ونسب بعض العلماء أقدمها إلى محاربي حملات الاسكندر الشرقية. واقترح توماشيك أن مقطعاً من أونيزيكريتس يتعلق برحلة نيارخس، اقتبسه بليني (ت ٦٧/ ٩٩) بطريقة غير مباشرة عن جوبا، ذكر فيه «جزيرة اثروترادس»، يمكن أن يتضمن أقدم إشارة إلى أرادس، وهو الاسم الذي كان يطلق على جزيرة واقعة تحت جرعاء في الخليج العربي، عند سترابو (١٦/٣/٤)، وكلوديوس بطلميوس (جغرافية، ٦/٧/٤٧)، وستيفن البيزنطي (اثنكيا، ص ٦٦٤ مينيكه). إضافة إلى ذلك، اقترح أو. ستين أن أرستوبولس كان مصدر خبر الاسكندر عن المسافة بين مصبّ نهر الفرات وجزيرة تيلس.

مهما يكن، في ربيع عام ٣٢٣ق.م، حصل الاسكندر على أخبار، جمعها مباشرة أمراء بحره أرخياس، وانذروسثينس، وهييرون، وهم قوّاد حملاته الثلاث للدوران حول جزيرة العرب (أناباسيس ٧/ ٢٠/٧). فحسب آريان، وصل استطلاع أرخياس إلى تيلس فقط، بينما استطاع أنذروسثينس وهييرون أن يبحرا إلى مسافة أبعد منه، فوصل هييرون إلى البحر الأحمر. ويقول آريان إن الاسكندر أُخْبِرَ «جزئياً بلسان أرخياس عن» جزيرة... قيل انها تبعد عن مصب نهر الفرات حوالي مسيرة نهار ويوم في مركب يسير في اتجاه الريح، وتسمى تيلس، وهي كبيرة، ليست وعرة، ولا مكسوة بالأشجار في معظمها، بل هي من النوع الذي يحوي بساتين فاكهة وجميع الأشياء في مواسمها» (أناباسيس ٧/ ٢٠/١٦). مع ذلك، رغم أن أرخياس وصل إلى تيلس قطعاً، فإن

---

(١) د. ت. بوتز، الخليج العربي في العصور القديمة، مجلد ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٨.

اندروسثينس هو الذي أعدّ طوافاً بحرياً عنونه «رحلة بحرية على طول ساحل بحر الهند»، كان بالتأكيد أهم مصدر مباشر وحيد عن تيلس في العصور القديمة. ولا وجود له الآن، لكنه قرىء على نطاق واسع، واستشهد به، واقتبس منه كُتَّاب من أمثال ثيوفراستوس، وإيراتوسثينس وارتيميدورس، وبليني، وأثيناوس.

وحفظ لنا حتى أيامنا الحاضرة، مستند أساسي للأسماء الجغرافية، لا لبس فيه يعتمد عليه في اعتبار المحرّق الحديثة أرادس القديمة ذاتها. وعندما مرّ كارستن نيبور في الخليج العربي في رحلة إيابه سنة ١٧٦٥، كانت المحرق ما تزال معروفة باسم أراد، الذي يطلق الآن على قرية واقعة على ساحل الجزيرة الجنوبي. وهكذا تسجلت على خارطة الخليج لنيبور، فاعتبرت فوراً وبلا تردّد أرادس القديمة. ونجد هذا التحديد في أعمال شعبية، وفي تصانيف التاريخ القديم، وفي معظم الأعمال الأساسية للجغرافية التاريخية في القرن التاسع عشر. واعتمد بليني على جوبا، فحفظ لنا أيضاً اسماً للمحرّق مناسباً بالدرجة ذاتها، نعني تيلس الصغرى (ت ط ١٢/ ٢٢/ ٣٩). وتترافق تيلس مع أرادس، التي تعدّ المحرّق، لذلك يجب أن تكون تيلس البحرين الحديثة. أما فيما يتعلق بالتماثل الواضح بين تيلس الاغريقية وتلمون الأكدية، فإن و. ايلرز W.Eilers شرح هذا التحوّل حديثاً، وأشار إلى نموذج شائع في اختفاء «الميم» M الملفوظة بالشفتين والاستعاضة عنها بـ «و» W، فافترض وجود «تيلوس» في الأصل Tylus. ويظهر استبدال الميم بالواو M/W في الأسماء الآرامية المشتقة من الأكدية أيضاً في صيغة تلون TLWN السريانية، وفي تسمية أهلها باليونانية «تلوانيين» Thilouanoi الثابتة في تدمر (انظر ما يلي).

ورغم الدقة والانتباه إلى التفاصيل اللذين يتميّز بهما وصف تيلس وأرادس، حصل بعض الالتباس في العصور القديمة في تعيين موقع هاتين الجزيرتين. وسواء اعتمد آريان على أريستوبولس مصدراً له أم لم يعتمد، فإن أخباره جاءت خاطئة، عندما وضع تيلس على ملاحة نهار وليلة من مصبّ نهر الفرات. وخلافاً له، وضع سترابو تيلس على مسافة ملاحة عشرة أيام من تيريدون، فأتَتْ أخباره صحيحة في هذه الناحية بالذات. ففي عام ١٩٠٣، قام هـ. بورشاردت عملياً برحلة مماثلة من البصرة التي تقع تيريدون بجوارها حتماً إلى البحرين، على ظهر بوم عربي تقليدي، فاستغرقت رحلته ١٢ يوماً من الملاحة الفعلية. مع ذلك يخطىء سترابو ببساطة عندما يضع تيلس على بعد نهار ملاحة من الرأس الواقع قرب فم الخليج في مكيه (رأس مسندم). ونجد

أيضاً مبالغة في تحديد موقع تيلس الجنوبي في حساب بطلميوس الذي حدّد احداثياتها بـ ٠′، ٩٠° و ٤٠′، ٢٤°.

أما فيما يتعلق بموقع تيلس مقابل ساحل جزيرة العرب، فقد كان بليني يمتلك أخباراً دقيقة تماماً:

تمتد منطقة اتّيني Attene في الداخل على بعد خمسين ميلاً عن الساحل، وتقابل جزيرة تيلس الجرعاء، وتبعد أميالاً مماثلة عن الشاطىء. وتشتهر بكثرة لآلئها، وفيها مدينة تحمل اسمها، وبجوارها جزيرة صغرى، تبعد عن رأس في الجزيرة الكبرى ١٢ ١/٢ ميلاً، ويقال إن وراءها جزراً كبيرة يمكن رؤيتها، لم ينزل إليها أحد البتة. ويبلغ محيط الجزيرة الصغرى ١١٢ ميلاً ونصف الميل، وتبعد أكثر من ذلك عن الساحل الفارسي، ولا يوصل إليها إلا بمعبر ضيق (ت ط، ٦/٢٨/١٤٧).

ورفض سبرنجر قبول الـ ٥٠ ميلاً رومانياً أي حوالي ٧٥ كم لبعد تيلس عن البر الرئيس، وزعم ان هذا البعد عن ساحل البر الرئيس لا يتجاوز الـ ٤٠ ميلاً أو ٦٤ كم في أي مكان. والواقع أن مثل هذا الاعتراض غير وارد. فصحيح أن طرف البحرين الجنوبي يبعد ٣٨,٤ كم فقط عن العقير التي تعدّ مدخل الاحساء التقليدي. مع ذلك، لما كانت جميع المدن والقرى في البحرين قائمة دوماً في شمالها، فهذا الرقم لا يؤثر عملياً في طول الرحلة من البحرين إلى البر الرئيس. وكانت المواصلات بين المنامة والعقير أوثق ارتباط شيوعاً بين البحرين والبر الرئيس. وفي عام ١٨٤٥، جعل الملازم ا.ب. كمبال بين المنامة والعقير ٤٥ ميلاً أو ٧٢ كم بينما قدرت الرحلة ذاتها بالجلبوت سنة ١٩٢٤ بـ ٦٠ ميلاً تقريباً أو ٩٦ كم حسب جـ. ب. مكي. J.B.Mackie والبديل الآخر هو البعد بين المنامة والقطيف، الذي خمّنه كمبول سنة ١٨٤٥ بـ ٦٤ كم، والملازم ر.و. هويش Whish سنة ١٨٦١ بـ ٧٢ كم. أخيراً قدّر كمبول المسافة بين البحرين وسيحات، وهي مدينة تقع بين الدمام والقطيف بـ ٥٦ كم. لكن عند التأمل في هذه الأرقام، لا بدّ من التذكّر بأن التباين بين المسافات يمكن تعليله باختيار الطريق وبظروف الملاحة. وإذا أخذت جميع الأمور بعين الاعتبار، بدا أن رقم بليني قريب من أحدث الأرقام المذكورة هنا، وكان بلا شكّ منقولاً عن تقرير مباشر مثل تقرير جوبا أو أحد تقارير «تجارنا» NEGOTIATORES NOSTRI الذين اعتمدنا عليهم في الغالب.

(١) ـ ثيوفراستوس وتيلس[١]

لعلّ الفيلسوف ثيوفراستس تفوّق على غيره، واهتم اهتماماً علمياً عظيماً إلى الحدّ الأقصى بملاحظات انذروسثينس. وينبغي أن يشكر لأنه خلّف لنا الأجزاء الثمينة من «طواف البر والبحر» الذي تناول تاريخ تيلس الطبيعي. فلنبدأ باقتباس ثلاثة مقاطع متعلقة بالموضوع من ثيوفراستس: الأبحاث عن النباتات HISTORIA PLANTARUM، وأسباب النباتات DE CAUSIS PLANTARUM.

تقع جزيرة تيلس في الخليج العربي. ويقال إن جهتها الشرقية مكسوة بالكثير من الأشجار التي تشكل سياجاً حقيقياً عندما ينحسر المدّ، ويبلغ حجم الواحدة منها حجم شجرة التين، وأريج زهرها فوّاح إلى أقصى حدّ، وثمارها لا تصلح للأكل، تشبه الترمس. ويقولون إن شجراً «يحمل الصوف» (نبات القطن) ينمو بكثرة في هذه الجزيرة أيضاً، وله ورق يشبه ورق الكرمة، لكنه صغير وليس له ثمر، إلا أن الوعاء (الجوزة) الحاوي «الصوف»، يحاكي حجمه حجم تفاح الربيع، ومغلق، ومتى نضج، ينفتح، ويخرج «الصوف» الذي يحوكون منه أقمشة لهم، بعضها رخيص، وبعضها ثمنه مرتفع جداً.

ويروى أن هذه الشجرة يعثر عليها أيضاً في الهند وفي جزيرة العرب. ويقولون إن فيها أشجاراً أخرى، زهورها مثل زهور القرنفل، لكن لا رائحة لها، وحجمها أربعة أمثال حجم زهرة القرنفل، وإن فيها شجرة أخرى لها العديد من الأوراق كالوردة، تنغلق في الليل، وتتفتح كلياً عند شروق الشمس، ويكتمل تفتحها ظهراً، ثم تنغلق تدريجياً في المساء، وتبقى مغلقة طيلة الليل، ويقول أهل الجزيرة إنها تنام. وفي الجزيرة أيضاً أشجار نخيل تمر، وكرمة، وأشجار مثمرة أخرى، تتضمن شجر التين الدائم الخضرة. وتهطل فيها أمطار من السماء، لا يستخدمونها في سقاية بساتين الأشجار المثمرة، لكن تحوي الجزيرة العديد من العيون، يسقون بها كل شيء، وتفيد الذرة الصفراء والأشجار. لذلك، حتى لو أمطرت، يعوّمون الحقول بمياه الينابيع، كما لو أنهم يغسلون مياه المطر (تاريخ، ٤/٧/٧ ـ ٨).

ويقولون إن في جزيرة تيلس مقابل الساحل العربي، نوعاً من الخشب يبنون به سفنهم، وإن هذا الخشب لا يتعفن تقريباً في ماء البحر. ويدوم أكثر من مائتي عام، إذا بقي في الماء، بينما يتفسخ في وقت أبكر إذا ظل خارج الماء، ولو كان خلال مدة

---

(١) المرجع ذاته، ص ١٢٩ ـ ١٣٨.

قصيرة. ويروون أيضاً قصة غريبة أخرى، وإن كانت لا تتعلق بقضية التعفّن، فيقولون إن عندهم نوعاً من الشجر يقطعون منه هراواتهم، وهذه الهراوات جميلة جداً، لها مظهر مرقّش مثل جلد النمر. وهذا الخشب ثقيل إلى أقصى حد، ومع ذلك ينكسر إلى شظايا كالفخار عندما يلقى على أرض صلبة.

إضافة إلى ذلك، خشب الطرفاء ليس ضعيف المتانة هنا، كما هو في بلادنا، لكنه قويّ مثل بلوط ـ القرمزية Kermes-oak أي خشب صلب آخر (تاريخ ٥/٤/٧ ـ ٨). وإذا صحّ تقرير أنذروسثينس عن جزيرة تيلس في البحر الأحمر ـ أي أن مياه العين، رغم ملوحتها، أفضل من المطر، ليس فقط من أجل الأشجار، بل من أجل جميع المحاصيل الأخرى، لذلك وبعد المطر، ينظّف الأهالي ماء المطر بماء العين ـ يحتمل أن يعتبر التعوّد سبب تحوّل العادة إلى طبيعة. وهكذا يقلّ المطر هنا حتى إن الأشجار والحبوب وما تبقى، تزرع على مياه العيون (ويسبّب بذرها في جميع الفصول)، ولا بدّ من أخذ هذا التعليل على أساس الافتراض بأن التقرير صحيح (أسباب النبات، ٢/٥/٥).

وفي مطلع هذا القرن، توسع هـ. بريتزل في مناقشة تقرير ثيوفراستس، في عمل لم يطلع عليه الكثير من باحثي الخليج العربي. وما يزال مصنف بريتزل يحتفظ بأهميته حتى الآن، وليس له ما يحاكيه. فلنتأمل أخبار تيلس في عمل ثيوفراستس نقطة نقطة مع اقتراحات بريتزل، والمعارف الواجب استخلاصها من كتب الرحلات الأحدث أو من الأبحاث البيولوجية البحرية الحديثة في المنطقة.

يبدأ ثيوفراستس بوصف الأشجار في شرقي تيلس، «التي تتحوّل إلى سياج منتظم» عندما يجزر البحر. ويشدّد بريتزل على اعتبار الشجر المقصود القُرْم (المنغروف). وعثر على وثائق تثبت وجوده في ساحل البحرين الشمالي، في خارطة الاميرالية البريطانية، «بندر البحرين، والخليج العربي، الخارطة الغربية»، التي تتضمن رسم مقطع جانبي لساحل البحرين الشمالي، وصف انه «ساحل منخفض جداً، يفرّضه العديد من الأجوان، وفيه مستنقعات وأدغال قرم». وبعد مرور خمسة أعوام على نشر عمل بريتزل، أشار ج.ج. لوريمر إلى أن البحرين على العموم «يكاد النبات الطبيعي ينعدم فيها، وتنمو أدغال القرم في فرضاتها، وتظهر في أماكن أخرى منها أشجار Ber قليلة يبدو أنها استثنائية». وألمح إلى ما هو أهم، فأبرز «وجود حيّز من الوحل مغطى بأدغال، أجذال القرم»، يسمى خور مقطع تبلي «على الجانب الشرقي من

جزيرة البحرين»، أي بدقة حيث شاهدها انذروسثينس.

وعندما ظهرت دراسة بريتزل، اعتبر التعرف على القرم في البحرين كشفاً نباتياً هاماً، لا سيما أن أحد الثقات النباتيين المحترمين أعلن سنة ١٨٩١، أن شجر القرم لا وجود له في اي مكان في الخليج العربي. وبدا بريتزل وكأنه ضلَّ في ناحية واحدة، هي تحديد نوع القرم بدقة في البحرين. فقد حذا حذو أ. هـ. و. شمبر Schimper في دراسته النبات الساحلي في المنطقة الهندية الماليزية، واعتبر ان قرم الخليج هو: Avicennia Officinalis L. وفي الواقع يبدو أن القرم الأسود Avicennia marina هو النوع الغالب في الخليج. فهو معروف جيداً مثلاً في بقعة قرم في عُمان وفي تاروت في المملكة العربية السعودية الشرقية. وفي الأماكن الأخرى من الخليج، تقع أجوان القرم أيضاً على طول الساحل الجنوبي بين أبو ظبي ورأس الخيمة، وفي ساحل الباطنة بين سيب ومسقط، إذا أهملنا ذكر ما يعثر عليه منه على الجانب الفارسي من الخليج، على طول سواحل بلوشستان، وكرمان، ومضيق هرمز.

إضافة إلى ذلك، مثلما أثبت بريتزل بطريقة مقنعة، واحتج بأن ثيوفراستس يعود إلى القرم في تاريخه ٥/٤/٧، الذي أحلنا إليه من قبل، عندما يصف نوعاً من الخشب يقاوم التفسخ في ماء البحر إلى حدّ كبير. وغالباً ما رفض اعتبار هذا المقطع إحالة إلى الساج الهندي المستورد .Tectona grandis L، وواضح أن أنذروسثينس كان يصف شجرة رآها نامية في تيلس. وصحيح أن سواري القرم كانت في الماضي القريب تستورد من كينية وتنزانية بسفن الدو إلى البحرين وبلدان أخرى في الخليج، حيث استعملت روافد في المنازل التقليدية، لكن يحتمل أن يكون هذا الاستعمال غير شائع على الدوام. فقد ألحّ ج. شوينفورث في عرض له يذكّر بثيوفراستس على مقاومة خشب القرم الكبيرة التفسّخ في البحر الأحمر. إضافة إلى ذلك، أبرز ابن البيطار، نباتيّ القرن الثالث عشر، هذه الميزة المقاومة، في مناقشته القرم الذي ينمو على طول سواحل بحر عُمان، واستشهد بابن حسان.

فماذا عن تفاصيل الوصف الأخرى التي ذكرها ثيوفراستس هنا؟ لقد اقترح بريتزل أن الأشجار «التي تشكّل سياجاً نظامياً» في أثناء الجزر، ليست الأشجار ذاتها التي لها أريج فوّاح، وثمر لا يؤكل، وهي «بحجم شجرة التين». وشعر أن الوصف الأخير لا يتعلق بالقرم Avicennia، بل بالقتم .Myrsinee Aegiceras majus Gaertn. وهو دغل ينمو بين القرم. مع ذلك، لا يذكر عمل حديث تناول البيولوجية البحرية في غربي الخليج

العربي Aegicera في بطاقات القرم هنا، بينما يتوافق وصف القرم الأسود Avicennia marina على ساحل تاروت على العموم مع الوصف القديم الذي نناقشه. ومثلما يعتبر ثيوفراستس أن حجم الأشجار الموجودة «بحجم شجرة التين» فإن طول دغل القرم إفرادياً في تاروت يبلغ فيما يقال «متراً أو مترين». أما الثمر الذي يقارنه ثيوفراستس «بمظهر الترمس»، فإن «حجمه وشكله قريبان من حجم الخوخ الصغير وشكله» في تاروت.

وننتقل الآن إلى «شجرة حمل الصوف»، التي ناقشها ثيوفراستس مطولاً، وأطلق عليها بليني الاسم اللاتيني gossypinus (ت ط ١٢/ ٢٢/ ٣٩). واستصعب عدة كتّاب حديثون قبول دليل زراعة القطن في البحرين، وفضّلوا اعتبار شهادة انذروسثينس التباساً مع القطن المستورد. ويشكّ أ. كلفيه وج.ف. سال كلاهما بإمكانية زراعة القطن في البحرين في يوم من الأيام، بينما ذهب س.أ. لارسن إلى حدّ الامتناع عن ذكر القطن في مناقشته استثمار الأرض في البحرين في العهد الهلنستي. مع ذلك، أشار سبرنجر منذ عام ١٨٧٥ إلى دليل في معجم ياقوت الجغرافي، الذي روى أن القطن زرع في البحرين في الماضي. وحسب ياقوت، كانت عاصمة أوال (وأوال اسم عرفت به البحرين في معظم المصادر الجاهلية والإسلامية الباكرة). ترم. وعرف ياقوت مدينة ثانية تحمل الاسم ذاته قرب قزوين في فارس (٣/ ٥٣٣)، وافترض أن نوعاً ممتازاً من القطن سمي «ترمي» نسبة إلى ترم. مع ذلك أشار سبرنجر إلى أن القطن لا ينمو في بقعة جبلية مثل قزوين، وهكذا أمكن أن تأتي نسبة «ترمي» فقط من اقتران ترم أوال بنوع من القطن الجيد الخاص.

وهذا الاستنتاج قطعاً صحيح، لكنه لا يحلّ تماماً قضية الأصل الأول للقطن الترمي، أو التيلسي بالترابط. وكما يحصل بالنسبة إلى صادرات دلمون، يمكن أن يكون أصل القطن المعروف بالترمي من مكان آخر، ثم نسب إلى ترم، أي المدينة التي كانت الثياب تحاك فيها، أو التي كان يصدّر منها في الأساس. وإذا كانت شهادة ياقوت ليست حاسمة في هذه النقطة، فشهادة ابن بطوطة، الذي كتب في الفترة الممتدة من حوالي ١٣٢٥ إلى ١٣٥٠، قاطعة، لأنه يتحدث عن البحرين، ويقول: «وبها حدائق النخل والرمان والأترج، ويزرع بها القطن». لذلك، يبدو أن لا داعي للشك، لا بأن القطن المعروف بالترمي ينتج بالبحرين، أو بأن زراعته فيها ترجع في الحد الأدنى إلى أيام الاسكندر الكبير.

واقتُرِحَ بأن القطن جلب إلى تيلس من الهند، التي ناقش وجوده فيها كل من ثيوفراستس (تاريخ ٤/١٨/٤)، وهيرودتس ٣/١٠٦)، وبأنه ليس النبات الوحيد الذي جيء به من الهند إلى تيلس، مثلما سوف نرى فيما يلي. لكن لا نعرف الوقت المبكر الذي أدخل فيه القطن إلى البحرين، ويجدر بنا الاهتمام باعتبار وجوده فيها على ضوء الدليل الآشوري على زراعة القطن. فسنحاريب يتحدث على اسطوانته العائدة إلى عام ٦٩٤ق.م عن زراعة «أشجار حمل الصوف» (بالأكدية: ناش شيباتي) في نينوى، ويناقش التحسينات العديدة التي طرأت على عاصمته، فيقول: «أشجار حمل الصوف الذي يقطفونه، ويحوكونه ثياباً، كما يتكلم ثيوفراستس عن أشجار القطن، لا عن نبات القطن، فاعتبر ل.و. كنغ أن النوع المقصود هو القطن المشجّر Gossypium Arboreum، لا النوع المعروف أكثر منه المسمى القطن الحشيشي Gossypium Herbaceum. وعدّت الهند مصدر قطن سنحاريب على وجه العموم، وثبت وجود القطن في الهند في الحد الأدنى منذ العهد الهارابي. لكن يحتمل أيضاً، ما دام لسنحاريب علاقات بتلمون في ذلك الوقت أن يكون القطن قد نقل من البحرين، حتى لو كانت الهند مصدره الأول. وفي الأماكن الأخرى من الخليج، ثبتت زراعة القطن قبل الفترة الحديثة في عُمان، وواحة الهفوف، وفي ناحية الرياض.

وينتقل ثيوفراستس بعد وصفه القطن في تيلس، إلى الحديث بالتفصيل عن «أشجار لها زهر يشبه القرنفل، لا أريج له، وحجمه أربعة أمثال حجمه». ثم يستأنف الكلام ليعرّف بنوع نبات آخر، وهو في الواقع النبات السابق ذاته، يتميز بحركة خاصة من انفتاح أوارقه وانغلاقها في الصباح الباكر والمساء. وكما عرف منذ مدة طويلة، هذا النبات هو التمر الهندي Tamarindus indica L. الذي بدا وصفه له دقيقاً جداً إلى حد جعله يبقى نموذجاً نباتياً في القرن العشرين، واعتبر معظم الثقات أن الهند أصل التمر الهندي، الموجود في البحرين، وعدوا الأمر حقيقة نباتية. وذكر لوريمر التمر الهندي في عداد الأشجار المثمرة المزروعة في البحرين في مطلع القرن العشرين، وأشار إلى وجوده في قريتي باربار وكرباباد. وفي عام ١٩٢١، أشار الرائد ر.أ. شيزمن، وهو عالم طبيعي متوقّد الذكاء، أجرى عدة اكتشافات هامة، نباتية وحيوانية في جزيرة العرب، وذكر في حديثه عن البحرين أن شجرتي الطرفاء والتمر الهندي ينموان نمواً ناجحاً جداً فيها.

وأعطى ثيوفراستس (تاريخ ٥/٥/٧) أيضاً دليلاً آخر على الصلات الوثيقة بشبه

القارة الهندية، عندما وصف شجرة لها نقوش تشبه جلد النمر، يصنع منها سكان تيلس عصيّ المشي. ويرى بريتزل أن هذا الوصف ينطبق فقط على الأصل الهندي Calamus Rotang، المستورد من الهند، وعلى وجه أخصّ من البنغال فيما يظن. وهذه الناحية هامة بنوع خاص، نظراً للشهادة ما قبل الإسلامية المتأخرة بشأن استيراد جزيرة العرب الشرقية عصيّ الرماح من الهند لصنع الرماح الخطية الشهيرة.

ويناقش ثيوفراستس تيلس، فيشرح بعناية واضحة، لكن بإيجاز، نخيل التمر والكروم، والقمح، وأشجار فواكه أخرى. واعتبرت أشجار التين الدائمة الخضرة Ficus Laccifera، ويرجّح أنها سميت بهذاالاسم، لأن زيارة أندروسثينس تيلس تمّت في فصل الشتاء، وهو الفصل الذي لا يتوقّع الاغريقي أن يجد فيه تيناً ناضجاً. وأدخل هوايتلوك أشجار التين في قائمة أشجار الفواكه التي تزرع في البحرين حوالي ١٨٣٦ ـ ١٨٣٨، بينما ذكر لوريمر «العديد من أشجار التين الجيدة» في قرية زنج، على حوالي ١,٦ كم جنوبي غربي المنامة.

ونوع النبات الأخير في تيلس الذي يذكره ثيوفراستس، هو الطرفاء Tamarix articulata Vahl. ولم يحصل بريتزل على أخبار موثوقة عنها، فلم يثبت لديه أن الطرفاء تنمو في البحرين أو تستورد من بر العرب الرئيس. مع ذلك، لاحظ شيزمن نموها في البحرين نمواً جيداً جداً سنة ١٩٢١.

وننتقل في النهاية إلى تقرير ثيوفراستس عن موارد المياه في تيلس. وفي هذا الموضوع، تستحق نقطتان الذكر، أولاهما صورة «العديد من العيون في الجزيرة» المتفقة تماماً مع الوضع القائم حالياً في البحرين. وفي مطلع القرن العشرين، نظّم لوريمر قائمة بعشرين عيناً في جزيرة البحرين الرئيسة وحدها، ووصف مياهها بأن «صفاءها جميل، لكنها مالحة قليلاً».

ويقول ثيوفراستس في تاريخه (٤/ ٧/ ٨)، أن في تيلس «ماء سماء»، إلا أنه يزيد تحفظه في أسباب النبات (٢/ ٥/ ٥)، فيشير إلى «المطر القليل فيها». ومع مرور الزمن نصل إلى تقرير بليني عن تيلس الذي تخللته المبالغة، فقال إن «سقوط الأمطار هائل» في الجزيرة. واقترح بريتزل منطقياً تماماً أن الإحالات إلى المطر تعني فقط أن زيارة أندروسثينس تيلس تمّت في منتصف الشتاء، عندما يمكن أن يتوقّع سقوط المطر، وبتعبير أدق، قام بزيارتها في كانون الأول أو كانون الثاني سنة ٣٢٤/ ٣٢٣ق.م. ويرى لوريمر أن «فصل المطر في البحرين»، يعتبر انه يبدأ في منتصف شهر تشرين الأول،

وينتهي في منتصف شهر أيار، «وبينما» يبلغ عدد الأيام الماطرة عادة «٣ إلى ٦ أيام فقط»، تقع إجمالاً في كانون الثاني أو شباط. ورغم أن متوسط المطر في البحرين عادل فقط ٨١,٢٥ مم بين ١٩٠٢ و ١٩٠٦، فقد كتب لوريمر يقول: «في الأعوام الرطبة إلى درجة استثنائية، ينمو العشب حتى الركبة في جميع أنحاء المنخفض الأوسط في الجزيرة الرئيسة». وهكذا، لو حصلت زيارة أندروسثينس في الشتاء الرطب استثنائياً، سهل أن يرى المرء كيف أخذ الانطباع بأن تيلس حباها الله كمية مطر كبيرة.

ويبحث ثيوفراستس في كتابه أسباب النبات De Causis Plantarum تأثير مياه العيون المالحة ومياه المطر في النبات في تيلس وفي العناء الذي يتجشمه السكان في «غسل مياه المطر بمياه العيون». ويوازيه ما يرد في كتاب أبحاث النبات ٨/٧/٤، من ملاحظة بأنه «حتى عندما تمطر السماء يبقون مياه (العيون) فوق الحقول كما لو أنهم يغسلون مياه المطر ويصرفّونها بعيداً». وأساء بريتزل فهم هذا القول، فاعتبره تلميحاً بسيطاً إلى ريّ الآبار في أوقات شحّ المطر، إلا أن مترجمي طبعة لويب Loeb الحديثة لكتاب أسباب النبات، أشاروا إلى الممارسة ذاتها بدقة لدى مزارعي القرن العشرين في البحرين، مثلما ورد على لسان ح. هـ. د. بلغريف الذي كتب يقول:

التربة رقيقة ومالحة، والمياه مالحة ومرّة بعض الشيء... وجميع البساتين مروية لأن المطر قليل جداً. والمطر، عندما يهطل، يضرّ أكثر مما ينفع في الغالب، فيرشّش التربة السطحية المالحة على سوق النباتات، والجنبات، وأحياناً الأشجار، فيتسبّب بهلاك النباتات الصغيرة. وغالباً ما يلحق الأضرار بالأشجار والجنبات. ولتحاشي هذه الأضرار، يروي البستانيون الأرض بعد المطر مباشرة، وهذا جهد غير ضروري في نظر أناس لا يقدرون السبب الداعي لبذله.

في الختام، مثلما ألحّ بريتزل وأشرنا نحن من قبل، استهدفت كتابة تقرير ثيوفراستس عن النبات في تيلس نشر ملاحظات جديدة، لها أهمية نباتية بالغة تفيد القراء. وقد أبرزنا الصفات الشكلية والطبيعية. ولم نضع الوقت في الحديث عن مواضيع، يحتمل أن تكون مألوفة جداً لدى القارىء الاغريقي، مثل نخيل تمر تيلس، وزراعة الكروم والحبوب والأشجار المثمرة فيها. ولم يكن التحقيق عن النباتات المكان الملائم من أجل عرض تاريخ تيلس. وهكذا، لا نجد شيئاً تاريخياً، أو حضارياً، أو اتنوغرافياً بطبيعته. مع ذلك، يعدّ عمل ثيوفراستس وثيقة ملاحظة علمية، ويعتبر فريداً بين جميع مصادر ما قبل العصر الحديث عن البحرين، بغناه بالتفاصيل،

وبوصفه حقائق نباتية غير مبهمة.

وقبل أن ننهي كلامنا عن ثيوفراستس، يحسن بنا أن نذكر عملاً آخر له، يسمى [«حول الحجارة»] De tapidibus. ففيه فقرة قصيرة (فقرة ٣٦)، خاصة باللؤلؤ:

ما يسمى «باللؤلؤ» الشفّاف بطبيعته، والمستعمل في العقود الغالية الثمن، يصنّف أيضاً بين الحجارة الكريمة. ويتكوّن ضمن صدفة تشبه الوريقة، بل هي أصغر منها. وتبلغ أبعاد اللؤلؤ أبعاد عين سمكة كبيرة الحجم. وينتج مقابل ساحل الهند ومقابل بعض جزر البحر الأحمر (الارثري).

ويتفق معظم المعلّقين على أن «بعض جزر البحر الأحمر (= الارثري)» تشير إلى البحرين.

(٢) - سترابو حول تيلس[١]

ذكرنا سترابو من قبل بسبب أخباره عن موقع تيلس. لكن إضافة إلى ذلك، يختلف تقريره كلياً عن أخبار ثيوفراستس وبليني، ويُعْنَى بصورة رئيسة بالفينيقيين، وينصّ على ما يلي:

إذا أبحرنا إلى ما هو أبعد، نصل إلى جزيرتين أخريين، أقصد تيرس وأرادس، توجد فيهما معابد مثل معابد الفينيقيين. ويؤكد أهالي الجزيرتين في الحد الأدنى، أن جزر الفينيقيين ومدنهم، التي تحمل اسم مستوطناتهم الخاصة ذاتها (جغرافية ١٦/٣/٤). وأدخل سترابو صيغة مختلفة لاسم تيلس، وجعلها «تيرس». واحتجّ بالاعتماد على البينة المحلية، فأثار مسألة العلاقة بين المستوطنات الفينيقية في صور وارادس في البحر المتوسط وبين تيرس / تيلس وأرادس في الخليج العربي. وبذا أحيا قضية طرحها هيرودوتس قبله، تتضمن أن الفينيقيين يزعمون أن أصلهم من البحر الارثري، قبل أن يهاجروا إلى البحر المتوسط (تاريخ ٧/٨٩)، مارين عبر بلاد الشام (سورية).

وظلت هذه المقاطع مدة طويلة تسترعي انتباه الرحالة، وتجار الكتب القديمة، والآثاريين، والمؤرخين. ولا جدوى من استعراض جميع الآراء التي أبداها الباحثون خلال القرن الأخير، بشأن العلاقة المزعومة بين الفينيقيين والخليج العربي، لكن

(١) المرجع ذاته، ص ١٣٨.

يحتمل أن يدلّ تجاهل المسألة كلياً، على الإهمال. فأولئك الذين قبلوا إمكانية وجود صلة، لهم وجهة نظر في طبيعة هذا الارتباط. فبعضهم، مثل س.ب. مايلز، وس.د. بلغريف، اقترح أن الفينيقيين زاروا الخليج، وأسسوا مراكز تجارة فيه من قاعدتهم في حوض البحر المتوسط الشرقية. وقبل بعضهم الآخر، مثل هـ.س. رولنسن، بنتس، وت.هـ. هولديش، فكرة هيرودوتس واقترح الخليج العربي موطناً أصلياً للفينيقيين، وارتكز في طرحه على الميزة الفينيقية المحتّج بها الخاصة بتلال الدفن في البحرين، ومحتوياتها. وذهب فيلبي إلى أبعد من ذلك، فأمعن في التفكير، وقال: لو كانت تلال القبور في البحرين فينيقية حقيقية، ولو صحّ هذا الافتراض أيضاً على أقرانهم المزعومين في البر الرئيس حول الخرج، مثلما اقترح هولديش، عندئذٍ، يحتمل أن يكون موطن الفينيقيين الأصلي «المدن المطمورة» في الربع الخالي.

مع ذلك، عبّر الباحثون عن شكّهم في الأمر وفي وقت مبكر. فرفض س. جنث S.GENTHE صحة المصادر القديمة، بينما قال هوغارت HOGARTH بصراحة، موجهّاً كلامه إلى فيلبي PHILBY في المناقشة التي تلت محاضرته في الجمعية الجغرافية الملكية: «آسف لأن الدليل على أن تلال القبور في البحرين فينيقية، عديم القيمة عملياً». وأيّد سير ا.ت. ويلسن A.T.WILSON رأيه سنة ١٩٢٨، في دراسته الواسعة التأثيرعن الخليج.

وفي السنة ذاتها، اقترح ا.ج. بوروز E.J.BURROWS تأويلاً أكثر تعقيداً، وعرض احتمال قيام هيرودوتس برواية تقاليد فينيقية أهلية، تربط أصولاً بشرية (وبتداعي أفكار فينيقية صرفة) بدلمون. مع ذلك، جدير بالذكر أن مناقشة إمكانية إرجاع أصل الفينيقيين إلى الخليج، لقيت صدى محدوداً بين العلماء العاملين في حقل آثار الفينيقيين وتاريخهم في حوضة البحر المتوسط الشرقية. ونكتفي بالاستشهاد ببعض الأعمال فقط: فقد أغفلت الإشارة إليها في عدد من أفضل أبحاث البرايت ALBRIGHT، وفي محاضرات كينيون سشويش لعام ١٩٦٣ KENYON'S 1963 SCHWEICH، وفي تأليف اب. توماس AP-THOMAS التركيبي لسنة ١٩٧٣، وفي دراسة ترمب TRUMP الأثرية والتاريخية عن حوضة البحر المتوسط، وفي أحادية غربيني GARBINI عن تاريخ الفينيقيين وديانتهم. وفي عام ١٩٢٦، انكبّ ج. كونتينو على دراسة المصادر اليونانية واللاتينية والسامية الشمالية الغربية المسمارية، والبقايا الأثرية، فوجد في منطقة الخليج القليل لدعم سترابو وهيرودوتس، بسبب وضع

المعرفة في ذلك الوقت، فيما عدا الإيحاء بقيام العنصر السامي بردّ فعل عام في خلفية الفينيقيين.

وفي وقت أقرب، أحيا ج.و. بوويرسوك G.W.BOWERSOCK الجدل، فكتب يقول: «لا شيء بعيد الاحتمال بالفطرة بشأن الهجرة الاستيطانية من مركز البحرين التجاري إلى ساحل البحر المتوسط الشرقي... ويدعمها إجماع الأعراف الرائع في قسمي العالم في ما يسمى بالأزمنة الكلاسيكية»، وبينما نادراً ما تكون الخلفية الكنعانية واضحة في الحضارة الفينيقية المتأخرة، فإن اكتشاف نقاط اتصال بين إبله ودلمون حوالي ٢٥٠٠ق.م يثير الحيرة، لحصوله مباشرة بعد مضي قرون قليلة على تاريخ هجرة الفينيقيين من البحر الارثري إلى البحر المتوسط، حسب هيرودوتس. وقطعاً، لا بدّ أن يبعث ظهور أسماء صور في عُمان، وأرادس في أرخبيل البحرين والجبيل (= بيبلوس) في المملكة العربية السعودية الشرقية، على النظر في القضية الفينيقية، ولو كنا ما نزال بعيدين عن الوصول إلى حلّ ملائم.

ووردت عند سترابو (١٦/٣/٦ ـ ٧) مقاطع أخرى، تتعلق بالقُرْم الذي اكتشف «على طول كامل ساحل البحر الأحمر (= الارثري)»، وباللآلىء التي عثر عليها قرب «جزيرة واقعة في بداية الخليج الفارسي»، و«الأشجار التي تفوح منها رائحة مثل رائحة البخور» في جزر واقعة مقابل مصبّ نهر الفرات، وكل هذه المقاطع منقولة عن نيارخس، وظنّ أحياناً أنها ترتبط بتيلس، لكن لا يوجد دليل على ذلك مهما كان نوعه.

(٣) ـ بليني وتيلس[١]

يرد مقطع بليني عن موقع تيلس، المناقش من قبل، في الكتاب السادس من مصنفّه التاريخ الطبيعي في سياق وصفه ساحل جزيرة العرب الشرقي. فإضافة إلى المعلومات الجغرافية، يدوّن بليني فيه أيضاً أن تيلس «مشهورة بكثرة لآلئها»، التي نطلع على معطيات أوسع عنها في فقرة لايزودورس الخاركسي، حفظها لنا اثيناوس. وفيما بعد، في الكتاب ١٢، يعود بليني إلى موضوع تيلس في مناقشته الأشجار. ويعتبر تقريره عن تبات تيلس، في جوهره، صياغة جديدة لنص ثيوفراستس، تحوي بعض إضافات، يفترض أنها منقولة من أعمال أرستوبولس أو أونيزيكريتس، التي يرجع

(١) المرجع ذاته، ص ١٤٢.

إليها من أجل الحصول على معلومات إضافية. وهذا هو نصّه:

تقع في الخليج ذاته، جزيرة تيلس، التي تكسو الغابات قسمها المقابل الشرق، الذي يغمره البحر أيضاً في أثناء المدّ العالي. ويحاكي حجم كل شجرة حجم شجرة التين. وللأشجار رائحة زكية تفوق الوصف، وتشبه ثمرتها الترمس، وتمتلىء بالشوك إلى حد لا يستطيع أي حيوان أن يلمسها. وتنمو على هضبة عليا في الجزيرة ذاتها، أشجار تحمل الصوف، لكن بطريقة مختلفة عن أشجار الصين، لأن أوراق هذه الأشجار ليس عليها ثمر، ويمكن أن يظنّ أنها أوراق كرمة لولا أنها أصغر منها، لكنها تحمل قرعاً؟ بحجم السفرجلة. يتفتّح متى نضج، ويكشف عن كرات زغب، يصنع منها قماش غالي للثياب.

ويسمون هذه الشجرة القطن gossypinum. وتنمو أيضاً بأعداد أوفر في جزيرة تيلس الصغرى، التي تبعد عشرة أميال عن الجزيرة الأخرى. ويقول جوبا أيضاً: توجد شجرة عربية تسمى سيناس cynas ينسج منها ثياب. لها ورق يشبه سعف النخل. كذلك، تزوّد أشجار الهند ذاتها الهنود بالثياب إلا أن جزر تيلس تحوي أيضاً شجراً آخر، له زهر مثل البنفسج الأبيض، لكنه أكبر منه بأربعة أمثال، وليس له أريج. وهذا يذهل في هذه المنطقة من العالم.

وهنالك شجرة أخرى أيضاً تشبه هذه الشجرة، إلا أن أوراقها أوفر، وزهرها وردي، ينغلق في أول الليل، ويبدأ بالتفتّح عند بزوغ الشمس، ويتفتّح تماماً عند الظهر، ويقول أهل البلاد إنه ينام. وتنتج الجزيرة ذاتها أيضاً شجر النخل والزيتون والكرمة والتين وجميع الأشجار المثمرة الأخرى. ولا يتساقط ورق أي من الأشجار هنا، وتستعذب الجزيرة من عيون باردة، وأمطارها غزيرة (ت ط، ١٢/ ٣١/ ٢٨ ـ ٢٣/ ٤٠).

ولا نجد صعوبة بالتعرف على النقل عن ثيوفراستس عند بليني. وتكفي هنا أمثلة قليلة مأخوذة من وصف القرم لإثبات ذلك:

ثيوفراستس: «يوجد عدد كبير من الأشجار في الجانب الشرقي».

بليني: «مغطاة بالغابات في القسم المقابل الشرق».

ثيوفراستس: «حجم كل هذه الأشجار بحجم شجرة التين».

بليني: «كل شجرة من الأشجار بحجم شجرة التين».

ثيوفراستس: «رائحة الزهرة عطرية إلى أقصى حد».

بليني: «لزهرها رائحة زكية لا توصف».

ثيوفراستس: «الثمر لا يؤكل ويشبه الترمس في مظهره».

بليني: «يشبه الثمر الترمس».

ويضيف بليني صفة الشائك إلى ثمر القرم، ويذكر أن القرم ينمو في قسم تيلس الشرقي وحده، و«يغمره البحر في أثناء المدّ العالي، ويهمل تضمين ملاحظة ثيوفراستس عن الجذور المكشوفة، الأساسية لتمييز الشجرة عن غيرها.

ثم ينتقل بليني إلى القطن في تيلس، ويستشهد هنا بجوبا، ويعتبره المرجع الموثوق بالنسبة إلى بعض المعلومات التي ينقلها عنه. وهذه الناحية هامة لأنها تثبت أن زراعة القطن في تيلس، التي لاحظها أندروسثينس في القرن الرابع المتأخر، كانت ما تزال شائعة حوالي زمن مجيء المسيح. وتعدّ هامة أيضاً تسمية جوبا الدقيقة للقطن gossypinum، وهذه التسمية مصدر اسم القطن النباتي الحديث. ويحتمل أيضاً أن يكون جوبا مصدر تحديد الأسماء المميّزة للجزر، المستعملة عند بليني، لأن أي كاتب آخر لم يتحدث عن جزر تيلس وعن تيلس الصغرى. ويختصر بليني تقريره عن التمر الهندي، ويتجاهل التفاصيل، ويستحضر في ذهنه صورة شجرة المغنولية وأزهارها الوردية. واعتبر بريتزل ذكره شجر الزيتون في البحرين خيالياً محضاً، مشيراً إلى أن الأغارقة استغربوا بعض الشيء عدم وجوده في هذه المنطقة، حتى علّقوا على انعدامه على ساحل كرمانية مثلاً. مع ذلك، كان ثيوفراستس بالتأكيد مصدر الإلماحات الإجمالية إلى نخيل التمر والكروم والتين وسائر الأشجار المثمرة، والعيون والمطر في تيلس.

ويعود بليني في الكتاب ١٦ إلى تيلس بفقرة مخصصة لأخشاب الجزيرة، معتمدة مرة أخرى على ثيوفراستس. وهذا هو نصها:

روى رفاق الاسكندر الكبير أن في جزيرة تيلس في البحر الأحمر (= الارثري) أشجاراً تستعمل لبناء السفن، عثر على أخشابها خالية من التعفّن طيلة ٢٠٠ سنة، رغم أنها كانت تحت الماء. ورووا أيضاً أن هذه الجزيرة ذاتها تحوي جنبة تنمو سميكة إلى حدٍ كافٍ لصنع عصا مشي، وعليها تقليم مثل جلد النمر، وهي ثقيلة وعرضة لأن تتكسّر كالزجاج عندما تسقط على أشياء مادتها أقسى منها (ت ط ١٦/٨/٢٢١).

هنا نجد ذكر صفة عدم تعفّن هذه الشجرة، التي اعتبرها بريتزل القرم، وذكر مميزات أسل الهند Calamus Rotang، الذي يصنع منه سكان تيلس عصي المشي، إلا أن

بليني يحيد عن ثيوفراستس بإسقاطه كل الإحالات إلى الطرفاء.

(٤) ـ اغريقيات ـ بابليات

حتى الآن، تحدثنا عن تيلس، حصراً اعتماداً على مصادر اغريقية ولاتينية، لكن يهمنا أن نشير إلى أن الطلاب الأغارقة أو النسّاخ في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الأول ق.م، تعلموا اللغتين السومرية والأكادية في بلاد بابل. وكانوا ما يزالون يستنسخون نصوصاً معجمية ورد فيها ذكر دلمون وماغان. ويحتفظ نص موجود في المتحف البريطاني، يحتمل أنه من بابل، بجزء من قائمة تواريخ مكتوبة كما يلي:

٢٨٤ : ΓΙCΙΜΑΡ Δ[Ι] ΛΙΟΝ ΘΙΛμ

٢٨٥ : ΓΙCΙΜΑΡ Δ[Ι] ΛΙΟΝ ΑCΑΝΩ

٢٨٦ : ΓΙCΙΜΑΡ ΜΑΓΑ ΜΑΧΑΝω

وهذا التمرين مهمّ من عدة نواحي. فكل سطر فيه يبدأ بكتابة الكلمة السومرية جيشيمّر Gišimmar التي تعني «نخل التمر»، بالترميز اليوناني. وفي السطرين ٢٨٤ و ٢٨٥، أدّى الناسخ «دلمون» بحرف ذلتا: «ذيلون». لكن في السطر ٢٨٥، تلي الصيغة الاغريقية للكلمة الأكدية أسنة asnu التي تعني «تمر»، بينما يحتفظ السطر ٢٨٤ بإملاء متغيّر لدلمون، وبالمقطع اللفظي ثيا θΙΑ الذي يذكر بالآرامية التدمرية «ثيلوّا/ أوس» التي تبتدىء بالأحرف الثلاثة ذاتها.

(٥) ـ تيلوّا / أوس في القرن الثاني الميلادي[(١)]

مثلما رأينا من قبل، يمكن إعادة تاريخ أخبار أندروسثينس عن تيلس وأخبار ثيوفراستس أيضاً، إلى زمن الاسكندر الكبير. ويجوز إرجاع تاريخ بعض مواد بليني على وجه التقريب، مثل الأجزاء المأخوذة من جوبا، إلى زمن المسيح، حوالى منتصف الفترة الفرثية. وعندما ننتقل إلى القرن الثاني الملادي، يقدّم لنا نقش هام اكتشف عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، خلال موسم تنقيبات تدمر، منظوراً مختلفاً تماماً عن البحرين. وينتمي نصّ هذا النقش إلى مجموعة نصوص تدمرية معروفة «بنقوش القوافل»، كَرَّمَ فيها مواطنو تدمر مواطناً لهم شهيراً، تقديراً لما أسداه من خدمات في تجارة القوافل بين تدمر وبلاد بابل. وفي هذه الحالة، يروي النص أن تجار تدمر في سبازينو خاركس نصبوا سنة ١٣١ ميلادية تمثالاً في تدمر تكريماً لـ أيارخي بن نبوزبد.

---

(١) المرجع ذاته، ص ١٤٥ ـ ١٤٩.

وقد اتصف هذا النص بأهمية بالغة لأنه حكى بأن أيارخي خدم، فيما يقال، «مرزبان التلوانيين، عند مردات، ملك سبازينو خاركس». وسبازينو خاركس مدينة قامت قرب البصرة الحديثة في أقصى جنوب ولاية ميسان البابلية، وكانت عاصمة مملكة خراسين الصغيرة لكن الهامة، وعاشت في ظل فرثيا، ونعمت بازدهار تجاري وبشهرة دائمة ثابتة لا تتناسب مع حجمها، وكانت أهم بندر بابلي تقصده السفن محمّلة بالسلع الكمالية القادمة من الشرق خلال القرن الأول ق.م، والقرنين الأول والثاني الميلاديين. وكان تجار تدمر يموّتون بالبضائع الشرقية بلاد الشام (سورية) الرومانية وعالم البحر المتوسط بعدها، فأسسوا مستوطنات دائمة في بابل وفولوجيزياس (ولغاش)، وسبازينو خاركس التي تبذّهما.

ولا تترك لنا نقوش القوافل التدمرية أي مجال للشك بأن تجارة تدمر مع خراسين أحرزت نجاحاً عظيماً. بالتالي ما دامت العلاقات التجارية وثيقة بين خاركس ومجتمع تدمر، يصعب أن يفاجأ الباحث إذا استخدم ملك خاركس مواطناً تدمرياً في منصب سياسي، وسماه مرزبان التلوانيين. مع ذلك استعصى على العلماء سنين عديدة إدراك المعنى المقصود باسم مرزبان. ولم يتضح لهم مفهومه حتى عام ١٩٦٨، عندما نشرت مجموعة حواشي دوّنها ا. هرزفيلد سنة ١٩٤٨، وطبعت بعد وفاته. والتلوانيون سكان تيلوّس أو تيلوّة، وهو بوضوح اسم «تيلس» بصيغته الآرامية. وهكذا يبدو أن البحرين كانت في القرن الثاني الباكر الميلادي ولاية في مملكة خراسين.

وقد تحدثنا عن مردات بمزيد من التفصيل في الفصل السادس السابق، لكن يهمنا أن نشير الآن، مثلما نعلم من نقش اغريقي فرثي مكتشف حديثاً في سلوقية دجلة، إلى أن مردات ينتمي إلى أسرة فرثية رفيعة المنزلة، فيعتبر فرثياً تسلم عرش خراسين، ومثّل حكمه امتداد تأثير فرثية في خاراكس وفي الخليج العربي. مع ذلك نشب فيما يظنّ نزاع بينه وبين أُسَرٍ أخرى من النبالة الفرثية، فأزاحه عن عرش خراسين الملك الفرثي فلوجيزياس (ولكاش) الرابع بعد مرور عشرين عاماً على ورود اسمه في نقش عثر عليه في تدمر، ثم لم يسمع عنه شيء فيما بعد. ومنذ ذلك الوقت، تأسس نفوذ سياسي فرثي غالب في الخليج العربي الأوسط، سوف نعالجه في الفصول اللاحقة، لأن مصادرنا تعنى بالبرّ الرئيس من هذه الناحية.

وقطعاً يُغْرَى الباحث بالتفتيش عن بيّنه أثرية تثبت قيام هذا الحدث في البحرين. فقد استعادت الحملة الفرنسية في جانوسان ثلاث شظايا من تيجان عمود حجري،

تشبه شبهاً عاماً بياناً فرثياً من آشور وهترة، دون أن تبرهن بوضوح عن وجود أي موازيات صحيحة له. بالتالي، يسع الباحث أن يحاول الاقتراح بأن أسلوب هذه التيجان خراسينياً. لكن يتبادر إلى الذهن مثال يفرض نفسه فرضاً، هو بناء خراسيني محتمل: فالقلعة ما قبل الإسلامية، الموصوفة من قبل، مع موازياتها من التحصينات الفرثية في بلاد ما بين النهرين، قد تكون مبنى شاده مردات مقراً لمزربانه. ولهذا الفرض بديل، فلو تصوّرنا أن الهيمنة الفرثية على تلووا/ أوس بقيت إلى ما بعد ملك مردات، لأمكننا أن نقترح أن فولوجيزياس الرابع أو أحد خلفائه قد بنى القلعة. لكن يبدو الاقتراح الأول أقرب إلى العقل.

وهناك نقطة أخرى لا بد من التذكير بها، نعني اننا نتحدث عن أعداد صغيرة في الحد الأدنى من المواطنين التدمريين، الذين يخدمون خاركس ويقيمون في البحرين. وقد يتساءل الباحث ما إذا كانت «الشخصية العسكرية» (المناقشة من قبل) التي دفنت في جانوسان، موظفاً كبيراً من أصل تدمري أو خراسيني أو سليل إحدى أسرهما. فعليه، يهمنا أيضاً أن نعيد النظر بالقبور التدمرية المعروفة جيداً في جزيرة الخرج، مقابل ساحل فارس الجنوبي. فقد لوحظت هنا آثار العصور القديمة منذ ١٧٦٥، عندما عاد ش. نيبو من الهند، وعندما أشرف ر. غرشمن على موسم قصير لمسح الخرج والتنقيب فيها سنة ١٩٥٨. ولم نفاجأ مفاجأة صغيرة، لما تبيّن أن قبرين مما يقرب من ٩٠ قبراً منحوتة في الصخر فيها، تميّزت بصفات تدمرية محدّدة. وما دامت معظم القبور ليست تدمرية من ناحية الزخرفة، لا يعقل أن فندقاً تدمرياً أو مستوطنة تجارية وجدت في هذه الجزيرة. ولا يبدو هذا الأمر مقبولاً بحدّ ذاته، ما دام الباحث يحتمل أن يتوقع العثور على إشارة إلى مثل هذه المحطة في نقوش القوافل، إلا أن كل ذلك غير وارد. ويعتبر البديل الأرجح أن التدمريين القلائل في الخرج، ربما على غرار الوضع في تيلوّس، كانوا يخدمون خاركس في وظيفة سياسية. فإذ صحّ هذا الفرض، يحتمل عندئذٍ أن تكون مملكة خراسين قد مارست السيادة في الخليج العربي إلى حدّ لم تمارسه فرثية أبداً، وذلك في عهد مردات، إن لم يكن قبله. ومثلما رأينا في الفصل السادس، لدينا دليل معاصر على نفوذ خراسين في الخليج الأدنى أيضاً، بالتحديد على طول الساحل الغربي من شبه جزيرة عُمان.

وخلّفت سيطرة خراسين على البحرين تراثاً فكرياً صغيراً، لكنه هام. فاثيناوس، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي يذكر في كتابه «مأدبة السفسطائيين»، مقطعاً يصف فرثية بالتفصيل، حرره إيزودورس الخاركسي، الكاتب الخراسيني الشهير،

وتحدث فيه عن صيد اللؤلؤ في مياه تلوّس أو تيلس. ونحن نورده كاملاً فيما يلي:

يقول ايزودورس الخاركسي في وصفه فرثية: تقع إحدى الجزر في الخليج الفارسي، الذي يعثر فيه على كثير من اللؤلؤ، وتحيط بها أطواف مصنوعة من القصب يغطس منها الغواصون في البحر حتى عمق ٢٠ قامة، ويجلبون من قعره محاراً تضمُّ صدفتان الواحدة منه. ويزعمون أن المحارة تنتج «الصدف»، عندما تكثر العواصف الرعدية والأمطار الغزيرة، ويحصلون منها على معظم اللآلىء وأجودها وأكبرها. وفي الشتاء يغور المحار عادة في ثقوب قعر البحر، بينما يسبح هنا وهناك طيلة الليل فاتحاً صدفتيه، ومغلقاً إياهما في النهار. وعندما يلتصق المحار بالحجارة والصخور في وقت هيجان الأمواج، يترسّخ ثم يتثبّت، وينتج اللآلىء، التي تنشأ من شيء عالق في لحمه، يتغذّى به. وتنمو في فم المحارة التي تمتلك مخالب تدخل بها الغذاء فيه. وتشبه السرطان الصغير، وتسمى «حارس المحار». ويغرز لحمها كالجذر في وسط الصدفة. وتتكون اللؤلؤة قربه وتتشكل في الجزء الصلب من الصدفة، وعندما يحيط اللحم باللؤلؤة، تتوقف تغذيتها ونموها ويحبوها اللحم مزيداً من النعومة والشفوف والصفاء. وعندما يعيش المحار في قعر البحر ينتج أصفى اللآلىء وأكبرها، إلا أن العائم منه على وجه الماء ينتج لآلىء صغرى رديئة اللون، لأن أشعة الشمس تؤثر فيها. ويتعرّض غواصو اللؤلؤ إلى الخطر، عندما يمدّون أيديهم مباشرة إلى المحارة المفتوحة، لأن انفراج صدفتيها يطبق على أصابعهم في الغالب ويقطعها، فيهلكون في مكانهم أحياناً. إلا أن الغواصين الذين يقتلعونها يمدّون أيديهم تحتها من جهة واحدة، وينتزعون الأصداف بسهولة عن الصخور (ديبنس، ١٤٦/٣).

وتستحق عدة تفاصيل التعليق عليها هنا. مرة أخرى، نجد إشارة إلى سقوط أمطار غزيرة، ويهمنا أن نبرز ان الاعتقاد بآثار المطر المفيدة في انتاج اللؤلؤ الذي حفظه لنا اثناوس يظهر ظهوراً تاماً في معتقدات الغواصين العرب في عصرنا الحالي. ففي عام ١٩٥١، كتب ر. لوبارون بوين يقول «تروي التقاليد العربية في الخليج أن المحار الجديد الخالي من الصدف يصعد إلى سطح الماء عندما يهطل المطر أو عندما يصبح القمر بدراً. فالمطر أب اللؤلؤة والمحارة أمها، بينما يتولّى القمر تلميعَها. ويربط كثيرون ضعف موسم صيد اللؤلؤ بقلة المطر». ويثبت التقليد الحديث المحلي اعتقاد ايزودورس «بأن المحارة التي تعيش في القعر، تعطي أصفى اللآلىء وأكبرها». وقال برين: «يعتقد الخبراء العرب أن أكبر اللآلىء وأكثفها، وأبيضها تأتي من المياه العميقة، بينما تؤخذ من المياه الضحلة فقط لآلىء أقل كثافة وخفيفة اللون».

إلا أن أيزودورس خلط العمق الذي يصل إليه الغوّاصون بأعظم عمق يعثر فيه على أرصفة اللآلىء. ويجمع الناس عموماً على أن العمق الأول عشرون قامة، بينما يندر أن يعمل الغوّاصون في عمق يتجاوز ١٢ قامة.

ويهمنا، قبل أن نختتم موضوع صيد اللؤلؤ في العصور القديمة، أن نتأمل وصفاً آخر أغرب، يتناول صيد اللؤلؤ في المحيط الهندي، حفظه لنا فيلوستراتس، ويقول فيه:

«يقترب الهندي من المحارة، ويشرع بإغرائها بطعم من المرّ. فتنفرج صدفاتها وتسكر من رائحة التابل. وعندئذٍ تثقب برزّة، فتفرّغ سائلها الذي يتلقاه الغوّاص بصحن حديد، مخطّط للسبك، فيجف السائل آنياً عليه، ويتخذ شكل القالب المحفور فيه، الشبيه تماماً بلؤلؤة طبيعية. فاللؤلؤة دم أبيض مأخوذ من البحر الارثري.

ويقال أيضاً أن عرب الساحل المقابل يتعاطون هذا النوع من صيد اللؤلؤ (تكريم ابولونيوس التياني ٣/ ٥٧).

(٦) ـ البحرين في عهد الساسانيين[١]

ترد كثير من الأخبار المكتوبة، المتوفرة من البحرين في العهد الساساني، في النصوص الكنسية السريانية، التي تدوّن أحداث تاريخ الكنيسة النسطورية. وكانت ماش ماهي[٢] مقرّ الاسقفية النسطورية المحلية، التي يمكن جعلها، مثلما أشرنا من قبل، قرية سماهيج في جزيرة المحرّق. إلا أن إيشوعيهب الأول ذكر في رسالة تاريخها ٥٨٤/ ٥٨٥ تلون TLWN أو «تالون» Talun. وقد اقترح ج.س. السمعاني، العالم المبكر الخبير في تاريخ النصارى النسطوريين، سنة ١٧٢٥، وجوب اعتبار تالون تيلس، وأثار سير جـ.س. رولنسن جدلاً بهذا الشأن في وقت لاحق، وربط التسمية الأكدية تلمون بتالون، مثلما فعل ب. ميسنر بعد ما يقرب من أربعين عاماً. لكن لا يسع أحد أن ينكر، كما أبان إيلرز، أن «تيلس» اليونانية قد تكون مشتقة من الأكدية «تلمون» (المناقشة من قبل)، وهذا صحيح أيضاً فيما يبدو بالنسبة إلى تلون TLWN، فهذه الأسماء الثلاثة تدلّ كلها على كبرى جزر البحرين.

وسوف نستعرض تاريخ أسقفية ماش ماهي النسطورية في نطاق بحث عام نتناول

(١) المرجع ذاته، ص ١٥٠.
(٢) ماش ماهي بالفارسية، سماهيج بالعربية: انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، مجلد ٣/ ٢٤٦.

فيه أبرشية بيت قترايه. ونكتفي هنا بالحديث عن بعض الوقائع البارزة. فقد جاء في التلمود البابلي أن ماش ماهي بندر يعثر فيه على اللآلىء، وهذا تلميح يجوز أن يكون قد دوّن في أي وقت بين عام ٢٥٠ و ٥٥٠ ميلادية. وذكرت ماش ماهي لأول مرة في المصادر النسطورية سنة ٤١٠، عندما حرم مار اسحق باتاي Batai، مطران ماش ماهي، وعيّن مكانه الياس. ورغم أن سرجيوس مطران ماش ماهي حضر مجمع عام ٥٧٦ الديني، يبدو أن ماش ماهي كانت دوماً مركز هرطقة وثورة. وانتقد الكاثوليكس ايشونيهب الثالث (بطريرك الكنيسة الأرمنية) الأسقف ابراهيم الماش ماهي نقداً لاذعاً في هجومه على كنيسة بيت قتراية المتمرّدة ولم يسمع شيء بعد هذا التاريخ عن أبرشية ماش ماهي، رغم أن سيرجيوس، مطران تريهان، حضر مجمع دارين سنة ٦٧٦ ميلادية. واقترح أو. برون أن «تريهان» خطأ نسخ، ينبغي أن يقرأ «تالون». وهذا معقول، لأن المطارنة الحاضرين في دارين أتوا من أبرشيات بيت قتراية، بينما تقع تريهان بين سامراء وتكريت.

وتكشف هذه المصادر عن أشياء كثيرة، تتعلق بالكنيسة المسيحية وبسكان جزر البحرين، لكنها لا تروي شيئاً عن السلطة الدنيوية العظمى الساسانية في تلك الفترة. ويذكر الطبري ماش ماهي سماهيج، ويعتبر قوله أقدم إشارة إليها، تسلّط الأضواء عرضياً على سياسة القرن الرابع الباكر. ففي مناقشة حملة سابور الثاني العربية الشهيرة، يصف الطبري إبعاد أسرى بني تغلب على الوجه التالي: «أسكن (سابور الثاني) بعض بني تغلب في البحرين، نعني دارين، التي تسمى أيضاً هيج، وفي الخط». ويعني تعبير البحرين هنا البر الرئيس، ولا نجد صعوبة في تحديد دارين، المدينة الرئيسة في تاروت. وظل ذكر هيج مدة طويلة غامضاً إلى أن اقترح ج. بوكامب وس. روبين تعديلاً جعل المقطع يقرأ «دارين وسماهيج». وهكذا نُفي بعض بني تغلب إلى سماهيج. وينطوي هذا القول على أن الساسانيين، بحكم سلطتهم، كانوا يتصرفون في البحرين كما يشاؤون، ويعدّ أيضاً عرضياً إيضاحاً آخر على الطريقة التي كانت البحرين تستعمل مركز صهر اثني في العصور القديمة.

ولاستيطان بني تغلب في ماش ماهي أهمية هائلة أيضاً على ضوء تسمية أكبر جزر البحرين تقليدياً. فمن زمن الشاعر الجاهلي عمرو بن قميعة؟ (+ حوالي ٥٣٠ _ ٥٤٠) حتى مطلع هذا القرن، كانت الجزيرة المعروفة اليوم باسم البحرين، تسمى أوال. وأوال أيضاً صنم جاهلي كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل. واقترح و. روبرتسون سميث في القرن الماضي أن لـ «أوال» صلة بالفعل العربي «وأل» الذي

يعني «لجأ»، وبالاسم «وأل» الذي يعني الملجأ. ونميل إلى الاقتراح بأن من وصل إلى سماهيج من بني تغلب، ممن انقذوا من الذبح الذي ذهب ضحيته عدد كبير من أشقائهم العرب على يد جيش سابور، اعتبر البحرين ملاذاً فسماها أوال.

إضافة إلى ذلك، يسلط هذا الكلام الضوء على مادة مأخوذة من كتاب غلوكوس الموسوم الآثار العربية Arabica Arehaiologika الذي لا وجود له الآن، واردة في كتاب اثنيكا تأليف ستيفن البيزنطي. فقد اقترح او. بلو عام ١٨٧٣ أن أواليني المذكورة عند غلوكوس تعني حتماً سكان أوال. وقيل أيضاً أن أواليني ينزلون قرب مدينة عمانا، التي ناقشناها في الفصل السادس، وينبغي أن تقع على ساحل الخليج الجنوبي. وقد صنّف كتاب اثنيكا حوالي سنة ٥٣٠، إلا أن تاريخ كتاب غلوكوس لم يتوضّح أبداً. فإذا صحّ التوافق بين أواليني وسكان أوال، عندئذٍ يقتضي هذا التخريج الاستنتاج بأنَّ غلوكوس ألّف كتابه في وقت ما بين حوالى ٣٢٥ وحوالى ٥٣٠.

ولا نعرف ما إذا كانت جزر البحرين اعتبرت واقعياً جزءاً من الامبراطورية الساسانية منذ حملة أردشير العربية أو منذ حملة سابور الثاني. وحفظت لنا جغرافية موسيس الخوريني قائمة بأسماء ولايات الامبراطورية الساسانية، تُصَوِّرُ على العموم، فيما يعتقد، الظروف السائدة في أواخر هذه الامبراطورية، ويرد فيها اسم ماش ماهي كإحدى الولايات الجنوبية، وهذا هو الإثبات الوحيد الوارد في كتب الأدب للسيادة الساسانية على البحرين، الذي اكتشف حتى الآن.

وتصوّر المصادر المتوفرة لدينا تاريخ تيلس الطبيعي تصويراً أفضل بكثير مما تمثّل تاريخها السياسي، لكن لا شيء فيها يوحي بأن تيلس كانت تابعة لامبراطورية السلوقيين. ولا تعدّ زيارة انطيوخس الثالث لتيلس في طريق عودته من الجرعاء برهاناً حاسماً. وعندما تتحدث المصادر المكتوبة عن تيلس، لا تعطي أي دليل على أنها كانت جزءاً من الأراضي الواقعة تحت السيادة الاغريقية في أي وقت من الأوقات. ويبدو فيما يظهر أن المواد الأثرية من النوع الهلنستي، التي عثر عليها في تنقيبات رأس القلعة وفي شتى القبور، تعتبر حتماً دليلاً على أن البحرين كانت عضواً في رابطة البلدان الهلنستية الثقافية العامة في آسية الغربية، لكن ليس في الامبراطورية السلوقية بحدّ ذاتها. ويثبت النقش التدمري العائد إلى سنة ١٣١ ميلادية، المناقش من قبل، إدخال البحرين في ممتلكات مردات، وهذا الحدث يمكن أن يساعد في شرح وجود القلعة الصغيرة قرب ساحل الجزيرة الشمالي. من جهة أخرى، يرجّح أن الفخار الذي

عثر عليه في القلعة وفي مئات القبور، يمكن فهمه على أفضل وجه، كدليل على دخول البحرين عضواً في رابطة البلدان الفرثية، التي وحّدت شعوب جزر الخليج العربي وساحله مع شعوب بلاد بابل الجنوبية، وميسان، وخوزستان وعيلام، وعلى نطاق أضيق كرمانية. ويثبت الفخار العربي الذي عثر عليه في البحرين أن شعوب الجزيرة تفاعلت أيضاً باستمرار مع شعوب البر الرئيس. وتتضاءل الأدلة الأثرية على اتصالها بالعالم الساساني، ولو أن أعمال المجامع النسطورية ورسائل أيشوعيهب الثالث لا تترك مجالاً للشك بأن أبرشية ماش ماهي وتالون تنتميان إلى ولاية بيت قتراية الكنسية، وهذا الوضع يحتّم وجود علاقات دائمة بمقر رئيس الأساقفة في ريف ـ أردشير على ساحل فارس الجنوبي، بينما تثبت جغرافية موسيس الخوريني إدخال البحرين في الامبراطورية الساسانية في الحد الأدنى في أواخر السيطرة الساسانية على معظم بلاد ما بين النهرين وفارس.

ثانياً ـ علاقات سيراف الاقليمية والعالمية

سيراف إحدى مدن اقليم فارس الشهيرة، التي تقابلها الان مدينة طاهري الحديثة، وإحداثياتها ٤٠′ ٢٧° شمالاً و١٢′ ٥٢° شرقاً. وهي واقعة على ساحله في الخليج العربي، على بعد ٢٢٠ كم جنوبي شرقي بوشير (بوشهر)، و ٢٨٠ كم تقريباً غرب شمال غرب بندر عباس. ويلائم موقع وسطها الطبيعي الاتصال البري بالأقطار المجاورة لها، والملاحة البحرية ضمن الخليج العربي ذاته، وبينه وبين سواحل بحر الهند[١].

آ ـ وسطّ سيراف الطبيعي

ويمتد موقع سيراف على طول شاطىء جون ضحل، طرفاه لسانان منخفضان، تتجه فتحتُه إلى الجنوب على عرض ٤ كم، يليها مباشرة من جهة الداخل جرفُ حجر رملي خشن. ويتألف داخل الساحل في هذا القسم من أرض فارس، من مجموعة حواف جبلية طويلة توازي خط الشاطىء تقريباً، فيها مهاوي وذرى شاهقة يزيد ارتفاعها على ١٥٠٠ م على بعد ٢ كم فقط من البحر وتخترقها أحياناً ممرات تجعل المواصلات صعبة إلى أقصى حد بين الساحل والداخل. وفي سيراف ذاتها، تبدأ أول سلسلة تلال منخفضة على مسافة يقلّ بعدها عن ٥٠٠ متر عن رملة الشاطىء، فلا تترك

---

(١) نشر ديفد هوايتهاوس، تقارير كثيرة عن التنقيبات في سيراف، نشر بعضها في مجلة ايران، يمكن الإطلاع عليها في المجلدات ٦ (١٩٦٨)، و ٨ (١٩٧٠)، و ٩ (١٩٧١)، و ١٠ (١٩٧٢)، و ١٢ (١٩٧٤).

إلا شريطاً ضيقاً يصلح للاستيطان البشري.

ويمتد مهماز من السلسلة الأولى إلى البحر، يقسم الجون إلى قسمين مختلفي الطول. وتقع قرية الطاهري شرقي هذا المهماز، وينتصب قصر الشيخ المحصّن على المهماز ذاته. ويقع موقع سيراف الأثري غربيّه، ويجاري خط الشاطىء على طول كيلومترين. ويعرض الشريط الساحلي باتجاه طرف الجون الغربي حتى يبلغ كيلومتراً واحداً في سهل باغ - إي - شيخ، غربي وادي جاف يسمى وادي كنارك. وتنقطع السلسلة الأولى في نقطتين في الجانب الغربي من الجون: أولاهما وادي كنارك المتمعّج الذي تمرّ فيه طريق حديثة تذهب إلى طاهري، والثانية خانق ضيّق يدعى تنج - إي - لير، على بعد ١٥٠٠ م من وادي كنارك إلى جهة الشرق. وبداهة، كانت كنارك تستعمل، كما تستعمل الآن، بداية طريق تنتهي إلى سهل جمّ. ويندفع مهمازان إضافيان بين كنارك وقلعة الشيخ من جانب السلسلة الأولى الجنوبي. ويمتد أعرضهما، الموازي في الواقع لخط الشاطىء تقريباً، باتجاه الغرب من تنغ - إي - لير حتى مسافة كيلومتر واحد تقريباً. وينفصل عن تلك السلسلة وادي ما يزال يحتفظ باسم شيلاو الذي كان شائعاً في القرن الثالث عشر ليدل على سيراف. ويقع المهماز الثاني الأصغر بين سفح وادي شيلاو الغربي وبين أخدود يخترق طبقة وادي كنارك. وتعلو منشأة متهدّمة صغيرة المهماز الأول، وتنتشر على المهماز الثاني خرائب الجامع، وهي أوسع من أطلال المدرسة.

وقد نشرت دراسات كثيرة عن سيراف، قديمة وحديثة، تضمّنت وصفها والتنقيب عن آثارها، وعلاقاتها التجارية والحضارية بأنواعها مع شتى الأقطار، القريبة عنها والبعيدة عنها، وفي طليعتها الاستكشافات الحديثة عنها.

ب - الاستكشافات عن سيراف

ففي سنة ١٨١٢، أشار جيمس موريه إلى وجود موقع خرائب في منطقة طاهري زاره في وقت لاحق النقيب بروكس من البحرية الهندية، وهو أول من مسح الخليج العربي، وظنّ تلك الخرائب من مخلّفات البرتغاليين. ثم قصده ثلاثة ضباط آخرون من البحرية الهندية: هم النقيب ج.ب. كمبثورن، الذي استكشفه سنة ١٨٣٥، وكان أول من اعتبره أطلال مدينة سيراف، والضابط كومودور ايثرسي، والنقيب أرثور ستيف. وقد سبق كمبثورن وستيف المؤلفين في نشر تقارير مشاهدة عيانية عنه. وفي عام ١٨٦٠، زارته سفينة مكلّفة بمدّ أحد الأسلاك البحرية الغليظة بين بوشهر وحاسك.

واستكشفه كثيرون في القرن العشرين، منهم أعضاء البعثة الفرنسية لموقع سبزاباد الأثري قرب بوشير، وسير أرنولد ويلسن سنة ١٩١١، وسير أوريل ستين عام ١٩٣٣، وكارل لندبرغ سنة ١٩٤٠، والأستاذ ل. فندن برغ سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١. وكتب جميع هؤلاء تقارير عن موقع سيراف. ويحوي وصف ستيف أَوْفَى نقاش نشر عنه حتى الآن. وفي عام ١٩٦٢، زار الأستاذ أَلْستير لمب طاهري، ونظّم تقريراً عن إمكاناتها الأثرية[١].

وقال منسل لونغورث ديمس في حاشية كتاب دوراته بربوسه عن سيراف ما يلي: «سيراف أو مدينة طاهري الحديثة، (٤٠′ ٢٧° شمالاً، و ١٢′ ٥٢° شرقاً) أهم بندر مزدهر في الخليج العربي في أوائل الحكم العربي. وهي واقعة على الساحل عند لحف الجبال، وفي منتصف الطريق بين بوشهر في الشمال الغربي وبين جزيرة قيس في الجنوب الشرقي. وكانت في أواخر القرن السابع الميلادي غنية وقوية إلى حد استطاعت معه أن ترسل بعثات إلى الصين عن طريق مسقط. ودام ازدهارها حتى القرن الثاني عشر»[٢].

جـ ـ معلومات المصادر العربية عن سيراف

والمعلومات متنوعة في مصنفات الجغرافيين العرب عن نشاط سيراف وعلاقاتها الخارجية، أقدمها ما ورد في كتاب أخبار الصين والهند لسليمان التاجر وأبي زيد السيرافي، الذي نقل عنه كثير من المؤلفين بعد إطلاعهم على نسخة المخطوطة.

١ ـ كتاب أخبار الصين والهند: ٢٣٧هـ/ ٨٥١م

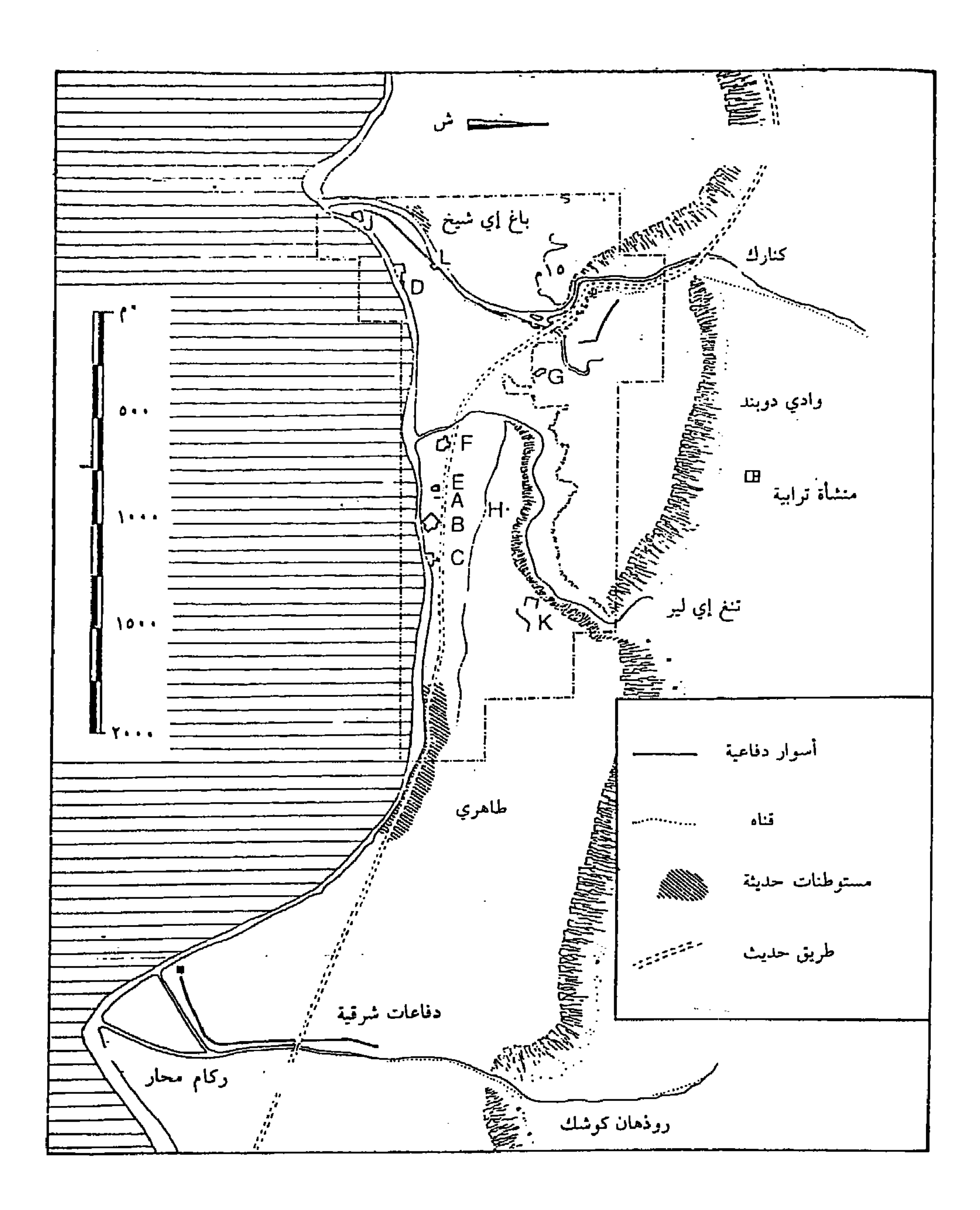
ففيه جاء أن التجار العرب يجتمعون في مرفأ خانفو الصيني، وأن السلع العربية تجمّع في سيراف لتُشْحَن بحراً إلى خانفو. وفيه ورد وصف الطريق البحرية من سيراف إلى خانفو ومراحلها: (١) ـ سفر المراكب من سيراف إلى مسقط في عُمان. (٢) ـ سفرها من مسقط إلى كولم ملي في الهند. (٣) ـ سفرها من كولم ملي إلى لنجبالوس. (٤) ـ سفرها من لنجبالوس إلى كلاه بار فتيومه وكندرنج. (٥) ـ سفرها من المرحلة السابقة إلى خانفو[٣].

---

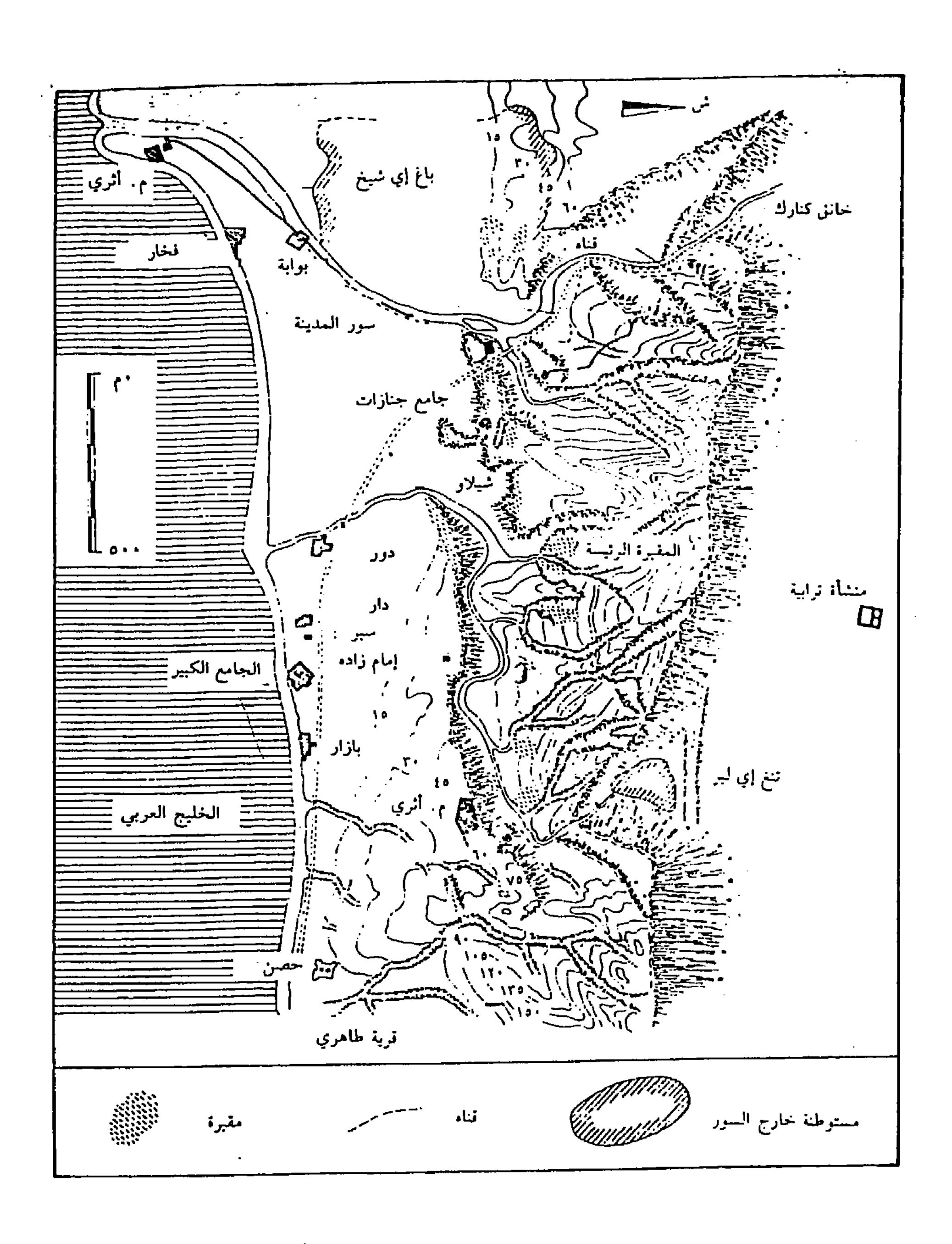
(١) ديفيد هواتهاوس، التنقيبات في سيراف، التقرير الأول المؤقت، مجلة إيران، ٦ روماني، ١٩٦٨، ص ١ ـ ٢.

(٢) دوارته بربوسه، كتاب دوارته بربوسه، ج١، ص ٧٩ ـ ٨٠، حاشية ٢.

(٣) أخبار الصين والهند، لسليمان التاجر وأبي زيد السيرافي، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، ص ٣٤ وما يليها.



شكل ٢١ ـ مدينة سيراف



شكل ٢٢ ـ مدينة سيراف وضواحيها

إلا أن هذه الطريق البحرية أصيبت بالشلل سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م، في أعقاب نشوب ثورة بانشو الذي وضع السيف في أهل خانفو، وذكر أهل الخبرة أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس مائة وعشرين ألف رجل[١].

٢ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي المتوفى سنة ٩٥٦م

وقال المسعودي في مروجه: «خانفو، وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب في بحر الصين. وبين هذه المدينة والبحر مسيرة ستة أيام أو سبعة. تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعُمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها»[٢]. وعندما زار جزيرة القمر بين عامي ٩١٦ و ٩٢٦، شاهد فيها سفن سيراف وعُمان، ورأى أيضاً في يوم من الأيام مراكب سيراف في رأس الخليج العربي في بندري الأبلة وعبادان.

٣ ـ أبو زيد البلخي (متوفى سنة ٩٣٤م) صور الأقاليم الإسلامية
الاصطخري (متوفى سنة ٩٥٧م)، صور الأقاليم أو كتاب المسالك والممالك
ابن حوقل (متوفى سنة ٩٧٧م) المسالك والممالك

وذكر البلخي سيراف في مصنّفه، واستفاد منه الاصطخري في كتابه، ونقل ابن حوقل عن الاصطخري. وتضمّن كتاب المسالك والممالك للاصطخري أَوْفَى وصف لسيراف. فقال: كانت سيراف في مقاطعة أردشير خره (فارس الجنوبية الغربية) أكبر مدينة بعد شيراز، وتقارب شيراز في الكبر، ورغم وقوعها في أحرّ جزء من الساحل، ورغم ندرة مياه الشرب والثمار والخضار فيها وجلبها كلها من سهل جمّ، كانت سيراف مزدهرة وأبنيتها مهيبة. وكانت منازلها المتعددة الطبقات مشيدة بخشب مستورد من افريقية الشرقية. وكان التاجر السيرافي ينفق على بناء داره ثلاثين ألف دينار. وذكر أن السلع التي تمرّ بسيراف شملت الألوة، والعنبر، والكافور، والحجارة الكريمة، والخيزران، والعاج والساج، والورق، والصندل وشتى العطور، والعقاقير والتوابل، وكانت سيراف سوقاً هامة للؤلؤ ومناديل الكتان والحُجُب. ويشبه كلام ابن حوقل عن سيراف كثيراً وصف الاصطخري لها، إذ يقول حرفياً: «وقد ذكرت مدن أردشير خرّه. وأكبر مدينة بها بعد شيراز سيراف وتقارب شيراز في الكبر، وبناؤهم بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج. وأبنيتهم طبقات كطبقات مصر. فهي على شفير البحر وفي

---

(١) المرجع ذاته، ص ٩٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١٥٦.

نحره، مشتبكة البنيان، كثيرة الأهل، يبالغون في نفقات الأبنية حتى إن الرجل من تجارهم لينفق على داره زيادة على ثلاثين ألف دينار من غير أن يستسرف ولا يستنكر ذلك له. وليس فيما يقاربها ويحيط بها، بساتين وأشجار. وإنما فواكههم وتوسّعهم وطيب عيشهم، بما يصل إليهم عن مياه تفرع من جبل مشرف عليهم يدعى جمّ، وهو أعلى جبل بها، تشبه الصرودَ حالُه. وسيراف أشدّ تلك النواحي حرّاً وأقلها برداً وقرّاً في أول الشتاء وحين البرد، وبها قوم ذوو يسار، ورأيت من أهلها غير نفيس خطير من التجار. وأهلها موسورون جداً حتى انه حكي عن أحدهم أنه مرض، فأوصى. فكان ثلث ماله الحاضر عنده ألف ألف دينار، غير ما كان له مع المضاربين. ورامشتُ التقيت بولده موسى في عدن، بتاريخ سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، ذكر أن آلات النقرة التي يستعملها، وزنت، فكانت ألفاً ومائتي منّا، وهو أصغر أولاده وأقلهم بضاعة. ولرامشت أربعة خدم ذكروا أن كل واحد منهم أكثر غناءاً من موسى ولده. ورأيت كاتب رامشت يذكر انه لما خرج من بلد الصين مُـذْ عشرين سنة كانت بضاعته خمسمائة ألف دينار، وهو على النيلي من سواد الحلّة. فإذا كان كاتبه بهذه الكثرة، فكيف يكون هو، وهو الذي رفع ميزاب الكعبة. وكان نقرة، وجعل مكانه ذهباً، ولبّسها بالثياب الصيني التي لا يعرف قيمتها أحد؟ وبالجملة لم أسمع أن تاجراً في هذا وصلت حاله وماله إلى ما شمل عليه حال رامشت في كثرة المال واليسار والجاه العريض»(١).

٤ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي البشاري (متوفى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)

ووصف المقدسي البشاري سيراف في أواخر القرن العاشر الميلادي، وأشار إلى بدء انحطاطها. لكنها بقيت مستودعاً هاماً للسلع، واشتهرت بأبنيتها الرائعة. إلا أن زلازل قوية خرّبتها سنة ٩٧٧م، وتوالت عليها طيلة سبعة أيام، فهجرها العديد من تجارها. وقال في ذلك: «سيراف هي قصبة أردشير خرّة. وكان أهلها حين عمارتها يفضّلونها على البصرة لشدة عمارتها وحسن دورها وظرف جامعها، ولباقة أسواقها، ويسار أهلها، وبعد صيتها. وكانت عندئذٍ دهليز الصين دون عُمان، وخزانة فارس وخراسان. وعلى الجملة ما رأيت في الإسلام أعجب من دورها، قد بنيت من خشب الساج والآجر شاهقة، تشتري الدار الواحدة بفوق المائة ألف درهم. ثم إنها خفّت لما

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٤٨.

ولي الديلم، وانجلوا إلى سواحل البحر، وعمّروا قصبة عُمان. ثم جاءت زلزلة سنة ٦٦ أو ٦٧، فقلقلتها، وحرّكتها سبعة أيام حتى هرب الناس إلى البحر، وتهدّم أكثر تلك الدور، وتفطّرت، وصارت آية لمن تأملها، وعبرة لمن اتعظ بها... وأخبرت أنهم قد أخذوا بالعمارة. وقد بدت ترجع إلى ما كانت. وهي باب جهنم من شدّة الحرّ. والماء يحمل إليها من البعد. ولهم قناة صغيرة عذيبية، وفواكههم قليلة موضوعة بين الجبل والبحر. وما حولها فارض قفر، بالقرب منها نخيلات[1]. وتشمل تجارات سيراف الفوط واللؤلؤ وأزر الكتان والموازين والبربهار[2].

٥ ـ فارسنامه ابن البلخي (القرن الثاني عشر)
معجم البلدان لياقوت الحموي (١٢١٥م)

وبعد انقراض البويهيين سنة ١٠٥٥م، تعطّلت طرق التجارة في فارس، وتحوّلت حركتها الخارجية من سيراف إلى جزيرة قيس الواقعة على نحو ١٠ كم جنوبيّها. وعندما كتب ابن البلخي فارسنامه في القرن الثاني عشر كان انحطاط سيراف قد تعاظم كثيراً، وكانت قيمة السلع المتداولة فيها سنوياً لا تقلّ عن ٢٥٣٠٠٠٠٠ درهم في الفترة الواقعة بين ٩٠٨ و ٩٣٢م على حدّ قوله[3].

وزار ياقوت سيراف في أوائل القرن الثالث عشر (١٢١٨م)، وشاهد أطلالها، ووصفها على النحو التالي: «وهي ـ يقصد سيراف ـ مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديماً فرضة الهند: وقيل كانت قصبة كورة أردشير خرّه من أعمال فارس، والتجار يسمونها شيلاو... وقد رأيتها. وبها آثار عمارة حسنة، وجامع مليح على سواري ساج. وهي في لحف جبل عال جداً، وليس للمراكب فيها ميناء. فالمراكب إذا قَدِمَتْ إليها، كانت على خطر إلى أن تقرب منها إلى نحو فرسخين من موضع يسمى نابد، وهو خليج ضارب بين جبلين، وهو ميناء جيد غاية. وإذا حصلت المراكب فيه، آمنت من جميع أنواع الرياح. وبين سيراف والبصرة، إذا طاب الهواء، سبعة أيام... وشرب أهلها من عين عذبة... وهي الفرضة العظيمة لفارس... وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الأبنية، حتى يجاوزّ على نظر عملها. وليس بها شيء من

---

(١) المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٢) المرجع ذاته، ص ٤٤٢.

(٣) ابن البلخي غير أبي زيد البلخي أحمد بن سهل. انظر كراتشموفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج ١، ص ٣٢٤. وانظر أيضاً ديفد هوايتهاوس، التنقيبات في سيراف، التقرير الأول المؤقت، مجلة إيران، ٦ روماني، ١٩٦٨، ص ٣.

مأكول ولا مشروب، ولا ملبوس، إلا ما يحمل إليها من البلدان. ولا بها زرع ولا ضرع. ومع ذلك فهي أغنى بلاد فارس. قلت كذا كان في أيامه. فمنذ عمّر عمر ابن عميرة جزيرة قيس، صارت فرضة الهند، وإليها منقلب التجار، خربت سيراف وغيرها. ولقد رأيتها، وليس بها قوم إلا الصعاليك ما أوجب لهم المقام بها إلا حب الوطن. ومن سيراف إلى شيراز ستون فرسخاً. قال الاصطخري: وأما كورة أردشير خرة، فأكبر مدينة بها بعد شيراز سيراف، وهي تقارب شيراز بالكبر. وبناؤهم بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج، وأبنيتهم طبقات. وهي على شفير البحر، مشتبكة البناء، كثيرة الأهل، يبالغون في نفقات الأبنية حتى إن الرجل من التجار لينفق على داره زيادة على ثلاثين ألف دينار. ويعملون فيها بساتين. وإنما سقيها وفواكههم وأطيب مائهم من جبل به الصرود يسمى جمّ. وهو أعلى جبل به الصرود. وسيراف أشد تلك المدن حرارة»[(١)].

٦ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الأدريسي (متوفى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)

وقال الشريف الأدريسي في نزهة المشتاق: «ومن مدنها (أي فارس) سيراف. وهي على ساحل البحر الفارسي. وهي مدينة كبيرة. وبها تجار مياسير. وأهلها مولعون بكسب المال، واستجلابه على أي وجه أمكن. وهم أكثر عباد الله تغرّباً وتجوّلاً في الآفاق، حتى إن الرجل منهم يتجوّل العام والعشرين، ولا يرجع إلى أهله، ولا يكترث بمن خلفه. وسيراف فرضة فارس. ومبانيها بالساج. وأبنيتهم طبقات مشتبكة البناء، كثيرة الأهل، ولأهلها همم في نفقات الأبنية وضروب التحسين والتحصين. وفواكههم ومياههم تصل إليهم من جبل مشرف عليهم يسمى جمّ. وهذا الجبل يطلّ على البحر، وليس به زرع ولا ضرع. وهي شديدة الحر جداً وبها منبران»[(٢)].

وهكذا نستطيع أن نلّخص تاريخ سيراف حسب المصادر السابقة: ذكرها كتاب أخبار الصين والهند في منتصف القرن التاسع، وكانت عندئذٍ بندراً مزدهراً يتعامل تجاره مع الصين والهند وآسية الجنوبية الشرقية، واستمر ازدهارها في القرن العاشر، وتوسعت علاقاتها، فتعامل تجارها مع البحر الأحمر وافريقية الشرقية وجزيرة القمر في

---

(١) معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الايطالية، ص ٤١٠ ـ ٤١١.

الجهة الغربية، ومع الهند وشبه جزيرة ماليزية والصين في الجهة الشرقية، وزادت قيمة البضائع المارة فيها على ٢,٥ مليون دينار سنوياً. وفي عام ٣٦٦ أو ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، أضرّت بها الزلازل، وأخذت تنحطّ، ثم تحوّلت تجارتها إلى جزيرة قيس في الربع الأول من القرن الحادي عشر (١٢١٨). وقد أيّدت نتائج التنقيب الأثري فيها تسلسل الأحداث التاريخية الواردة عند الجغرافيين العرب، ووجود علاقات تجارية وحضارية بينها وبين أقطار قريبة منها وبعيدة عنها.

د ـ استمرار سيراف بأداء دورها من قواعد أخرى

لكن أبرز بعض العلماء المعاصرين أن دور سيراف في تجارة المرور في الخليج والتجارة العالمية بين حوضة المحيط الهندي وحوضة البحر المتوسط الشرقية، لم تُنهِهِ لا زلزلة عام ٩٧٧م أو ٩٦٧م، ولا انحطاط الخلافة العباسية ولا التغييرات السياسية الناجمة عن زوالها.

فعالج **جان أوبين** بصورة غير مباشرة هذا الموضوع في ثلاث مقالات:

١ ـ مقالة «خراب سيراف وطرق الخليج الفارسي في القرنين ٥ ـ ٦هـ/ ١١ ـ ١٢م» (١٩٥٩)، التي تحدث فيها عن انحطاط سيراف.

٢ ـ ومقالة «هل توقفت التجارة البحرية بين الخليج الفارسي وبين الهند من القرن ٥هـ/ ١١م إلى القرن ٨هـ/ ١٤م» (١٩٦٣)، التي أكد فيها على دوام حركة المرور التجارية عبر الخليج.

٣ ـ ومقالة «بقاء شيلاو وطريق خنج ـ أو ـ فال» (١٩٦٩)، التي ألحّ فيها على استمرار نشاط شيلاو[١] بعد ازدهار جزيرة قيس.

وفي عام ١٩٧٧، كتب **ياجيما هيكواشي** مقاله القيّم الموسوم «أنشطة الخليجيين العرب البحرية في عالم المحيط الهندي في القرنين ٥ ـ ٦هـ/ ١١ ـ ١٢م»، أبان فيه أن مهاجري سيراف سيّروا قيس وثابرت جالياتهم في سواحل المحيط الهندي والصين تمارس تجارتها عبر الخليج، أي أنها بقيت تؤدي دورها من قواعد لها موزعة على

(١) شيلاو = سيراف. قال ياقوت الحموي في المجلد ٣/ ٢٩٤ من معجم البلدان: «ان كيكاوس، حسب الابستاق، لما حدّثته نفسه بصعود السماء، صعد. فلما غاب عن عيون الناس، أمر الله الريح بخذلانه، فسقط بسيراف، فقال: اسقوني ماءاً ولبناً، فسقوه ذلك بذلك المكان، فسمي بذلك لأن شير هو اللبن، وآب هو الماء. ثم عرّبت، فقلبت الشين إلى سين، والباء إلى الفاء، فقيل سيراف... والتجار يسمونها شيلاو».

أماكن أخرى. وفي ذلك يقول:

«في أعقاب انحطاط السلطة العباسية في أواخر القرن العاشر، مثلما أكدت في مقالتي / اليمن وتجارة المحيط الهندي/ » (م د ١١، مجلد ٥، ١٩٧٢)، رغبت السلطة الفاطمية الأيوبية في مصر، فيما يبدو، بأن تقطع طريق التجارة الشرقية إلى الهند وافريقية الشرقية عبر الخليج العربي، الذي كان تحت سلطة العباسيين في ذلك الوقت. فأسس التجار العرب والفرس، لا سيما الذين يعود أصلهم إلى بلدان الخليج، العديد من الجاليات والمستوطنات على سواحل البحر الأحمر وجزيرة العرب الجنوبية وافريقية الشرقية والهند من أجل تأمين أفضل التسهيلات التجارية وإعادة إحياء شبكاتهم التجارية.

فسيراف بندر في الخليج العربي، دام مركز تجارة مزدهرة في المحيط الهندي أكثر من مائة عام: من منتصف القرن التاسع/ ٣ هـ إلى منتصف القرن العاشر/ ٤ هـ. وقد أدى التجار السيرافيون وأصحاب السفن فيها أدواراً هامة جداً في الأنشطة الملاحية والتجارة في عالم المحيط الهندي. لكن ذكر المقدسي وابن البلخي وياقوت أن سيراف فقدت مكانتها نتيجة زلزلة ضربتها سنة ٩٧٧م، وإثر زوال السيادة البويهية على العراق. وقيل إن التجار السيرافيين هاجروا إلى أماكن أخرى على سواحل عالم المحيط الهندي. ويبدو أن سيراف كانت مدمّرة كلياً في أوائل القرن الثاني عشر/ ٦ هـ. فياقوت يقول عنها:

«وقد رأيتها (سيراف) وبها آثار عمارة حسنة جامع مليح على سواري ساج... فمنذ عمّر ابن عميرة جزيرة قيس، صارت فرضة الهند، وإليها منقلب التجارة، وخربت سيراف».

وتجدر الإشارة إلى أن **حوليات سلالة سنغ** تحوي بعض الوصف لوصول مهاجرين وتجار سيرافيين. بالتالي يفترض أن البحارة والتجار السيرافيين الذين ترددوا على بنادر الصين الجنوبية في عهد سلالة سنغ، كانوا مهاجرين أسسوا مستعمرات على سواحل عالم المحيط الهندي في أعقاب انحطاط سيراف مدينتهم الأصلية. وقد ناقش شو ـ جو ـ كوا مهاجريهم الذين استوطنوا تسوانغ شو (زيتون) وقال:

«استقرّ تاجر غريب اسمه شي ـ نا ـ ويي (سيرافي)، وهو عربي المولد في ربض تسوانغ هو (زيتون) الجنوبي. وكانت ثروته مشبوهة، لكنه كان محسناً ومشبعاً بروح وطنه العربي، فبنى مقبرة في زاوية الربض الجنوبية الغربية لتدفن فيها جثث التجار

الغرباء المتروكة».

ويحوي تيي ـ شي، وهو تاريخ سلالة سنغ وصفاً موجزاً لأعداد كبيرة من المهاجرين السيرافيين في بندر زيتون في الصين الجنوبية. ويقول:

«يعيش بعض النواخذه الذين يسمون شي ـ را ـ ويي (سيرافيين) في زيتون أيضاً، ويأتي اسمهم مباشرة بعد كنية / هو/ (أبو أو ابن)».

ويرد عند ابن حوقل وابن المجاور وبامخرمة، وفي مصادر تاريخية عديدة أخرى، أن عدداً هائلاً من المهاجرين والسيرافيين أسس جاليات تجارية في قيس ومرباط وعدن وغلافقة والمخا والأهواب وفرسان وكمران وجدة وجزيرة سقطرة. وكمايقول ابن المجاور ووصّاف: هاجر أولاد الناخذة قيصر السيرافي إلى جزيرة قيس، على بعد بضعة ١١٠ كم نحو الجنوب. وتأكد لي أن أسماء بعض الملوك الذين حكموا عدن، كما جاءت عند ابن المجاور، تتوافق مع أسماء الملوك الذين وضعوا أيديهم على جزيرة قيس التي يعطي وصّاف معلومات عنها. فإذا صحّت هذه الفرضية نستنتج أن الملك جمشيد بن أسعد بن قيصر كان أول من حكم قيس، وأخضع القراصنة الأعداء. واحتل أيضاً أحد أبناء جمشيد، المسمى سلطان شاه قسماً من عدن. وجدير بالذكر الخاص في تاريخ تجارة المحيط الهندي أن حكّام جزيرة قيس السيرافيين استولوا في منتصف القرن الثاني عشر على عدن، بندر ومستودع التجارة الدولية في ذلك الوقت.. واستنتج أيضاً أنهم استمروا يحكمون هذين البندرين الهامين من أجل إبقاء شبكتهم التجارية وأنشطتهم التجارية حتى قيام حكم الرسوليين في اليمن (حوالي ١٢٢٦م).

وحلّت قيس محل سيراف، فأصبحت المركز الرئيس لأنشطة التجارة في الخليج العربي بعد القرن الحادي عشر (الخامس الهجري). وتعتبر أنشطة المهاجرين السيرافيين، لا سيما التجار السيرافيين المتجولين في البحار منهم، أحد الأسباب الرئيسة لتحوّل قيس فجأة إلى مستودع سلع عالم المحيط الهندي.

ثالثاً ـ علاقات جزيرة قيس الاقليمية والعالمية

وقيس (بالعربية) أو كيش (بالفارسية)، تبعد ما يعادل مسيرة نصف يوم في البحر عن الساحل العربي، على حد قول شو ـ جو ـ كوا. وقد خَلَفَتْ سيراف في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وأصبحت مركز التجارة ونشبت بينها وبين مملكة هرمز العربية معركة تنافس على السيطرة على التجارة العالمية، سوف نستعرضها

في الكتاب الثاني.

وجاء في معجم البلدان عن جزيرة قيس ما يلي: «وقيس جزيرة. وهي كيش في بحر عُمان، دورها أربعة فراسخ. وهي مدينة مليحة المنظر، ذات بساتين وعمارات جيدة. وبها مسكن ملك ذلك البحر، صاحب عُمان، وله ثلثا دخل البحرين. وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس. وجبالها تظهر منها للناظر، ويزعمون أن بينهما أربعة فراسخ. رأيتها مراراً. وشربهم من آبار فيها. ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر. وفيها أسواق وخيرات. ولملكها هيبة وقَدْر عند ملوك الهند، لكثرة مراكبه ودوانيجه. وهو فارسي، شكله ولبسه مثل الديلم. وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة. وفيها مغاص على اللؤلؤ، وفي جزائر كثيرة حولها. وكلهاملك صاحب كيش»[1].

ويستشهد بعض الباحثين بنصّ الشريف الأدريسي عن جزيرة قيس، ليثبتوا قوة ملكها، إذ يقول: «في وسط بحر فارس، ما يقابل مسقط، جزيرة تسمى جزيرة كيش. وهي جزيرة مربّعة طولها اثنا عشر ميلاً في عرض اثني عشر ميلاً. وفيها مدينة كيش. فوليها عامل من اليمن، فحصّنها، وأحسن إلى أهلها، وعمّرها، وأنشأ بها أسطولاً، فغزا به بلاد اليمن الساحلية، فأضّر بالمسافرين والتجار، ولم يترك لأحد مالاً. وأضعف البلاد، وانقطع بذلك السفر من عُمان. وعاد إلى عدن. وصاحب جزيرة كيش، يغزو بهذا الأسطول مدينة الزابج، ويصل إلى بلاد القامرون. وأهل الهند يخافونه، ويهابون شرّه، ويواسونه بالمراكب المسماة المشعيات، يكون طول المركب منها طول الغراب الكامل، من عود واحد، يجذف فيه مائتا رجل. وأخبر مخبر في وقت هذا التأليف، أن عند صاحب مدينة كيش من هذه المراكب المسماة بالمشعيات خمسين مركباً كل واحد منها من قطعة واحدة. وعنده من سائر المراكب الملفقة جملة عديدة. وهو الآن على هذه الحال يغزو ويسبي، وعنده أموال كثيرة. وليس لأحد به طاقة. وبمدينة كيش زروع وأغنام وأبقار وكروم. وفيها مغايص اللؤلؤ الجيد»[2]. ولصاحب كيش التي ذكرناها في الاقليم الثاني... على التجار الذين يعاملون الغواصين شيء معلوم، يقبض له في ديوان البيع منهم، ويبعث إليه بذلك ضريبة. وما وجد من الجوهر الغالي النفيس، أمسكه الوالي، وكتبه على نفسه باسم أمير

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٢.

(٢) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق، الطبعة الايطالية، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

المؤمنين. والعدل لا يفارقهم في البيع والشراء حتى لا يضام منهم أحد، ولا يشكو ظلماً[1].

وورد في تاريخ ثغر عدن ما يثبت بأس ملك جزيرة قيس الذي «جهّز. . . دوانج وبومات. . . لأخذ عدن من أربابها. . . فلما وصلت الدوانيج، أرسلوا تحت جبل صيرة. وانفذوا رسولهم إلى بين زريع، يعني أصحاب التعكر والخضراء. وقالوا لهم اعلموا أن ملك كيش انفذنا على أخذ عدن. فإن جئتم بالصلح، وإلاّ جئناكم بالفتح، وهو أقبح. فقال لهم صاحب حصن الخضراء: أنا عبدكم والبلد بلدكم، وولّوا فيها من شئتم. فلما سمع القوم هذه المقالة، نزلوا من الدوانيج والبومات إلى السواحل، وقلوبهم آمنة بالأمان والطاعة. وانفذ لهم صاحب حصن الخضراء الإضافة التامة. وأرسل لهم الدقيق والغنم والنبيذ. فخبز القوم وطبخوا، ودارت الأقداح بين القوم. . . »[2].

وروى الشريف الأدريسي أن قيس فتحت كمباية، فبنى الهنود لها حصناً لحمايتها، وفي ذلك يقول: «وعلى هذه المدينة (أي كمباية) حصن منيع بنته ولاة الهند عندما تغلّب عليها صاحب جزيرة قيس»[3].

وثبت تاريخياً أن حكام جزيرة قيس كانوا يمتلكون مستوطنات تجارية في سومنات وكمباية وكولم وكايل وفي بنادر أخرى في الهند الجنوبية الغربية، وإن سلالة «بندهيا» الهندية كانت تعيّنهم مشرفين (وزراء أو مرازبه) على شؤون التجارة وعلى المقيمين الغرباء.

وزار بنيامين **توديلا** (١١٦٤ ـ ١١٧٣) جزيرة قيس، وهو ذاهب إلى الهند وسيلان، وكتب تقريراً رائعاً عن التجارة فيها، وقال:

«جزيرة قيس سوق هائلة، يحمل إليها التجار الهنود وتجار الجزر سلعهم، بينمايستورد منها تجار العراق واليمن وفارس جميع أنواع الحرير والثياب الارجوانية، والكتان والقطن، والهدب والجريش، والقمح والشعير والجاودار وجميع أصناف الأغذية الأخرى، والذرة البيضاء والقطاني. وتمثّل هذه السلع مواد التبادل التجاري فيها وتستورد من الهند مقادير كبيرة من التوابل. ويعيش أهلها مما يربحونه كوسطاء

---

(١) المرجع ذاته، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٢) تاريخ ثغر عدن لبامخرمه الحميري الشيباني الهجراني الحضرمي، (متوفى ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)، ص ٤٣ ـ ٤٤.
(٣) الشريف الأدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٨١.

بين الفريقين البائع والشاري».

ويتحدث شو ـ جو ـ كوا عن جزيرة قيس أيضاً ويقول عنها: «تقع بلد كيش (تعجيم قيس) على جزيرة صغيرة في البحر واقعة على مدى رؤية البصر من الساحل العربي الذي يبعد عنها نصف يوم ملاحة. وفيها مدن قليلة جداً. ويصطاد سكان هذا البلد محار اللؤلؤ ويربون الخيول». ويشير إلى أن ازدهار تجارة قيس وتجارة هرمز أيضاً، يعتمد على تحقيق أرباح طائلة من تجارة اللآلىء وتجارة الخيول العربية والفارسية المصدرة إلى السلالات الهندية في الهند الجنوبية.

وزار ابن بطوطة جزيرة قيس، وقال عنها: «سافرنا منها (أي مدينة خدبال) إلى مدينة قيس، وتسمى أيضاً سيراف؟، وهي على ساحل بحر الهند، المتصل ببحر اليمن وفارس، وعدادها في كورة فارس. مدينة لها انفساخ وسعة، طيبة البقعة، في دورها بساتين عجيبة، فيها الرياحين والأشجار الناضرة. وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها. وهم عجم من الفرس أشراف. ومنهم طائفة من عرب بني سفاف، وهم الذين يغوصون على الجوهر»(١).

رابعاً ـ نبذة قصيرة عن هرمز وجرون وسلطنة هرمز

اشتّق برتيليمي ديربولو (١٦٢٥ ـ ١٦٩٥)، المستشرق الفرنسي وأستاذ اللغة السريانية في المعهد الفرنسي (كوليج دي فرانس)، اسم هرمز من اسم هرمز الأول (٢٧٢ ـ ٢٧٣م)، الملك الساساني الثالث ونجل شابرو الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢م).

إلا أن هذا التخريج مرفوض، لأن هرمز أقدم من هرمزد بكثير، وكانت موجودة قبل أن يولد بست مائة عام، إذ يتحدث آريان عن نوقف أسطول نيارخس، أمير بحر الاسكندر الكبير (إذن حوالي ٣٢٥ق.م) في مصب نهر أنامس (نهر ميناب) في بلد اسمه هرموزية. ويذكر بطلميوس مدينة هرموزه أيضاً على ساحل كرمانية (إذن حوالى ١٥٠م) قبل قرن وربع من مولد هرمزد.

وكانت هرمز في البدء مدينة شهيرة على البر ومملكة صغيرة في مصب نهر ميناب على ساحل كرمان، على نحو ثلاثين ميلاً شرقي بندر عباس. لكن حوالي سنة ١٣٠٠م، أراد ملوكها أن يتحاشوا غارات التتر عليهم فيما يبدو، فاشتروا جزيرة جرون الصغيرة، وأسسوا فيها هرمز الجديدة أو البحرية، التي تعتبر جزيرة أورغانا ذاتها على

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٢٨٦.

بعد ١٢ ميلاً إلى الجهة الغربية، وعلى مسافة خمسة أميال من شاطىء كرمان..
وأصبحت سلطنة هرمز كبيرة وعظيمة، وسيطرت على الخليج العربي ثلاث قرون ونيفاً، وكان لها ثلاث حاضرات، هي هرمز الجديدة ورأس الخيمة وقلهات. وقد هاجمها البوكيركيه سنة ١٥٠٦م، ثم احتلها البرتغاليون سنة ١٥١٥م، ووضعوها تحت حمايتهم، واحتفظوا بسلاطينها في مناصبهم إلى أن هاجمها شاه عباس بالاتفاق مع البريطانيين الذين اشترك أسطول لهم قدم من سرت بالهجوم سنة ١٦٢٢م. وهذه السلطنة موضوع أجزائنا القادمة.

الفصل الثامن

القوى السياسية الخارجية الفاعلة في الخليج العربي وفي سلطنة هرمز

أصاب الوهن الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. فنافستها الخلافة الفاطمية التي تأسست في تونس، وأخضعت لسلطتها الشمال الإفريقي ومصر. وقامت في مشرق الخلافة العباسية حركات انفصالية، أدّت إلى قيام كيانات سياسية ارتبط بعضها ارتباطاً اسمياً ببغداد، واستقلّ بعضها الآخر استقلالاً تاماً عنها. واستمرّت تجزئتها في القرون الثلاثة اللاحقة، حتى طغى الزحف المغولي، وقضى هولاكو عليها. وقتل المعتصم بالله سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[١].

وكانت سلطنة هرمز إحدى الدول التي نشأت عن تقسيم الخلافة العباسية. إلا أن الجغرافيين العرب الكلاسيكيين في القرن الرابع الهجري إياه / العاشر الميلادي، بدوا وكأنهم يرفضون واقع انفصام وحدة دار الإسلام، وأبوا قبول فكرة توزيعها اليوناني إلى سبعة أقاليم، فجعلوها أقاليم عربية وأقاليم أعجمية، عددها عشرون عند الاصطخري، واثنان وعشرون عند ابن حوقل، وأربعة عشر عند المقدسي البشاري منها ستة أقاليم عربية وثمانية أعجمية.

ولإقليم كرمان، دون سواه، أهمية بالغة جداً وفريدة في تاريخ سلطنة هرمز لأن هذه الأخيرة نشأت فيه. وهو يختلف عن سائر أقاليم دار الإسلام المحيطة مباشرة بالخليج العربي، لأنه بعيد عن عواصم الخلافة الثلاث: المدينة ودمشق وبغداد على التوالي، وأراضيه وعرة، تصعب السيطرة عليها، وتدفع الزعماء المحليين إلى

(١) القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ج ٢، ص ٨٩ ـ ١٠٣. رينه غروسيه، امبراطورية السهوب، الفصل ٢، ص ٤٢٦، فتح بغداد والقضاء على الخلافة.

الاستقلال الذاتي، حتى قال ابن حوقل إن عدد جبال القفص سبعة في إقليم كرمان، لكل جبل منها رئيس[1]. وتقع في شماله مفازة تحميه من غارات خراسان وسجستان الواقعتين وراءها. ويتعذّر اقتحامه من إقليم الجبال في شماله الغربي. إلا أن مراعيه كثيرة، تجتذب القبائل البدوية. ولكنه يبقى إقليماً منعزلاً محروماً من المواصلات السهلة. مع ذلك، تجارته هامة جداً برّاً مع آسية الوسطى وسجستان وخراسان وفارس، وبحراً مع الهند والشرق الأقصى والصين واليمن.

وقد اقتطعت سلطنة هرمز منه ساحله ووادي نهر ميناب، أي واجهته البحرية والجزر القريبة منها. فكان لا بد أن تتأثّر هذه الدولة بالتطورات السياسية الجارية ضمن إقليم كرمان ذاته أو الطارئة على أقاليم دار الإسلام المجاورة له مباشرة، فانعكست عليه أحداث إمارتي آل سامان وبني بويه والدولة الخوارزمية وحملات المغول. إلا أن القوى الداخلية الفاعلة في مدن هرمز وقلهات وجلفار كانت مرنة جداً، فعالجت المدّ الخارجي أحياناً بالحكمة والمال أي بافتداء بقائها أحياناً بدفع نوع من الخراج ولو لعدة جهات، سموه مقرّريّة، وأحياناً ببذل الأرواح أي بالمجابهة العسكرية التي سهّلها موقعها المنيع وبأس العنصر العربي في هرمز وقلهات وجلفار على وجه التخصيص، ويقظته الدائمة. وهذا ما سوف نوضحه كله في الفصلين التاليين: القوى السياسية الخارجية الفاعلة في الخليج العربي وفي سلطنة هرمز، والقوى السياسية العربية الداخلية الفاعلة في الخليج العربي وفي سلطنة هرمز.

وسلطنة هرمز جزء من خليج العرب. فما يؤثّر فيها يؤثّر فيه، وما ينعكس عليه ينعكس عليها. ويأتي التأثير الأساسي الحاسم من الخارج أو الداخل. وهو بشريّ في جوهره يتمثّل في ضغط كيان سياسي أو كيانات سياسية على كيان سياسي آخر أو كيانات سياسية أخرى، مقصود وموجّه، أو عفوي وتلقائي، يرمي أو يؤدي إلى تحقيق غاية منشودة محددة مسبقاً، هي هنا فرض خراج مالي وعيني.

من ناحية أخرى، شملت سلطنة هرمز جزءاً من أرض إقليم كرمان. فما أثّر في إقليم كرمان أثّر في سلطنة هرمز، وما انعكس عليه انعكس عليها، سواء جاء من الخارج أم انبعث من الداخل. ويُبْعِدُ هذا المنظورُ التاريخي السليم سلطنة هرمز عن إقليم فارس وعن دولة الفرس: فهي لم تكن أبداً فارسية، بل عربية حتى في إقليم كرمان، بحكم استيطان العرب فيها أثناء الفتح العربي وقبله وبعده. وكل ما هنالك أن

(١) صورة الأرض، ص ٢٦٩، س ١٦ ـ ١٧.

الفاتحين القادمين من آسية الوسطى حكموا فارس، واستخدموها منطلقاً أو ممراً يوصلهم إلى ثروات كرمان، وبالتالي هرمز، المطموع بها، أو إلى جهات أخرى مرغوب في السيطرة عليها.

ولولا ما أصاب الخلافة العباسية من وهن سريع وتجزئة لاحقة، لكانت هي القوة السياسية الخارجية الوحيدة الفاعلة في الخليج العربي وفي سلطنة هرمز. إلا أن تجزئة مشرقها إلى دويلات كثيرة زاد عدد الكيانات السياسية الخارجية الفاعلة، الواجب معرفة تطوّر أحداثها بدءاً من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، الذي يعتبر بداية تكوين هرمز العتيقة، بسكانها القلائل، وتجارها الموزّعين على القرى المحيطة بها، وبندرها النشيط الواقع على نهر ميناب في خليج الخبر، على مسافة قريبة جداً من مياه الخليج العربي البحرية، حسب رواية قدامة بن جعفر (متوفى ٣٣٧هـ/٩١٨م)، والاصطخري (متوفى ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، وابن حوقل (متوفى ٣٦٧هـ/٩٧٧م)[1]. أما الكيانات المؤثّرة في تاريخ الخليج عامة وتاريخ إقليم كرمان خاصة، وتاريخ سلطنة هرمز على مستوى أخص، فهي إمارة آل سامان وإمارة بني بويه، ودولة السلاجقة، والدولة الخوارزمية، والسلالات المغولية. ونودّ إعطاء لمحة عن أوضاع كرمان في القرنين الثاني والثالث الهجريين في أيام بني العباس، قبل إجمال التطورات السياسية المؤثرة في إقليم كرمان وفي سلطنة هرمز.

أولاً ـ لمحة سريعة عن القوى السياسية الخارجية الفاعلة في كرمان: أوائل الخلافة العباسية ـ أوائل القرن الرابع الهجري

ظهر تأثير القوى الخارجية الفاعلة في إقليم كرمان في أوائل الخلافة العباسية، عندما كان هذا الإقليم ما يزال ملحقاً بخراسان وبولاتها. فسكّت فيه العملات العباسية بخاصة سنة ١٦٥هـ/٧٨١م وسنة ١٦٧هـ/٧٨٣م. وفي عهد هارون الرشيد (١٧٠هـ/٧٨٦م ـ ١٩٣هـ/٨٠٩م)، نشبت فيه ثورة إثر احتلال حمزة بن أترك الخارجي لهراة سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م، نظراً لوجود عدد كبير من الخوارج فيه، وفرضه سلطته على فارس وكرمان. ويذكر ابن البلخي[2] أن خراج فارس وكرمان وعمان بلغ مليوني دينار سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م. لكنه ارتفع في زمن المقتدر (٢٩٥هـ/٩٠٨م ـ ٣٢٠هـ/٩٣٢م) إلى ٢٣٣١٨٨٠ ديناراً، منها ٤٤٤٣٨٠ عن كرمان، و ٣٦٤٣٨٠ عن عمان.

(١) كتاب الخراج، كتاب المسالك والممالك، ص ١٩، ٧٨، ٧٩، صورة الأرض، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) فارس نامه، ص ١٧١.

وأدار عدد من ولاةالخلافة إقليم كرمان حتى عهد المهتدي (٢٥٥هـ/ ٨٦٩م ـ ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م). ثم تلت فترة اضطرابات دامت نصف قرن تقريباً. فثار محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي سنة ٢٥٠هـ/ ٨٩٢م قرب الأهواز. وفي سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، دخل يعقوب بن الليث كرمان وانتزعها من طوق بن المغلس نائب علي بن الحسين بن شبل صاحب فارس، ورجع إلى سجستان. وفي سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م، قصد فارس، فأنكر الخليفة المعتمد عليه ذلك، وولاّه الموفّق شقيق الخليفة بلخ وطخارستان وسجستان وفارس، فقبل. وفي سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م استولى على نيسابور وخراسان وعاد إلى سجستان. وفي سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، احتل فارس. وفي سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م، نشبت حرب بين يعقوب بن الليث وبين الموفق أخي الخليفة المعتمد، انهزم فيها يعقوب. وفي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م توفي يعقوب بن الليث بالقولنج، وقام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث، فولاّه الموفق خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد. لكنه عزل سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م. وانتقلت كرمان سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م إلى يد سبكري غلام عمرو بن الليث الذي هزمه جيش الخليفة سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م. وفي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، استطاع أبو جعفر أحمد بن محمد بن خلف بن الليث أن يسيّر جيشاً إلى كرمان ويستوفي خراجها[١].

ثانياً ـ إمارة آل سامان:
٢٦١هـ/ ٨٧٤م ـ ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م:

رجع الخليفة المأمون (١٩٨هـ/ ٨١٣م ـ ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) إلى بغداد سنة٢٠٤هـ/ ٨١٩م. وولّى غسان بن عبّاد على خراسان، فولّى غسان نوح بن سامان سمرقند، وأخاه أحمد فرغانة، وأخاه يحيى الشاش وأشرسونة، وأخاه الياس هراة. وولد لأحمد بن أسد سبعة بنين، منهم نصر وإسماعيل. فلما توفي والدهم أحمد، استخلف ابنه نصر على أعماله بسمرقند وما وراءها. وكان أخوه إسماعيل يخدمه. وفي سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، ولّى الخليفة نصراً بن أحمد على ما وراء النهر رسمياً. فولى هذا الأخير اسماعيل على مدينة بخارى. وأفسد السعاة بين الأخوين سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م، لكنهما تصالحا. وعاد المفسدون فسعوا بينهما سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م، فتحاربا، وانتصر اسماعيل. إلا أنه ردّ أخاه إلى سمرقند، وبقي يتصرّف في بخارى نيابة عنه. ولما توفي

(١) الموسوعة الإسلامية، لفظ كرمان، ص ١٥٧. ابن الأثير، ج ٥، ص ٢٩٠، ٣١٢، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١.

نصر الأول (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، قام أخوه اسماعيل بأعماله في ما وراء النهر[١].

وفي سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، غزا اسماعيل بلاد الأتراك وغنم كثيراً منهم. وفي سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، أسر عمرو بن الليث الصفّار، وملك خراسان. ثم استولى على الرى سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، وصدّ هجوماً قام به الأتراك على ما وراء النهر. وفي سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٥م، افتتح عدة مواضع من بلاد الترك وبلاد الديلم. وفي سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م توفي اسماعيل أمير خراسان وما وراء النهر ببخارى، ولقّب بالماضي بعد وفاته. وخلفه ابنه أبو نصر أحمد[٢].

وفي سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، أخذ أحمد بن اسماعيل سجستان قسراً، لكنها عصته (سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، فأعادها إلى طاعته. وفي سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م، دخل عليه غلمانه، فذبحوه وهربوا[٣]. واستلم زمام السلطة بعده ولده أبو الحسن نصر الثاني، وهو اين ثمان سنين، ولقّب بالسعيد. وتولّى تدبير إمارته أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني. وفشلت محاولة انتزاع سجستان وكرمان منه وساد الاضطراب والفوضى في الإمارة السامانية في عهد السعيد، الذي غادر بخارى سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م، ذاهباً إلى نيسابور. وفي أثناء غيابه فيها، أخرج إخوته يحيى ومنصور وابراهيم، بحيلة، من حبسهم في قهندز بخارى، فاضطرّ أن يعود إليها. ثم تفاهم وإخوته، إلا أن أخاه إبراهيم هرب إلى بغداد، ومنها إلى الموصل. وفي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٢٣م، استولى ماكان بن كالي على كرمان نيابة عن السعيد صاحب خراسان، وأقام بها. وفي سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، قتل الأتراك مرداويج صاحب الجبل في الحمام، فقصدت عساكره أخاه وشمكير وأطاعته. وأقاموا في مدينة الريّ، فاستدعى نصر الثاني محمد بن المظفر أمير جيشه بخراسان، وماكان بن كالي من كرمان، ليسيرا إلى جرجان والري. ولما غادر ماكان كرمان، عاد إليها أبو علي محمد بن الياس، واستولى عليها.

وفي سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، كان ابراهيم بن سيمجور الدواتي يحاصر محمد بن الياس في إحدى قلاع كرمان. وفي العام ذاته، سار معزّ الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه إلى كرمان في عسكر ضخم. فلما سمع الدواتي به غادر كرمان، وعاد إلى خراسان. أما معزّ الدولة، فاحتل السيرجان، ولحق بمحمد بن الياس إلى مدينة بم،

(١) ابن الأثير، ٦/ ٣ ـ ٤، ٣٩، ٧٣.
(٢) المرجع ذاته: ٦/ ٧٥ ـ ٧٦، ٩٥ ـ ٩٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٥.
(٣) المرجع ذاته: ج ٦/ ١٣٧، ١٤١، ١٤٤ ـ ١٤٥.

فانسحب هذا الأخير إلى سجستان. واستأنف معزّ الدولة مسيره إلى جيرفت، قصبة كرمان، فدخلها وقبل عرض رسول علي بن الزنجي (علي كلويه)، زعيم القفص والبلوص خضوع هذه القبائل له، لكن غدر معزّ الدولة بعلي بن .الزنجي الذي كان محترزاً منه. فلما وقعت الوقيعة بينهما انتصر القفص والبلوص، ورأى علي زعيمهم معزّ الدولة ملقى على الأرض مثخناً بالجراح مقطوع اليد اليسرى وفاقد بعض أصابع يده اليمنى، فنقله إلى جيرفت، وجلب له الأطباء، واعتذر إلى أخيه عماد الدولة، واستقرّ الصلح بينهما. ووصل خبر حادث معزّ الدولة إلى محمد بن الياس، فغادر سجستان ورجع إلى كرمان، فهزمه جيش معزّ الدولة الذي أمعن بعد ذلك تقتيلاً بالقفص والبلوص، فهرب رئيسهم علي كلويه. وفي سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٢م، توفي السعيد نصر بن أحمد بن اسماعيل صاحب خراسان وما وراء النهر بمرض السل، فدام حكمه ٣٠ سنة و٣٣ يوماً. وخلفه ابنه نوح[١].

وفي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، خالف عبد الله بن أشكام على الأمير نوح، وامتنع في خوارزم، لكنه عاد إلى طاعته. وتعرّضت الإمارة إلى اضطرابات في أيامه. وقد توفي سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م. وخلفه ابنه عبد الملك الأول. وفي عهده، في سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م، أنفذ الخليفة المطيع (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م - ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م) لواءاً وخلعه لأبي علي محمد بن الياس، صاحب كرمان. وقد سقط الفرس تحت عبد الملك الأول، فمات سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م. وخلفه منصور الأول بن نوح الأول[٢]. وفي زمنه، توفي أبو علي محمد بن الياس (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) بعد أن جمع أولاده الكبار اليسع والياس وسليمان، وتخلى عن السلطة في كرمان إلى نجله اليسع الذي توفي في سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م، التي اجتاح فيها عضد الدولة البويهي كرمان، واستولى عليها وملكها وأخذ ما بها من أموال آل الياس. وأقطعها ولده أبا الفوارس (شرف الدولة). وفي سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، حاول سليمان بن أبي علي محمد بن الياس، شقيق اليسع أن يستردّ كرمان من عضد الدولة، بدعم من الأمير الساماني منصور بن نوح. إلا أن كوركين بن جستان، خليفة عضد الدولة بكرمان، هزمه. وفي سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح صاحب خراسان وما وراء النهر وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه خراجاً سنوياً مقداره ١٥٠٠٠٠

(١) ابن الأثير، ج ٦، : ص ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٤، ٢٠٥ـ ٢٠٦، ٢٣٦ ـ ٢٤٧، ٢٥٤ ـ ٢٥٦.
(٢) ابن الأثير، ج ٦: ص ٢٩٨، ٣٥٦، ٣٥٩، ج ٧: ص ٢٣.

دينار. وفي سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، ثارت كرمان على عضد الدولة، بزعامة يوزتمر والحسين بن أبي علي محمد بن الياس، إلا أن المطهّر بن عبد الله هزم يوزتمر في بم والحسين بن الياس في جيرفت، وخضعت كرمان لعضد الدولة. وذكر ابن البلخي أن مجموع خراج فارس وكرمان وعمان مع العشر المستوفى في سيراف ومهربان على السلع المستوردة، بلغ في أيام عضد الدولة ٣٣٤٦٠٠٠ دينار، منها ٧٥٠٠٠٠ دينار عن كرمان وتيز والمقاطعات الساحلية، وفي سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، مات الأمير منصور بن نوح الأول صاحب خراسان وما وراء النهر في بخارى. وولي الأمر بعده ابنه أبو القاسم نوح الثاني، وكان عمره ثلاث عشرة، ولقّب بالمنصور. وفي أيامه، كثرت الفوضى والافتئات على السلطة. ثم توفي سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م. واختلّ بموته ملك آل سامان. وضعف أمرهم، فزال حكمهم بعد مدة يسيرة. وخلفه ابنه منصور الثاني الذي خلع، ونصّب محلّه شقيقه عبد الملك الثاني، الصبي الصغير، الذي أودع في بافكند، وتوفي فيها، وانقرضت الإمارة السامانية(١).

وقد تمّ انقراض إمارة آل سامان على يد يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي وأيلك خان التركي (واسمه أبو نصر أحمد بن علي ولقبه شمس الدولة). وهو الذي حبس عبد الملك الثاني في بافكند، وسجن معه في غرف انفرادية إخوته أبا الحرث منصوراً بن نوح الثاني، وأبا ابراهيم اسماعيل وأبا يعقوب وغيرهم من آل سامان. إلا أن أبا ابراهيم اسماعيل بن نوح الثاني هرب من محبسه في زيّ جارية، واستخفى مدة في بخارى، ثم انتقل إلى خوارزم وتلقّب بالمنتصر، وجمع بقايا الجيوش السامانية، وحارب بهم أيلك خان ويمين الدولة ونجله منصور من سنة ٣٩٠هـ إلى سنة ٣٩٤هـ، فهزمهم في عدة مواقع وانهزم أمامهم في عدة مواضع إلى أن قتِل سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م. وبقتله قضي نهائياً على آل سامان(٢).

وقد أدّى وهن إمارة آل سامان إلى نشوب صراع بينها وبين البويهيين. وعندما انهارت انتقلت ممتلكاتها إلى الغزنويين وخانات الأتراك وغيرهم.

ثالثاً ـ إمارة بني بويه
٣٢١هـ/ ٩٣٣م ـ ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م

ينسب البويهيون إلى أبي شجاع بويه بن فناخسرو، الذي أنجب ثلاثة أولاد هم

(١) ابن الأثير، ج ٧، ص ٢٧ ـ ٢٨، ٣٩، ٤٨، ٦٢، ٨١ ـ ٨٢، ٨٦، ١٩٤ ـ ١٩٧.
(٢) ابن الأثير، ج ٧، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

عماد الدين أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد.

وفي سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، خرج من بلاد الديلم جماعة، منهم ماكان بن كالي ومرداويج بن زيار. وخرج أولاد أبي شجاع في جملة من خرج، وكانوا قواداً عند ماكان بن كالي. ولما ضعف ماكان وقوي مرداويج، انضموا إلى مرداويج، الذي قلّد عماد الدولة علي بن بويه كرج، فأحسن علي معاملة أهل البلاد، وأرضى القواد، واستمال جميع الناس إليه. واستولى على أرجان وشيراز (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م)، وكتب إلى الخليفة الراضي بالله (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م - ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) يعلن له أنه على الطاعة، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد لقاء بذله ألف ألف درهم، فأجيب إلى طلبه.

وفي سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، كان عماد الدين وأخوه ركن الدولة يسيطران على فارس وعلى بلاد الجبل. وكانت بيد محمد بن الياس، فغادرها إلى خراسان. واستولى معز الدولة على السيرجان، وخضع له القفص والبلوص، لكنه غدر بهم، وفقد يده اليسرى وبعض أصابع يده اليمنى في معركة معهم. مع ذلك، أسعفوه طبياً، ولما تعافى هزم محمد بن الياس الذي كان قد عاد إلى كرمان.

وفي سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م، استولى معزّ الدولة على الأهواز. وفي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م استتر الخليفة المستكفي في بغداد من الأتراك الذين انسحبوا إلى الموصل. ثم عاد فظهر، ودخل معزّ الدولة بغداد وبايعه. فلقّبه المستكفي معزّ الدولة، ولقّب أخاه علياً، ولقّب أخاه الحسن ركن الدولة، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم. لكنّه خلع وسمل في وقت لاحق، وحبس إلى أن مات سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م. وبويع للمطيع بالله، وتسلّم معزّ الدولة العراق بأسره، إلا ما أقطعه للخليفة ليقوم ببعض حاجته. وجرّد الخليفة من جميع صلاحياته الإدارية والسياسية، وصارت الوزارة لمعزّ الدولة يستوزر لنفسه من يريد، ويدير شؤون الخلافة السياسية[(١)].

وفي سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م، توفي عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه، ولم يكن له ولد ذكر، فعيّن عضد الدولة فناخسرو خلفاً له قبل وفاته في شيراز نفسها بحضور عظماء الدولة. وكان عماد الدولة يلقّب بأمير الأمراء في حياته، فانتقل هذا اللقب إلى

---

(١) ابن الأثير، ج ٦: ص ٢٦٣، ٣١٤ - ٣١٥.

أخيه ركن الدولة. وكان معزّ الدولة مستولياً على العراق وعلى الخلافة، ويديرهما نيابة عن أخويه. وبقي كذلك[1].

وفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م، سار عضد الدولة إلى كرمان التي كانت بيد اليسع بن أبي علي محمد بن الياس. فاستولى عليها وملكها، وأخذ ما بها من أموال آل الياس. وأقطعها ولده أبا الفوارس الملقّب بشرف الدولة. وفي سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، سيّر منصور الأول بن نوح الأول الساماني عسكراً مع سليمان بن أبي علي محمد بن الياس، ليسترجع كرمان من بني بويه. فلقيه كوركير بن جستان خليفة عضد الدولة فيها، فهزم الجيش الساماني، وقتل سليمان. وفي سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م، عصت كرمان عضد الدولة فقضى عليه كوركير بن جستان وعابد بن علي عصيانهم. وتعقب عابد بن علي القفص وانتصر عليهم في عدة معارك. وذهب إلى هرمز العتيقة وملكها. ثم عاد القفص والبلوص إلى قطع الطريق، فسار إليهم عضد الدولة نفسه، فهزمهم سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، ونقلهم من الجبال، وأسكن مكانهم الأكرة والزراعيين. وفي هذه السنة ذاتها، تمّ الصلح بين منصور الأول بن نوح الأول الساماني، وبين ركن الدولة ونجله عضد الدولة على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إلى الأمير الساماني سنوياً ٢٥٠٠٠٠ دينار.

وفي سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، عمّ الاضطراب كرمان. ذلك أن طاهراً بن الصمّة، وهو من جروم كرمان، ضمن من عضد الدولة ضمانات، وترتّبت عليه أموال كثيرة، طمع بها بعد رجوع عضد الدولة إلى العراق وإرساله جيشه في كرمان إلى عُمان لافتتاحها. فجمع طاهر بن الصمّة جموعاً من الجروم، واتفق مع يوزتمر الساماني. من جهة ثانية، طمع بكرمان أيضاً الحسين بن أبي علي محمد بن الياس، فجاء إليها من خراسان، وجمع جموعاً. لكن لما انتهى أبو القاسم المطهّر بن محمد، وزير عضد الدولة، من الاستيلاء على عُمان، تلقى أمراً بالعودة إلى كرمان وقمع الاضطرابات فيها. فهزم طاهراً بن الصمّة بنواحي بم، هو يوزتمر، فضرب عنق الأول وحبس الثاني في إحدى القلاع. كذلك انهزم الحسين بن أبي علي على باب جيرفت، واختفى أثره، وصلحت كرمان لعضد الدولة[2].

وفي سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، توفي ركن الدولة، وخلفه ابنه عضد الدولة، الذي

---

(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ٣١٤ ـ ٣١٦.
(٢) المرجع ذاته، ج ٧، ص ٢٧ ـ ٢٨، ٣٩، ٤١ ـ ٤٢، ٦٢.

دخل بغداد في العام التالي، وخطب له فيها. وغادرها عزّ الدولة بن عمه معزّ الدولة، وقصد الموصل، فاعترضه عضد الدولة بقصر الجصّ بنواحي تكريت، وهزم جيشه، وقتله. وتوفي عضد الدولة ببغداد سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م. فاجتمع القواد والأمراء، وولّوا ولده أبا كاليجار المرزبان، ولقبوه صمصام الدولة. فأقطع أخويه أبا حسين أحمد وأبا طاهر فيروزشاه فارس. إلا أن شرف الدولة أبا الفوارس خرج من كرمان إليها، فسبقهما وملكها هي والبصرة، وأقطع البصرة أخاه أبا الحسين أحمد، وانتصر على أخيه صمصام الدولة بظاهر قرقوب بين واسط والبصرة. وفي سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م، توفي بجرجان أخو عضد الدولة مؤيد الدولة، وضمّت ممتلكاته (أصبهان وأعمالها) إلى أخيه فخر الدولة الذي اتفق هو وصمصام الدولة ابن أخيه عضد الدولة. وفي سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، ملك ابن عضد الدولة أبو الفوارس شيرزيل الأهواز والبصرة، وفشلت محاولة صلح بينه وبين أخيه صمصام الدولة. واحتل شرف الدولة واسط في العام التالي واعتقل صمصام الدولة، ودخل بغداد وسجن صمصام في إحدى قلاعها. وفي سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م، سمل صمصام الدولة في سجنه. وأمرّ شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل أخاه أبا نصر بهاء الدولة إلى أن يتعافى من مرض ألمّ به. لكنه مات، وقعد بهاء الدولة للعزاء، وعزّاه الخليفة الطائع لله، وخلع عليه خلع السلطنة. وسار أبو علي بن شرف الدولة إلى فارس قبل وفاة والده ووصل إلى أرجان. وجاءه رسول عمه يستدعيه إليه، فسار إليه، فغدر به عمه وقتله. وفي السنة ذاتها اختلف بهاء الدولة وصمصام الدولة ثم تصالحا على أن تكون فارس وأرجان لصمصام وخوزستان والعراق لبهاء. وعاد بهاء الدولة إلى بغداد. وخلع الطائع لله وأحلّ محله القادر بالله في سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م[1]. وفي هذه السنة، كان تمرتاش والي كرمان من قبل أبي الفوارس شرف الدولة، وكان الخلاف قائماً بين صمصام الدولة صاحب فارس وبهاء الدولة. فانتهز خلف بن أحمد صاحب سجستان الفرصة، وأنفذ ابنه عمراً إليها، فملكها ما عدا بردسير التي عليها تمرتاش. فسيّر صمصام الدولة جيشاً انهزم بدارزين أمام عسكر عمرو ثم انتصر عليه قرب السيرجان سنة ٣٨٢هـ، فرجع عمرو إلى سجستان وقتله أبوه. وحاول أخوه طاهر افتتاح كرمان مجدداً، لكنه فشل في الاستيلاء على بردسير.

وفي سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م، قتل صمصام الدولة. وفي السنة التالية، ملك بهاء الدولة فارس وخوزستان، وسيّر عسكراً إلى كرمان بقيادة أبي الفتح أستاذ هرمز،

---

(١) ابن الأثير، ج ٧: ص ٨٠، ٩٠، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥.

فملكها أيضاً، وأقام بها نائباً عن بهاء الدولة. وفي سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، قصد الأمير أبو نصر بن بختيار عزّ الدولة كرمان، فلم يقبله الديلم الذين بها، ففتح جيرفت واستولى على أكثر كرمان. لكن هزمه جيش بهاء الدولة، فسيطر على بلاد كرمان، واستعمل بهاء الدولة عليها أبا موسى سياهجيل، وقتل أبو نصر بن بختيار. ثم توفي بهاء الدين سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وهو أمير في العراق. وولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، الذي سار من أرجان إلى شيراز، وولّى أخاه جلال الدولة طاهراً البصرة، وأخاه أبا الفوارس قوام الدولة كرمان[١].

وفي سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، طمع أبو الفوارس قوام الدولة بشيراز، وكانت مع العراق لأخيه سلطان الدولة. فاعترضه جيش أخيه، فعاد إلى كرمان، وهرب منها إلى خراسان، والتجأ إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين الذي سيّر معه جيشاً استعاد به كرمان. إلا أن أخاه سلطان حاربه وهزمه. ثم تصالح الأخوان، وأعيدت كرمان إلى أبي الفوارس قوام الدولة. وفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م، عظم شأن أبي علي مشرف الدولة بن بهاء الدولة، فخوطب بلقب أمير الأمراء. وملك العرق، وأزال أخاه سلطان الدولة. وخطب له في بغداد في السنة التالية. أما سلطان الدولة، فأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز فملكها. وفي سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م، اصطلح سلطان الدولة وأخوه مشرف الدولة على أن يكون جميع العراق لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة. وفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، توفي سلطان الدولة، وخلفه ابنه أبوكاليجار الذي اضطر إلى محاربة عمّه قوام الدولة أبي الفوارس. وكان ينازعه على فارس. فلما انتصر عليه أبوكاليجار ابن أخيه سلطان الدولة، ملك فارس ودخل شيراز، وانسحب قوام الدولة إلى كرمان[٢].

واستقرّ ملك أبي كاليجار بفارس نهائياً سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م بعد جملة معارك رغم الاتفاق الأول. وفي سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م، توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بالبصرة. وخطب لأخيه أبي طاهر جلال الدولة، وتردّد في الصعود إلى بغداد. وفي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، أراد أبو كاليجار انتزاع كرمان من عمه أبي الفوارس صاحبها، فأخذها في البدء، ثم احتمى عمه منه في الجبال، وفتكت الأمراض بجيش أبي كاليجار، فتراسلا في الصلح، واصطلحا، على أن تكون كرمان لأبي الفوارس،

---

(١) المرجع ذاته، ج ٧، ص ١٨٠، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٦٨.

(٢) ابن الأثير، ج ٧، ص ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١١ ـ ٣١٢، ٣١٧.

وبلاد فارس لأبي كاليجار ويحمل إلى عمه ٢٠٠٠٠ دينار سنوياً. وفي العام ذاته، خطب من جديد في بغداد لجلال الدولة أبي طاهر، فذهب إلى بغداد. وفي سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م، أثار الأتراك شغباً عليه في بغداد، واستولى أبي كاليجار على البصرة. وفي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، نشبت معركة بين عسكر جلال الدولة وعسكر أبي كاليجار في المذار، انهزم فيها جلال الدولة في النهاية. وفي سة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، تجددت فتنة الأتراك في بغداد، ففرّ جلال الدولة إلى عكبرا، فخطبوا لأبي كاليجار وطلبوه فرفض الحضور، فعادوا إلى جلال الدولة واعتذروا منه وأعادوه إلى بغداد. لكنهم كرروا الشغب في السنة التالية[1].

وفي سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م، استولى جلال الدين على البصرة، ثم أعادها إلى أبي كاليجار. وأخرجه الجند من دار المملكة ببغداد، ثم أعادوه إليها. وبعد ثلاثة أعوام ثار الأتراك ضده، فترك بغداد، ثم أرجعه الخليفة القائم بأمر الله. وفي سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م، أثار الأمير بارسطغان الملقب بحاجب الحجاب، فتنة ضد جلال الدولة، فتعقبه جيش هذا الأخير، وأسره وقتل. وفي السنة ذاتها تصالح جلال الدولة وابن أخيه أبو كاليجار. وفي العام التالي، أجازت فتوى الفقهاء مخاطبة جلال الدولة بلقب ملك الملوك. لكن في سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م، استولى الملك أبو كاليجار على البصرة، ثم عاد إلى الأهواز. وشغب الأتراك على جلال الدولة مجدداً، فأصبحت الأمور لا يرجى صلاحها. ثم فترت العلاقات بين القائم بأمر الله وبينه، وكادت تؤدي إلى مغادرة أمير المؤمنين بغداد. وفي سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م، توفي جلال الدولة. وكان ابنه عبد العزيز في واسط، فطولب بحق البيعة، فلم يستطع أداءه. أما أبو كاليجار فرغّب الأجناد والقواد بالمال.

وفي سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م، خطب لأبي كاليجار في بغداد، ووزّعت أموال البيعة المتفق عليها على الجند، وأرسلت ١٠٠٠٠ دينار إلى الخليفة. ودخل بغداد ولقّبه بلقب محيي الدين.

وفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، توفي الملك أبو كاليجار في مدينة جناب بكرمان التي قصدها لتحصيل الخراج من نائبه فيها بهرام بن لشكرستان الديلمي. وكان ابنه الأكبر أبو نصر الملك الرحيم في بغداد عندما بلغه خبر وفاة والده. وفي سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، هاجمت العامة في بغداد عسكر السلطان طغرلبك السلجوقي، فنهب

(١) المرجع ذاته، ج ٧، ص ٣١٨، ٣٢٨، ٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٣٤٩. ج٨/ ١٩.

جيشه بغداد، وقبض هو على الملك الرحيم وسجنه في قلعة السيروان. وانتهى حكم البويهيين بانتهاء حكم الملك الرحيم[1].

رابعاً ـ الدولة الغزنوية
٣٥١هـ/ ٩٦٢م ـ ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م

أسس الدولة الغزنوية ألبتكين (سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م). وهو مملوك تركي، خدم في الحرس الساماني، وصار قائده، ثم عيّن والي خراسان (سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م). وفي سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م)، استدعاه الأمير منصور الأول بن نوح الأول الساماني، فامتنع، فأنفذ إليه جيشاً هزمه البتكين، وأسر كبار قواده، ومنهم خال المنصور.

وفي سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، ملك سبكتكين مدينة غزنة وأعمالها. وهو أحد غلمان أبي إسحق ابن البتكين، صاحب جيش غزنة للسامانية، وقد قدم إلى بخارى في أيام الأمير منصور الأول مع أبي إسحق. ولما توفي منصور الأول الساماني، ولى عسكره سبكتكين، فارتفع قدره، وعظم شأنه، واستولى على قصدار وبست.

وفي سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، ملك مدينة بخارى شهاب الدولة هرون بن سليمان أيلك، المعروف ببغراخان ملك الترك (وكان له كاشغر وبلاساغون). وسبب ذلك أن أبا الحسن محمد بن سيمجور الدواتي، صاحب جيوش خراسان، مات، وولي ابنه أبو علي خراسان بعده. وأقرّه على ذلك نوح الثاني بن منصور الأول الساماني، وحملت إليه الخلع. لكن تنكّر أبو علي لنوح الثاني، ولم ينجده ضد بغراجان التركي، الذي احتلّ بخارى، ثم توفي، فولي أيلك خان بعده أمر الترك، وعاد نوح الثاني إلى بخارى.

وفي سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، جاء محمود بن سبكتكين من غزنة، ودعم نوح الثاني في نزاعه المسلح مع أبي علي بن أبي الحسن محمد بن ابراهيم بن سيمجور الدواتي ومع حليفه فائق. فانهزم أبو علي وفائق. واستعمل نوح الثاني محموداً بن سبكتكين على نيسابور وخراسان. ولقبه سيف الدولة، ولقّب أباه ناصر الدولة[2]. ثم عاد نوح الثاني إلى بخارى، وسبكتكين إلى هراة، وأقام محمود بنيسابور.

وفي سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، طمع أبو علي بن أبي الحسن محمد بن ابراهيم بن

---

(١) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠، ١٤، ١٦، ١٩، ٧٦، ٣٧، ٤٠، ٤٨، ٧١ ـ ٧٢.
(٢) ابن الاثير، ج ٧، ص ٥، ٨٥ ـ ٨٦، ١٦٠ ـ ١٦١، ١٦٤.

إضافياً عن المظفريين في تاريخ جوزيدا، الناشر أ. ج. براون، لندن ١٩١٠).

وزادت الفوضى، واضطر ايدجو أن يثبت سلطته بسلسلة عمليات عسكرية. وبعد وفاة تيمور (٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م)، اعترف بشاهرخ، إلا أن كرمان تعرضت إلى أعمال سلب وفوضى في أثناء النزاعات التي نشبت بين الأمراء التيموريين. وتوفي أيدجو سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، وخلفه نجله سعيد سلطان الذي اغتيل مباشرة بدافع من شقيقه سلطان أويس (انظر جان أوبين «سيدان»، ٢٠ وما يليها)، وانحطت الزراعة. ويقول حافظ أبرو في زبدة التاريخ، إن جيش ميرزا اسكندر (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) يدمر الأبنية ويخرّب الزراعة ولا يبقي شيئاً منهما حيث يمر. فلم تبق ناحية من كرمان لم تتخرب (ذكر جان أوبين ٣٥ ـ ٣٦).

وفي سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، حاصر جيش تيموري سلطان أويس في كرمان التي أصيبت بمجاعة مميتة في السنة التالية. عندئذٍ أرسل شاهرخ سيد زين العابدين لإعادة الازدهار إلى إقليم كرمان. ووجّه جهوده إلى تحسين الأوقاف التي بقيت بوراً، وبذر في السنة الأولى ٢٥٠٠٠٠ منّ من القمح. وخفضت الضرائب، وأجّل بعضها المفروض على الفلاحين (حافظ أبره، جغرافية، ورقة ٧٣ ظهر، ذكرها جان أوبين ٤ ـ ٥).

وبعد وفاة شاهرخ (٨٥٠هـ/ ١٤٤٧م)، عادت الفوضى مجدداً إلى أن أرسل قره قويونلو جهان شاه بن قره يوسف، نجله أبا الحسن قاسم ميرزا ليحوز اقليم كرمان. إلا أن الوضع لم يتحسن البتة (انظر أبو بكر طهراني، كتاب ديار بحرية، الناشر سومر، انقره ١٩٦٤، ج٢، ص ٣٣٤ وما يليها، وجان أوبين، ٥٨ وما يليها) وفرضت ضرائب باهظة على المحاصيل الصيفية والشتوية، وجبايات منتظمة على الفلاحين. واغتصبت الحكومة أملاكاً كثيرة، وصادرت واردات الوقف لدفع رواتب الجيش (أوبين ٦٩ ـ ٧٠) وجرى أبو القاسم ميرزا على عادة إيواء أنصاره في اقليم كرمان، مع ما يؤول إليه هذا العمل من أضرار متنوعة (كتاب ديار بحرية، ٣٠٢).

وبعد وفاة جهان شاه، سادت الفوضى والاضطرابات في اقليم كرمان إلى أن تمكّن أق قويونلو من تثبيت سلطته فيه. وحكم زينل، ثالث أنجال أظن حسن كرمان مدة من الزمن.

وفي عام ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، سقطت كرمان في يد اسماعيل شاه. واجتاحها الأوزبكيون وأصيبت بأضرار فادحة (علامارا اسماعيل شاه، ٣٢٦ وما يليها، ٣٣٣).

سنة ٤٢٢هـ/آخر ١٠٣٠م ملكاً على خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند وسجستان وكرمان. وثارت فتنة على مسعود، انشغل في قمعها، وفي ردّ هجمات الغز على خراسان حتى قبض عليه أنصار أخيه محمد، وسجنوه في قلعة كيكي، وقتلوه، وأعادوا شقيقه إلى الحكم، فقتله مودود بن مسعود سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، وملك محله[1].

خامساً ـ سلاجقة كرمان
٤٣٣هـ/ ١٠٤٤م ـ ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م

كان تقاق (ومعناه القوس الجديد) مقدّم الأتراك الغزّ، يعمل عند بيغو ملك الترك، عندما ولد له ابن سمّاه سلجوق، ظهرت عليه أمارات النجابة لما كبر، فلقّبه ذلك العاهل سباشي أي قائد الجيش. وسعت الملكة لدى زوجها في قتل سلجوق، فشعر هذا الأخير، وغادر ديارهم مع جماعته، وأقام بنواحي جند على ضفة نهر سيحون الأسفل. ورزق سلجوق ثلاثة أولاد هم: أرسلان وميكائيل وموسى. وخلّف ميكائيل بيغو، وطغرلبك محمداً، وجغفري بك دواد، وابراهيم ينال، الذين دخلت قبائلهم ما وراء النهر، ونزلت شمالي شرقي بخارى سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م. فأساء أمير بخارى جوارهم، فاحتموا ببغرى خان ملك التركستان. لكن قرّر طغرلبك وداود ألا يجتمعا معاً عنده خوفاً من غدره. مع ذلك أسر بغراخان طغرلبك وانقذه أخوه داود منه، وعادا إلى جند.

وفي سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م، رجع محمود الغزنوي من الهند، وهاجم علي تكين، صاحب ما وراء النهر، واحتل سمرقند، وفي العام ذاته، دخل قدرخان يوسف ملك كاشغار بخارى، وتفاهم مع محمود الغزنوي على اقتسام ما وراء النهر. إلا أن علي تكين استرجع بخارى وسمرقند في العام التالي (٤١٧هـ). ولما استلم مسعود السلطة بعد محمود، احتلت بخارى أيضاً، لكنها عادت إلى علي تكين وبقيت له حتى وفاته سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م. وفي سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، طلب طغرلبك وداود وبيغو من مسعود الغزنوي اقطاعهم أراضي في خراسان، فرفض. فاحتل طغرلبك وداود نيسابور وسائر خراسان ما عدا بلخ. وفي سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، هزم طغرلبك مسعوداً الغزنوي هزيمة كبرى في دندانقان قرب مرو، فاضطروه إلى التخلي عن كامل خراسان إلى السلاجقة[2].

---

(١) المرجع ذاته، ج ٧، ص ٢١٦، ٢٩٦، ٣٤٦، ٣٤٧، ج ٨، ص ١٧ ـ ١٩، ٢٦ ـ ٢٨.
(٢) ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٢، ٢٠٤، وغروسيه، مملكة السهوب، ص ٢٠٤، و ٢٠١.

وفي سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م، سيّر طغرلبك أخاه ابراهيم ينال ليأخذ كرمان من الملك أبي كاليجار البويهي، فنجح في البدء، ثم صدّ في النهاية. لكن في عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، توفي أبو كاليجار في مدينة جناب بعد احتلاله قلعة بردسير من واليه في كرمان بهرام بن لشكرستان وعزله. وفي سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، توفي طغرلبك محمد ـ وكان عقيماً ـ فخلفه ألب أرسلان محمد بن داود جغري بك، وهو حينئذٍ صاحب خراسان. وقضى على مناوئيه، وزار كرمان، فاستقبله فيها أخوه قاورت بك (٤٥٦هـ). وفي سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م، عصى ملك كرمان قرا أرسلان على ألب أرسلان، ثم سأله العفو، فعفا عنه وأبقاه في منصبه. وفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، اغتيل السلطان ألب أرسلان، وخلفه ابنه ملك شاه الذي أوصاه أبوه بإعطاء عمه قاورت بك بن جغري بك داود كرمان وأعمال فارس. لكن نشبت حرب فيما بعد بين ملكشاه وقاورت انهزم فيها هذا الأخير وأمر بخنقه فخنق. ثم أقرّ ملكشاه كرمان بيد أولاد عمه قاورت. واستلمها سلطان شاه، وزاره ملكشاه فيها سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، وملّكه البلاد[١].

آ ـ سلاجقة كرمان

في سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، انتصر السلاجقة على مسعود في معركة دندنكان. وبعد مرور عامين، أرسل طغرلبك قاورت قره أرسلان بك ليفتح أقليم كرمان. فصدّ أبو كاليجار هجوماً أولاً سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م. لكن في عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، استسلم حاكم كرمان، بهرام بن لشكرستان بلا قتال، وصمد القفص وحدهم دون جدوى. وحاول قاورت مرتين أن يغتصب السلطة: مرة أولى سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٦م، هزمه فيها الب أرسلان، لكنه أعاده إلى منصبه (ابن الأثير، ج٨/ ١٠٥). ولما توفي الب أرسلان (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م قتله يوسف الخوارزمي: (ابن الأثير، ج٨/ ١١٢)، لكنه انكسر قرب همذان، وأسر، وأمر بخنقه (ابن الأثير ٨/ ١١٤).

على الرغم من ذلك، بقيت سلالة سلاجقة كرمان التي أسسها قاورت ١٥٠ سنة في الحكم نعمت فيها كرمان بالازدهار والسلام. بالفعل، عرف سلاجقة كرمان بالعدل وبالاهتمام بشؤون رعيتهم. واتخذ قاورت الاجراءات اللازمة لضمان الأمان على الطرقات، ووضع صوّات مسافة على طريق بمّ ـ فهرج، وبنى خانات، وحفر آبار مياه

(١) ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٥، ٤٨، ٩٤، ١٠٥، ١١٢ ـ ١١٤، ١٢٨.

(المصدر محمد ابراهيم، ١٠ ـ ١١). واشتهر قاورت، ونجله توران شاه، وأرسلان شاه بن كرمان شاه وزوجته زيتون خاتون، ومحمد بن أرسلان شاه، بانهم جميعاً بناة عظام، وقد أشاد محمد بن أرسلان شان مكتبة جامع توران شاه، التي ضمّت ٥٠٠٠ مجلد. وفي عهد أرسلان شاه، توافد العلماء على كرمان من جميع الجهات. ومنح نجله محمد رواتب للفقهاء، فشجّع دراسة الفقه (المصدر محمد بن ابراهيم، ٢٩).

وألِفَ سلاجقة كرمان الحياة في المدن، إلا أن وجودهم ظلّ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحفاظ على قطعانهم. فكانوا عادة يمضون سبعة أشهر من السنة في بردشير وخمسة أشهر (بدءاً من تشرين الثاني ـ كانون الأول) في جيرفت، وتتبعهم قطعانهم في ترحالهم. ويبدو أن وضعهم المالي كان حسناً حتى نهاية سلالتهم تقريباً. وبقيت قيمة عملتهم ثابتة طيلة حكم قاورت (٣٤ سنة) (المصدر محمد بن ابراهيم، ٤)، على الأرجح بفضل التجارة، إذ إنّ كمادين ظلت حتى آخر هذه الحقبة مركزاً هاماً في التجارة العالمية (المصدر تاريخ الأفضل، ٤١، ٦٩). وكان الوزراء والأمراء يملكون أراضي شاسعة، ويقومون بتقديم القروض للتجار ولأشخاص آخرين يعملون لمصلحتهم على الأرجح (المصدر السابق، ص ٤٠). وكان مركز كمادين يراقب رواتب حاشية العاهل العسكرية وتعويضاتها (المصدر ذاته، ٣٤). وكانت قواتهم تركية في معظمها، وتضم ديلميين أيضاً، ويخصص لها معاش، وتعطى إقطاعات، حسب (أفضل الدين، عقد العلى، ٧٤)، بخاصة في كورة السيرجان، التي يتواجد فيها أمير كبير على رأس قطعة عسكرية قوية، لوقوعها على حدود أقليم فارس. لكن لم يكن عدد أفراد حاشية الأمراء أو العاهل عالياً. فقاورت مثلاً رافقته قوات قوامها ٥٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ رجل فقط عندما قدم إلى كرمان سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، حسب المؤلف محمد بن ابراهيم. ولم يكن عالياً عدد الجماعات المتخاصمة، المتنازعة على السلطة في آخر الحقبة السلجوقية وفي أثناء فترة سيطرة الغز. فملك دينار مثلاً كان يأمر ١٠٠٠٠ رجل (المرجع عقد العلى، ٢٠). وقدّر محمد بن ابراهيم (١٧٨) عدد جيش أميري شبانكاره، قطب الدين مبارز ونظام الدين محمود، عندما هاجما كرمان سنة ٥٦٦هـ/١١٩٩م، بـ ١٠٠٠٠ رجل من الخيالة والمشاة.

وخلف كرمنشاه والده قاورت. وكان شقيقه سلطانشاه قد أسر مع أبيه، لكنه هرب، وجاء إلى كرمان. ثم توفي كرمنشاه بعد مجيء أخيه سنة ٤٦٧هـ/١٠٢٤م. فاعتلى العرش أخوه سلطان شاه، وفي عام ٤٧٢هـ/١٠٧٠م (أو قبل ذلك بقليل) حاصره ملكشاه ابن عمه في بردشير ١٧ يوماً، ثم رفع الحصار وعاد إلى أصفهان.

وخلف تورانشاه شقيقه سلطانشاه سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م الذي اتصف عهده بالسلم باستثناء حملة واحدة فاشلة قام بها ضد إقليم فارس سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٦٤م. وخلف ايرانشاه والده تورانشاه سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م، واعتنق المذهب الاسماعيلي، فيما يبدو، فلجأ بعض الأمراء إلى شيخ الإسلام، القاضي جمال الدين أبي المعالي الذي افتى بقتله، فهرب، لكن قبض عليه وأعدم. وتسلّم العرش أرسلان شاه الأول بن كرمانشاه سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، بدعم من الأمراء والقضاة، ودام حكمه ٤١ سنة، بلغت كرمان خلالها أوج رخائها. وعلى غرار أسلافه، عيّن شكمات في عُمان، وحاول الاستيلاء على فارس. وانتصر على جاولي سقاوو سنة ٥١٨هـ/ ١١١٤م. ولما توفي هذا الأخير ٥١٠هـ/ ١١١٦، يرجح ان محمد بن ملكشاه، الذي زوّج كريمته لأرسلان شاه، تصوّر أن سلاجقة كرمان أصبحوا يمثلون خطراً على اقليم فارس (ابن الأثير ٨/ ٢٧٤). فدخل في نزاع مع علاء الدولة اليزدي حوالي نهاية عهد أرسلان شاه، وطلب منه بهرام شاه بن مسعود مساعدته بعد انتصار شقيقه أرسلان شاه عليه، فرفض طلبه.

وفي سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٥م، نحّى محمد شاه والده أرسلان شاه عن السلطة بسبب طعنه في السن، واعتلى هو العرش، رغم أن نجلاً آخر هو كرمانشاه كان معيناً ولي عهد شرعياً. وقد طوّر محمد شاه دائرة الاستخبارات (مما يدل على وجود معارضة له)، وبسط سلطته على طبس. وفي سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، خلفه ابنه طغرل شاه الذي انحطت الأخلاق في عهده، إلا أن كرمان ما زالت تنعم بالأمان والازدهار (عقد العلى ٧، تاريخ الأفضل ٣٠، محمد بن ابراهيم ٣٣).

وفي السنوات الأخيرة من عهد طغرلبك، كان الأتابك مؤيد الدين ريحان يتولّى السلطة الفعلية، فنصّب على العرش بهرام شاه بن طغرل شاه بعد وفاة هذا الأخير سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م. إلا أن القوات التركية سلبت جيرفت، وأخذت مراكب غير الأتراك والكتّاب (تاريخ الأفضل، ٣٣، ٣٦). ونشبت اضطرابات داخلية. وقبل أن ينازع أرسلان شاه الثاني شقيقه بهرام شاه على السلطة، استنجد شقيق آخر له اسمه تورانشاه الثاني بأتابك فارس الزنكي، وتقدّم نحو السيرجان فهزمه أرسلان شاه، بينما ذهب بهرام شاه إلى خراسان ليستنجد بزعيم الغز، ملك المؤيد. وقتل توران شاه الثاني في محاولة ثالثة. وتلقى بهرام شاه تعزيزات من ملك مؤيد، فسار سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١ إلى جيرفت، وهزم قوات أرسلان شاه. وفي وقت لاحق، فرضت ضرائب باهظة على سكان بردشير، فعاشوا في فاقة. إلا أن أرسلان شاه بن طغرل (٥٥٧هـ/ ١١٦١م - ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م) من سلاجقة العراق دعم ارسلان شاه الثاني الكرماني، فعاد هذا

الأخير وحاصر بهرام شاه في بردشير وأجبره على عقد صلح معه. فاقتسما أرض كرمان والسلطة فيها، وأخذ أرسلان شاه الثاني بردشير والسيرجان وجيرفت وخبيص، وحصل بهرام شاه على بم ومكران. لكن لم يدم صلحهما طويلاً، واسترجع بهرام شاه بردشير سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م، ثم توفي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وتلت وفاته فترة من الاضطرابات، لعب الأتابكة والأمراء فيها الدور الرئيس. وفي عهد توران شاه الثاني الذي انتصر في النهاية على أرسلان شاه الثاني، افتقرت كرمان، ووصف أفضل الدين (٧٩، ٨١) وضع الفلاحين البائيس (محمد بن ابراهيم ٩٩، سمط العلى ١٣ وما يليها، ٢٧ وما يليها)، وحالة السكان الرازحين تحت وطأة ضرائب الأمراء. ففرغت الخزانة من الأموال، وقتل الجند الأتراك عدداً من الكتّاب سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م (أفضل ٨٦).

ب ـ تدخل الغز في إقليم كرمان

وفي سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، طرد سلطانشاه الغزّ من سرخس، وكان حوالى ٥٠٠٠ منهم قد جاؤوا إلى كوبينان مع أسرهم وقطعانهم، وتقدموا حتى زرند وباغيز. وسيّر أتابك فارس تكله بن زنكي (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م ـ ٥٩١هـ/ ١١٩٤م) جيشاً ضدهم، فهزموه هو وجيش سلاجقة كرمان في السنة ذاتها (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، وانتشر الغز في جرمسير، وأخذوا يسلبون ويخربون. واصيبت بردسير بالمجاعة في سنتي ٥٧٥ و ٥٧٦هـ/ ١١٧٩ و ١١٨٠م (تاريخ الأفضل، ٩١، سمط العلى ٩٧). ثم رجع الغز إلى جرمسير سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨٧م، ويقول أفضل الدين (٩٥) إنهم قرروا البقاء في كرمان، وشرعوا يزرعون كورتي جيرفت ونرماشير ويراعون الفلاحين، ويجلبون من أصفهان وسجستان وفارس سلعاً ومواشي وغنائم يحصلون عليها من سلب القوافل، ويختزنونها في جرمسير وسردسر (تاريخ أفضل ٩٥). واحتل الغز أيضاً بضع قلاع لجأت إليها القوات التركية السلجوقية. واصيبت بردسير بحالة فاقة قصوى، لأن أسياد كرمان الاسميين اعتصموا بها.

وفي سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، قتلت مجموعة من الأمراء تورانشاه، وحررّت محمد شاه بن بهرام شاه من القلعة المحتجز فيها، ونصّبته على العرش. وأصابت جماعة جديدة بردسير سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م.

وفي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، وصل ملك دينار الغزى إلى راور وخبيص، ومعه ثمانون رجلاً، لينضمّ إلى الغز في نرماشير إلا أن الـ ٣٠٠ مقاتل المرسلين من بردسير ليحاربوه لم يجرؤوا على خوض معركة معه (تاريخ أفضل ١٠٥). فأقام ملك دينار في

جيرفت، وسكّ العملة باسمه، وخطب له فيها. وفي شهر جمادى الأولى سنة (٥٨٢هـ/ تموز آب ١١٨٦)، أراد أن ينزل في بردسير، لكن حال نقص المراعي دون تحقيق رغبته، فبقيت بردسير في يد سلاجقة كرمان حتى استسلامها في ٥ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ أيلول ١١٨٧م. وفي العامين التاليين، سعى ملك دينار إلى توسيع سلطته وتصفية جيوب المقاومة. وقام بحملة باتجاه الجنوب، واحتل منوجان، وأخذ خواجا ممداره ألف دينار من صاحب هرمز (محمد بن ابراهيم ١٥٤)، وجبى الضرائب على المقرنات (المضاف ٥). وكانت بم بيد أمير اسمه سابق علي، فاستسلمت حوالى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٣م. وأعقبت اضطرابات جديدة وفاة ملك دينار سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م، وخلفه نجله فرّوخشاه الذي بدّد أموال الخزينة بسرعة (المصدر ذاته ١٦٤)، وتوفي سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م، دون أن يحصل على مساعدة من خوارزمشاه، سبق وطلبها. وأخذ الغز يمعنون في التخريب أكثر من أي وقت مضى، وساد الشقاق بين أمراء كرمان.

ومثّلت سيطرة الغز مأساة لسكان كرمان. إذ تعرضت إلى تخريبهم وإلى غزوات أسياد فارس وخراسان أو هجمات أمرائهم التي آلت إلى فرض سيطرتهم بين الفينة والأخرى على هذا الجزء أو ذاك من كرمان. كذلك توقف النشاط التجاري، وتعطلت الزراعة، واتلفت قطعان الغز، محاصيل أراضي أهل المدن. وكان ربع حصة ملاكي العقارات يؤخذ منهم بعد أدائهم الضرائب العادية، وذلك لتأمين مصاريف أنصار الغز (المضاف، ١٩ ـ ٢٠).

جـ ـ تدخل أمراء شبانكارة وغيرهم في اقليم كرمان

وظلت أوضاع كرمان غارقة في الفوضى إلى أقصى حدّ، حتى انتصر أميرا شبانكارة قطب الدين مبارز ونظام الدين محمود على الغزّ سنة ٥٩٧هـ/ ١١٩٩م، وعيّنا ممثّلاً لهما في كرمان، وعادا إلى أقليم فارس. ولم تقلّ قساوة سيطرة شبانكارة على كرمان عن سيطرة الغزّ عليها (محمد بن ابراهيم، ١٨٣ وما يليها، المضاف، ١٠ وما يليها). فثار أهالي كرمان في النهاية. ولم تتوقف الاضطرابات الجديدة، إلا عندما قرّر بعض أمراء بردسير وأهلها وأئمتها تسليم المدينة إلى عجمشاه بن ملك دينار، الذي أمضى بعض الوقت في بلاط خوارزمشاه، ثم جاء إلى بمّ، وتزعم غزّها. ثم دخلت كرمان قوات من أقليم فارس، بقيادة عماد الدين بن زيدان، ابن أخ أتابك فارس، سعد الدين الأول بن زنكي (٦٠٠هـ/ ١٢٠٢م ـ ٦٧٩هـ/ ١٢٣١م). فاستعيدت بردسير من الغزّ وفي السنوات التالية، تعرضت كرمان إلى عدة حملات، وترأس سعد الدين بن

زنكي العمليات العسكرية بنفسه. وجبى، حسب أفضل الدين، ربع الدخل الصافي من مالكي الأراضي، ورفعه إلى الثلث عام ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م، وألغى الاعفاءات التي منحها الغزّ إلى رجال الدين وغيرهم (المضاف، ٢٠، ٤٢). ويروي وصّاف (تاريخ ٢٥٢) ان سعد الدين بن زنكي فرض العشر أيضاً على أراضي المالكين ثم ألغاه بعد تذمر الأهالي. ويقول أفضل الدين (٤٢)، أن سعد الدين زنكي اشترى أراضي بور كثيرة ليستغّلها، وصرف عليها كل أموال ديوان كرمان.

د ـ تدخّل الخوارزميين في اقليم كرمان

جاءت سيطرة الزنكيين مؤقتة. ففي سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، طلب أحد أمراء خوارزم، المدعو قوام الدين مؤيد الملك، من خوارزمشاه أن يعطيه كرمان، ففعل، ومنحه لقب ملك، فانطلق قوام الدين مؤيد الملك إلى كرمان من زوزن في خراسان. واستسلمت له جيرفت وبمّ وبافت. وسقطت بردسير في شهر صفر ٦١٠هـ/ حزيران ١٢١٣م. وحوالي هذا التاريخ، انتشر وباء الطاعون من الجنوب إلى بردسير، وكثر ضحاياه (المضاف ١٦ وما يليها).

هـ ـ تدخل براق حاجب وسلالته في شؤون كرمان

كان براق حاجب أحد أمراء خوارزمشاه، حاكماً في أصفهان. فأدرك مدى الفوضى التي وصلت إليها شؤون خوارزمشاه. فذهب إلى كرمان ليسافر منها إلى الهند. فانتصر هو وأعوانه على حاكم كرمان، المدعو شجاع الدين أبو القاسم، وحاصر نجله في بردسير. وعندما رجع من الهند، عيّنه جلال الدين خوارزمشاه حاكم كرمان، وأعطاه لقب قتلغ خان. ويبدو أن براق حاجب حصل من الخليفة على لقب سلطان الذي تصف به الوثائق التاريخية أعضاء سلالته، وتسمّى نظام حكمهم بالسلطنة. وعندما جاء غياث الدين بيرشاه، نجل خوارزمشاه علاء الدين محمد، إلى كرمان، ليثبّت سلطته، سوّفه براق حاجب في البدء، وكان في الماضي أتابكاً عنده، ثم ألقى القبض عليه وقتله. وأرسل براق حاجب إلى أوكتاي رسولاً يعلن خضوعه له، فأبقاه أوكتاي في منصبه في كرمان، وبقي فيه ١٥ عاماً.

وكان لبراق حاجب أربع بنات، تدعى كبراهن سفنج خاتون، وهي زوجة أوكتاي. أما البنات الثلاث الأخريات، فكنّ متزوجات من أسرة أتابكة يزد. وأرسل براق حاجب ابنه ركن الدين خواجّوك إلى بلاط أوكتاي، وكان ما يزال فيه عند وفاة والده في ٢٠ ذي الحجة ٦٣٢هـ/ ١٦ أيلول ١٢٣٥ (أخبار هذه الأحداث ذكرها نصير

الدين منشي الكرماني، بسمط العلى، الناشر عباس إقبال، طهران ١٣٢٧، ص ٢٢ وما يليها، والجويني، جهان زها، ونسوي، تاريخ السلطان جلال الدين منكوبرتي الناشر المترجم و. هوداس، باريس ١٨٩١ ـ ١٨٩٥، اختلاف قليل بين الروايات).

بعد وفاة براق حاجب، لم يتمتّع خلفاؤه باستقلال حقيقي. فقد أشير إلى وجود أمراء مغول في بلاط قطب الدين سنة ٦٣٥هـ/١٢٥٧م (سمط العلى ٣٨)، أتوا إلى كرمان بصفة بسقاق، ومنهم جميع المطالبين بالسلطة الذين يرون أن لا بدّ لهم من الحصول على دعم الخان الأكبر أو الأيلخان. وكانوا يتقربون بالزواج من المغول في الغالب.

وخلف براق حاجب ابن أخيه قطب الدين، وتزوج من كريمة سلف براق المسماة قتلغ طارخان. وعندما اقترب نور الدين خواجوك (نجل براق حاجب) الذي حصل من أوكتاي على يرليغ (مرسوم) يعينه حاكم أقليم كرمان، رأى قطب الدين أنه ينبغي عليه أن يذهب إلى البلاط المغولي، ليحصل على دعمه. ووصل ركن الدين إلى بردسير، واستلم كرمان وحكمها ١٥ سنة. وعجز قطب الدين عن طرد ابن عمه، فبقي فترة من الزمن في الأردو المغولي، ثم أرسل إلى الحاكم المغولي في الخطائي ولما خلف منكوقآن كيوك خان سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، حصل قطب الدين على يرلنغ (مرسوم) يسميه حاكم إقليم كرمان، فسار إليه. وعندما اقترب منه، غادره ركن الدين، فاستنجد دون جدوى بالمستعصم، فقصد أوردو منكوقآن، فعرض خلافه مع قطب الدين هناك على المحكمة المغولية (يوغو). في النهاية، سلّم ركن الدين إلى ابن عمه قطب الدين فأعدمه، ورجع إلى كرمان. ويقول الجويني (جهان جوشا، ٣٢، ٣٧) انه رأى ركن الدين في الماليغ في شهر رمضان ٦٥١هـ/ك ١ ١١٥٣ ـ ك ٢ ١٢٥٤م. وعندما عبر هولاكو جيحون سنة ٦٥٤هـ/١١٥٦م، انضمّ إليه قطب الدين في طوس، وأذن له بالرجوع إلى كرمان، شريطة أن يعود على رأس جيش ليهاجم بغداد مع القوات المغولية. لكنه مرض سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وتوفي في السنة التالية ٦٥٦هـ/١١٥٨م.

ونُصِّبَتْ طارخان خاتون، أرملة قطب الدين على عرش كرمان وسط هتافات الناس. وخاطبت هولاكو بالذات، وتلقت يرلنغ، يخوّلها التصرف باسم أنجالها الصغار. ودام حكمها ١٥ سنة. ازدهرت خلالها كرمان. وفي هذا الوقت زار ماركوبولو كرمان. وعندما عبرت قبيلة جغتاي نهر جيحون سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م،

لتهاجم أراضي أباقا، أرسلت طارخان خاتون حجّاج سلطان إلى خراسان على رأس جيش لمؤازرة أباقا. وسعت إلى تقوية مركزها بزفّ كريمتها باديشاه خاتون إلى أباقا. ولما رجعت، سافر حجّاج سلطان إلى الهند، وأمضى فيها عشر سنوات قبل أن يعطيه سلطان دلهي جيشاً لاستعادة كرمان، لكنه توفي على الطريق، وعاد جيش دلهي إلى الهند (يحدّد سمط العلى وفاته في عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، ويبدو هذا التحديد خاطئاً).

وكان جلال الدين سيورغتميش بن قطب الدين من زوجة أخرى، يحكم القسم الغربي من كرمان. فذهب بموافقة طارخان خاتون إلى أوردو وأباقا في خراسان. ولما رجع، أدرج اسمه في الخطبة إلى جانب اسم الملكة طارخان خاتون التي شكته إلى باديشاه خاتون (ابنتها). فتلقّت يرلنغ يحظر على ربيبها التدخل في شؤون كرمان.

ولما توفي أباقا (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، قصدت طارخان خاتون تبريز، إلا أن الإيلخان الجديد أحمد تجودر؟ عزلها، وعيّن محلها سيورغتميش الذي كان مقيماً في بلاط المغول. ولم تستطع أن تعود إلى منصبها، فأمضت الشتاء في برذعة، وذهبت في السنة التالية إلى تبريز حيث قضت نحبها.

ووصل سيورغتميش إلى كرمان سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م، وحازها دون أن يلقى مقاومة. وفي عهد أرغون (٦٨٣هـ/ ١١٨٤م)، كان لبيبي طارخان، الابنة البكر لقطب الدين وطارخان خاتون، نجل يسمى نصرت الدين يولوكشاه، يتمتع بنفوذ كبير في البلاط المغولي. فاتهم سيورغتميش باختلاس الأموال، فعزل وطلب منه تقديم محاسبة، وذهب عملاء أرغون إلى كرمان لجباية الضرائب. إلا أن سيورغتميش صرف مبالغ طائلة، فإذن له فيما يبدو أن يحضر إلى البلاط المغولي، وتمكن من إجراء تسوية معهم. في ذلك الوقت كانت أخته غير الشقيقة، باديشاه خاتون (زوجة أباقا القديمة) قد زفّت إلى جيغاتو، بينما تزوج سيورغتميش كردجين، كريمة منكوتيمور بن هولاكو وابيش خاتون، ابنة سعد الدين بن زنكي. وتعهد سيورغتميش أن يدفع عن كرمان مبلغاً سنوياً قدره ٦٠٠٠٠٠ دينار، أذن له أن يقتطع منها ٣٩٠٠٠٠ دينار لقاء تغطية نفقات الإدارة والجيش الخ.. (سمط العلى، ٥٧)، ويبدو أن المجاعة أصابت كرمان في غيابه، وارتفع سعر القمح، وأمعن التركمان في السلب. فأعاد هو النظام إلى نصابه بعد عودته. وأنفق مبالغ هائلة على الأعمال الخيرية: فبنى مدرسة وخانقاه ومشفى، وخصص لها أوقافاً من الأراضي «الخالية» لتأمين مصاريفها. مع ذلك تكررت تعديات القراوون ونيكوداريس الذين سبق لهم أن اجتاحوا كرمان انطلاقاً من سجستان

(٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م). وفي سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، توغلوا حتى بلغوا الخليج العربي. وفي سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، نهبوا ضواحي بردسير (انظر أيضاً بيليو، حواشي على ماركوبولو، ج ١، ١٨٧ ـ ١٨٦، لفظ كاروناس، وجان أوبين، نشوء كاروناس الاتني في مجلة تورسيكا، ١، ١٩٦٩، ٦٥ ـ ٩٤).

ولما توفي أرغون (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، حصلت فوضى، استغلها سيورغتميش ليعلن استقلاله. وفي فصل الشتاء التالي، ذهب إلى جرمسير، واستولى على هرمز. ولما عاد إلى بردسير، أحدث نظام ضرائب جديداً، وقرّر أن يدفع الخراج على ثلاثة أقساط (سمط العلى، ٦٧). عندئذٍ، أرسل جيغاتو باديشاه خاتون لتحكم كرمان. فألقت القبض على سيورغتميش فوراً، وزجّت به في السجن (٦٩١هـ/ ١٢٩١م)، فهرّبته زوجته كوردجين، لكنه أوقف مجدداً، وأعدم سنة ٦٩٣هـ/ ١٣٩٣م. (تتباين روايات هذه الأحداث حسب المصادر). وفي سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، شجع عهد بيدو كوردجين فحاصرت بردسير، وأسرت باديشاه خاتون وأعدمتها، وأصبحت ملكة كرمان، وبجانبها بسقاق مغولي (سمط العلى ٧٧).

وأسقط محمود غازان بيدو فوراً تقريباً. وكان ما يزال في خراسان، فأرسل رسلاً إلى كرمان لجمع المال اللازم لنفقات جيش خراسان، (سمط العلى ٧٨). ولما صار إيلخاناً، عين محمود شاه بن حجاج سلطان، الذي كان في بلاطه حاكماً على كرمان. وفي السنوات الأولى من حكم غازان خان، نشبت نزاعات داخلية في كرمان بين محمد شاه وسولوكشاه (ابن بيبي طارخان، وأخ نصرت الدين يولوكشاه) وبين الأمراء والكتاب المتخاصمين (سمط العلى ٧٩ وما يليها)، وفرضت ضرائب إضافية (المرجع ذاته ٨٣). وجدد القاراوون هجماتهم سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. ولما عين غازان فخر الدين وزير كرمان، أدى سلوك هذا الأخير إلى نشوب ثورة توسعت، واعتصم المتمردون في بردسير، ولم تخضعهم القوات المغولية إلا بعد حصار دام عشرة أشهر. في النهاية، على حدّ قول وصّاف (٤٢٦ وما يليها) دمّرت دفاعات هذه المدينة بآلات حصار استقدمت من اقليم فارس حيث صنعها خبراء استدعوا من مدينة الموصل. ثم أعدم زعماء الثورة بعد سقوط بردسير وسيق شويولشاه إلى تبريز وأعدم فيها (انظر أيضاً سمط العلى ٨٥ وما يليها). وأصبحت كرمان في حالة يرثى لها، وفرغت خزينتها وتأجل دفع الضرائب (المرجع ذاته ٩٤). إلا أن تحسين الوضع توقف بسبب وفاة محمد شاه (سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) الذي كان قد أعيد إلى كرمان. وخلفه شاه جهان بن سيورغتميش الذي كان في بلاط غازان. وفي عهد غازان أو الجايتو، يظن أن محموداً نجل رشيد

الدين أصبح حاكم كرمان، وابتزّ الأموال من سكان بمّ (مكاتبات رشيدي، الناشر محمد شافع، ١٠ وما يليها و ١٠١). وبعد وفاة الجايتو، حاول شاه جهان أن يستقلّ، لكنه عزل بعد مضي ثلاثين شهراً، وانقرضت سلالته بذهابه.

وحلّ محله سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م، سليل شهاب الدين غوري، المدعو ناصر الدين بن محمد بن برهان (قاشاني، تاريخ الجايتو، الناشر م. همبلي، طهران ١٩٦٩، ٤٣).

و ـ حكام آخرون في اقليم كرمان

ثم حكم المظفريون كرمان خلال بضع سنوات. ففي سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، استولى على مدينة كرمان مبارز الدين بن جلال الدين بن قطب الدين، بمساعدة تعزيزات جاءت من هراة. واسترجعها مبارز الدين سنة ٧٤١هـ/١٣٣٩م، وكان قد انسحب منها مؤقتاً. ولم تحتلّ بمّ إلا بعد مرور ٣ أو ٤ سنوات. وفي هذه الفترة، تمزقت امبراطورية الأيلخانات من جراء الحروب والفوضى.

وفي سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، هاجم أنجي أصفهان، أبو أسحاق بن محمود شاه السيرجان ودمّرها، لكنه عجز عن الاستيلاء على قلعتها. وأفشل مبارز الدين حملة ثانية. وفي الوقت ذاته، أحدث الجرمائيون والأوغانان مجدداً اضطرابات في جنوبي كرمان، وحمل عليهم مبارز الدين، إلا أنه لم يستطع أن يمنعهم من إثارة اضطرابات دامت سنوات طويلة في كرمان (يحتمل أن بعضهم ينتمي إلى فصيلة مغولية أرسلت إلى كرمان حوالي ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م بقيادة أوغان (سمط العلى ٥٨).

وفي سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، صدّت تعديات أنجية قرب رفسنجان، وبسط مبارز الدين سلطته على فارس، وترك نجله شجاع الدين يحمي كرمان (٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م). وفي عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، عاد إلى كرمان ليحارب الأوغانان والجرمائين. وتلت فترة نزاعات داخلية وفاته سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م. وتمرد حاكم كرمان، بعلوان أسد، واضطر أن يخضع بعد حصار دام عدة أشهر (رمضان ٧٧٥هـ/ رجب ٧٧٦هـ/ آذار ـ كانون الأول ١٣٧٤م). وبعد وفاة شاه شجاع (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)، حكم نجله سلطان أحمد كرمان. وفي عام ٧٨٧هـ/ ١٣٣٥م، خطب لتيمور. وعندما ذهب تيمور إلى فارس سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، انضمّ إليه سلطان أحمد في معسكره، واستقبل بحفاوة، وعيّن حاكم فارس والعراق وكرمان. لكن استمرت النزاعات الداخلية بين المظفريين حتى قلبهم تيمور سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م، وعيّن ايدجو بهادر برلاس حاكم كرمان (انظر فصلاً

إضافياً عن المظفريين في تاريخ جوزيدا، الناشر أ. ج. براون، لندن ١٩١٠).

وزادت الفوضى، واضطر ايدجو أن يثبت سلطته بسلسلة عمليات عسكرية. وبعد وفاة تيمور (٨٠٧هـ/١٤٠٥م)، اعترف بشاهرخ، إلا أن كرمان تعرضت إلى أعمال سلب وفوضى في أثناء النزاعات التي نشبت بين الأمراء التيموريين. وتوفي أيدجو سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م، وخلفه نجله سعيد سلطان الذي اغتيل مباشرة بدافع من شقيقه سلطان أويس (انظر جان أوبين «سيدان»، ٢٠ وما يليها)، وانحطت الزراعة. ويقول حافظ أبره في زبدة التاريخ، إن جيش ميرزا اسكندر (٨١٨هـ/١٤١٥م) يدمر الأبنية ويخرّب الزراعة ولا يبقي شيئاً منهما حيث يمر. فلم تبق ناحية من كرمان لم تتخرب (ذكر جان أوبين ٣٥ ـ ٣٦).

وفي سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م، حاصر جيش تيموري سلطان أويس في كرمان التي أصيبت بمجاعة مميتة في السنة التالية. عندئذٍ أرسل شاهرخ سيد زين العابدين لإعادة الازدهار إلى إقليم كرمان. ووجّه جهوده إلى تحسين الأوقاف التي بقيت بوراً، وبذر في السنة الأولى ٢٥٠٠٠٠ منّ من القمح. وخفضت الضرائب، وأجّل بعضها المفروض على الفلاحين (حافظ أبره، جغرافية، ورقة ٧٣ ظهر، ذكرها جان أوبين ٤ ـ ٥).

وبعد وفاة شاهرخ (٨٥٠هـ/١٤٤٧م)، عادت الفوضى مجدداً إلى أن أرسل قره قويونلو جهان شاه بن قره يوسف، نجله أبا الحسن قاسم ميرزا ليحوز اقليم كرمان. إلا أن الوضع لم يتحسن البتة (انظر أبو بكر طهراني، كتاب ديار بحرية، الناشر سومر، انقره ١٩٦٤، ج٢، ص ٣٣٤ وما يليها، وجان أوبين، ٥٨ وما يليها) وفرضت ضرائب باهظة على المحاصيل الصيفية والشتوية، وجبايات منتظمة على الفلاحين. واغتصبت الحكومة أملاكاً كثيرة، وصادرت واردات الوقف لدفع رواتب الجيش (أوبين ٦٩ ـ ٧٠) وجرى أبو القاسم ميرزا على عادة إيواء أنصاره في اقليم كرمان، مع ما يؤول إليه هذا العمل من أضرار متنوعة (كتاب ديار بحرية، ٣٠٢).

وبعد وفاة جهان شاه، سادت الفوضى والاضطرابات في اقليم كرمان إلى أن تمكّن أق قويونلو من تثبيت سلطته فيه. وحكم زينل، ثالث أنجال أظن حسن كرمان مدة من الزمن.

وفي عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، سقطت كرمان في يد اسماعيل شاه. واجتاحها الأوزبكيون وأصيبت بأضرار فادحة (علامارا اسماعيل شاه، ٣٢٦ وما يليها، ٣٣٣).

ويقول وزيري إن أول حاكم صفوي كان محمد خان استجلو (تاريخ كرمان، ٢٦٥).

ومن ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣ إلى ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م، حكم كرمان حكام ينتمون إلى قبيلة أفشار (المرجع ذاته، ٣١، ٣٧). وحسب الكتب الصفوية المتأخرة مثل تذكرة الملوك ودستور الملوك، أصبحت كرمان إحدى الولايات الـ ١٣ في الامبراطورية الصفوية.

سادساً ـ الدولة الخوارزمية وكرمان
٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م ـ ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م

في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، ولّى السلطان بركيارق بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي الأمير حبشي بن التوتناق على خراسان، فولّى هذا الأخير محمداً بن أنوشتكين على خوارزم، ولقبه خوارزمشاه. ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقرّ محمداً خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها، فظهرت كفاءته. ولما توفّي الأمير محمد، خلفه ابنه اتسز، الذي ساد الأمن والعدل في عهده[1].

وفي سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، توفي خوارزمشاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين بالفالج. فملك بعده ابنه أيل أرسلان الذي عاد من قتال الخطا، ومرض ومات سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م.

وأثارت وفاته مشكلة خلافته. فقد تولّى الحكم بعده ابنه الأصغر، سلطانشاه محمود. فاستاء شقيقه الأكبر علاء الدين تكش، واستنجد بالخطا، فأنجدوه، وانتصر على أخيه الصغير. وثبّت تكش سلطته في خوارزم. لكنه اختلف مع الخطأ أولياء نعمته، لإلحاحهم في مطالبته بأموال وعدهم بها. وعلم أخوه سلطان شاه محمود بالخبر، فاستنجد بدوره بالخطأ، فنصروه بجيش قوي، هرب من الغرق بمياه قناة جيحون التي فتحت عليه. ثم عاد جيش آخر من الخطأ، فدعم سلطان شاه محمود، الذي فتح به خراسان، واستولى على مرو وسرخس وطوس. لكنه توفي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، فاستعاد تكش خراسان، واستتب له الأمر[2].

وفي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م، كان تكش في مرو، ووافق وجوده فيها وصول رسول الخليفة العباسي الناصر لدين الله إليه، يشكو من طغرل، آخر سلاطين السلاجقة

(١) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٨٤. كان أنوشتكين والد الأمير محمد، مملوك أمير من السلجوقية اسمه بلكباك، اشتراه من غرجستان.

(٢) المرجع ذاته، ج ٩، ص ١١٤ ـ ١١٨، ٢٣٠، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج ١ ص ٦٢ رينه غروسه، امبراطورية السهوب، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

في العراق، وطلب منه قصد بلاده، ومعه منشور باقطاعه البلاد. فلبّى تكش الطلب، والتقى عسكره وعسكر طغرل قرب الريّ. فقتل طغرل في المعركة، وحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بها عدة أيام. إلا أن الوزير مؤيد الدين بن القصاب الذي أتى على رأس جيش الخليفة لنجدة تكش، نوى الغدر به لولا وفاته سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤م وفي سنة ٥٩٢هـ، هزم تكش عسكر الخليفة، وغنم الخوارزميون منه شيئاً كثيراً. وفي سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، سيّرت الخلع من الخليفة لخوارزمشاه تكش، ولولده قطب الدين محمد، وتم تقليده ما بيده من البلاد. وفي سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، أصيب تكش بالخوانيق، وتوفي بشهرستانه بين نيسابور وخوارزم. وكان يدفع جزية معينة للخطائيين، وأوصى ابنه باتباع سياسة مماثلة.

وخلفه ابنه قطب الدين محمد الذي استبدل لقبه قطب الدين بعلاء الدين، فصار علاء الدين محمد[1]. وفي أثناء حكمه (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م - ٦١٧هـ/ ١٢١٩م)، وصلت الدولة الخوارزمية إلى قمة مجدها وتوسّعت إلى أقصى حدّها. فانتزع أفغانستان من الغورية، وما وراء النهر من الخطائيين، واستولى على إقليم كرمان وفرض خراجاً على سلطنة هرمز، واستحكم العداء بينه وبين الخليفة الناصر لدين الله، واضطّر أن يلجأ للمغول.

آ - السلطان محمد خوارزمشاه والغورية (الغوريون)

٥٤٥هـ/ ١١٥٠م - ٦١٢هـ/ ١٢١٥م

نشأت مملكة الغوريين في مقاطعة غور الجبلية، وبين هراة وغزنة. وكانت عاصمتها فيروزكوه. ففي سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، حاصر هراة الحسين بن الحسين، ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه، الملقب بعلاء الدين الغوري. وذهب بعدها إلى بلخ، وهزم الأمير كماج، أكبر أمراء سنجر. فسار إليه سنجر، وأسره، ثم عفا عنه. ولم يتوقف علاء الدين الغوري عن محاولات التوسع، فنزل إلى غزنة سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، ثم انسحب منها عائداً إلى بلده لشدة البرد.

واستعمل علاء الدين الغوري ابني أخيه على بلد من بلاد الغور، وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن بسام، وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن بسام. وسعى المفسدون بغياث الدين وشهاب الدين عند عمهما، فاستدعاهما إليه، فامتنعا خوفاً

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٥٠.

منه. فنشب قتال بينهما وبينه، أسراه فيه. مع ذلك وضعا نفسيهما في خدمته. فجعل عمهما غياث الدين ولي عهده، وزوّجه إحدى بناته. وكان غياث الدين مصاباً بمرض النقرس الذي يمنعه من الحركة، فلا يتحرك إلا محمولاً في محفّة. وكان شهاب الدين هو الذي يقود الجيوش ويباشر الحروب[1].

وكان الغوريون يحكمون قسماً من افغانستان وجانباً من غربي الهند. وقد عاصر خوارزمشاه علاء الدين محمد، غياث الدين وشهاب الدين الغوريين، ونشبت بينه وبينهما حروب كثيرة استمرت إلى أن انتهت باحتلال جميع أراضي السلطنة الغورية.

وحصل النزاع بين الخوارزميين وبين الغوريين في عهد تكش: ففي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م، استولى على بلخ الملك بهاء الدين سام بن محمود بن مسعود، ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين، وخطب فيها لغياث الدين، وقطع حمل الخراج عنها إلى الخطا. وفي السنة ذاتها، كتب الخليفة الناصر لدين الله إلى غياث الدين، ملك الغور وغزنة، يأمره بالذهاب إلى بلاد خوارزمشاه علاء الدين تكش، ليعدل عن القدوم إلى بغداد. فراسله غياث الدين، وقبّح فعله، وهدّده باجتياح بلاده. فحرّض تكش الخطا على الهجوم على بلاد الغور (كرزيان، شبرقان)، فعبروا جيحون بغياب شهاب الدين في الهند. وأمروا بهاء الدين سام ملك باميان، بمغادرة بلخ، ودفع الجزية عنها. ونشبت معركة بين الخطا والغورية، انهزم فيها الخطا، فألقوا تبعة هزيمتهم على خوارزمشاه تكش. وساءت علاقتهم به.

وفي بداية عهد خوارزمشاه علاء الدين محمد، سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، اتفق غياث الدين وشهاب الدين الغوريان على أخذ بلاده، فاستوليا على خراسان سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، إلا أن خوارزمشاه محمد استعادها سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م، هي ومرو ونيسابور[2]. وفي العام التالي ٥٩٩هـ/١٢٠٢م، توفي غياث الدين الغوري، وانفرد شهاب الدين بالحكم. وهزم الخوارزميون الغوريين في معركة مرو. وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، غادر شهاب الدين غزنة إلى لهاوور، عازماً على غزو الهند. فحاصر علاء الدين محمد هراة، وكان فيها الب غازي ابن أخت شهاب الدين، فخرج منها ومات. فعاد شهاب الدين من الهند، وحاصر خوارزم، فاستنجد علاء الدين محمد بالخطا، فأنجدوه، وهزموا الغوريين شرّ هزيمة. وفي سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، قاتل

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٨، ٣٣ ـ ٣٥.
(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٤١، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٦.

شهاب الدين بني كوكر، وأوقع بهم مقتلة، فغافل نفر منهم حراسه، ودخلوا عليه، وطعنوه اثنتين وعشرين طعنة بالسكاكين، فأردوه قتيلاً. وفي السنة ذاتها استولى علاء الدين محمد خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان[١]. وفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، صالح علاء الدين محمد خوارزمشاه غياث الدين محمود الغوري بن غياث الدين محمد على ما بيده من بلاد الغور (فيروزكوه). ثم استولى على هراة، وأمر بقتل غياث الدين محمود فقتل[٢].

وفي سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، ملك خوارزمشاه علاء الدين محمد كرمان ومكران والسند وسلطنة هرمز على الوجه التالي: «خوارزمشاه محمد بن تكش، كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر، ولقبه تاج الدين. وكان في ابتداء أمره جمّالاً يكري الجمال في الأسفار. ثم جاءته السعادة، فاتصل بخوارزمشاه، وصار سيروان جماله. فرأى منه جلداً وأمانة. فقدّمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره، فولاّه مدينة زوزن. وكان عاقلاً، ذا رأي وحزم وشجاعة. فتقدّم عند خوارزمشاه تقدماً كثيراً. فوثق به أكثر من جميع أمراء دولته. فقال أبو بكر لخوارزمشاه: إن بلاد كرمان مجاورة لبلدي. فلو أضاف السلطان إليّ عسكراً، لملكتها في أسرع وقت. فسيّر معه عسكراً كثيراً. فمضى إلى كرمان، وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان في أيام السلطان سنجر. فقاتله. فلم يكن له به قوة وضعف، فملك أبو بكر بلاده في أسرع وقت. وسار منها إلى نواحي مكران فملكها كلها إلى السند من حدود كابل. **وسار إلى هرمز، مدينة على ساحل بحر كرمان. فأطاعه صاحبها واسمه ملك. وخطب بها لخوارزمشاه، وحمل عنها مالاً. وخطب له بقلهات وبعض عُمان، لأن أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز وسبب طاعتهم له، مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم، انهم يتقرّبون إليه بالطاعة ليأمن أصحاب المراكب التي تسير إليهم عنده. فإن هرمز مرسى عظيم، ومجمع التجار من أقاصي الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد. وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغارات، وكل منهما ينهي أصحاب المراكب أن ترسي ببلد خصمه. وهم كذلك إلى الآن[٣].**

وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، ملك خوارزمشاه محمد بن بكر تكش مدينة غزنة

---

(١) المرجع ذاته، ج ٩، ص ٢٦١، ٢٧٠ ـ ٢٧٧.
(٢) المرجع ذاته، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٥.
(٣) المرجع ذاته، ص ٣٠٨.

وأعمالها بعد استلامه قلعتها من قتلغ تكين، وقتل من بها من عسكر الغورية[1].

ب ـ السلطان محمد خوارزمشاه وإنهاء دولة القراخطائيين

الخطا أو القراخطائيون قبائل تركية أسست دولة واسعة قبل زحف المغول على آسية الوسطى والغربية. وفي سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، هزم القراخطائيون السلطان سنجر في موقعة قطوان واستولوا على اقليم ما وراء النهر، فأصبحت حدودهم متاخمة لحدود الدولة الخوارزمية. وكان خوارزمشاه اتسز يدفع لهم جزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠ دينار ذهب، اتقاءاً لغاراتهم. وثابر ابنه علاء الدين تكش على دفع الخراج لهم. أما علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، فامتنع عن دفعها ودخل في حروب طويلة معهم، دامت متقطعة حتى انقراض دولة الخطا[2].

وفي سنة ٥٦٥هـ/١١٧١م، عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم في عهد خوارزمشاه ايل أرسلان بن اتسز، وهزموا الخوارزميين في أمرية. ثم تدخلوا سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م في تنصيب سلطانشاه محمود وعلاء الدين تكش بعد وفاة أبيهما أيل أرسلان. وفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م، أخذ الغورية بلخ من الخطا، وهزموهم في خراسان. وفي العام ذاته، ظفر علاء الدين تكش على الخطا وملك مدينة بخارى[3].

وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، نشبت معركة حامية الوطيس في موقع صوقرا (الماء الأسود) بين عسكر خوارزمشاه محمد وبين عسكر شهاب الدين الغوري. واستنجد خوارزمشاه محمد بالخطا، فأنجدوه، وانهزم الغوريون. ثم تصالح شهاب الدين والخطا، واتفقا على ألا يعبر أحد منهما النهر إلى بلد الآخر. وبقي العداء مستحكماً بين الخطا والخوارزميين. وفي سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، سلّم علاء الدين محمد الخطا ترمذ ليتمكن من ملك خراسان. وفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، اتصل عثمان خان سلطان غزنين وبخارى، الملقب بلقب خان خانان أي سلطان السلاطين، بخوارزمشاه محمد، وحثّه على محاربة الخطا، وتعهد له أن يحمل إليه الجزية التي تدفعها دولته إلى الخطا أي ٣٠٠٠٠ دينار ذهب، وبعث له بوجوه أهل بخارى وسمرقند رهائن ضماناً للوفاء بوعده. فعبر علاء الدين محمد نهر جيحون لقتال الخطا، فجرت بينهم وقعات كثيرة، لكنه لم يظفر عليهم، واستمرت الحرب وانهزم الخوارزميون، وأسر علاء الدين

---

(١) المرجع ذاته، ص ٣١٠.

(٢) المرجع ذاته، ص ٢ من ج ٩.

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ١١٤ ـ ١١٥، ١١٧، ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٤٢.

محمد، ثم أفلت منهم واستولى على هراة. واستقامت كل خراسان له في سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م. وفي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، ملك خوارزمشاه محمد بلاد ما وراء النهر مدينة مدينة. وفي السنة ذاتها تواقع الخطا والتتر، فانهزم الخطا هزيمة عظيمة. وكان الخصمان ملك الخطا وكشلي خان ملك التتر قد استنجدا بخوارزمشاه، فتظاهر بأنه جاء تلبية لطلب الطرفين، وتركهما يتحاربان. وإثر هزيمة التتر للخطا، أمعن خوارزمشاه تقتيلاً بالخطا، وأفهم كشلي خان التتري أن الفضل للخوارزميين في انتصاره على الخطا. فقبل كشلي خان وجهة نظر خوارزمشاه، لكنه طالبه باقتسام أراضي المهزومين[1].

جـ ـ السلطان محمد خوارزمشاه والخليفة العباسي الناصر لدين الله

الناصر لدين الله هو الخليفة العباسي الرابع والثلاثون (٥٧٥هـ/١١٨٠م ـ ٦٢٢هـ/١٢٢٥). خلافته أطول الخلافات، دامت ٤٦ سنة و١٠ أشهر و١٨ يوماً. وقد عاصر الدولة الخوارزمية التي تأسست قبل خلافته بـ ٨٥ سنة، وبقيت قائمة ست سنوات بعد وفاته. وفي زمانه وقبله كان السلاجقة يسيطرون على الخلافة العباسية الضعيفة سياسياً، التي تقلّصت الأراضي الخاضعة لها ولم تعد تضم سوى العراق العربي واقليم خوزستان.

وظنّ الخليفة الناصر أن بوسعه الاعتماد على الخوارزميين لتحرير بغداد من نير السلاجقة، فبعث سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م، برسول إلى علاء الدين تكش بن ايل أرسلان، يطلب منه انقاذه من طغرل الثاني، آخر سلاطين السلاجقة في العراق. ففعل وأرسل له رأسه إلى العراق. وفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، سيّرت خلع الخليفة الناصر لتكش ولولده قطب الدين (الذي أصبح فيما بعد علاء الدين محمد خوارزمشاه). ولما تعاظم شأن الدولة الخوارزمية، استحكم العداء بينهما وبين الخليفة، الذي استعدى عليها غياث الدين الغوري، والقراخطائيين، وأتابكة فارس وأذربيجان، «وأطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك»[2].

لهذه الأسباب، اعتبر علاء الدين محمد خوارزمشاه ان الخليفة يمثّل خطراً يتهدد دولته. فقاد جيشه سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، قاصداً بغداد. فوصل إلى الري وملكها. وكان أتابك فارس سعد بن دكلا قد استولى على أصفهان، وسار منها يريد الري،

(١) المرجع ذاته، ج ٩، ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ٢٧٩، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥.
(٢) انظر الحاشية ٣، وابن الأثير ج ٩، ص ٣٦١.

فاصطدم عسكره بعسكر خوارزمشاه، فانهزم جيش الأتابك وأسر الأتابك نفسه، لكنه اتفق مع علاء الدين محمد على أن يسلمه بعض فارس ويبقي بعضها لنفسه. كذلك قبل أوزيك بن البهلوان أتابك أذربيجان وأران أن يخطب لعلاء الدين محمد خوارزمشاه وأن يدخل في طاعته. واستأنف جيش الخوارزميين المسير باتجاه بغداد. لكن هبّت عاصفة شديدة ثلجية في أسد آباد، فأهلك البرد كثيراً من جنوده، فاضطّر علاء الدين محمد أن يعود إلى خراسان، فوصل إلى مرو سنة ٦١٥هـ/١٢٤٨م، وانتقل منها مباشرة إلى ما وراء النهر[١]، ليجابه التتر.

د ـ السلطان محمد خوارزمشاه والتتر ثم المغول

المقصود بالتتر هنا قبيلة من قبائلهم تسمى نايمان، رئيسها نايانك خان، نازلة شرقي دولة القراخطائيين. انتصر عليها جنكيزخان، وقتل نايانك. إلا أن نجله كوجك خان كشلي خان حسب ابن الاثير، فرّ، ولجأ إلى كورخان ملك القراخطائيين الذي شمله برعايته وسمح له بتشكيل جيش قوي. لكنه غدر بولي نعمته، واتفق مع خوارزمشاه على تصفية دولة القراخطائيين وتواقع الخطا والتتر بزعامة كشلي خان، وانهزم الخطا هزيمة شنعاء سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، وأمعن خوارزمشاه تقتيلاً بهم بعد انتهاء المعركة. ثم اختلف هو وكشلي على اقتسام أراضي الخطا. ولاحق جيش جنكيزخان بقيادة جبه نويان كشلي ليحول دونه ودون الثأر لأبيه، واعتقله وقتله وقضى على قبيلة النايمان سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م[٢].

عندئذٍ استتّب الأمر لجنكيزخان في الصين وآسية الوسطى، وتعاظم شأنه بعد قضائه على كوجك خان سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م. وتاخمت حدود امبراطوريته حدود الدولة الخوارزمية. فقلق علاء الدين خوارزمشاه، وأرسل سفارة إلى الصين برئاسة بهاء الدين الرازي لاستطلاع الوضع، فوصلت إلى معسكر جنكيزخان، واستقبلت بحفاوة. ثم أوفد جنكيزخان إلى علاء الدين سفارة مؤلفة من ثلاثة تجار مسلمين، وحمّلهم هدايا ثمينة، قدموها له في ربيع ٦١٥هـ/١٢١٨م، وسلّموه رسالة من الخان الأكبر، جاء فيها ما يلي: «ليس يخفى عليّ عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك. وقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض. وأنا أرى مسالمتك من جملة

(١) المرجع ذاته، ج ٩، ص ٣١٣.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج ١، ص ٢٩، ٤٧ ـ ٤٩، ٥٤ ـ ٥٧. ابن الأثير ج ٩، ص ٣٠ ـ ٣٢.

الواجبات. وأنت عندي مثل أعزّ أولادي. وغير خاف عليك أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم. وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها. فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردّد، عمّت المنافع وشملت الفوائد»[1].

وأوضح الوفد المغولي أن جنكيزخان يرغب بإقامة علاقات سلمية وتبادل تجاري حرّ وآمن بين الدولتين، ويقترح إبرام معاهدة تحالف وصداقة. فحمّل خوارزمشاه الوفد ردّه بقبول الاتفاقية التجارية.

ثم قام ثلاثة من التجار الخوارزميين من سكان بخارى برحلة إلى امبراطورية الصين حاملين معهم سلعاً نفيسة، اشتراها منهم البلاط الامبراطوري ودفع ثمنها وأكرمهم. وعادوا ترافقهم قافلة ضمّت ٥٠٠ جمل و٤٥٠ تاجراً، تحمل أمتعة فاخرة من الذهب والفضة والحرير والأقمشة النفيسة والمسك والأحجار الكريمة.

وحطّت القافلة رحالها في مدينة أترار على الحدود المغولية الخوارزمية. وكان الحاكم فيها ينال خان ابن خال خوارزمشاه. فطمع بأموالهم، وأقنع خوارزمشاه بأنهم جواسيس في زيّ تجار، فطلب منه مراقبتهم. إلا أن ينال خان قتلهم، وأخذ أموالهم، ونجا واحد منهم عاد إلى الصين وأخبر جنكيزخان بما حدث. أما خوارزمشاه، فأمر ينال خان أن يرسل أمتعة التجار الصينيين إليه، فوزّعها على تجار بخارى وسمرقند، وقبض أثمانها، وعالج جنكيزخان الحادثة بحكمة ورويّة، فأوفد سفارة مؤلفة من ثلاثة تجار مسلمين إلى خوارزمشاه، وحمّلها الرسالة التالية: «إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، ألا تتعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت. والغدر قبيح، ومن سلطان الاسلام أقبح. فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلّم ينال خال إليّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدهماء، وإلا فإذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح»[2].

لما سمع خوارزمشاه الرسالة، اعتبرها إهانة له، فثار وأمر بقتل أحد أعضاء السفارة وبحلق لحى رفاقه، وأعادهم إلى بلادهم ليخبروا من أرسلهم بأنه قادم إليه ليحاربه. وسبق رسل الصين، فلم يجد في مضارب جنكيزخان سوى النساء والصبيان والأطفال، فأوقع بهم وغنم الجميع. إلا أن أحد أبناء جنكيزخان عاد من الحرب،

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، ج ١، ص ٩٨ ـ ٩٩. ابن الاثير ٣٣٠.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد، ص ٩٩ ـ ١٠٥. ابن الأثير ٣٣١.

وأدرك جيش خوارزمشاه في الديار الصينية، فاقتتل العسكران قتالاً شديداً ثلاثة أيام، ثم افترقا تحت جنح الظلام في الليلة الرابعة. ورجع خوارزمشاه إلى ما وراء النهر، وأعدّ بخارى وسمرقند للحصار.

ثم لحق جنكيزخان بخوارزمشاه، واجتاح اقليم ما وراء النهر بأربعة جيوش على أربعة محاور من الشمال إلى الجنوب، هي محاور جند وأترار وبخارى وخجند. فاحتل جيش نجله جغتاي أترار، وقبض على ينال خان الذي صهرت الفضة وصبت في عينيه وأذنيه حتى مات. واستولى جيش ابنه جوجي علىحند سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م. واقتحم جيش مغولي صغير خجند، ففرّ حاكمها تيمور ملك. وهاجم جنكيزخان وولده تولي بخارى، فدخلاها وافتتحا قلعتها. كذلك فعلا بمدينة سمرقند.

ثم عهد جنكيزخان إلى جيش قوامه ٣٠٠٠٠ محارب بتعقّب خوارزمشاه والقضاء عليه. إلا أن هذا الهارب استطاع أن ينقذ نفسه منهم، فانتقل من نيسابور إلى بسطام ومنها إلى مازندران وبندر ابسكون، حيث أقّله مركب ذهب به إلى جزيرة سربنجاته الواقعة في بحر قزوين. فتوفي فيها في شهر شوال سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م، بعد أن أعلن البيعة لابنه جلال منكبرتي بدلاً من شقيقه ازلاغ شاه[١].

ارتكب علاء الدين محمد خوارزمشاه خطئين سياسيين كبيرين، هما إزالة الامبراطورية الخطأ التي كانت تشكل سداً منيعاً بينه وبين الصين، ثم سماحه بصورة بأخرى لينال خان بقتل تجار القافلة المغولية في أترار.

وقد قال شبانكاري عن الهفوة الأولى: «قصد خوارزمشاه الخطا، مع أن جملة الملوك والوزراء وخانات تركستان حذّروه من ذلك وقالوا له: إن جيش الخطا والختن لم يحركّه أحد قط. كذلك قال المجربون: لقد سمعنا من آبائنا أنه وراء جيش الخطا توجد خلية نحل حيث ترابط جيوش يأجوج، ويقصدون بهم المغول، فلا تحرّك هذه الخلية. ولكن دوافع الطمع في التملّك وحبّ السيطرة قد أصمّت أذن السلطان عن استماع هذه النصائح الصادقة، فذهب وهزم الخطا واستولى على بلاده»[٢].

وقال الجويني عن العثرة الثانية: «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار، قد أجرت نهراً من دماء المسلمين. وكان القصاص لكل شعرة مئات الآلاف من الرؤوس»[٣].

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، ج ١، ص ١١١ ـ ١٢٣. ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٣١ ـ ٣٣٥.
(٢) وارد في المغول في التاريخ، ص ٦٨.
(٣) وارد في المغول في التاريخ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

وهذا يعني في الواقع أن خوارزمشاه محمد جازف بمصير دولته، وزعزع أركانها، وخلّف لنجله جلال الدين منكبرتي بلاداً مدمرة تسود فيها الفوضى. فماذا فعل المغول بعد وفاة خوارزمشاه محمد؟ وماذا فعل جلال الدين؟

أما المغول، ففتحوا اقليمي خورازم وخراسان، وسيطروا على بلاد غزنة. وكانت تركان خاتون، والدة خوارزمشاه محمد الطاعنة في السن، تدير شؤون اقليم خوارزم هي وقبيلتها القوية المسماة القنقلي. وأراد جنكيزخان أن يأسرها، ففرّت إلى مازندران، واعتصمت بإحدى القلاع الحصينة، لكنها حوصرت ونفذ الماء عندها، فاستسلمت في أوائل ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، وبقيت أسيرة حتى توفيت سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م. وحاصر أبناء جنكيزخان جغتاي وأوكتاي وجوجي الجرجانية عاصمة الدولة الخوارزمية أيضاً، ولم يفلحوا بالاستيلاء عليها إلا بعد أن أغرقوها بمياه سدّ جيحون الذي فتحوه عليها.

ثم استولى جنكيزخان على مدينتي نخشب وترمذ، وتوجّه إلى الطالقان، ووكل إلى ابنه تولوي أمر استكمال إخضاع باقي اقليم خراسان، ففتح مدينتي نسا ومرو. وحاصر نيسابور في منتصف شهر رمضان سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، وهاجمها في أوائل شهر صفر سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، وقتل جميع أهلها. وسيطر على هراة، ثم التحق بأبيه في الطالقان. ولما انتهى جنكيزخان وتولوي من الطالقان توجّها إلى باميان وأباداها لأن موتوجن بن جغتاي حفيد جنكيزخان، قتل في معركتها[١].

وأما جلال الدين منكبرتي، فغادر جزيرة سربنجاته إلى خوارزم، وفرّ منها، هرباً من المغول، إلى مدينة نسا، فمدينة نيسابور، فغزنة. وفي غزنة، استطاع جلال الدين أن يجمع من شتى الجهات جيشاً كبيراً من المشاة والخيالة، سار به إلى السهل المحيط بمدينة بروان، شمالي شرقي غزنة حيث هزم الجيش المغولي في ربيع سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، رغم التعزيزات التي وصلته. وأدى هذا الانتصار إلى نشوب ثورة في هراة أخمدت بسرعة وأبيد السكان[٢].

ثم انتصر جلال الدين على المغول في كابل وغنم ما معهم وكان عظيماً. فاختلف قائدان من قواده، هما الأمير سيف الدين بغراف والأمير ملك خان، على

---

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٤١ـ ٣٤٤. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٢.

(٢) المغول في التاريخ، ص ١٣٣ ـ ١٣٦.

اقتسام الغنائم، واقتتلا وقتل شقيق بغراف في نزاعهما، فانسحب بغراف وذهب إلى الهند مع ۳۰۰۰ من جنده. فضعف جلال الدين منكبرتي، ولم يعد قادراً على مجابهة المغول، فسار نحو الهند، وعبر نهر السند هو و ٤٠٠٠ من محاربيه[1].

لكن تعذّر على جلال الدين البقاء في بلاد الهند، فغادرها في أول سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، إلى كرمان وعيّن فيها بلاق حاجب نائباً عنه. ووصل إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين وسار منها إلى بلاد فارس، وأعاد إلى أتابكها سعد ما كان أخوه قد أخذه منها وصالحه. ثم قصد خوزستان والعراق. وملك أذربيجان في العام ذاته واحتل تبريز. وفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، بلغه وصول بعض التتر إلى الدامغان، فقاتلهم وهزمهم. وظفر على الاسماعيلية. ولما ظهر التتر مجدداً قرب أصفهان، تغلّب عليهم جلال الدين مرة ثانية وأبعدهم عن الري. لكنه علم فيما بعد أنهم ليسوا مغولاً من أتباع جنكيزخان. وفي سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، انتزع خلاط من يد صاحبها الأشرف موسى بن الملك العادل أيوب الذي شكّل حلفاً ضد جلال الدين هزمه واسترجع خلاط منه.

وفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، اتصل مقدّم الاسماعيلية بالمغول، وأطلعهم على ضعف جلال الدين وعلى هزيمته في خلاط، واستحثهم على الإجهاز عليه.

مهما يكن، عهد أوكتاي بن جنكيزخان، بعد انتخابه خاناً أعظم، إلى أشهر قواده المدعو جرماغون نويان بتتبع جمال الدين منكبرتي وإعادة فتح اقليم فارس. فاستولى على الري وهمذان، وفرّ جلال الدين من الجيش المغولي إلى تبريز، ثم إلى موقان، فآمد في أعالي نهر دجلة. فلحق به المغول، وهزموه هزيمة كبرى. فهرب منهم واحتمى بجبال كردستان، ولقي مصرعه فيها في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ/ ١٥ آب ١٢٣٠م على يد أحد الأكراد[2].

سابعاً ـ المغول والمغول الايلخانية
٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م ـ ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م
والجـــلائر (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م ـ ٨١٤هـ/ ١٤١١م)

توفي جنكيزخان في النصف الأول من شهر رمضان عام ٦٢٤هـ/ آب ١٢٢٧م.

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٤٤.
(٢) المغول في التاريخ، ج ١، ص ١٧١ ـ ١٧٣.

فتولى تولوي أصغر أنجاله الوصاية على العرش سنتين: ٦٢٤هـ/١٢٢٧م - ٦٢٦هـ/١٢٢٩. وفي ربيع سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، انعقد مجلس الشورى المغولي أو القور يلتاي، الذي يضم جميع الأمراء المغول، وانتخب أوكتاي، نجل جنكيزخان الثالث خاناً أعظم (خاقاناً).

آ - عهد أوكتاي: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م - ٦٣٩هـ/١٢٤١م

كان أوكتاي أذكى أبناء جنكيزخان، لكنه لا يقارن بعبقرية أبيه وحبه السيطرة ونشاطه، وإن ورث عنه الحسّ السليم والصلابة. وكان ثقيل الظل طيباً وسكيراً ومرحاً، رؤوفاً بطيبة خاطر وكريماً إلى أقصى حد. مع ذلك اهتم اهتماماً كبيراً بإكمال فتوحات والده في الصين وأوربة وفارس. ويعنينا منها فتح اقليم فارس وكرمان. وقد تحقق له ذلك على يد قائد جيشه جرماغون نويان، الذي لاحق جلال الدين منكبرتي إلى أن اغتيل في مخبئه.

وبقي جُرْماغون نويان في منصبه حتى سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م بعد وفاة منكبرتي وانقراض الدولة الخوارزمية نهائياً. ونصب خيامه في شمالي غربي اقليم فارس في سهول موقان واران، الغنية بمراعيها. ومنها أخذ يغزو ما حوله من البلدان إلى أن أصيب بالشلل، وخلفه بايجو نويان في قيادة القوات المغولية سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وظل فيها حتى ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. وتولى قواد آخرون الفتوحات المغولية في أوربة والصين. وما حصل على أعلى مستوى، وهو وفاة أوكتاي في ١١ كانون الأول سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م وإنشغال الأمراء المغول بالاستعداد لانتخاب خاقان جديد.

ب - وصاية توراكينا خاتون (٦٤٠هـ/١٢٤٢م - ٦٤٤هـ/١٢٤٦م)
وانتخاب كيوك خان (٦٤٤هـ/١٢٤٦م - ٦٤٧هـ/١٢٤٩م)

وتولت توراكينا خاتون الوصاية على عرش المغول بعد وفاة زوجها مباشرة، ومارست مهام السلطة من سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م إلى ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، وبذلت جهوداً مضنية لإطالة مدة وصايتها، لأن الأمراء المغول اختلفوا على من يخلف زوجها، في حين كانت هي ترغب في تنصيب ابنها البكر كيوك خاقاناً.

ولما ضمنت انتخاب مجلس الشورى القوريلتاي، ابنها، دعت الأمراء إلى عقد الاجتماع فالتأم شملهم، واقترح أغلب الحاضرين تسمية كيوك خاناً أعظم، وتمت الموافقة عليه.

وكان كيوك خان ميالاً إلى الحرب ومغامراً يميل إلى الفتح على غرار جدّه، فأوفد ايلجكناي إلى فارس لفتح بقية الممالك الاسلامية، وعيّن الأمير أرغون والياً على خراسان والعراق وأذربيجان وكرمان وفارس. ولم يمهله القدر لإنجاز مخططاته، فتوفي في ٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م.

جـ ـ وصاية أقول قيمش وانتخاب منكو بن تولوي ٦٤٨هـ/ ١٢٥١م ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م

تولّت أُقُول قيمش الوصاية على عرش المغول بعد وفاة زوجها كيوك خان. وسعت لتنصيب شيرامون ابن شقيق كيوك، خاقاناً. لكن عارضها الأمير باتو بن جوجو أوسع الأمراء المغول نفوذاً وسُرْقويتي بيكي زوجة الأمير تولوي خان بن جنكيزخان، وأكثرية الأمراء المغول. وبعد أخذ وردّ طويلين، وانعقاد مجلس الشورى القوريلتاي مرتين، أعلن انتخاب منكو خاقاناً، وضربت أعناق المعارضين لاختياره.

ولما استتب الأمر لمنكو، اهتم بالإصلاحات الداخلية وتنظيم الإدارة، وعامل البوذيين والمسيحيين والمسلمين على قدم المساواة. ثم عني بالغزو والفتح والعمل على توسيع امبراطوريته. فكلّف شقيقه قوبيلاي بفتح أقاليم الصين الجنوبية، وأخاه الأصغر هولاكو بالقضاء على الاسماعيلية وإخضاع الخليفة العباسي. وهولاكو بتأسيس دولة المغول الايلخانية في فارس.

د ـ الدولة الايلجانية في فارس: ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ـ ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م

١ ـ هولاكو: ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م ـ ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م

خضعت فارس لسلطة المغول منذ سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م. وبقيت عشرين سنة يحكمها قوادهم العسكريون وموظفو ديوان الضرائب. وفي سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م، أقيمت فيها سلطة سياسية، بقرار من الخاقان مونكا بن تولوي في اجتماع القوريلتاي، تضمنت تسمية شقيقه الأصغر هولاكو نائباً عنه فيها. وجهّز مونكا لأخيه هولاكو جيشاً قوياً، ورسم له الخطة التي ينبغي عليه التقيد بها فقال له[1]: «إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى فارس. وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه، في الكليات والجزئيات، وخصّ كل من يطيع أوامرك

(١) المغول في التاريخ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

ويجتنب نواهيك، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك. أما من يعصيك فأغرقه في المذلّة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به. وابدأ بإقليم قوهستان في خراسان، فخرّب القلاع والحصون. وإذا فرغت من هذه المهمة، فعليك أن تتوجّه إلى العراق وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً. أما إذا تكبّر وعصى، فألحقه بالآخرين من الهالكين. كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور، العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفّف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفّه عنهم. وأما الولايات الخربة، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال. وثق أنك بقوة الله العظيم، سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة. وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون».

وخرج هولاكو على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم في سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م. فأسرع أمراء الأطراف إلى تقديم كافة التسهيلات لتموين جيشه. ووصل إلى سمرقند في شعبان سنة ٦٥٣هـ/شباط ١٢٥٥م، ثم توجّه إلى مراعي كان كيل، وكان مسعود بك حاكم ما وراء النهر وقوهستان قد أقام له هناك خيمة مطرزة بالذهب، فأمضى فيها هولاكو أربعين يوماً تقريباً. ثم رحل منها إلى مدينة كش التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من سمرقند، فمكث فيها مدة شهر أكرمه خلالها الوجوه والأعيان في اقليم خراسان. وعندما ذاع نبأ وصول هولاكو إلى فارس، تلقى الثناء والترحيب من أتباعه الجدد، منهم شمس الدين كرت ملك هراة، والسلغري أبو بكر سعد بن زنكي أتابك فارس، وسلاجقة آسية الصغرى[1].

وتقيّد هولاكو بخطة أخيه الخاقان مونكا، فهاجم الاسماعيليين في قلاعهم في مزندران وميمون دز والموت، وغيرها من قلاعهم الخمسين. فحاصر ركن الدين كورشاه في ميمون دز، وقبل استسلامه في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٢٥٦ وأرسله إلى مونكا فقتل على الطريق. ورمى حماة الموت سلاحهم في ٢٠ كانون الأول سنة ١٢٥٦، وبذا قضي على الاسماعيليين.

فلما فرغ الايلخان هولاكو من محاربة الاسماعيلية، قصد همذان. وفي شهر رمضان سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، أرسل رسولاً إلى الخليفة يحمل رسالة يطالب فيها

(١) المرجع ذاته، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، غروسيه، امبراطورية السهوب، ٤٢٤ ـ ٤٢٧.

المستعصم بالسلطة الزمنية التي سبق أن مُنِحَت في بغداد لأمراء البويهيين ثم لسلاطين السلاجقة. وقال هولاكو في هذه الرسالة: «لا بد انه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان، وعلمت أي مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة. ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت هذه السيادة. فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟ وقد نصحناك قبل هذا. والآن نقول لك: تجنّب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف في سبيلنا، لأنك ستتعب نفسك عبثاً. ومع هذا فقد مضى ما مضى، فعليك أن تهدم الحصون، وتطمّ الخنادق، وتسلّم ابنك المملكة، ثم تتوجّه لمقابلتنا. وإذاكنت لا تريد ذلك، فأرسل إلينا الوزير سليمان شاه والدواتدار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان. فإذا أطعت أمرنا، فلا حقد ولا ضغينة، ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك. وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعدّ جيشك، وعيّن جبهة القتال، فإننا مستعدون لمحاربتك. واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو مني، ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض. فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك، فاستمع لنصحي، بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأري كيف تكون إرادة الله»(1).

رفض الخليفة المستعصم انذار هولاكو، وأجابه بما يلي: «أيها الشاب الحدث، الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتمنى قصر العمر، والذي أغراه إقبال الأيام ومساعدة الظروف، فتخيّل نفسه مسيطراً على العالم، وحسب أن أمره قضاء مبرم، وأمر محكم. لماذا تطلب مني شيئاً لم تجده عندي؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله، ويعتنقون الأديان، كلهم عبيد هذه البلاد وجنود لي. إنني عندما أشير بجمع الشتات، سأبدأ بحسم فارس، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذٍ سيصير وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب. غير أني لا أودّ الحقد والخصام، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش، أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح، خصوصاً وأني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان

(1) المصدر ذاته، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ورشيد الدين، جامع التواريخ، نشر كاترمير، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

واحد. فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم؟ أسلك طريق الودّ، وعد إلى خراسان. وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، فإن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة، هم على أهبة الاستعداد للقتال»[١].

وعلى إثر ذلك، تحركت جيوش المغول نحو بغداد في سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. فسلك جيش بايجو طريق الموصل ليهاجم بغداد من الجهة الغربية، واتبع كيتوبقا طريق لورستان. وغادر هولاكو نفسه همذان، ومرّ بكرمنشاه وحلوان. وفي ١٨ كانون الثاني ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، تجمعت القوات المغولية في ظاهر بغداد وانتصرت على عسكر الخليفة. وفي يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦هـ/ ١٠ شباط ١٢٥٨م، خرج الخليفة من بغداد، وسلّم نفسه وعاصمته دون قيد أو شرط. وقتله هولاكو، واستولى على كنوزه وكنوز العباسيين. وأعمل السيف بأهالي بغداد ٤٠ يوماً، وأضرم النار فيها.

ولما فرغ هولاكو من بغداد وخلافتها، قصد بلاد الشام، وفتحت جيوشه ميافارقين وحلب ودمشق ونابلس وغزة وعجلون. ولم يبق عليه سوى افتتاح مصر ليكمل مخطط الخان الأعظم.

وفي تلك الأثناء، بلغ هولاكو نبأ وفاة أخيه مونكا خان في الصين سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م وخبر تنازع شقيقه قوبيلاي وأريق بركا على تولي العرش. فاضطر أن يقرر العودة إلى فارس. إلا أن العلاقات بين المغول والمماليك تأزمت، عندما أرسل هولاكو قبل مغادرته الشام سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، رسالة إلى السلطان قطز في مصر كلها تهديد ووعيد، يدعوه فيها إلى الاستسلام وتقديم فروض الطاعة. ورفض قطز واستعد للحرب. وفي يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ٣ ايلول سنة ١٢٦٠م، التقى جيش المغول ومؤيدوه بجيش قطز ومؤيديه في عين جالوت بين بيسان ونابلس. وانهزم المغول هزيمة منكرة في تلك المعركة.

وفي شتاء سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، خرج هولاكو للصيد وعاد متعباً، وشعر بالوهن، وتوفي يوم الأحد ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وتوفيت دقز خاتون بعده بقليل.

٢ ـ عهد أباقا بن هولاكو: ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ـ ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م

خلف أباقا والده هولاكو. وأقام في أذربيجان مثله، لكنه جعل عاصمته تبريز

---

(١) المصدر ذاته، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧، ورشيد الدين، جامع التواريخ، نشر كاترمير، ص ٢٣٤.

لا مراغة. وظلّ يعتبر نفسه نائباً عن الخاقان قوبيلاي الذي بعث له بمرسوم تنصيب. وهو بوذي، وأحسن معاملة جميع الطوائف، وتزوج من كريمة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغس. وتحالف مع الأوربيين ضد مماليك مصر.

وعلى الصعيد الخارجي، أنهى الحرب التي خاضها والده هولاكو ضد بركه خان ابن عمه حاكم القبجاق. وسحق براق خان ما وراء النهر سنة ١٢٧٠م. واستدعى شمس الدين كرت إلى تبريز سنة ١٢٧٧م، ودسّ له السم سنة ١٢٧٩م. واصطدم بالسلطان بيبرس. وخرّب أرياف حلب بـ ١٠٠٠٠ فارس، واحتل حلب مدة قصيرة سنة ١٢٨٠م. لكنه انهزم أمام السلطان قلاوون في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٢٨١م. وتوفي في أول نيسان سنة ١٢٨٢م.

٣ ـ عهد أحمد تكودار بن هولاكو: ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م ـ ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م

وخلف تكودار بن هولاكو شقيقه أباقا في ٦ أيار ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م. واعتنق الإسلام، واختار اسم أحمد. فاحتج حزب المغول القدامى لدى الخاقان قوبيلاي. وردّ تكودار بسجن البطريرك النسطوري الذي أخرجته الخاتون الأم من معتقله. ثم نشبت حرب أهلية بين تكودار خان وحزب المغول القدامى، انتصر فيها تكودار. لكن حصلت ثورة في القصر، تزعمها قواد العسكر، فأعدم تكودار في ١٠ آب سنة ١٢٨٤م، ونصّبوا أرغون محله.

٤ ـ عهد أرغون بن أباقا: ١٢٨٤ ـ ١٢٩١

وتولى السلطة أرغون بن أباقا. وكان بوذياً مثل والده وجده. وعيّن نصارى ويهوداً في المناصب المدنية العليا لا سيما في إدارة المالية. وكلّف سعيد الدولة اليهودي بوزارة المالية، ووثق به وكان ذكياً ومرناً ومخلصاً، يتقن اللغة التركية والمغولية. وكان إدارياً ماهراً، فنظّم شؤون المالية، وقضى على اختلاسات الأمراء. وحظّر على العسكريين اعتراض تنفيذ قرارات المحاكم. ولاحق تجاوزات السلطة. وحوّل الحكم العسكري إلى إدارة مدنية نظامية.

وحاول أرغون أن يتفق مع الأوربيين ضد المماليك المصريين. لكنه لم يحارب قط إلا ليحمي حدوده الشمالية في خراسان وفي ما وراء النهر. وكان ابنه البكر يحكم خراسان، وينوب عنه الأمير نوروز، نجل أرغون حاكم فارس الشرقية والوسطى. أما من جهة القفقاس، فصدّ اجتياح خان القبجاق لممتلكات خانات فارس.

وتوفي أرغون في ٧ آذار سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١. فعيّن أعظم قواد الجيش نفوذاً في منصب الخان شقيق أرغون الذي كان يحكم الأناضول السلجوقي.

٥ ـ ٦ عهد جيكايتو (١٢٩١ ـ ١٢٩٥) وبايدو (١٢٩٥)

وكان جيكايتو أميراً محدود الذكاء، مولعاً بشرب الخمر وحب النساء. وقد أخطأ هو ووزير ماليته صدرجهان أحمد الخالدي باستعمال العملة الورقية في فارس على غرار ما فعل الخاقان قوبيلاي في الصين. وتمّ اصدار العملة الأول في تبريز في ١٢ أيلول سنة ١٢٩٤. إلا أن التجار رفضوا التعامل بها، فألغيت.

ثم عزل حزب الأمراء المغول القدامى جيكايتو، وخنقوه في معسكره بموقان في ٢١ نيسان ١٢٩٥، ونصّبوا محله ابن عمه بايدو الذي عيّن النصارى في المناصب الكبرى، فأثار حفيظة المسلمين.

وتمرد على بايدو الأمير قازان نجل أرغون ونائب الخاقان في خراسان. ودعمه الأمير نوروز في البدء، ثم انقلب عليه، فتخلى عنه أنصاره، وحاول الهرب، لكنه أسر وأعدم في ٥ تشرين الأول سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م.

٧ ـ عهد محمود غازان بن أرغون (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م ـ ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)

واعتلى غازان العرش المغولي، واعتنق الإسلام. وكان ذكياً ومثقفاً، يتكلم المغولية والعربية والفارسية والهندية والتبتية والصينية، على حدّ قول رشيد الدين. وكانت شخصيته قوية، لكنه اضطر في أول عهده أن ينفذ سياسة أنصاره. فأمر بهدم الكنائس والكنيس وبيوت النار والبدود في تبريز.

وكانت تلك الأمور تجري بإيحاء من نوروز، ظنّاً منه أنه يسعه عمل ما يشاء لأنه رفع غازان إلى سدّة الحكم. وكافأه غازان آنذاك بتعيينه نائباً عنه، إلا أنه ضاق ذرعاً بتصرفاته، فألقى القبض فجأة على جميع أنصار نوروز في البلاد في شهر آذار سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م، وأعدمهم. كذلك هاجم جيش غازان جيش نوروز في خراسان، فهرب هذا الأخير إلى هراة، فسلّمه فخر الدين كرت لغازان خان الذي أعدمه في ١٣ آب ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م.

وبذا تحرّر غازان من وصاية نوروز، واتبع سياسته المغولية الخاصة المتشددة والمستنيرة، وأخذ يقوّي سيطرة السلطة المركزية. وتلخّصت أعماله في الاهتمام بمرافق الدولة الاقتصادية وبعمرانها. فصكّ عملة خاصة به، وجعل النقش عليها باللغة

المغولية والعربية والتبتية وقاوم استغلال الفلاحين والمزارعين. وشجّع إحياء الأراضي البور. وأشاد في تبريز مباني رائعة من جوامع ومدارس ومؤسسات خيرية. وعيّن المؤرخ فضل الله رشيد الدين الطبيب وزيراً، وطلب منه كتابة تاريخ المغول (جامع التواريخ) الذي وصف فيه حكم غازان وقال عنه: «في عهد غازان شرع المغول يبنون بعد أن كانوا يهدمون».

ثم هاجم غازان المماليك في سورية، فاحتل حلب وحمص ودمشق في عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. إلا أن الأمير قتلق خجا اجتاح اقليمي فارس وكرمان، وخرّبهما في أثناء حملة المغول على بلاد الشام. وتوفي غازان سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م، وخلفه أصغر أشقائه الجايتو خدابنده.

٨ ـ عهد الجايتو خدابنده: ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م ـ ٧١٦هـ/ ١٣١٦م

الجايتو ابن الأميرة النسطورية أوروك خاتون، التي نصّرته، وسمته نقولا. لكنه اعتنق الإسلام بتأثير إحدى زوجاته. وتخلى عن تعاطف المغول التقليدي مع النصارى النساطرة. لكنه فيما عدا ذلك سار على سياسة شقيقه غازان، واحتفظ برشيد الدين، ورعا وصّاف المؤرخ المعاصر له. وبنى السلطانية عاصمة جديدة له (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م ـ ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م). واهتم بمرصد مراغة الفلكي.

وسار الجايتو في السياسة الخارجية على هدى أسلافه، فتحالف مع الأوربيين ضد المماليك. واستأنف حرب الحدود مع سلاطين مصر. فحاصر قلعة الرحبية على نهر الفرات الأوسط سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م. لكنه فكّ حصاره لها قبل أن تستسلم بسبب شدة الحرّ.

وتوفي الجايتو في عاصمته السلطانية في ١٦ كانون الأول ٧١٦هـ/١٣١٦م، وخلفه ابنه أبو سعيد.

٩ ـ عهد أبي سعيد بن الجايتو: ٧١٧هـ/ ١٣١٧م ـ ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م

وظلّ أبو سعيد طيلة مدة حكمه ألعوبة بأيدي الأمراء المغول الذين يمارسون الحكم باسمه، ويتنازعون على السلطة، وعلى السيطرة على المقاطعات. وأعدم في أيامه المؤرخ الكبير رشيد الدين (١٨ تموز سنة ١٣١٨م/ ١٧٨هـ).

وفي العقد الأول من حكم أبي سعيد (٧١٧هـ/ ١٣١٧م ـ ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م)، كانت السلطة الفعلية بيد الأمير المغولي جويان، الذي أصبح سيد فارس الحقيقي،

وحاكمها الحازم: ففي سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م، قمع تمرداً قام به نجله تمرتاش، وفي سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، قاد حملة ظافرة ضد خان قمبجاق، وفي سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م هزم نجله حسين جكتاي ترماشيرين الذي اجتاح خراسان، وردّه إلى ما وراء النهر. لكن ملّ أبو سعيد وصاية جوبان، فقطع العلاقات به وهو غائب في خراسان، فتمرد جوبان، وصمّم على الهجوم على أذربيجان، لكن تخلى عنه جيشه، فلجأ إلى هراة عند حاكمها غياث الدين الذي خنقه وأرسل أصبعه إلى أبي سعيد (تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٣٢٧م).

وهكذا فقد أبو سعيد رجلين عظيمين، هما رشيد الدين وجوبان، ولم يعد لديه أحد يقود جيشه أو يدير شؤون فارس إدارياً، لتبقى دولة الأيلخانات قائمة. فانحلت بوفاة أبي سعيد في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٣٣٥م. وأعقب انقراض الايلخانيين ظهور عدة سلالات، يهمنا منها سلالة المظفريين التي نشأت في كرمان وفارس لعلاقتها بسلطنة هرمز.

هـ ـ المظفّـــريـــون

سلالة نشأت في كرمان وفارس وعراق عجم على أنقاض امبراطورية الايلخانيين، يقال إن جدّها الأكبر غياث الدين الحاجّي الذي ينتمي إلى أسرة خواف العربية في خراسان، هاجر إلى يزد عند زحف الغزو المغولي، ودخل في خدمة أتابك يزد. وكُلِفَ حفيده شرف الدين مظفّر بحكم مدينتي مبيد وندوشان، ثم قُدِّمَ إلى الإيلخان، وعُين حاجباً، ثم قائد ألف رجل، وكُلِّفَ في وقت لاحق بحراسة الطرق من أردستان إلى كرمنشاه، ومن هراة (ينبغي ألا يحدث التباس بينها وبين مدينة خراسان الشهيرة) إلى مروست وأبرقوه. وفي سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م، اضطرته عداوة الوزير الكبير رشيد الدين فضل الله له إلى العودة إلى يزد.

وخلفه في وظائفه سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٤م مبارز الدين محمد، المؤسس الحقيقي لسلالة المظفريين. وفي عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م، تعاون مع الأنجوي قيخسرو بن محمد شاه على قلب آخر أتابك يزد المدعو جاجي شاه بن يوسف شاه. وفي العام التالي ٧١٩هـ/ ١٣٠٩م) اعترف به الإيلخان أبو سعيد حاكماً على يزد.

وعند وفاة أبي سعيد سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، ونشوب نزاع بين الأمراء الكبار، صدّ هجوماً من الانجويين على يزد، وأعلن تبعيته إلى زعيم الشوبانيين، بير حسين، وكوفىء بتعيينه حاكم كرمان فانتزعها سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٣٩م من حاكمها قطب الدين بن

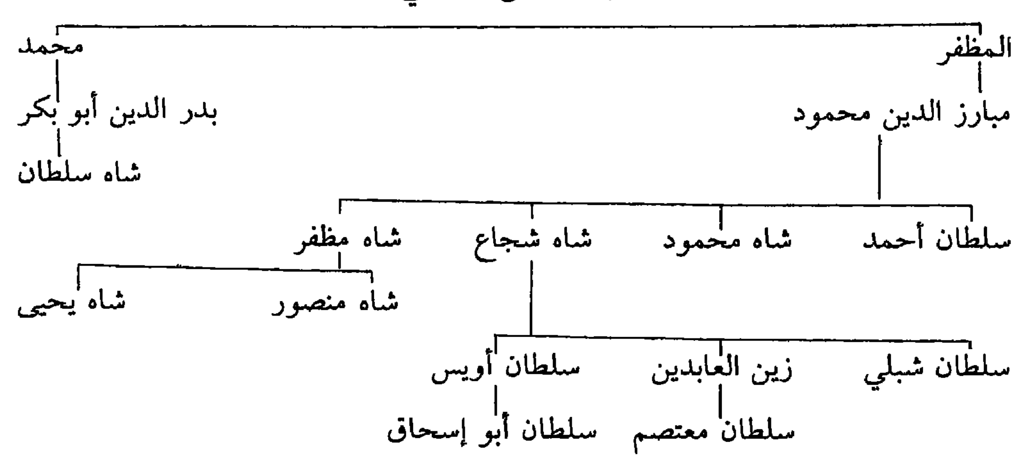
ناصر الدين بن برهان الذي استعادها مؤقتاً بمساعدة ملك مرتيد هراة، إلا أنه طرده نهائياً في شهر جمادى الثانية سنة ٧٤١هـ/ت٢ ـ ك١ سنة ١٣٤٠م. واحتلّ بمّ أيضاً بعد بضع سنوات إثر حصار طويل. وتمكّن مبارز الدين أن يحصل على خراج من ملوك هرمز، واضطر أن يتعاون مع الأنجويين.

وفي النصف الأول من عهده، اضطر مبارز الدين أن يواجه محاولات متكررة قام بها الأنجوي الشيخ أبو إسحاق لاحتلال كرمان ويزد. وظهر على خصمه سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، عندما نجح في احتلال شيراز. وفي سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، قضى مبارز على إمارة شبانكارة في غربي فارس، لكن أخفقت جهوده الأخرى لتوسيع ممتلكاته، عندما أراد أن يستفيد من قلب الشبايين على يد القبيلة الذهبية. وقد اجتاح أذربيجان سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، وهزم القائد أخيجوق من القبيلة الذهبية، لكن سرعان ما اضطرّ أن يتخلّى عن هذه المنطقة للجلاليين. وقد فضّل حفيده شاه يحيى، فأثار الحزازات بين أبنائه، الذين تواطؤوا مع ابن عمهم سلطانشاه، فعزلوه، وأعموه عندما رجع إلى أصفهان في شهر رمضان سنة ٧٥٩هـ/ آب ١٣٥٨م. ثم توفي ي شهر ربيع الأول ٧٦٥هـ/ ك١ ١٣٦٣م ـ ك٢ ١٣٦٤م.

وحتى في عهد مبارز الدين، تجزأت ممتلكات المظفريين، ووزعت إقطاعات على أمراء السلالة. فعني نجل مبارز الدين البكر، شاه مظفّر، الذي توفي أصلاً سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، بشؤون يزد (كتبي ٢٦). وبعد احتلال شيراز التي أصبحت عاصمة، عيّن عليها نجله الثاني شاه شجاع (حول صحة الاسم، انظر جان أوبين، نهاية دولة سربدر في خراسان في المجلة الآسيوية ١٩٧٤، ١٠١ ـ ١٠٢ وحاشية ٢). وبعد عزل مبارز الدين، استمر تطبيق هذا الإجراء، فأدى إلى نزاعات داخلية دائمة. وفي البدء صار شاه شجاع زعيم السلالة، وأقام في شيراز، بينما حكم شقيقاه المولودان بعده: أحدهما شاه محمود أصفهان وأبرقوه، وسلطان أحمد كرمان، وأنول ابن عمهم شاه يحيى في يزد موقتا. لكن سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م، تمرّد شاه محمود، وصدّ حملة تأديبية قام بها شاه شجاع ضد أصفهان. وساعده شاه يحيى والجلاليون، فطرد أخاه من شيراز في آخر سنة ٧٦٧/ آخر صيف ١٣٦٦م. وفي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، هدّد شاه شجاع باحتلال أصفهان، فاعترف شاه محمود بسيادته. لكن عاد النزاع بينهما إلى الظهور: فعند وفاة شاه محمود في ٩ شوال ٧٧٦هـ/ ١٣ آذار ١٣٧٥م، كان ينزل ضيفاً على نجل شاه شجاع المدعو سلطان أويس المتمرد على أبيه. لكن تمكن شجاع شاه شجاع من استرجاع أصفهان بلا حرب، رغم وجود أنصار لسلطان أويس فيها.

سلالة المظفريين





و ـ تيمورلنغ وأنجاله: ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م ـ ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م

ولد تيمورلنغ في مدينة كش، الواقعة جنوبي سمرقند، في ما وراء النهر، في ٨ نيسان ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، لأسرة تركية نبيلة، تنتمي إلى قبيلة برلاس، التي حكمت مدينة كش. وأعلن تبعيته للخان تغلق تيمور. ونجح في عزل عمه حاج برلاس من منصب حاكم مدينة كش. ثم عيّنه تغلق تيمور مستشاراً لابنه الياس خجا، حاكم ما وراء النهر، فتمرّد عليه وطرده (١٣٦٣ ـ ١٣٦٥) بمؤازرة مير حسين، خان بلخ وكابل. ثم اغتيل مير حسين في بلخ (١٣٧٠)، وأعلن تيمورلنغ نفسه خان ما وراء النهر (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م ـ ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، ووريث جنكيزخان. وله خصال متميّزة: فهو محارب مغوار، يعتقد بأن الحرب كرّ وفرّ، وثقافته عالية ويهوى جميع الأعمال الفنية، وهو مسلم ورع، حروبه كثيرة، وفتوحاته واسعة، يهمنا منها ما تنعكس أحداثه على الخليج العربي وسلطنة هرمز.

وكان الجلائر يحكمون العراق العجمي وأذربيجان وبغداد منذ سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٢م. ويمثلهم أحمد جلائر بن أويس الذي أعدم أخاه البكر حسين وانتصر

على باقي أشقائه (١٤٨٣ ـ ١٤٨٤) وكان موجوداً في مدينة السلطانية عندما اقترب منها تيمورلنغ، فغادرها ولجأ إلى تبريز.

وفي عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، باشر تيمورلنغ افتتاح فارس الغربية، الذي استغرق سنتين. وتذرّع بتأديب سكان جبال لورستان الذين سلبوا قافلة حجاج مكة. وفعلاً ألقي القبض على الفاعلين وأعدمهم. ثم اتجه إلى أذربيجان واستولى على تبريز التي غادرها أحمد جلائر إلى بغداد.

ثم فتح أرمينية، وتوجّه بعدها إلى ممتلكات المظفريين في فارس وشيراز وأصفهان وكرمان وكان يحكمها شاه شجاع الذي اعترف بتبعيته لتيمورلنغ، وأعطى قبل وفاته شيراز وفارس لابنه زين العابدين وكرمان إلى شقيقه أحمد، وأصفهان ويزد إلى ابني أخيه شاه يحيى وشاه منصور. ووضع أسرته بحماية تيمورلنغ الذي انتهز فرصة وفاته ليجتاح ممتلكات المظفريين. فدخل أصفهان، وتسلم مفاتيحها من حاكمها المظفري، وعسكر في ظاهرها. إلا أن سكانها قتلوا الضباط التيموريين المكلفين بجمع الخراج. فثار تيمورلنغ، وأمر بتقتيل جميع أهالي أصفهان. وذكر كتاب ظفرنامه أن عدد الضحايا بلغ ٧٠٠٠٠ نسمة. وانتقل تيمورلنغ إلى شيراز، فهرب زين العابدين منها. أما شاه أحمد في كرمان وشاه يحيى في يزد، فقصدا تيمورلنغ وقبّلا سجادته، فعفا عنهما، وثبّت شاه أحمد في كرمان وشاه يحيى في فارس.

وفي آخر سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، اضطر تيمورلنغ أن يعود إلى ما وراء النهر، ليطرد منه خان قبجاق الذي اجتاح أراضيه. لكنه عاد إلى فارس بعد ذلك سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م، ودامت حروبه فيها خمسة أعوام (٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م - ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، لأن شاه منصور، وحّد تحت سلطته جميع ممتلكات المظفريين في غياب تيمورلنغ. ولما رجع حاربه وقتل في المعركة.

وفي سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م، عاد أحمد جلائر إلى بغداد وآزره قره يوسف زعيم الخروف الأسود، إلا أن تيمورلنغ هزمهما شرّ هزيمة، وذبّح أهالي بغداد (١٤٠١). وأعادا الكرة، فهاجمهما أبو بكر حفيد تيمورلنغ وهربا إلى مصر (١٤٠٣).

ولما توفي تيمورلنغ سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، تنازع بنوه وأحفاده على الامبراطورية التركية في ما وراء النهر وتوابعها. في النهاية استتب الأمر لشاهرخ حاكم خراسان ونجل تيمورلنغ الرابع. ثم تمرّد الأمراء الأتراك على خليل، رابع أبناء ميران شاه، ونادوا بشاهرخ خانا على ما وراء النهر. وسيّر شاهرخ الأمور بحكمة في جميع الأماكن

ما عدا فارس الغربية وأذربيجان والعراق العربي. فقد عاد أحمد جلائر إلى بغداد (١٤٠٥)، ورجع قره يوسف إلى أذربيجان، واحتل تبريز (٨٠٩هـ/١٤٠٦م).

وتوفي شاهرخ سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م، وخلفه شقيقه الوغ بك نائب خان ما وراء النهر. وكان مثقفاً عالماً بالفلك وشاعراً، لكنه ضعيف الإرادة سيء التدبير في السياسة. تمرّد عليه نجله عبد اللطيف، وأسره، وسمح بإعدامه (٨٥٣هـ/١٤٤٩م). ثم نشبت حرب أهلية بين التيموريين. وفي النهاية اعتلى العرش أبو سعيد حفيد ميرشاه الذي أدّت وفاته إلى استيلاء الخروف الأبيض على مقاليد الحكم في فارس الغربية وكرمان حتى ظهور الصفويين (٩٠٨هـ/١٥٠٢م).

الفصـل التاسـع

القوى السياسية الداخلية العربية الفاعلة في الخليج العربي وسلطنة هرمز

تمثّل عمل القوى الخارجية المباشر في اجتياح أقليم كرمان أحياناً، وبالتالي دخول أراضي هرمز الساحلية أو العتيقة، ثم الانسحاب منه ومنها، بعد تنصيب حاكم هام جديد أو إبقاء المتولي السلطة المحلية في مركزه مهما كان لقبه، وذلك تعبيراً عن التبعية النظرية لا الفعلية للغازي الظافر، وبعد الاتفاق صراحة أو ضمناً على دفع كرمان وهرمز. مجتمعتين أو منفردتين، خراجاً، سمّي «المقررية». فيما عدا أداء هذه الضريبة، تدير كرمان وهرمز نفسهما شؤونهما، جميع شؤونهما، بحرية تامة، أي أن استقلالهما لا يمسّ عملياً. إذن لا يتعدى الاجتياح كونه أزمة عابرة تحلّ بالمال، عصب السلم هنا، ثم «تجري الرياح بما تشتهي السفن». مع ذلك تقضي الأحداث أحياناً أخرى بالوقوف في وجه المعتدي، وهذا ما يقوم به «حماة الديار» من عُمان وجلفار.

وتتعرض سلطنة هرمز إلى أخطار أخرى غير الأخطار الخارجية، تأتيها من بني جلدتها مثل بنو جابر، أو من الطامعين بالاستيلاء على عرشها، مثل جزيرة قيس على وجه التخصيص.

لذلك سوف نوجز في أربع فقرات قصيرة دور أربع جهات نافذة، وهي:

آ ـ ساحل عُمان وقلهات.

ب ـ جلفار والقواسم.

جـ ـ قبيلة بني جابر.

د ـ جزيرة قيس.

أولاً ـ ساحل عُمان عامة وقلهات خاصة:
تعبئة الرجال وإيقاف تجارة الخليج

فواجهة عُمان البحرية، الداخلة في سلطنة هرمز، تمتد من رأس مسندم، عند مدخل الخليج العربي إلى رأس الحد بعد مدينة صور بقليل. ويتيح هذا الموقع لمراكب بنادرها، متى شاءت، أن تعترض السفن الذاهبة إلى موانىء الخليج، وتحول دون دخولها إياه. ويعني هذا الحظر بالنسبة إلى فارس وغيرها حرمانها من تصدير سلعها إلى الهند، ومن رسوم جمارك وضرائب كثيرة، وثمن مياه (استعذاب) تتقاضاها عرفاً من المراكب التي ترسو في مرافئها، ومنع إمدادها بالمواد الغذائية، لا سيما أرز الهند وتوابلها، إضافة إلى انقطاع المقررية. وقد حصل ذلك مراراً وتكراراً. لجميع هذه الأسباب، كان الحوار والتساهل متبعين في أزمات سلطنة هرمز مع القوى الخارجية. وكانت هرمز هي الرابحة في النتيجة ودوماً.

على صعيد آخر، لنائب سلطان هرمز في قلهات رتبة وزير، مطلق الصلاحية. ويستطيع متى شاء، في سبيل مصلحته الشخصية أو لمصلحة دولة هرمز، أن يعبىء محاربين مشاة ويدربهم ويوجههم حيثما يريد أو تريد، شريطة أن تدفع لهم رواتبهم بانتظام، وأن يسمح لهم بالاشتراك في اقتسام غنائم الحرب

أخيراً قلهات ملجأ السياسيين المغلوبين على أمرهم في هرمز، الذين يمضون فيها بعض الوقت، طال أم قصر، يستغلونه لإعداد جيش خاص بهم، يستعيدون به سلطتهم المفقودة. فما هو دور جلفار والقواسم؟

ثانياً ـ جلفار والقواسم:
تعبئة جيش رماة بحرية من قبيلتهم ونقل الجيوش بأسطولهم

وقبيلة القواسم عريقة بعروبتها وبتاريخها الواغل في القدم. أيامها حافلة بمآثر المروءات والبأس والشجاعة. واشتهرت بكثرة مراكبها، وبراعة معالمتها، ومهارة رماة بحريتها الذين يقارنون باللار. أما معالمتها فقد أشاد بهم أحمد بن ماجد، وسماهم أسود البحر الذين لا يهابون المنايا، حيث قال في بليغته (الأبيات ٤٩ ـ ٥٢):

رعى الله جلفاراً ومن قد نشا بها ... وأسقى ثراها وأكف متتابع
بها من أسود البحر كل مجرّب ... وفارس بحر في الشدايد بارع
يسرّك في الأوصاف إن وصفت له ... حذور جسور في المهمات شاجع
إذا سام في شيء ترجّوا كماله ... يقوم ولم يمنعه عن ذلك مانع

وأما مراكبهم، فكانت كثيرة كبيرة وصغيرة، تحدث عنها الهولنديون في تقاريرهم، وشهد البريطانيون على بطولتها في المعارك البحرية. أما رماة بحريتهم، فليس من العرب من يسدّد النبال بدقتهم وسرعتهم. وكانت تستنجد هرموز بهم وبالرماة اللاريين في الأزمات.

وكانت إحدى قواعدهم جلفار في مطلع القرن الخامس عشر، وبجوارها رأس الخيمة. ويذكرهما دوارته بربوسه ويقول عنهما: «ومتى تجاوز المرء قرية خورفكان، يصل إلى قرية تدعى جلفار، فيها قوم أثرياء، وبحارة ماهرون، وتجار جملة. وقربها تقع مصايد السمك الواسعة جداً. وتكثر فيها مغاصات اللؤلؤ الكبير والصغير. ويأتي إليها مسلمو جزيرة هرمز لشراء اللؤلؤ وحمله إلى الهند وإلى بلدان عديدة أخرى، وتدرّ تجارة جلفار واردات هائلة على سلطان هرمز، الذي يجني دخلاً عظيماً من جميع المراكز البشرية الأخرى أيضاً. وتتوزع قرى أخرى على طول الساحل وراء خورفكان، منها قرية رأس الخيمة».

وكان مقاتلوا قلهات وعُمان يتجمعون في جلفار وينضمون إلى رماتها في أسطول ضخم ويذهبون إلى ميادين المعركة أو إلى هرمز الجديدة ذاتها ليدافعوا عن سلطنتهم.

ثالثاً ـ قبيلة بني جابر، خطر داهم دائم

بنو جابر قبيلة عربية، اشتهرت في القرن الخامس عشر، يقال إنها سيطرت آنذاك على جبال عُمان وعُمان الداخلية، وعلى الأراضي الممتدة وراء ساحل الإمارات وقطر حتى البحرين والقطيف. وقد ظهرت في البدء في نجد، ولعبت دوراً سياسياً في أحداث سلطنة هرمز في عهد السلطان أبي الفتح مظفر سلغرشاه الأول (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ـ ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الذي عيّنه والده السلطان فخر الدين توران شاه الثاني حاكماً في قلهات برتبة وزير. وتزوج من ابنة سليمان بن سليمان النبهاني. ووافق حكام سلطنة هرمز على تنصيب شاه أويس سلطاناً على العرش عوضاً عن سلغرشاه. فنشب نزاع بين الشقيقين أويس وسلغر، الذي لجأ إلى بني جابر. فناصره بنو جابر. وجمّعوا قواتهم وقواته في جلفار، بقصد الإبحار إلى هرمز الجديدة واحتلالها. إلا أن أنصار شاه أويس تخلّوا عنه، وأسره رجال أجود بن زامل الذي سلّمه إلى سلغر واشترط عليه أن يبقيه حياً.

وأجود هو نجل زامل بن جابر، أي زامل بن حسين العامري الجبري النجدي. وله ابن اسمه سيف. وقد عقد اتفاق بين سلغرشاه وأجود بن زامل على تنصيب

سلغرشاه سلطاناً لقاء تخلي سلغر عن البحرين وقطيف لأجود. ويلّخص ابن ماجد هذا الاتفاق في كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، ويقول «وهي (البحرين) في تاريخ الكتاب (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) لأجود بن زامل بن حسين العامري، أعطاه إياها، هي والقطيف، السلطان سرغل بن تورانشاه، على أن يقوم بنصرته على أخوته، ويملكه جزيرة هرموز (جرون) المتقدم ذكرها. وكتب بها عليه حجة، واستثنى بعض بساتينها. ففعل له ذلك. وقام بنصره، وملكه هرموز. وأخذ القطيف والبحرين في عام ثمانين وثمانماية. وقد أخذ ولده سيف بن زامل، عُمان من نبهان بالسيف على سليمان بن سليمان بن نبهان في عام ثلاث وتسعين وثمان ماية. وولّى عليها إماماً من الإباضية، يدفع له محاصيلها. وقد نصره أهلها، وقاموا بنصره. فهدم جميع حصونها، وأمّر عليهم عمر بن الخطّاب الإباضي».

رابعاً ـ جزيرة قيس: حبك المؤامرات وإثارة الاضطرابات

كان بندر سيراف أهم البنادر في الخليج العربي وأكثرها ازدهاراً في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، قبل بروز جزيرة قيس، وقفزها إلى الصدارة، قال عنها الأصطخري إنها تضاهي شيراز بكبرها وبهائها: فبيوتها مبنية بخشب الساج المجلوب من بلاد الزنج، وتتألف من عدة طوابق تشرف على البحر. واستمر ازدهارها حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. لكنها خربت وشاهد ياقوت آثارها في مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

وعُزِيَ خراب سيراف إلى سيطرة جزيرة قيس على تجارة الخليج. وقيس أو كيش (بالفارسية) جزيرة صغيرة قريبة من ساحل فارس، مقابل ساحل جزيرة العرب، على مسيرة نصف يوم منه. ويذكر شو ـ جو ـ كوا، أن العرب كانوا يرسلون إليها ماء الورد، وزهور الغردينيا، والزئبق، والزنك، وسبائك الفضة، والزنجفر ونباتات صباغ اللون الأحمر، ومنسوجات قطنية نفيسة.

وما حصل هو أن هرمز العتيقة ازدهرت منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وصارت فرضة كرمان وسجستان. وفي القرن السادس الهجري / الثالث عشر الميلادي، بلغت شأواً كبيراً من التطور. وبنت سلطنة هرمز عاصمة حديثة لها في جزيرة جرون، عرفت باسم هرمز الجديدة. ونشب صراع مرير بين جزيرة قيس وسلطنة هرمز في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، دام مدة طويلة، وانتهى باستيلاء هرمز على قيس.

المصـــادر والمـــراجع

أولاً ـ المصادر والمراجع العربية

ابراهيم بن محمد الفارسي، أبو إسحاق الأصطخري، كتاب المسالك والممالك، لإيدن.

ابن الاثير الجزري، علي بن أحمد بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، بيروت ١٩٨٢.

ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، مراجعة مصطفى القصاص، بيروت، ١٩٨٧.

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، بيروت ١٩٧٩.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أحرون الطبيب الملطي، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٠.

ابن ماجد، أحمد بن ماجد منظّر الملاحة الفلكية في المحيط الهندي وبحاره الشاطئية في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مؤلفاته في ٤ أجزاء، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، دمشق ـ رأس الخيمة.

أحمد بن ابراهيم الهمداني، المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، لايدن ١٨٨٥.

أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي، كتاب البلدان، لايدن ١٨٩١.

أحمد بن عبد الله القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة ٣ أجزاء، الكويت ١٩٦٤.

أحمد بن عمر بن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، لايدن ١٨٩١.

أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ١٩٥٧.

أحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت، الجزء الأول، القسم الأول، الكويت ١٩٦٧.

اسماعيل بن محمد بن عمر، المعروف بأبي الفداء، تقويم البلدان، النص العربي، باريس ١٨٤٠.

البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة ١٩٠٠.

حوراني، جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة يحيى الخشاب، مصر ١٩٥٨.

خالد بن محمد القاسمي، الخليج العربي في السياسة الدولية، قضاياه ومشكلاته، ١٩٨٧.

سالم بن حمود السيابي، إيضاح المعالم في تاريخ القواسم، صقور البحر العُماني، ١٩٧٦. مراجعة د. أحمد جلال التدمري ، المطبعة التعاونية بدمشق.

سليمان التاجر وأبو زيد السيرافي، أخبار الصين والهند، تحقيق وتحليل ابراهيم خوري، دمشق ١٩٩١.

سليمان بن أحمد بن سليمان المهري، العلوم البحرية عند العرب، القسم الأول، مصنفات سليمان المهري، ٣ أجزاء، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٢، تحقيق وتحليل إبراهيم خوري.

سيد نوفل، الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي، ١٩٦٩.

سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، ج ١، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت، ١٩٧٥.

الشريف الأدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية.

عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن، مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، لايدن ١٩٣٦.

عبيد الله أحمد بن خرداذبه، كتاب المسالك والممالك، لايدن.

علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت ١٩٦٥.

عيسى أحمد النشمي، الملاحة في الخليج العربي، الكويت ١٩٦٩.

عيسى القطامي، كتاب دليل المحتار في علم البحار، الكويت ١٩٦٤.

فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج ١، بيروت ١٩٨٠.

لبيب عبد الستار، قصة الخليج: تفاعل دائم وصراع مستمر، بيروت ١٩٨٩.

محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لايدن ١٩٠٦.

محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزغ ١٩٢٣.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، خمسة أجزاء، مكتبة صادر.

لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، بيروت ١٩٨٣.

ثانياً ـ المراجع الأجنبية

AUBIN, J., Les Princes d'Ormuz du XIIIe au XVe siecle, in JOURNAL ASIATIQUE, 1953, p.77-138.

AUBIN, J., Albuquerque et les Negotiations de Cambaye, in Mare Luso-Indicum, vol.1, 1971.

AUBIN, J., Le Royaume d'Ormuz au debut de XVIe siecle, in Mare Luso-Indicum, vol.2 1973.

AYYAR, K.V.K., The Zamorins of Calicut, Calicut, 1938.

BORBOSA, DUARTE, The Book of Duarte Barbose, 2 Vols., London, 1918-21.

BLAIR, S. SHEILA, The Mongol Capital of Sultaniyya, the Imperial, IRAN, 24, 1986.

BOUCHON, Genevieve, Les Mers de l'Inde à la findu XVe siecle, vue generale, p.101-116, in Moyen-Orient et Ocean Indien XVIe-XIXs., 1, 1984.

BOUCHON, G., Les Musulmans du Kerala à l'epoque de la découverte Portugaise, in Mare Luso-Indicum, vol.2, 1973.

BOXER, CHARLES R., The Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825, London, 1969.

C. CAHEN, La Syrie du Nord à l'epoque des Croisades et la Principauté franque d'Antioche, Paris, 1940.

CHAUMONT, M.L., Etudes d'Historie Parthe, V, La Route Royale des Parthes de ZEUGMA à SELEUCIE du TIGRE, d'après Isodore de Charax, in Syria, 61, 1984, p.63-107.

CHAUMONT, M.L., ETUDES D'Histoire Parthe, III, Les Villes Fondées par les VOLOGESES, in Syria, 51, 1974, p.75-89.

THE COMMENTARIES of the GREAT AFONSO D'ALBOQUERQUE, Hakluyt

Society, Ed.M.de G.BIRCH, 4 Vols, 1875-83.

CORREIA - AFONSO, Ed., Indo-Portuguese History, sources and problems, Bombay, 1981.

FARIA Y SOUSA, The Portuguese Asia: The History of the Discovery and Conquest of India by the Portuguese, 3 Vols, London, 1695, (repro. 1975).

FLOOR, WILLEM M., A Description of the Persian Gulf and its Inhabitants in 1756, in Persice, 8, 1979.

FLOOR, WILLEM M., Pearl Fishing in the Persian Gulf in 1757, in Semitica, 10, 1982 (BEN HAAG).

FRYE, RICHARD, N., The Prsian Gulf and Changes in Nomenclature, Jerusalem Studies in Arabic and Islam, 13 (1990), pp.33-43.

GAWLIKOWSKI, MICHEL, Palmyre et l'Euphrate, in Syria, 60, 1983, p.53-63.

GAWLIKOWSKI, MICHEL, Le Commerce de Palmyre sur terre et sur Eau.

GILES, H.A., The Travels of FA-HSIEN, first published 1923; 2nd impression: London, 1956.

GROUSSET, R., L'Empire des Steppes, Paris, 1948.

HAMDULLAH MUSTAWFI QAZWINI, Nuzhat al-Qulub, the geographical part, ed.G.Le Strange (GMS, XXIII); ed. Dabir Siyaqi, Teheran, 1336.

HINDS, MARTIN, The First Arab Conquest in Fars, in Iran, 22, 1984.

HEYD, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, 2 vols, Leipzig, 1885-86, réimpression 1959, Amsterdam.

Hourani, G., Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Princetown, 1950-1951.

KUNG, W., FORMER TRADING CENTERS of the Persian Gulf, in Geographical Journal, 13/3 (Mars 1899).

LE STRANGE, G., The Lands of the Eastern Caliphate, Mesoptamia, Persia and Central Asia, from the moslem conquest to the time of Timor, Cambridge, 1905.

LORIMER, J.G., GAZETTER of the Persian Gulf, 2 vols: T.I, 1915, T.II, 1908, reprint 1970.

LYBYER, A.H., The Ottoman turks and the Routes of Oriental Trade, in ENGLISH HISTORY REVUE, 30 (Oct. 1915), pp.577-588.

MAJOR, R.H., INDIA in the fifteenth Century, HAKLUYT SOCIETY, 1858.

MARCO POLO, The Book of Sir Marco Polo, Yule, H., & Cordier, 3 ols, London, 1903-1920.

MILLER, J., INNES, The Spice Trade of the Roman Empire, Oxford, 1969.

MARE LUSO-INDICUM, tome I (1971), II (1973).

MA-HUAN, YING-YAI SHENG-LAN, The Overall Survey of the Ocean Shores, 1433, trans. and Ed. by Mills, J.V.G., Cambridge, 1970.

MOUTERDE, R. POIDEBARD, A., La Route Ancienne des Caravanes entre Palmyre et Hit, in syria, 12, 1931, p.101-115.

PHILLIPS, G., The Seaports of India Ceylon, in Journal of the China Branch of the Royal Asiatic Society, vol.XX (1885) pp.209-26; vol.XXI (1886), pp.30-42.

PIRES, TOME, The Suma Oreintal of TOME PIRES, an Account of the EAST 2 vols, London, 1944.

POTTS, DANIEL T., The Arabian Gulf in Antiquity:

Vol. I: From Pre-history to the fall of the Achaemenid Empire. XVII-419 p., XII pl., 44 fig., 8 tables.

Vol. II: From Alexander the Great to the coming of Islam. XII-369 p.,XII pl., 25 fig., 2 tables. Oxford, Clarandon Press, 1990.

QUTREMERE, ETIENNE-MARC, Histoire des Mongols de la Perse, ecrite en persan par Rahid-ed-dine, traduite en francais, accompagnée de notes et d'un mémoire sur la vie et les ouvrages de l'auteur, Paris, 1836.

RAVENSTEIN, E.G., The first Voyage of Vasco da Gama, translated and edited by Revenstein, E.G., HS, 99, 1898.

SCHLUMBERGER, Daniel, Palmyre et La Mesene, in Syria , 1961, 38, p.256-260.

SCHOFF, W.H., The Periplus of the Erythraen Sea, New York, 1912.

SERJEANT, R.B., The Portuguese off the South Arabian Coast, Oxford, 1963.

SIDI ALI, The Mohit, i.e. (THE OCEAN): a treatise on the navigation of the Indian Ocean, translated by J.H. HAMMER-PURGSTALL, in J.A.S.B., vols III & V.

STIFFE, A.W., The Island of HORMUZ (ORMUZ), in the Geographical Magazien I (1874), p.12-17.

TEIXEIRA, PEDRO, The Journal of Pedro TEIXEIRA from Indai to Italy by land, 1604-1605, with his Chronicle of the Kings of Ormuz, translated by SINCLAIR, W, F., with additional notes by FERGUSON, D.W., Londres 1901. Works issued by the Hakluyt Society, 2nd series no 9.

TEIXIDOR, janvier, Un port romain du desert: Palmyre, in Semitica, 34, 1984.

THREE VOYAGES OF VAXCO DA GAMA by **Lord Stanly of Alderley,** 1869 (issued by H.S.).

WARMINGTON, E.H., The Commerce between the Roman Empire and India, London, 1928.

WHITELOCK, Description's sketch of the ISLANDS and COAST situated at the Entrance of the Persian Gulf, by Lieutenant whiteloc, in Journal of the Royal Geographical

Society, 8 (1838), p.170-184.

WILL, ERNEST, Marchands et Chefs de Caravanes a Palmyre, in Syria, 34, p.262-277, 1957.

WILLEM, FLOOR, THE DUTCH EAST INDIA COMPANY'S Trade with SIND in the 17th and 18th centuried, in Moyen-Orient et Ocean Indien, XVIe-XIXe S., /3, 1986.

WIRTH, EUGEN., Les Grandes Echelles de la Mediterranee orientale et les routes du commerce monolial vers l'Asia, GENOVA, 1989, p.63-73.

ثالثاً ـ المصادر والمراجع الفارسية

رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير، موفق الدولة، جامع التواريخ، نشر كاترمير، باريس، ١٨٣٦.

الشبانكاري، محمد بن علي الشيخ محمد بن الحسن بن أبي بكر، مجمع الأنساب، مخطوط.

قزويني، حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر، نزهة القلوب، نشر لوسترانج، لايدن ١٩١٣.

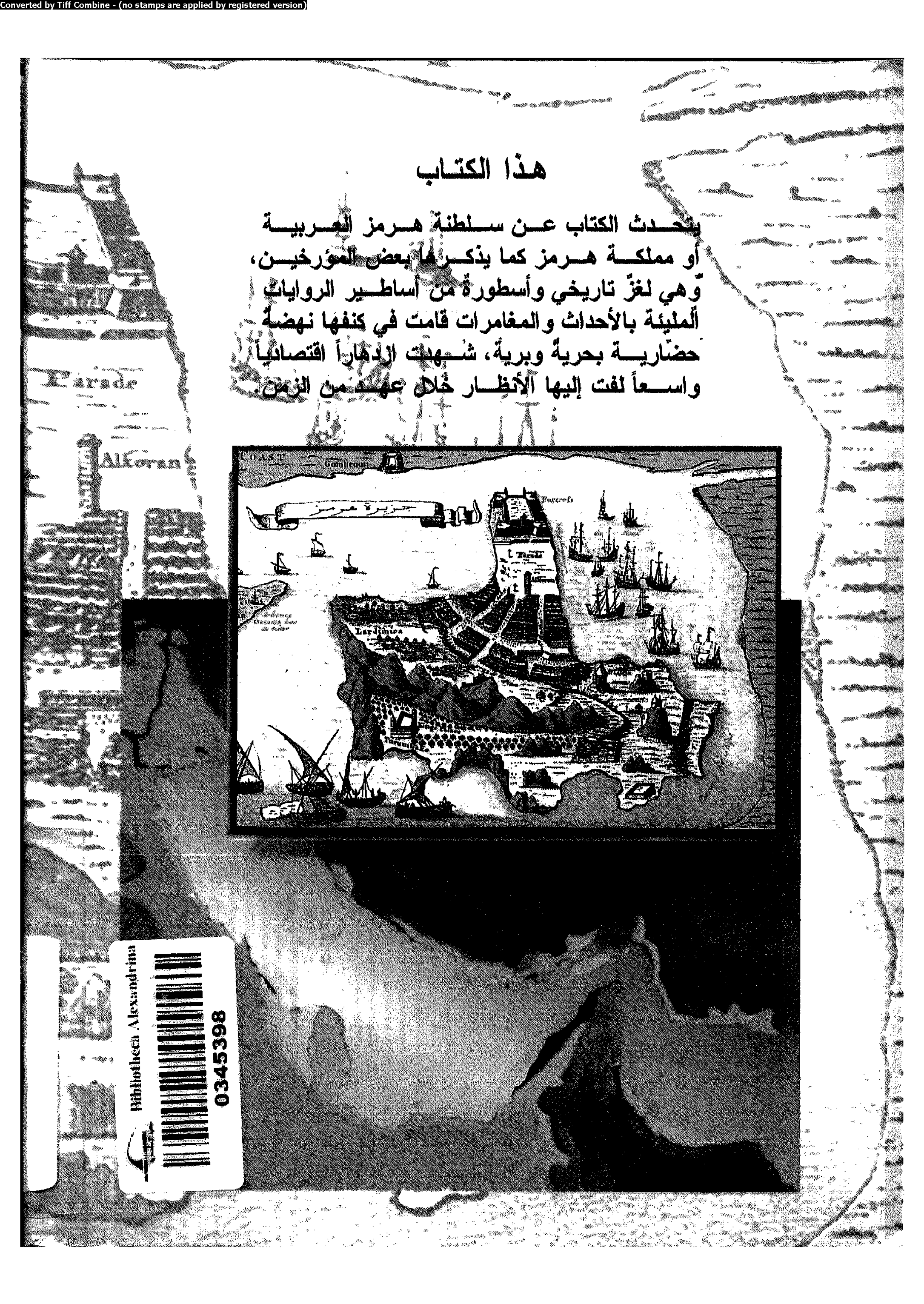
وصّاف الحضرة، أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي، تاريخ وصاف، بمباي ١٢٦٩ هـ.

فهرس الأشـكال

فهرس المـــواد







هذا الكتاب

يتحدث الكتاب عن سلطنة هرمز العربية أو مملكة هرمز كما يذكرها بعض المؤرخين، وهي لغز تاريخي وأسطورة من أساطير الروايات المليئة بالأحداث والمغامرات قامت في كنفها نهضة حضارية بحرية وبرية، شهدت ازدهاراً اقتصادياً واسعاً لفت إليها الأنظار خلال عهد من الزمن.